
غيوم ميسو
غداً
رواية
للنشر
سما

غيوم ميسو

غداً

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

العنوان الأصلي للرواية :

Demain

By: Guillaume Musso

الكتاب

غداً

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2015

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-786-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس : 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب : 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 750507 01 ـ 352826 01

فاكس : 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الحب يزحف حينما لا يستطيع أن يسير.

وليم شكسبير

القسم الأوّل

صدفة اللقاءات

اليوم الأوّل

1

وسط الأشباح

ليس المرء هو الذي يُرى في المرآة. إنّه
ذاك الذي يلمع في نظرة الآخرين.

تارون ج. تيجبال

جامعة هارفارد
كامبردج
19 ديسمبر 2011

كان مدرّج المحاضرات مكتظّاً بالطلبة، ولكن دون ضجيج. كانت العقارب البرونزية للساعة الجدارية القديمة تشير إلى الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة من بعد الظهيرة. كان درس الفلسفة الذي يلقيه ماتيو شابيرو يشارف على الانتهاء.

كانت إيريكا ستيوارت، البالغة اثنين وعشرين عاماً، والجالسة في الصفّ الأوّل، تحدّق في أستاذها بتركيزٍ وتمعّن. كانت تسعى منذ أكثر من ساعة إلى أن تلفت انتباهه إليها وهي تتلقّف كلماته وتهزّ رأسها لكلِّ ملاحظة من ملاحظاته ولكن دون أن يحالفها النجاح في ذلك. على الرغم من اللامبالاة التي قابل بها مبادرات الفتاة، كان الأستاذ يمارس عليها سحراً يتعاظم يوماً بعد آخر.

كان وجهه الصبياني وشعره القصير ولحيته الخفيفة تمنحه جاذبية

أخّاذة تبعث على الكثير من الانفعال وسط الطالبات. كان ماتيو بسرواله الجينز الباهت اللون وبوطه الجلدي القديم وبلوزته ذات الياقة الملفوفة أشبه بطالب دراسات عليا منه ببعض زملائه من ذوي المظهر الصارم والمتزمّت الذين يمكن لنا أن نصادفهم في الحرم الجامعي. ولكن علاوة على وجهه الجميل، كانت جاذبيته تتأتّى من بلاغته وفصاحته.

كان ماتيو شابيرو أحد الأساتذة الأكثر شعبية في الحرم الجامعي. خلال الأعوام الخمسة التي كان يدرّس فيها في جامعة كامبردج كانت دروسه تجذب كلّ سنة تلامذة جدداً. بفضل ذيوع صيته بين الطلبة، كان أكثر من ثمانمائة طالبٍ قد سجّلوا أسماءهم لهذا الفصل لمتابعة التعليم لديه وكانت محاضرته تشغل المدرّج الأكبر من مبنى سيفر هال.

لا فائدة من الفلسفة إذا كانت لا تزيل آلام الروح

كانت عبارة الفيلسوف الإغريقي أبيقور، المكتوبة بعناية على اللوح، تشكّل العمود الفقري في تعليم ماتيو.

كان يريد لمحاضراته في الفلسفة أن تكون سهلة الوصول إلى ذهن المتلقي وألا تكون محمّلة بمفاهيم ملتبسة وإشكالية. كانت كلّ حججه واستدلالاته على صلة بالواقع. كان شابيرو يبدأ كلّ مداخلة من مداخلاته انطلاقاً من الحياة اليومية للطلاب، من المشاكل الملموسة التي يواجهونها: الخوف من الرسوب في امتحان، انفصام علاقة غرامية، طغيان نظرة الآخرين، المعنى الذي ينبغي إعطاؤه لطلبته. وما أن تُطرَح هذه الإشكالية حتى يستحضر الأستاذ أفلاطون أو سينيك أو نيتشه أو شوبنهاور. وبفضل حيوية تقديمه،

كانت هذه الشخصيات العظيمة تعطي للطلاب الانطباع بأنّهم قد هجروا لبعض الوقت المقرّرات الدراسية الجامعية لكي يصبحوا أصدقاء مألوفين لدى الطلاب وقريبين منهم بحيث بات بمقدورهم أن يغدقوا عليهم بتقديم نصائح مفيدة ومسلية.

كذلك كان ماتيو يدمج في دروسه بذكاء وبشيءٍ من المرح والدعابة جانباً واسعاً من الثقافة الشعبية. الأفلام والأغاني والرسوم المتحركة: كان يجعل من كلّ شيء ذريعة وحجّة للتفلسف. حتى المسلسلات التلفزيونية وجدت مكانها في دروسه التعليمية. كان الدكتور هاوس يوضّح الاستنتاج التجريبي وكان الناجون في المسلسل التلفزيوني الأميركي **لوست** (الضياع)(*) يقدّمون فكرةً عن العقد الاجتماعي بينما كان رجال الدعاية والإعلان الذين يروّجون للهيمنة الذكورية في مسلسل **ماد من**(**) يفتحون باباً لدراسة تطوّر العلاقات بين الرجال والنساء.

إذا كانت هذه الفلسفة البراغماتية قد ساهمت في جعله (نجماً) في الجامعة، فهي أثارت أيضاً الكثير من الغيرة والمضايقة له من قبل زملائه الذين كانوا يجدون مضمون تعليمه سطحياً وغير عميق. لحسن الحظ، كان نجاح تلامذة ماتيو في الامتحانات والمسابقات

(*) مسلسل **لوست** (الضياع): هو مسلسل تلفزيوني أميركي يحكي قصة أناس نجوا من تحطم طائرة على جزيرة استوائية غامضة في مكان ما في جنوب المحيط الهادي (المترجم).

(**) مسلسل **ماد من**: مسلسل تلفزيوني أميركي من نوع الدراما، أخرجه ماتيو واينر ويرمز عنوان المسلسل إلى رجال الدعاية والإعلان في ماديسون في بدايات العقد السادس من القرن الماضي، والذين كانوا يلقَّبون بهذا اللقب (رجال ماديسون) (المترجم).

تلعب حتى الآن لصالحه، بل إنّ مجموعةً من الطلبة صوّرت محاضراته وعرضتها على اليوتيوب. فأثارت هذه المبادرة من قبل الطلبة فضول صحافيّ من صحيفة **بوسطن غلوب** والذي كتب مقالةً عنها. وبعد أن أعادت صحيفة **نيويورك تايمز** نشر المقالة طُلب من شابيرو كتابة ما يُشبه «كتاب نقيض» للفلسفة. وعلى الرغم من أنّ الكتاب قد شهد رواجاً كبيراً، إلا أنّ الأستاذ الشابّ لم يستسلم لنشوة هذه الشهرة الناشئة وظلّ باستمرار قريباً من تلامذته وحريصاً على نجاحهم. ولكنّ الحكاية الجميلة هذه شهدت خاتمةً مأساوية، إذ فقد ماتيو شابيرو، في الشتاء المنصرم، زوجته في حادث سيارة.

كان رحيل زوجته مفاجئاً وقاسياً جعله ذاهلاً وحائراً. وإذا كان قد ثابر على إلقاء دروسه إلا أنّ ذاك المعلّم الجذّاب والمحبوب قد فقدَ حماسته التي كانت سبب فرادته وتميّزه.

ركَّزت إيريكا عينيها لتحدّق على نحوٍ أفضل في تفاصيل شخصية أستاذها. منذ أن وقعت تلك الفاجعة انكسر شيءٌ ما في ماتيو. أصبحت ملامح وجهه أكثر قسوةً وفقدت نظرته بريقها؛ ومع ذلك، كان الحداد والحزن يضفيان على ماتيو هيئة مُشرقة تشوبها مسحة من الكآبة والتي جعلته أكثر جاذبيةً وافتتاناً في عيني المرأة الشابّة. سبَّلت الطالبة أجفانها واستسلمت للذّة الصوت الرزين والرصين الذي كان يتصاعد في المدرّج.

صوتٌ فقد شيئاً من مهابته ولكنّه ظلّ لطيفاً يشيع السكينة والهدوء. كانت أشعة الشمس تعبُر النوافذ الزجاجية فتشيع الدفء في القاعة الفسيحة وتنير الممرّات المركزية بين الصفوف. شعرت إيريكا بأنّها على ما يُرام وهي تستمتع بذلك الصوت الباعث على الأمان والطمأنينة. ولكن لحظة النعيم تلك لم تدُم طويلاً. وثبت في اللحظة

التي سمعت فيها رنين الجرس المعلن عن نهاية الدرس. لملمت لوازمها المدرسية دون استعجال ثمّ انتظرت أن تفرغ القاعة من الطلبة حتى تقترب بخجلٍ واستحياءٍ من شابيرو.

حينما لمحها ماتيو سألها باندهاش:

- ماذا تفعلين هنا يا إيريكا؟ لقد سبق لكِ وأنهيتِ هذه المادة الدراسية في السنة الماضية. لا يجوز أن تحضري درسي بعد الآن.

- لقد جئتُ بسبب جملة هيلين رولاند التي كنت تردّدها علينا غالباً.

عبس ماتيو في إشارة إلى أنّه لم يدرك ما تشير إليه.

- «الحماقات التي نندم عليها هي تلك التي لم نرتكبها حينما أُتيحت لنا فرصة ارتكابها».

ومن ثمّ استجمعت شجاعتها لتشرح موقفها.

- ولكي لا أندم، أريد أن أرتكب حماقة. يوم السبت القادم يُصادف عيد ميلادي وأنا أريد. أريد أن أدعوك بهذه المناسبة إلى تناول العشاء.

فتح ماتيو عينيه المستديرتين وحاول أن ينصح تلميذته بطريقة مباشرة:

- أنتِ فتاة ذكيّة يا إيريكا. وبالتالي أنتِ تعلمين جيّداً بأنّ هناك على الأقلّ مئتان وخمسون سبباً سأرفض من أجلها دعوتكِ.

- ولكنّك ترغب في ذلك، أليس كذلك؟

قاطعها ماتيو:

- لا تلحّي عليّ من فضلك.

شعرت إيريكا بالخجل يغزو وجهها. تلعثمت ببضع كلمات اعتذارٍ إضافية قبل أن تغادر القاعة.

ارتدى ماتيو معطفه وهو يتنهّد، وعقد لفحته وخرج بدوره إلى فناء الحرم الجامعي.

* * *

بفسحاتها الشاسعة والمغطّاة بالمرج الأخضر وبمبانيها الشامخة والمهيبة المبنية بالقرميد المائل للسمرةِ وشعاراتها ورموزها اللاتينية المعلّقة على الواجهات المزخرفة، كانت جامعة هارفارد تتمتّع بأناقة وديمومة الكليات البريطانية.

ما أن أصبح ماتيو خارج حرم الجامعة، لفّ لنفسه لفافة تبغٍ وأشعلها ثمّ غادر على عجلٍ مبنى سيفر هال. كانت حقيبته تتدلّى من كتفه، اجتاز باحة يارد الفسيحة والمغطّاة بالمرج والتي تنطلق منها متاهة من الأزقّة المتعرِّجة على مدى بضعة كيلومترات والتي تُفضي إلى قاعات محاضرات ومكاتب عامّة ومتاحف وعنابر.

كانت الحديقة تغطّ في ضوءٍ خريفيٍّ جميل. منذ عشرة أيام، كانت درجات الحرارة اللطيفة في هذا الفصل وكذلك الشمس الساطعة تمنحان لسكان منطقة نيو إنجلاند (إنكلترا الجديدة) في شمال شرق الولايات المتحدة الأميركية صيفاً هندياً لطيفاً بقدر ما هو متأخّر.

- سيّد شابيرو! تلقّف هذه!

أدار ماتيو رأسه نحو مصدر الصوت الذي كان يناديه. جاءت كرة قدم أميركية باتجاهه. تلقّفها بإحكامٍ وإتقان وأعاد رميها بضربة كوارتر باك نحو الحشد الذي كان قد استنجد به.

كان الطلبة، وهم يفتحون حواسيبهم المحمولة على ركبهم، يشغلون كلّ مقاعد حديقة يارد. على المرج الأخضر، كانت الضحكات تجلجل والمناقشات تسلك مجرى حسناً.

في هذا المكان أكثر من أيّ مكانٍ آخر، كانت الجنسيات تتمازج بانسجامٍ ويُعدُّ التنوّع الثقافي غنىً وثراءً. كان اللونان النبيذي والرمادي اللذان يرمزان إلى الجامعة الشهيرة ينطبعان على السترات والقمصان والحقائب الرياضية: في هارفارد، كان الإحساس بالانتماء إلى مجتمعٍ يتحدّر من كلّ الانتماءات المختلفة. سحب ماتيو نفثةً من سيجارته وهو يمرّ أمام ماساتشوستس هال، النصب المبني على الطراز المعماري الجورجي والذي يضمّ علاوة على مكاتب الإدارة عنابر طلبة السنة الدراسية الأولى.

كانت الآنسة مور، مساعدة رئيس الجامعة، تقف منتصبة على السلالم فرمته بنظرةٍ غاضبة وألحقتها بنداءٍ بلهجةٍ آمرة («السيّد شابيرو، كم مرّة عليّ أن أكرّر عليك بأنّه ممنوع التدخين في الحرم الجامعي!..») ومن ثمّ ألقت عليه موعظةً حول أضرار التبغ وأخطاره.

تجاهلها ماتيو بنظرة ثابتة وملامح لامبالية. للحظة قصيرة، كان على وشك أن يخبرها بأنّ الموت في الحقيقة هو أصغر اهتماماته، ولكنّه عدل عن ذلك وغادر سور الجامعة عبر البوابة العملاقة التي تؤدّي إلى ساحة هارفارد سكوير وسط كامبردج.

* * *

كانت ساحة هارفارد سكوير التي تئزّ كخلية نحل في الحقيقة عبارة عن ساحة كبيرة تحيط بها متاجر ومكاتب ومطاعم صغيرة ومقاهي ذات أرصفة يعيد الطلبة والأساتذة من خلالها صياغة العالم أو يتابعون دروسهم. دسّ ماتيو يده في جيب سترته لكي يُخرج منه بطاقة المترو خاصّته. كان على وشك أن يصل إلى الممرّ الخاصّ بالمشاة لكي يصل إلى المحطة تي - الخط الأحمر الذي يصل إلى

وسط بوسطن في أقلّ من ربع ساعة - حينما وصلت سيارة من طراز شيفروليه كامارو قديمة، وهي تطلق العنان لصفارتها، إلى زاوية جادة ماساتشوستس وشارع بيبودي ستريت. قفز الأستاذ الشابّ وتراجع إلى الوراء لئلا يُسحَق تحت سيارة حمراء فاقعة اللون توقّفت عنده وسط صرير عجلاتها.

نزل البلور الأمامي للسيارة لكي يظهر له شعر آبريل فيرغسون الأصهب، زميلته في الغرفة منذ وفاة زوجته.

- مرحباً، أيّها الأسمر الوسيم، هل أوصلك إلى البيت؟

كان هدير محرّك السيارة ذي الثمانية صبابات يشكّل نشازاً في تلك البقعة البيئية التي لم تكن ترتادها سوى الدراجات الهوائية والمركبات الهجينة.

ردّ وهو خائر القوى:

- أفضّل أن أعود بوسائط النقل العامّة. أنتِ تقودين السيارة كما لو أنّكِ تلعبين ألعاب الفيديو!

- هيّا، لا تُظهر خوفك. أنا أقود السيارة بشكلٍ ممتاز وأنت تعرف ذلك!

- لا تلحّي عليّ. لقد سبق أن فقدَت ابنتي أمّها. وأنا أريد أن أجنّبها أن تجد نفسها يتيمة الوالدين وهي في سنّ الرابعة والنصف.

- أوه، الأمر على ما يرام! لا تبالغ في مخاوفك! هيّا، أيّها الرعديد، أسرع! لقد عطّلتُ حركة المرور هنا!

تحت وطأة أصوات زمامير السيارات، تنهّد ماتيو وهمّ على مضض بالاندساس في سيارة الشيفروليه.

ما أن ربط حزام الأمان، حتى ضربت سيارة الكامارو كلّ

قواعد الأمان عرض الحائط واستدارت نصف استدارة خطيرة لكي تنطلق كالإعصار نحو الشمال.

احتجّ ماتيو وهو يتشبّث بباب السيارة:

- الطريق إلى بوسطن يقع في الجانب الآخر!

- سأقوم فقط بدورةٍ صغيرة عبر بيلمونت. يستغرق ذلك عشر دقائق فقط. لا تقلق بشأن إيميلي. لقد طلبتُ من مربّيتها أن تبقى معها لساعةٍ إضافية.

- حتى دون أن تكلّميني عن ذلك؟ أنا أحذرك، أنا.

ضاعفت المرأة الشابة من سرعة السيارة وأقلعت بسرعة جنونية مباغتة بحيث قاطعت حديث ماتيو. حينما بلغت السرعة القصوى، استدارت نحوه ومدّت إليه علبة كرتونية عليها رسومات.

قالت:

- تخيّل بأنني قد أكون أحد زبائن رشمة أتامارو.

كانت آبريل تدير صالة معارض فنية في ساوث إند: عبارة عن صالة عرض خاصّة بالفن الإيروتيكي. كانت تمتلك موهبة حقيقية في العثور على قطع غير معروفة وإعادة تسويقها مطلقة أسعاراً مرتفعة جداً.

أزاح ماتيو الأغلفة البلاستيكية ليكتشف قميصاً من النسيج الخالص كان يحمي الرشمة اليابانية. كانت عبارة عن رشمة شونغا[1] تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر تمثّل مومساً وأحد زبائنها وهما ينهمكان في فعلٍ جنسيٍّ شهوانيٍّ بقدر ما هو بهلوانيّ. كانت فجاجة المشهد قد خُفِّفَت بأناقة الخطّ وثراء نقوش الأقمشة. كان وجه

---

(1) شونغا: محفورة يابانية إيروتيكية.

الغانية اليابانية ذا رقّة ولطافةٍ ساحرتين. ليس غريباً أنّ هذا النوع من النقوش قد أثّرت لاحقاً في كليمت كما في بيكاسو.

- هل أنتِ متأكّدة من أنّكِ تريدين أن تتخلّي عنها؟

ردّت وهي تقلّد صوت مارلون براندو في فيلم العرّاب:

- لقد تلقيّتُ عرضاً لا يمكن رفضه.

- من قِبل من؟

- من قِبل تاجرٍ آسيويّ كبير يهوى جمع الرواشم وقد مرّ على بوسطن في زيارةٍ لابنته. يبدو أنّه على استعدادٍ لكي يبرم صفقةً ولكنّه لن يمكث في المدينة سوى نهارٍ واحد. إنّ فرصةً كهذه قد لا تأتي مرّة أخرى.

كانت سيارة الشيفروليه قد غادرت الحيّ الجامعي. سلكت الطريق السريع الذي يسير بمحاذاة بحيرة فريش بوند - البحيرة الأكبر في كامبردج - على مدى كيلومترات عديدة قبل الوصول إلى بيلمونت، وهي مدينة سكنية صغيرة تقع إلى الغرب من مدينة بوسطن. أدخلت آبريل عنواناً إلى خدمة تحديد المواقع (GPS) واستسلمت للانقياد إلى حيّ راقٍ وفاخر: كانت مدرسة محاطة بالأشجار تجاور باحةً للألعاب وحديقةً وملاعب رياضية. حتى إنه كان يوجد فيه بائع متجوّل للمثلجات في غاية الاستقامة كما لو أنّه يتحدّر من أعوام الخمسينيات من القرن العشرين. وعلى الرغم من المنع الرسمي، تجاوزت سيارة الكامارو حافلة مدرسية وركنت في شارعٍ هادئٍ تصطفّ بيوتٌ على جانبيه.

سألته وهي تستردّ منه العلبة الكرتونية:

- هل ستأتي معي؟

هزّ ماتيو رأسه بالنفي:

- أفضّل أن أنتظركِ هنا في السيارة.

وعدته وهي تصفّف شعرها أمام المرآة العاكسة للسيارة وقد تركت خصلةً منه تتدلّى لتغطّي عينها اليمنى على طريقة فيرونيكا لاك:

- سوف أنهي بأسرع ما يمكن.

ثمّ أخرجت من حقيبتها قلم أحمر الشفاه وتبرّجت على عجلٍ قبل أن تكمل هيئتها كامرأة شؤم وهي ترتّب سترتها الجلدية الحمراء والتي كانت تلتصق مثل جلدٍ بقميصها الرياضي المقوّر.

استفزّها قائلاً:

- ألا تخشين من المبالغة في فعل ذلك؟

ردّت بغنج وهي تقلّد جملة وصوت جيسيكا رابيت:

- «أنا لستُ سيئة، أنا فقط مرسومة بهذه الطريقة».

ثم نتفت شعر ساقيها الطويلتين المقولبتين في سروالٍ ضيّقٍ ملتصقٍ بجسدها وخرجت من السيارة.

نظر إليها ماتيو وهي تبتعد وتدقّ على باب المنزل الأكبر في الشارع. على سلّم الشبق، لم تكن آبريل بعيدة عن الدرجة الأعلى - قياسات ممتازة، قامة ممشوقة، صدرٌ رائع -، ولكنّها بهذا التجسيد للهلوسات الذكورية كانت تحبّ النساء حصراً وتعلن جهاراً نهاراً اختلافها. وكان هذا أحد الأسباب الإضافية التي جعلت ماتيو يوافق على اتّخاذها شريكة له في استئجار السكن، لأنّه كان يعلم بأنّه سوف لن يحدث بينهما أيّ سوء تفاهم. ثمّ إنّ آبريل كانت فكِهة وذكيّة وكيّسة. كان لها بالتأكيد مزاجٌ سيئ، كان أسلوبها مزخرفاً وكانت قابلة لنوبات غضبٍ مجلجلة، ولكنّها كانت تجيد كشخص أن تمنح بسمتها لابنته وبالنسبة إلى ماتيو كان هذا الأمر لا يُقدّر بثمن.

بعد أن بقي وحيداً، ألقى ماتيو نظرةً على الجانب الآخر من الشارع. كانت أمٌّ وطفلاها الصغيرين يرتّبون في حديقة منزلهم زينة العيد. أدرك أنّ عيد الميلاد سيأتي في أقلّ من أسبوع وأغرقه هذا الأمر في مزيجٍ من الحزن والهلع. رأى بهلعٍ أنّ شبح الذكرى السنوية الأولى لموت كيت يلوح في الأفق: يوم 24 ديسمبر المشؤوم من عام 2010 الذي هزّ حياته وأغرقها في الألم والكآبة. خلال الأشهر الثلاثة الأولى التي أعقبت الحادث، لم يبارحه الألم للحظة واحدة، كان ينهشه في كلّ ثانية: ظلّ جرحاً مفتوحاً أشبه بعضّة مصّاصِ دماءٍ قادرٍ على امتصاص كلّ نسغ الحياة منه. ولكي يضع حدّاً لمحنته القاسية، جرّب لمراتٍ عديدة حلاً جذرياً: أن يرمي نفسه من النافذة ويشنق نفسه بطرف حبلٍ، أن يبتلع جرعة كبيرة من العقاقير، أن يُطلق رصاصة على رأسه. ولكن في كلّ مرّة كان احتمال الألم الذي سيلحقه بابنته إيميلي يردعه عن الإقدام على فعلٍ كهذا. بكلّ بساطة لم يكن له الحقّ في أن يختطف من ابنته والدها ويفسد حياتها. بمرور الأيام، حلّ الحزن والكآبة محل الغضب والانفعال اللذين استبدا به في الأسابيع الأولى التي تلت وفاة زوجته. توقّفت به الحياة وتجمّدت عند الضجر والضيق لأمدٍ طويل. لم يكن ماتيو في حربٍ، وإنّما ببساطة كان منهكاً ومسحوقاً تحت وطأة الحداد ومنغلقاً في الحياة. لم يكن بوسعه أن يتقبّل خسارة زوجته ولم يعد المستقبل موجوداً بالنسبة له.

بناءً على نصيحةٍ من آبريل، بذل جهوداً لكي ينضمّ إلى مجموعة دعمٍ. حضر جلسةً وحاول أن ينسى ألمه ويتقاسمه مع الآخرين ولكنّه لم ينجح قط في ذلك. تجنّب الشفقة الزائفة وجرّب كلّ الصِّيغ أو دروس الحياة، عزل نفسه وتاه في حياته مثل شبحٍ مستسلماً

للانحراف طيلة أشهرٍ عديدة منهكاً دون أن تكون له مشاريع أو خطط.

إلّا أنّه، منذ بضعة أسابيع، دون أن يستطيع القول بأنّه قد «عاد إلى الحياة» بدا له بأنّ الألم يخفّ تدريجياً. ظلّ الاستيقاظ صعباً ولكن ما أن أصبح في جامعة هارفارد، أخذ يتأقلم ويُلقي محاضراته ويشارك في الاجتماعات التوجيهية مع زملائه. لا شكّ أنّه كان يمارس كلّ ذلك بحماسةٍ أقلّ ممّا كان يفعله سابقاً ولكنّه بدأ يعود تدريجياً. لم يكن ذلك كافياً لكي يتعافى كليّاً من آثار تلك الصدمة وإنّما أصبح يتقبّل تدريجياً حالته، مستعيناً ببعض المفاهيم التي يجدها في تعليمه. ما بين القَدرية الرواقية والتأمّلية البوذية، أخذ ينظر إلى الحياة كما هي عليه في الواقع: إنّها شيءٌ عابرٌ للغاية وغير مستقر، إنّها سيرورة قيد التحوّل الدائم. ليس هناك أيّ شيء دائم، لا سيما السعادة. فالسعادة الهشّة كالزجاج، لا ينبغي اعتبارها شيئاً مكتسباً لأنّها قد لا تستمر سوى للحظة.

بدأ يستعيد نكهة الحياة من خلال أمور لا قيمة لها: نزهة تحت الشمس برفقة إيميلي، مباراة كرة قدم مع طلبته، نكتة متقنة من آبريل. كانت إشارات مشجّعة تحثّه على أخذ مسافة من الألم وعلى بناء حاجزٍ لكي يواصل حزنه.

ولكن هذا السكون كان هشّاً. كان الألم يتربّص به مستعدّاً للانقضاض عليه وخنقه. كان أيّ أمرٍ تافه كافياً لكي يُداهمه فجأةً ويوقِظ فيه الذكريات القاسية والأليمة: امرأة يصادفها في الشارع تضع عطر كيت نفسه أو ترتدي المعطف الواقي من المطر نفسه، أغنية يسمعها في الراديو وتذكّره بالأيام السعيدة، صورة يعثر عليها بين دفّتي كتاب.

كانت الأيام الأخيرة هذه عصيبة، وشهدت انتكاسةً. كان اقتراب موعد ذكرى وفاة كيت وعمليات التزيين والهيجان المتعلّقة بتحضيرات عيد نهاية السنة، كان كلّ ذلك يعود به إلى زوجته.

منذ أسبوع، كان يستيقظ كلّ ليلة متوثّباً، يدقّ قلبه، ينضح بالعرق، تستبدّ به الذكرى نفسها: الفيلم الكابوسي للحظات الأخيرة من حياة زوجته. كان ماتيو قد وصل إلى المكان حينما نُقِلَت إلى المستشفى حيث لم يتمكّن زملاؤها - كانت طبيبة - من إنقاذ حياتها. لقد رأى الموت يختطف منه بقسوة المرأة التي أحبّها. لم يحقّ لهما سوى أربعة أعوام من السعادة الخالصة. أربع سنوات من التفاهم العميق، وهو الزمن الذي بالكاد يكفي لنصب أعمدة حكاية سوف لن يعيشانها. إنّ لقاءً كهذا لا يحدث سوى مرّة واحدة، كان متأكّداً من ذلك. وكانت هذه الفكرة بالنسبة إليه لا تُطاق.

اغرورقت عينا ماتيو بالدمع، فتبيّن له بأنّه على وشك أن يسحق خاتم الزواج الذي كان يحتفظ به في بنصره.

في هذه اللحظة، كان ينضح عرقاً وكان قلبه يدقّ بقوّة في قفصه الصدري. أنزل زجاج سيارة الكامارو، أخرج قرصاً مضاداً للقلق من جيب بنطلونه الجينز ووضعه تحت لسانه. ذاب قرص الدواء بهدوء وأراحه وأزال عنه الاضطراب والتوتّر بمضي بضع دقائق. أغمض عينيه ومسّد أجفانه وتنفّس بعمق. لكي يهدأ تماماً، كان بحاجة إلى أن يدخّن. خرج من السيارة وأقفل بابها وسار لبضع خطوات على الرصيف قبل أن يُشعِل سيجارةً ويسحب منها نفثةً طويلة.

غطّت النكهة الحادّة للنيكوتين حنجرته. استعاد قلبه دقاته الطبيعية وأحسّ بأنّه قد غدا أفضل حالاً أبقى عينيه مغمضتين وشرع وجهه للهواء الخريفي واستمتع بنكهة سيجارته. كان الجوّ لطيفاً.

وكانت خيوط الشمس تنسلّ عبر أغصان الأشجار. كان الهواء على عذوبةٍ تكاد تكون مشبوهةً. ظلّ ساكناً في مكانه لبضع ثوانٍ قبل أن يفتح أجفانه. في طرف الشارع، كانت جمهرةٌ من الناس قد تجمّعت أمام أحد البيوت. بدافعٍ من الفضول، اقترب من البيت الريفي، النموذجي لمنطقة نيو إنجلاند: منزلٌ فسيح مزخرف بألواحٍ خشبية، ومزيّن بسقف كاتدرائي فيه نوافذ عديدة. أمام البيت، على المرج، كان قد جرى تنظيم نوعٍ من سوق خردة التصفية. كانت طريقة «خردة التصفية»(*) تميّز هذه البلاد التي ينقل فيها السكان سكنهم لأكثر من خمس عشرة مرّة خلال حياتهم.

اختلط ماتيو بالأعداد الغفيرة للفضوليين الذين كانوا يسعون إلى الحصول على البضائع الرخيصة على مساحة مائة متر مربّع من الأرض المعشبة. كان على رأس عملية البيع رجلٌ في عمره، أصلع الرأس ويضع نظّارة مربّعة، له وجه متجهّم ونظرة تائهة. كان يرتدي ثياباً سوداء من قمّة رأسه وحتى أخمص قدميه، وكانت له صلابة وصرامة أحد أعضاء جمعية الأصدقاء الدينية (كويكر) وإلى جانبه كلبٌ صيني من جنس شار-بيه كان يُعمل أسنانه في عظمة مصنوعة من مادة اللاتيكس.

عند موعد انصراف الطلبة من المدارس، جذب الطقس الدافئ الكثير من الناس الباحثين عن البضائع المناسبة. كانت الأكشاك معبّأة بالأشياء المتنوّعة والمتعددة الألوان: مجاذيف خشبية، حقيبة غولف، مضرب وقفازات البيسبول، وقيثارة قديمة من طراز جيبسون. كانت هناك دراجة هوائية من طراز BMX مسندة إلى جدار، كانت عبارة عن هدية ميلاد معروفة في بداية أعوام

(*) عملية بيع أثاث ومحتويات المنزل بداعي تغيير المسكن (المترجم).

الثمانينيات من القرن العشرين، ومن ثمّ كانت هناك على مسافةٍ أبعد، أحذية ذات عجلات ولوح للتزلّج.

خلال بضع دقائق، نبش ماتيو بين البسطات فعثر على مجموعة ألعاب ذكّرته بطفولته: لعبة يويو مصنوعة من الخشب الكاشف، مكعب روبيك، مجسمات أفراس النهر النهمة، لعبة العقل المدبّر، لعبة الفريسبي، الدبدوب العملاق، المخلوق الوافد من خارج الأرض، مجسّم حرب النجوم. كانت الأسعار منخفضة؛ كان من الواضح أنّ البائع يريد التخلّص بأسرع ما يمكن من أكثر ما يمكن من الأغراض.

كان ماتيو على وشك أن يغادر سور سوق تصفية البضائع حينما وقع نظره على حاسوب. كان حاسوباً من الطراز المحمول: حاسوب من طراز ماك بوك برو، وشاشته من قياس 15 بوصة. لم تكن النسخة الأخيرة من هذا الطراز، وإنّما من النسخة السابقة عليه أو الأقدم من السابقة أيضاً. اقترب ماتيو وتفحّص الجهاز من كلّ الزوايا. كان قد تم تشخيص الهيكل الألمنيومي للجهاز بلصاقةٍ من الفينيل أُلصِقَت بظهر الشاشة. كانت اللصاقة تظهر شخصية أشبه بإحدى شخصيات المخرج السينمائي تيم بورتون: كانت حوّاء أنيقة ومثيرة تبدو وكأنّها تمسك بين يديها الرمز الذي على شكل تفاحة الماركة الشهيرة للحواسيب. في أسفل الشعار كان يمكن قراءة اسم «إيما. ل.» دون أن نعلم إن كان الاسم يعود إلى الفنانة التي رسمت الصورة أم إلى المالكة السابقة للحاسوب.

لِمَ لا؟ تساءل ماتيو وهو ينظر إلى اللصاقة. كان حاسوبه القديم من طراز باور بوك قد أسلم الروح في نهاية فصل الصيف. كان لديه حاسوب شخصي في البيت ولكنّه كان بحاجة إلى حاسوبٍ محمول

شخصيّ جديد. والحال أنّه كان يعمل بلا انقطاع لتوفير هذا المبلغ لاحقاً. كان الجهاز معروضاً للبيع لقاء 400 دولار. وقد اعتبره مبلغاً معقولاً كانت مصادفة حسنة: في هذه الأيام، لم تكن أحواله المادية ممتازة. في جامعة هارفارد، كان راتبه كأستاذ في الجامعة مريحاً، ولكن بعد موت زوجته، أراد بأي ثمن أن يحافظ على منزلهما في حي بيكون هيل، مع أنّه لم يعد يمتلك فعلاً الأموال المطلوبة لذلك. وقد حلّ هذه المشكلة من خلال اتّخاذه لشريكةٍ في السكن ولكن على الرغم من الإيجار الذي كانت تدفعه آبريل له، كانت أقساط القرض تبتلع ثلاثة أرباع دخله وتترك له هامشاً قليلاً للمناورة، بل اضطرّ لأن يبيع دراجته النارية التي كان قد اقتناها كدراجة من طراز قديم: كانت من طراز تريونف تعود إلى عام 1957 والتي كانت مبعث افتخاره فيما مضى.

اقترب من القائم على البيع وأشار إلى الحاسوب.

– هذا الحاسوب يعمل، أليس كذلك؟

– كلا، إنّه مجرّد قطعة للزينة. بالطبع يعمل، وإلا لما كنتُ لأبيعه بهذا السعر! إنّه الحاسوب القديم لشقيقتي، ولكنني قمتُ بنفسي بتهيئة القرص الصلب وأعدتُ تنزيل نظام التشغيل. إنّه عاد كما لو أنّه جديد.

بعد بضع ثوانٍ من التردّد قرّر ماتيو:

– حسناً، لقد اشتريته.

بحث في محفظة نقوده. لم يكن بحوزته سوى 310 دولارات. ضايقه الأمر وحاول من جديد أن يساوم على ثمنه ولكنّ الرجل رفض ذلك رفضاً قاطعاً. اضطرب ماتيو وهزّ كتفيه. كان سيعود أدراجه حينما تعرّف على صوت آبريل اللعوب من خلفه.

قالت وهي تشير إلى البائع لكي يتمهّل:

- دعني أقدّمه لك هدية!

- هذا ليس وارداً!

- لكي نحتفل ببيع روشمي.

- هل حصلتِ على السعر الذي كنتِ ترغبين به؟

- نعم، ولكن ليس دون عناء. كان الرجل يعتقد بأنّ له الحقّ، مقابل هذا الثمن، في إحدى الوضعيات الواردة في نص كاماسوترا!

- «كلّ شقاء الرجال يأتي من كونهم لا يجيدون البقاء في راحة واسترخاء في غرفةٍ».

- من أقوال وودي آلن؟

- كلا، من أقوال بليز باسكال.

مدّ له البائع الحاسوب الذي كان قد رتّبه في علبته الأصلية. شكره ماتيو بإشارةٍ من رأسه، بينما دفعت آبريل المبلغ المتّفق عليه. ثم أسرعا إلى السيارة.

أصرّ ماتيو على أن يقود بنفسه السيارة. بينما وصلا إلى بوسطن، وعلقا وسط الازدحام المروري، لم يكن يراوده الشكّ بأنّ عملية الشراء التي قام بها للتوّ سوف تغيّر حياته إلى الأبد.

2

الآنسة لوفنشتاين

الكلاب لا تعضني أبداً. وحدهم الرجال
فعلوا ذلك.

مارلين مونرو

حانة مطعم إمبراتور
روكفيلر سنتر، نيويورك
الساعة السادسة وخمس وأربعون دقيقة مساءً

كانت حانة إمبراتور، الواقعة في قمّة روكفيلر سنتر، تطلّ على المدينة وتقدّم إطلالة بانورامية على مانهاتن. كان ديكورها حصيلة تمازجٍ متقنٍ من التقليد والتصميم المعاصر. أثناء أعمال تجديد المبنى، جرى الحرص على الحفاظ على المشغولات الخشبية، والطاولات ذات الديكور الفني والأرائك الجلدية العريضة. أضفى هذا الترتيب على المكان جوّاً «حميمياً» لنادٍ إنكليزيّ قديم يقترن بفضاءٍ أكثر عصرنةً، على غرار المشرب الطويل الذي كان يمرّ عبر الصالة والمصنوع من الزجاج الخشن المُضاء.

كانت إيما لوفنشتاين، بقامتها الرشيقة ومشيتها الخفيفة، تنتقل من طاولة إلى أخرى وهي تقدّم أنواعاً من النبيذ وتدعو الزبائن إلى تذوّقها وتشرح بطريقة منهجية أصول وتاريخ المشروبات المقدّمة في

الحانة. كانت ساقية النبيذ الشابّة موهوبة في الكشف عن حماستها. خفّة يديها ورشاقتهما، دقّة حركاتها، وضوح ابتسامتها: كان كلّ شيء في مظهرها يعكس شغفها ورغبتها في تقاسم هذا الشغف.

جلبت فرقة من النُّدُل الطبق قبل الأخير.

بينما كانت همهمات الاستحسان والإعجاب تتصاعد كلّما كان المدعوون يكتشفون طبقهم، قالت إيما:

- شطيرة مقادم مغطّاة بطبقة من جبنة البارميزان المحمّصة.

قدَّمت لكلّ شخص زجاجةً من النبيذ الأحمر وهي تحرص على إخفاء اللصاقة ثمّ وخلال بضع دقائق، تجيب عن أسئلة المدعوين، وهي ترطن بالبيانات التوضيحية لكي تجعلهم يكتشفون قيمة وأهمية النبيذ.

أباحت أخيراً:

- إنّه أحد أنواع نبيذ مورغون، من طراز كوت دي باي، من مصنع النبيذ بوجوليه. إنّه نبيذ ذو قارورة طويلة العنق، شره، متوتر، عصبيّ، ناعم، بنكهات الفراولة والكرز الحامض، والذي يتناسب على نحوٍ مذهل مع الطبيعة الشنيعة للمقادم.

كانت هي من امتلكت فكرة سهرات تذوّق النبيذ الأسبوعية هذه والتي لاقت رواجاً ونجاحاً متزايداً بفضل الأحاديث المتداولة عنها بين روّاد الحانة. كانت الفكرة بسيطة: اقترحت إيما سهرة تذوّق لأربعة أنواع من النبيذ مصحوبة بأربعة مأكولات يتخيّلها شيف المطعم الذوّاق جوناثان لامبيرور. في مدّة تستغرق ساعة واحدة، كان كلّ لقاء يُنظَّم حول فكرة خاصّة، حول كَرْمٍ أو مكانٍ وكانت تلك ذريعةً لسهرة لهوٍ ومرحٍ مصحوبة بالنبيذ.

مرّت إيما إلى خلف طاولة الشراب وأشارت إلى النُّدُل بأن يقدّموا الطبق الأخير. استغلت تلك اللحظة من الاستراحة لكي تلقي نظرة خفيّة على هاتفها الخليوي والذي كان يعلن عن وصول رسالة هاتفية. حينما عرفت صاحب تلك الرسالة، استبدّت بها لحظة من الهلع.

«أنا أمضي إجازتي في نيويورك هذا الأسبوع، ما رأيكِ أن نتناول العشاء معاً هذا المساء؟

أنا مشتاقٌ إليكِ».

فرانسوا

- إيما؟

انتزعها صوت مساعدها من تأمّلها في شاشة هاتفها المحمول. عادت إلى عملها في الحال وأعلنت في الصالة:

- لكي نختم سهرة التذوّق هذه، سوف نقدّم لكم طبقاً من الأناناس ببتلات المانوليا، مصحوباً بالبوظة بطعم المارشملو المطعّم بالكراميل والمعدّ على نار الحطب.

فتحت زجاجتين جديدتين من النبيذ وصبّت منهما لزبائنها. بعد لعبة التخمين، قالت في النهاية:

- نبيذٌ إيطالي من بيمونت، من طراز موسكاتو داستي. كَرْمٌ نهم، ذو أريجٍ ولطيف، فيه لمعةٌ وحلاوة خفيفتين. نبيذٌ له أنفٌ وردي وفقاعاتٌ ناعمة تأتي لمساندة طراوة الأناناس بأناقةٍ.

انتهت السهرة بأسئلة طرحها الجمهور. كان جزءٌ من الأسئلة يتعلّق بمسيرة إيما المهنية والتي أجابت عنها بطيبة خاطر، دون أن تترك مجالاً لأن يظهر عليها الاضطراب الذي كان يعتريها.

كانت قد وِلِدَت في عائلة متواضعة في فيرجينيا الغربية. في صيف عامها الرابع عشر، اصطحب والدها، الذي كان يعمل سائقاً في شركة نقل، أسرته في زيارةٍ إلى كروم كاليفورنيا. بالنسبة إلى الفتاة المراهقة، كان ذلك الاكتشاف سعادة حقيقية أثارت فيها اهتماماً وشغفاً بالنبيذ مثلما كان بمثابة موهبة مكتَشَفة.

انضمت إلى ثانوية شارلستون الفندقية التي كانت تقدّم ثقافةً وتعليماً راسخاً في علم صناعة الخمور. ما أن حصلت على شهادتها، غادرت دون أسف بلدتها البائسة. توجّهت إلى نيويورك! في البداية، كانت نادلة في محلّ متواضع، ومن ثمّ عملت كشيفٍ مصنّف في مطعمٍ على نمط ويست فيليج. فكانت تعمل بحدود ثلاث عشرة ساعة في اليوم، تقدّم الطلبات وتنصح الزبائن بأصناف النبيذ وتهتمّ بشؤون حانة المشروبات. ذات يوم، صادفت زبوناً غريب الأطوار. شخصٌ تعرّفت مباشرةً على وجهه: مثلها الأعلى، جوناثان لامبيرور. الشخص الذي كان النقّاد المختصون بفنّ الطبخ يلقّبونه بلقب «موزارت فنّ الذواقة». كان الشيف يدير مطعماً ساحراً في مانهاتن: مطعم إمبراتور الشهير، الذي يعتبر البعض مائدته على أنّها «أفضل مائدة في العالم». كان مطعم إمبراتور فعلاً قدس الأقداس، وهو يستقبل كلّ سنة الآلاف من الزبائن الوافدين من أركان الأرض الأربعة، وكان الزبون يضطرّ غالباً لأن ينتظر عاماً كاملاً ليحظى بفرصة الحجز فيه. في ذلك اليوم، كان لامبيرور يتناول الغداء مع زوجته بعيداً عن أنظار الناس.

في تلك الفترة، كان لا يزال يمتلك مطاعم في كلّ أنحاء العالم. كان رجلاً شاباً بحيثُ لا يمكن التصديق بأنْ يكون على رأس إمبراطورية بهذا الحجم الكبير. امتلكت إيما الجرأة وتجرّأت

على الاقتراب من «المثل الأعلى». أصغى إليها جوناثان باهتمام وبسرعة فائقة تحوّل الغداء إلى حديث عمل. لم يكن النجاح قد أصاب لامبيرور بالغرور. كان صارماً ولكنّه في الوقت نفسه متواضعاً، يترصّد دائماً المواهب الجديدة. في لحظة تسديد الحساب، قدّم لها بطاقته قائلاً:

- سوف تبدئين بالعمل اعتباراً من يوم غد.

في اليوم التالي، وقّعت عقداً للعمل بصفة مساعدة شيف سقاة النبيذ في مطعم إمبراتور. خلال ثلاثة أعوام، تفاهمت على نحوٍ رائعٍ مع جوناثان. كان مطعم لامبيرور على قدرة إبداعية فائقة وكان السعي إلى التوافق بين الوجبات والنبيذ يشغل الاهتمام الرئيس في مطبخه. من الناحية المهنية، كانت قد حقّقت حلمها. في السنة التي سبقت، وبعد الانفصال عن زوجته، استقال الشيف الفرنسي وتنّحى عن المهنة. واصل المطعم نشاطه، حتى وإن لم يعُد لامبيرور واقفاً خلف أفران الطهو، ظلّت روحه ترفرف في المكان وظلّت الأطباق التي ابتكرها موجودة في قائمة الأطعمة المقدّمة.

قالت لكي تضع حدّاً للجلسة:

- أشكركم على حضوركم وأتمنى أن تكونوا قد أمضيتم سهرة ممتعة.

حيّت الزبائن وأجرت عرضاً سريعاً لمجريات العمل اليومي مع مساعدها ومن ثمّ استجمعت أغراضها لكي تعود إلى بيتها.

* * *

استقلّت إيما المصعد وخلال بضع ثوانٍ أصبحت في أسفل مبنى روكفيلر سنتر. كان الليل قد حلّ منذ وقتٍ طويلٍ. خرج بخارٌ من فمها. لم تحبط الريح الباردة التي كانت تكسح فناء المبنى من عزيمة

العديد من الفضوليين السذج الذين كانوا يتجمّعون عند الحواجز من التقاط الصور لشجرة الميلاد الكبيرة التي كانت تطلّ على ميدان التزلّج. كانت شجرة التنوّب بطولها الذي يرتفع لحوالي ثلاثين متراً ترزح تحت الشرائط الكهربائية المزخرفة وزينة الميلاد الخاصّة.

كان المشهد مؤثّراً ولكنّه أكرب إيما. كان ذلك أمراً مكرّراً، فثقل الشعور بالوحدة كان فعلاً أكثر وطأةً خلال أعياد نهاية السنة. اقتربت من حافة الرصيف، عدلت قبّعتها ولفّت وشاحها وهي تتقصّى الأضواء على أسطح سيارات الأجرة، على أمل أن تجد سيارة شاغرة دون أن تكون متفائلة بذلك. لسوء الحظّ، كان وقت الذروة وكانت كلّ سيارات الأجرة الصفراء اللون التي تمرّ من أمامها محمّلة بالركّاب. بعد أن استسلمت لليأس من الحصول على سيارة شاغرة، شقّت صفوف الجموع وسارت مسرعة الخطى حتى وصلت إلى زاوية جادة ليكسينغتون وشارع 53. اندفعت في محطة المترو وسلكت الخط E، باتجاه داون تاون. كانت العربة، كما كان الأمر متوقعاً، مزدحمة وسافرت واقفة على قدميها مضغوطةً من قبل الركاب الآخرين.

على الرغم من الهزّات والصدمات، استلّت هاتفها الخليوي من جيبها وأعادت قراءة الرسالة القصيرة مع أنّها كانت قد حفظتها عن ظهر قلب.

«أنا أمضي إجازتي في نيويورك هذا الأسبوع، ما رأيكِ أن نتناول العشاء معاً هذا المساء؟

أنا مشتاقٌ إليكِ».

فرانسوا

اذهب إلى الجحيم، عليك اللعنة أيّها المغفّل القذر، لستُ تحت تصرّفك!

انفجرت غضباً وهي لا تبارح بعينيها شاشة الهاتف المحمول.

كان فرانسوا وارث مزرعة كروم كبيرة من سكان بوردو وكانت قد التقت به قبل عامين خلال رحلة استكشافٍ للكروم الفرنسية. لم يخفِ عنها بأنّه متزوّج وأبٌ لطفلين، ولكنّها مع ذلك استجابت لمبادراته نحوها. مدّدت إيما رحلتها في فرنسا وأمضيا معاً أسبوع الحلم وهما يعبران طرقات النبيذ في المنطقة: «طريق ميدوك» الشهير على درب مصانع النبيذ المصنّفة والقصور، «طريق كوتو» بكنائسه الرومانية ومواقعه الأثرية، حصون وأديرة ما بين البحرين، وقرية سانت - إيميليون القروسطية. وبعد ذلك، عادا إلى نيويورك، تحت رحمة أسفار فرانسوا المهنية، بل وقضيا أسبوعاً آخر من العطلة في جزر هاواي. وهكذا أمضيا عامين من علاقة عرضية، عاطفية ومدمّرة.

عامان من الانتظار المخيّب للآمال. كلّما كانا يلتقيان، كان فرانسوا يعدُها بأنّه على وشك أن ينفصل عن زوجته. بالطبع، لم تكن تصدّقه في الواقع ولكنّها كانت متعلّقة به للغاية وبالتالي.

وذات يوم، وبينما كان يفترضُ بهما أن يسافرا في عطلة نهاية الأسبوع، أرسل إليها فرانسوا رسالةً يُخبرها فيها بأنّه لا يزال يحبّ زوجته وبأنّه يرغب في أن يضع حدّاً للعلاقة بينهما. كانت إيما قد أحبّت مراراً عديدة في حياتها ضمن حدود - شراهة، فقدان الشهية، تشطيبات على جسمها - والإعلان عن هذا الانفصال فتحَ هوّةً في داخلها. اكتسحها شعورٌ عميق بالفراغ. انحفرت خطوط انكسارها عميقاً وغزت مكامن ضعفها وهشاشتها كلّ كيانها. فجأةً، لم يعد

للوجود ما يقدّمه لها وبدت لها الحياة كما لو أنّها ليست سوى ألم. ولإخماد هذا الوجع، لم تجد حلّاً سوى التمدّد في مقصورتها وطعن نفسها. طعنت نفسها بطعنتين عميقتين بآلة حادّة في كلّ ذراعٍ من ذراعيها. لم يكن تصرّفها هذا نداء استغاثة ولا مشهداً سينمائياً. كانت تلك الأزمة التي حاولت خلالها أن تنتحر قاسية للغاية، نابعة من خيبة الأمل العاطفية تلك، ولكن مصدر العذاب كان أعمق من ذلك بكثير. أرادت إيما أن تضع نهاية لحياتها، وكانت ستنجح في ذلك لولا أنّ شقيقها الأبله اختار تلك اللحظة لكي يصل إلى شقّتها، لكي يعاتبها على عدم دفع قسط ذلك الشهر لدار التقاعد التي يقيم فيها والدهما.

حينما تذكّرت تلك الحادثة، شعرت إيما أنّ قشعريرة جليدية سرت في عمودها الفقري. وصلت عربات المترو إلى محطّة الشارع 42، حيث محطّة الحافلات. هناك، فرغت العربة من الركّاب واستطاعت أخيراً أن تجد مقعداً شاغراً لتجلس فيه. كانت تهمّ بالجلوس حينما ارتجّ هاتفها المحمول. كان فرانسوا يلحّ عليها بالطلب:

«أتوسّل إليكِ، يا عزيزتي، ردّي على رسالتي. فلنمنح لأنفسنا فرصةً جديدة. أرسلي إليّ إشارةً. من فضلكِ.
أنا مشتاقٌ إليكِ كثيراً.
حبيبكِ فرانسوا»

أغمضت إيما عينيها وتنفسّت ببطء. كان حبيبها السابق مناوراً أنانياً وغير ثابتٍ في موقفه. كان يجيد استخدام غوايته لكي يكوّن لنفسه شخصية بطلٍ ذي قلبٍ كبير ويفرض تأثيره وسطوته عليها. كان

قادراً على أنْ يجعلها تفقد كلّ سيطرة على نفسها وكان يجيد ببراعة أن يستغلّ نقاط ضعفها وافتقارها للثقة بنفسها. كان يندفع في صدوعها وينكأ ندوب جراحها. وكان يجيد على نحوٍ خاصّ فن قلب الوقائع لكي يقدّم الأمور في صالحه، مع احتمال تحويلها إلى مولعة بالكذب.

وتجنّباً لمحاولتها الردّ على رسالته، أطفأت هاتفها المحمول. كانت قد بذلت الكثير من الجهود لكي تتحرّر من سطوته عليها. رفضت أن تقع من جديد في فخّه فقط لأنّها كانت تشعر بالوحدة مع اقتراب أعياد الميلاد.

فعدوّها الأسوأ لم يكن فرانسوا وإنّما كان عدوّها الأسوأ هي نفسها. لم يكن بوسعها أن تصمّم على العيش من دون عشق. خلف جانبها الناعم والمضحك، كانت تدرك نزقها وعدم استقرارها العاطفي والتي حينما كانت تستبدّ بها كانت تُغرقها بالتناوب في أطوارٍ من الانهيار العصبي الحادّ والنشوة الخارجة عن السيطرة. كانت ترتاب في هلعها من الهجران الذي قد يُطيح بها في أيّ لحظة وإغراقها في التدمير الذاتي. كانت حياتها العاطفية محفوفة بالعلاقات الأليمة.

في الحب، كانت قد أعطت الكثير لأشخاصٍ لا يستحقون ذلك العطاء. رجالٌ قذرون مثل فرانسوا. ولكن كان هناك في داخلها شيءٌ لم تكن تدركه، لم تكن تتحكّم به. قوّة غامضة، نوعٌ من الإدمان كان يدفعها إلى بين أيدي رجالٍ ليسوا أحراراً. كانت تبحث بلا رويّة عن نوعٍ من الاتحاد وهي تعلم جيّداً بأنّ هذه العلاقات في العمق سوف لن توفّر لها لا الأمان ولا الاستقرار اللذين كانت تطمح إليهما بقوّة. ولكنّها كانت تصرّ وبتقزّز، وتجعل من نفسها شريكة في عدم وفائهم

وتساهم في تدمير أُسَر حتى وإن كان ذلك على النقيض من قيمها وطموحاتها. لحسن الحظّ، كان العلاج النفسي الذي كانت تتلقاه منذ بضعة أشهر قد ساعدها في التحكّم بنفسها والحذر والتروّي في انفعالاتها ومشاعرها. وباتت بعد ذلك تُدرك بأنّه عليها أن تفكّر في حماية نفسها والابتعاد عن الأشخاص المشؤومين.

وصلت إلى نهاية خط المترو: محطة حي ورد تراد سنتر (مركز التجارة العالمي). هذا الحيّ الذي يقع في جنوب المدينة كان قد دُمِّر تماماً من جراء الهجمات. اليوم، لا تزال الأعمال جارية في هذا الحيّ ولكن كانت أبراجٌ عديدة من الزجاج والفولاذ لا تزال تهيمن على خطّ الأفق في مدينة نيويورك. قالت إيما في نفسها وهي تصعد السلالم لكي تصل إلى شارع غرينيتش ستريت: هذا رمزٌ لقدرة مانهاتن على الخروج أكثر قوّة من كلّ المحن.

إنّه مثالٌ يستحقّ التأمّل...

سارت بخطى مسرعة إلى أن وصلت إلى تقاطع شارع هاريسون ستريت ومشت في فناء مجموعةٍ من المساكن مكوّنة من مباني عالية مبنية بقراميد كستنائية اللون جرى تشييدها في بداية أعوام السبعينيات من القرن العشرين، حينما لم يكن حي تريبيكا سوى منطقة صناعية تغطيها مستودعات. أدرجت الرقم السرّي للدخول ودفعت بكلتا يديها باباً ثقيلاً مصنوعاً من الفونط.

خلال زمنٍ طويل، ضمّ مبنى 50 نورث بلازا المئات من الشقق المعروضة للإيجار بأجور معتدلة في أبراجه الثلاثة ذات أربع طوابق. اليوم، هبّت أسعار التأجير في الحيّ وكانت أعمال صيانة وتجديد سوف تُجرى على العمارة. بانتظار إجراء عملية التجديد، كانت للبهو هيئة حزينة وخَرِبة: الجدران متهدّمة، الإنارة شاحبة، والنظافة

مثيرة للشكّ. أخذت إيما البريد من علبة رسائلها واستقلّت أحد المصاعد لكي تصعد إلى الطابق قبل الأخير حيث تقع شقّتها.

- كلوفيس!

بالكاد عبرت عتبة الباب حتى نطّ كلبها أمامها محتفلاً بها.

داعبت الفروة الغزيرة لكلبها من طراز شار-بيه التي كانت تتماوج في تجاعيد جافّة وقاسية، وقالت بلهجة شاكية:

- دعني على الأقلّ أُغلِق الباب!

رمت حقيبة يدها ولعبت لبضع دقائق مع كلبها. كانت تحبّ بنيته المتماسكة والقويّة وخطمه السميك وعينيه الصافيتين الغائرتين في رأسه المثلّث الشكلِ وهيئته المقطّبة بلطف.

- أنت، على الأقلّ، ستبقى على الدوام مخلصاً ووفيّاً لي!

وكأنّها لتشكره على هذا الوفاء، قدّمت له قطعة كبيرة من كُبيبة لحم مفروم.

كانت الشقّة صغيرة - بالكاد تبلغ مساحتها 40 متراً مربعاً - ولكنّ كان لها سحرٌ خاصّ: الأرضية الكاشفة مصنوعة من الخشب الطبيعي الخشن والجدران من القرميد الزُخْرفي فيها كوّة كبيرة مزجّجة. يتمحور المطبخ المفتوح حول طاولة مائدة مصنوعة من حجرٍ رمليٍّ أسود اللون وثلاثة مقاعد من دون مساند مصنوعة من المعدن الصقيل. أمّا بالنسبة إلى «الصالون»، فكانت تغزوه كتب مصفوفة على رفوف. قصص خيالية أميركية وأوروبية، دراسات حول السينما، أعمال حول النبيذ والذواقة. كانت للمسكن عيوب كثيرة: كانت أنابيب وصنابير المياه قديمة، هدر في المياه الجارية، الفئران تعيث فساداً في مغسَل الثياب، مصاعد معطّلة باستمرار، تكييف متوقّف غالباً، جدران رقيقة جداً بحيث تهتزّ خلال العواصف ولا

تستر أسرار الحياة الحميمية للجيران. ولكنّ الإطلالة كانت فاتنة وطليقة، تطلّ على النهر وتقدّم مناظر خلّابة تحبس الأنفاس من منطقة مانهاتن السفلى. كنّا نرى على التوالي سلسلة المباني المضاءة وأرصفة هودسون والقوارب المنزلقة على صفحة النهر.

خلعت إيما المعطف والوشاح وعلّقت فستانها على مشجَبٍ وارتدت بنطال جينز قديم وبلوزة فضفاضة جدّاً لليانكيين قبل أن تدخل إلى الحمام وتزيل مكياجها

عكست لها المرآة صورةَ امرأة شابّة في الثالثة والثلاثين من عمرها ذات شعرٍ بنّي متموّج بعض الشيء، وعينين خضراوين فاتحتين وأنف ذَلقٍ يغزوه بعض النمش. في (أفضل) أيامها، يمكننا أن نجد فيها شبهاً غامضاً مع كيت بيكينسل أو إيفانجيلين ليلي، ولكن هذا اليوم ليس أفضل يوم. بذلت قُصارى جهدها لكي لا يجتاحها الحزن، وجّهت نحو المرآة تكشيرة ساخرة. نزعت عدساتها اللاصقة التي كانت توخِز عينيها، ضبطت نظّارتها الخاصّة بقصر النظر على أنفها وذهبت إلى المطبخ لتعدّ لنفسها بعض الشاي.

برررررر، الجوّ بارد جدّاً هنا!

ارتعشت وهي تتدثّر بغطاء وتزيد من استطاعة جهاز التدفئة. وبما أنّ الماء تأخّر لكي يغلي، جلست على أحد كراسي البار وفتحت حاسوبها المحمول الموضوع على طاولة المائدة.

كانت تتضوّر جوعاً. اتصلت بموقع مطعمٍ ياباني كان يوصل الطلبات إلى المنازل وطلبت طبقاً من حساء ميزو وكذلك طبقاً منوّعاً من السوشي والماكي والساشيمي.

تلقّت رسالة إلكترونية تؤكّد تسجيل طلبها وتحدّد موعد إيصاله

إلى بيتها، ثمّ استغلّت ذلك لكي تستعرض رسائلها الأخرى، وهي تخشى من أن تكون قد تلقّت رسالة من حبيبها السابق.

لحسن الحظّ، لم تكن هناك رسالة من فرانسوا. ولكن كان هناك بريد آخر، غامض وملغز، مكتوب من قبل شخص يُدعى ماتيو شابيرو.

رجلٌ لم يسبق لها أن سمعت أحداً يتحدّث عنه.

والذي سيقلِب حياتها.

3

الرسالة الهاتفية

حينما يكون الألم هو أفضل ما نعرفه،
يكون التخلّي عنه محنة.

ميشيلا مارزانو

بوسطن
حي بيكون هيل
الساعة الثامنة مساءً

سألت إيميلي وهي تزرّر منامتها:

- بابا، ألن تعود ماما؟

أكّد ماتيو وهو يحتضن ابنته:

- كلا، سوف لن تعود أبداً.

قالت الطفلة بلهجة شاكية وبصوتٍ متهدّج:

- هذا ليس عدلاً

أجاب فجأةً وبفظاظة وهو يرفعها إلى سريرها:

- كلا، هذا ليس عدلاً الحياة هكذا تكون أحياناً.

كانت الحجرة الصغيرة المسقوفة دافئة وحنونة وخالية من النبرات المتكلّفة أو رسومات الباستيل التي غالباً ما نجدها في غرف الأطفال. حينما رمّم ماتيو وكيت المنزل، حاولا أن يُعيدا إلى كلّ

غرفة طابعها الأصلي. ولتحقيق ذلك، هدما جداراً فاصلاً، نظّفا وصقلا الأرضية الخشبية القديمة ليعيدا إليها لمعانها القديم وصبغا الأثاث من الطراز القديم: سرير من الخشب الخشن، خزانة ألبسة مصبوغة بالإسبيداج، أريكة ملبّسة بالقنّب، حصانٌ هزّاز، علبة ألعاب مصنوعة من الجلد والنحاس.

داعب ماتيو خدّ إيميلي وهو يُلقي عليها نظرة كان يأمل أن تثير فيها الطمأنينة والهدوء.

- هل تريدين أن أقرأ لكِ حكاية، يا عزيزتي؟

مسبلة العينين، هزّت رأسها بحزن.

- كلا، لا بأس.

قطّب وجهه. كان يشعر منذ بضعة أسابيع بأنّ ابنته قلقة جداً، كما لو أنّه قد نقل إليها قلقه هو وجعلته هذه الملاحظة يشعر بالذنب. كان يجهد أمامها لأن يخفي عذابه وقلقه ولكنه لم ينجح في ذلك: لدى الأطفال حاسّة سادسة لاكتشاف هذا النوع من الأمور. حاول ماتيو عبثاً أن يستمع إلى الصوت العقل، كان قَلَقٌ ينهش في كلّ كيانه: الخوف غير العقلاني من أن يفقد ابنته بعد أن فقد زوجته. بات من الآن فصاعداً مقتنعاً بأنّ الخطر يحدق به في كلّ مكان وقاده هذا الخوف من أن يُبالغ في حماية إيميلي من مخاطر خنقها وجعلها تفقد ثقتها بنفسها.

الحقيقة هي أنّه كان أباً عاجزاً عن السيطرة على الموقف. في الأسابيع الأولى بعد وفاة زوجته، تخلخل من جراء شبه اللامبالاة التي أظهرتها إيميلي. في تلك الفترة، بدت الطفلة غير متأثّرة بالألم، كما لو أنّها لم تدرك حقّاً أن أمّها قد ماتت. في المستشفى، شرحت الطبيبة النفسانية التي كانت تتابع حالة الفتاة الصغيرة مع ذلك لماتيو

بأنّ هذا التصرّف ليس غير طبيعي. لحماية أنفسهم، بعض الأطفال يبتعدون طواعية عن حادثٍ صادم، متوقّعين لا شعورياً الإحساس بأنّه أكثر قسوة من أنّ قدرتهم على مواجهته.

الأسئلة حول الموت جاءت في مرحلة متأخّرة. واجه ماتيو ذلك من خلال الاستعانة بنصائح الطبيبة النفسانية وبالألبومات المصوّرة ومن خلال الاستعارات. ولكنّ استفسارات إيميلي أصبحت الآن أكثر ملموسية وتغرق والدها في الحرج وتحاصره. كيف كانت طفلة في الرابعة والنصف من عمرها تصوّر لنفسها الموت؟ لم يكن يعلم أيّ مفردة يستخدم، لم يكن متأكّداً من كلمات هي في عمرٍ يسمح لها بفهمها. نصحته الطبيبة النفسانية بألا يقلق، شارحةً له بأنّ إيميلي حينما تكبر سوف تعي على نحوٍ أكثر الطابع النهائي لاختفاء أمّها. حسب رأي الطبيبة، كانت تلك الأسئلة صحيّة وطبيعية. كانت تسمح لها بالخروج عن الصمت وتجنّب المحظورات وفي النهاية التحرّر من الخوف.

ولكن كان من الواضح أنّ إيميلي كانت بعيدة عن بلوغ تلك المرحلة من التحرّر من هذه الأزمة. على العكس من ذلك، كلّ مساء، في وقت الذهاب إلى النوم، كانت تكرّر القلاقل نفسها والأسئلة نفسها ذات الإجابات الأليمة.

– هيّا إلى النوم!

غارقةً في التأمّل، اندسّت الفتاة الصغيرة تحت الغطاء. وبدأت بأسئلتها:

– جدّتي تقول إنّ أمّي في السماء.

قاطعها ماتيو زاجراً والدته:

– أمّكِ ليست في السماء، جدّتكِ تتفوّه بترّهات.

لم تكن لدى كيت عائلة. كانت قد ابتعدت باكراً جدّاً عن والديها اللذين كانا أنانيّين يمضيان تقاعدهما بهدوء في ميامي دون أن يباليا بحزنها. لم يحبّا قط كيت فعلياً وأخذا عليها بأنّها قد قامت بعملها قبل عائلتها. وهي مبالغة بالنسبة إلى والدين لم يفكّرا قط سوى بنفسيهما! في الشهر الأوّل الذي تلا رحيل كيت، جاءا فوراً إلى بوسطن ليساندا ماتيو ويعتنيا بالطفلة إيميلي، ولكنّ هذه العناية لم تستمر. ومنذ ذلك الوقت، اكتفيا بالاتصال هاتفياً مرّة واحدة في الأسبوع لكي يتابعا أخبارها ولكي يرويا هكذا حماقات لحفيدتهما.

وكان هذا يُفقده صوابه! لم يكن من الوارد أن يوافق على نفاق الدين. لم يكن يؤمن بالله، ولم يؤمن به قط، وليس موت زوجته هو ما سيغيّر الأمور بالنسبة إليه! بالنسبة إليه، كون المرء «فيلسوفاً» يستدعي شكلاً من أشكال الإلحاد، وكانت هذه رؤية يتقاسمها مع كيت. الموت يعني نهاية كلّ شيء. ليس هناك أيّ شيء آخر، ليس هناك آخرة، هناك الفراغ فقط، العدم الكلّي والمطلق. بالنسبة إليه، لم يكن من المعقول، حتى ولو كان ذلك من أجل طمأنة ابنته، أن يرميها في وهم هو لا يؤمن به.

ألحّت الطفلة عليه بالسؤال:

- إن لم تكن في السماء، أين هي إذاً؟

استسلم لإلحاحها قائلاً:

- جسدها في المقبرة، وأنتِ تعلمين ذلك جيّداً. ولكنّ حبّها لا يموت. فهو يبقى على الدوام في قلوبنا وفي ذاكرتنا. يمكننا الاستمرار في الاحتفاظ بذكراها من خلال الحديث عنها دائماً، ومن خلال استذكار اللحظات السعيدة التي قضيناها معاً، ومن خلال النظر إلى صورها والذهاب إلى قبرها والاجتماع عنده.

هزّت إيميلي رأسها، من دون أن تقتنع بكلامِ والدها.

- أنتَ أيضاً ستموت، أليس كذلك؟

وافق الأب قائلاً:

- كما سيموت الجميع ولكن.

قالت مرعوبةً:

- ولكن إذا متَّ، مَن سيعتني بي؟

ضمّها إليه بقوّة

- سوف لن أموت غداً، يا عزيزتي! سوف لن أموت قبل مائة عام. أعدكِ بذلك!

«أعدكِ بذلك»، كرّر هذه العبارة على الرغم من أنّه كان يعلم بأنّ هذا الوعد ليس إلّا كلاماً في الهواء.

استمرّت المجاملة والدلال لبضع دقائق إضافية. ومن ثمّ غطّى ماتيو إيميلي وأطفأ الأضواء باستثناء المصباح القديم المعلّق فوق السرير. قبل أن يوارب باب غرفتها، قبّل ابنته للمرّة الأخيرة وهو يعدها بأنّ آبريل ستمرّ عليها وتتمنّى لها ليلة سعيدة.

* * *

نزل ماتيو السلالم التي تُفضي إلى الصالون. كان الطابق الأرضي من البيت ينغمر بضوءٍ شاحبٍ خفيف. كان يعيش منذ ثلاثة أعوام في هذا البيت المبني من القرميد الأحمر في زاوية شارع مونت فيرنون ستريت وشارع ويلو ستريت. كان منزلاً جميلاً له بابٌ واسع أبيض اللون ذو مصراعين من الخشب الغامق اللون والذي كان يطلّ على ساحة لويسبورغ.

انحنى على النافذة وراقب حبال الشرائط الكهربائية التي كانت تومض على أسيجة الحديقة.

كانت كيت، طيلة حياتها، تحلم بأن تقيم في القلب التاريخي لمدينة بوسطن. أرضٌ محصورة، ببيوتها ذات الطراز المعماري الفيكتوري، وأرصفتها المبلّطة وأزقّتها المُضاءة التي تمتدّ على طرفيها الأشجار والمصابيح القديمة المعلّقة التي تعمل على الغاز. مكانٌ ساحر يُعطي الانطباع بأنّ الزمن قد توقّف وثبّت المساكن في سحرٍ أنيقٍ وقديم. بيئة حياة لم تكن في متناول القدرات المادية لطبيبٍ متدرّب في مستشفى جامعي ولأستاذٍ جامعي بالكاد سدّد أقساطه الطلابية! ولكن كان ماتيو يحتاج إلى المزيد لكي يثبط عزيمة كيت. خلال عدّة أشهر، جالت على تجّار الحي، معلّقة اللوحات الإعلانية في كلّ مكان. وبينما كانت سيّدة عجوز تتهيّأ لكي تنتقل إلى دارٍ للتقاعد، صادفت إعلانها. كانت تلك الثرية من مدينة بوسطن تكره الوسطاء العقاريين وتُفضّل أن تبيع «بشكلٍ مباشر ومن دون وسيط» البيت الذي أمضت كلّ حياتها فيه. لا بدّ أنّها أُعجِبَت بشخصية كيت، فقد وافقت بأعجوبة على إعادة النظر في ثمن بيتها وتخفيضه، مطابقةً من جهة أخرى عرضها مع كلامٍ قطعي لا جدال فيه.

احتاجا إلى أربع وعشرين ساعة لكي يتّخذا القرار. على الرغم من التخفيض الكبير للثمن، ظلّ المبلغ منطقياً. كان ذلك التزاماً بحياة ولكنّه كان محمّلاً بحبّهما وثقتهما بالمستقبل، وقد خطا ماتيو وكيت الخطوة وأصبحا مديونين لثلاثين عاماً وأمضيا كلّ عطل نهاية الأسبوع في أعمال الجبس والدهان. على الرغم من أنّهما في حياتهما لم يقوما في منزلهما أبداً بأعمال يدوية، أصبحا «اختصاصيين» في صيانة التمديدات الصحية وترميم الأرضية وتركيب الشرائط الكهربائية المتشابكة.

كان ماتيو وكيت قد طوّرا علاقة شبه شهوانية مع المسكن القديم. كان منزلهما مأواهما الحميمي، المكان الذي توقّعا أن يربّيا فيه أطفالهما، المكان الذي تصوّرا بأنّهما سوف يشيخان فيه. مثلما يُغنّي بوب ديلان (مأوى من العاصفة) A shelter from the storm.

ولكن في الوقت الراهن وبعد أن ماتت كيت، ما معنى كلّ هذا؟ كان المكان مثقلاً بذكريات لا تزال حيّة. كان الأثاث والديكور وحتى بعض الروائح التي لا تزال تفوح في الجوّ (شموع معطّرة، أطعمة متبّلة، أعواد البخور) متعلّقة بشخصية كيت. كان كلّ هذا يُعطي لماتيو الشعور بأنّ زوجته لا تزال تسكن المنزل. على الرغم من هذا، لم يشعر لا بالرغبة ولا بالمروءة في أن ينقل سكنه. في هذه المرحلة من عدم الاستقرار، كانت تشكّل أحد آخر معالمه. ولكن جزءاً واحداً فقط من البيت كان راسخاً في الذكرى. الطابق الأخير من البيت مبهجٌ اليوم بحضور آبريل التي تستأجر غرفة جميلة وحمّاماً وحجرة ثياب كبيرة ومكتباً صغيراً. في الطابق السفلي، كانت توجد غرفة ماتيو الخاصّة وغرفة إيميلي وغرفة الطفل الذي كان ماتيو وكيت ينويان إنجابه في أقرب وقت. أمّا بالنسبة إلى الطابق الأرضي، كان قد تمّ ترتيبه كمكان لطاولة السفرة مع صالون فسيح ومطبخٍ مفتوح.

خرج ماتيو من خموده ورمش مرّات عديدة بعينيه لكي يطرد تلك الأفكار المؤلمة. انتقل إلى المطبخ، المكان الذي أحبّا كثيراً أن يتناولا فيه فطورهما وأن يلتقيا فيه مساءً لكي يتحدّثا لبعضهما عن نهارهما وهما يجلسان جنباً إلى جانب خلف طاولة المشروبات. أخرج من الثلاجة طرداً من البيرة الشقراء. فتح زجاجةً منها وتناول قرصاً جديداً من مضاد القلق والذي ابتلعه مع جرعة من المشروب

الكحولي الذي كان مزيجاً من بيرة كورونا ونبيذ ميدوك. لم يجد دواءً أفضل من هذا الكوكتيل لكي يسترخي ويخمد ويجد السبيل سريعاً إلى النوم.

نهرته آبريل وهي تنزل السلّم:

- هيه، أيّها الصبيّ الجميل، احذر هذا النوع من المزيج، قد يكون هذا خطِراً!

كانت قد بدّلت لباسها لكي تخرج من البيت، وكما هي عادتها، كانت باذخة. كانت، وقد انتعلت حذاءً بكعبين عاليين، تتبختر بتمايلٍ طبيعي بطقمٍ غير مألوف من الثياب ولكنّه أنيق ومثير للشهوة: قميصٌ ذو شريط حاشية نبيذيّ اللون، وسروالٌ قصير من الجلد المبرنَق، وكولون كتيم وسترة صوفية غامقة اللون ذات كمّين مزيّنين بمسامير. وكانت قد عقدت شعرها في جديلةٍ ملتفّة في مؤخّر رأسها، ووضعت طبقة تأسيس من مسحوق التجميل صدفية اللون والذي جعل أحمر شفاهها يبدو بلون الدم.

- ألا ترغب في أن ترافقني؟ سأذهب إلى حانة غون شوت، الحانة الجديدة قرب أرصفة الساحة العامّة. إنّها تقدّم طبقاً من رأس الخروف المقلي رائعاً حقّاً، أمّا كوكتيل موخيتو الذي يقدّمونه فحدّث ولا حرج. في هذا الوقت، تخرج أجمل فتيات المدينة إلى هناك.

- وإيميلي، هل أتركها لوحدها في غرفتها؟

أزالت آبريل الاعتراض:

- يمكننا أن نطلب من ابنة الجيران أن تبقى معها. إنّها لا تمانع أبداً من أن تلعب دور مربية أطفال.

هزّ ماتيو رأسه رافضاً الاقتراح:

- لا رغبة لديّ في أن تستيقظ بنيّتي ذات الأربع سنوات

والنصف بعد كابوسٍ لتكتشف بأنّ والدها قد تركها لكي يذهب لشرب كوكتيل موخيتو في حانةٍ وضيعة!

تضايقت آبريل وعدّلت سوّار قميصها الطويل المطرّز بزخارف أرجوانية وقالت بعصبية:

- غون شوت ليست حانة وضيعة! ثمّ إنني جادّة، يا مات، سيكون من الأفضل لك أن تخرج من البيت وترى الناس وأن تحاول من جديد أن تنال إعجاب النساء وأن تمارس الحبّ.

- ولكن كيف تريدين أن أعشق من جديد؟ زوجتي.

قاطعته:

- أنا لا أحدّثك عن المشاعر. أنا أحدّثك عن التواصل الجسدي، عن الحبور واللذّة، عن متعة الحواس. يمكنني أن أقدّم لك صاحبات. فتيات منفتحات لا يسعين سوى إلى التسلية لبعض الوقت.

نظر إليها كما لو أنّها غريبة عنه.

قالت وهي تزرّر سترتها الصوفية:

- حسناً، لن ألحّ عليك. ولكنك ألمْ تسأل نفسك ماذا سيكون رأي كيت؟

- لم أفهم ما تقصدين.

- لو أنّها تراك من هناك في ملكوت السماء، ماذا سيكون رأيها في تصرّفك؟

- ليس هناك ملكوت السماء، أنتِ أيضاً سوف لن تخلدين إلى هناك!

دحضت حجّته.

- لا بأس. سوف أخبرك برأيها أنا بنفسي: كانت ستحبّ أن

تراك تتقدّم، كانت ستحبّ أن تنقذ نفسك، أن تمنح لنفسك على الأقلّ فرصة استعادة نكهة الحياة.

أحسّ بأنّ الغضب يتصاعد في داخله.

- كيف يمكنكِ أن تتحدثي باسمها؟ لم تكوني تعرفينها! حتى إنّكِ لم تلتقِ بها أبداً!

أقرّت آبريل بذلك:

- هذا صحيح، ولكنني أعتقد بأنّك بطريقة ما ترضى بالألم وتتشبّث به لأنّ ألمك هو آخر صلة لا تزال تربطك مع كيت و.

استشاط ماتيو غضباً:

- أوقفي دروسكِ في علم النفس الشبيهة بدروس المجلات النسائية!

اغتاظت ولم تتحمّل عناء الردّ عليه وخرجت صافقة الباب من ورائها.

* * *

بعد أن بقي وحيداً، وجد ماتيو ملاذاً في أريكته. شرب زجاجة من البيرة، ثمّ استلقى مسترخياً ومسّد أجفانه.

اللعنة...

لم تكن لديه أيّ رغبة في أن يمارس الحبّ من جديد، ولا أيّ رغبة في أن يداعب جسداً آخر أو يُقبّل وجهاً آخر. كان بحاجة إلى أن يبقى لوحده. لم يكن يبحث عن أي شخصٍ لكي يفهمه أو لكي يواسيه ويعزّيه. كان يريد فقط أن يُخمّر ألمه مع رفقائه الوحيدين من كوبه الوفي الخاصّ بنبيذ الميدوك وجعّته العزيزة من نوع كورونا.

ما أن أغمض عينيه، تتالت الصور في ذهنه مثل فيلمٍ سبق له أن شاهده لمئات المرات. ليلة 24 على 25 ديسمبر من عام 2010. في

ذلك المساء، كانت كيت مناوبة حتى الساعة التاسعة مساءً في مستشفى الأطفال في جمايكا بلين، الملحق بمستشفى ماساتشوستس العام MGH[1] المتخصّص بطبّ الأطفال. كانت كيت قد اتّصلت به هاتفياً بعد انتهاء دوامها في المستشفى.

- حبيبي، ما زالت سيارتي معطّلة في مرآب المستشفى. وكما هو الحال دائماً، أنتَ منْ كنتَ على حقّ: يجب عليّ حقّاً أن أتخلّص من هذه العربة القديمة الرديئة.

- لقد قلتُ لكِ ذلك لألف مرّة.

- ولكنني متعلّقة كثيراً بهذه العربة القديمة من طراز مازدا! أنت تعلم أنّ هذه أوّل سيارة استطعتُ أن أدفع ثمنها حينما كنتُ طالبة في الجامعة!

- كان ذلك في أعوام التسعينيات من القرن العشرين، يا قلبي، وحتى في تلك الفترة كانت هذه السيارة «مستخدَمة».

- سوف أحاول أن أستقلّ المترو.

- هل تمزحين؟ في تلك المنطقة وفي هذا الوقت بالتحديد، سيكون الأمر خطراً جدّاً. سوف أستقلّ دراجتي النارية وسآتي لاصطحابكِ.

- كلا، الجوّ باردٌ جدّاً. يتساقط مزيجٌ من المطر والثلج، ليس من الفطنة أن تأتي يا مات!

ولأنّه أصرّ على الذهاب، انتهى بها الأمر بإظهار الرضوخ.

- حسناً، ولكن كن حذراً ومنتبهاً إذاً!

---

(1) MGH (Massachusetts General Hospital): المستشفى الحكومي الجامعي الكبير في بوسطن.

كانت هذه آخر كلماتها قبل أن تُغلق سماعة الهاتف.

امتطى ماتيو دراجته النارية من طراز تريونف. في حين كان قد غادر لتوّه حي بيكون هيل، كان لا بدّ أنّ كيت قد نجحت في تشغيل محرّك سيارة المازدا. لأنّه في الساعة التاسعة وسبع دقائق، كانت شاحنة تنقل الطحين إلى أفران وسط المدينة قد صدمتها فجأةً بينما كانت تخرج من مرآب المستشفى. مدفوعةً إلى جدار سور المرآب، انقلبت السيارة قبل أن تستقرّ على سقفها.

لسوء الحظّ، انقلبت الشاحنة بدورها على الرصيف وسحقت بكلّ ثقلها سيارة كيت.

حينما وصل ماتيو إلى المستشفى، كان رجال الإطفاء والإنقاذ يجهدون في محاولة منهم لانتشال جثّة كيت، العالقة بين الصفائح المعدنية المضغوطة على بعضها. وقد احتاج المسعفون إلى أكثر من ساعة من الوقت لانتشالها وإجلائها إلى مستشفى ماساتشوستس العامّ حيث توفيت متأثرة بجراحها البليغة.

نجا سائق الشاحنة من الحادث سليماً معافى. وقد أتت نتائج التحاليل الخاصّة بكشف المخدّرات في الدم إيجابية حيث أظهرت بأنّ السائق كان قد تعاطى مخدّر القنّب الهندي، ولكن حينما استمعت الشرطة إلى أقواله أكّد بأنّ كيت كانت تتكلّم على الهاتف في لحظة الاصطدام وأنّها لم تراعي أفضليته بالمرور. وهي رواية تمّ إثباتها وتعزيزها من خلال الصور التي التقطتها كاميرا المراقبة المثبّتة عند مدخل المرآب.

* * *

فتح مات عينيه وجلس في الأريكة. ما كان عليه أن يستسلم. عليه أن يقاوم من أجل إيميلي. نهض من الأريكة وبحث عن أمرٍ

يُشغل نفسه به. هل يُصحّح أوراق الامتحان؟ أم يُشاهد مباراة لكرّة السلّة على التلفزيون؟ ثمّ استقرّ نظره على الحقيبة الكبيرة التي كانت تحتوي على الحاسوب الذي كان قد اشتراه قبل بضع ساعات بسعرٍ مخفّض.

جلس إلى طاولة المائدة الخشبية في المطبخ وأخرج الحاسوب المحمول من غلافه الكرتوني وأوصله بالتيار الكهربائي وهو يحدّق من جديد في الهيكل الألمنيومي وعليه اللصاقة التي ترمز إلى «حواء والتفاحة».

فتح الجهاز ووجد ورقة ملوّنة ملصقة على الشاشة. كان بائع خردة التصفية قد حرِصَ على أن يترك له رمز الدخول إلى حساب «المدير».

شغّل ماتيو الحاسوب المحمول وأدخل كلمة المرور للوصول إلى شاشة الاستقبال. للوهلة الأولى، كان كلّ شيء طبيعياً: المكتب، خلفية الشاشة، الأيقونات المألوفة. أدخل البيانات الخاصّة به لكي يتّصل بالإنترنت وخلال بضع دقائق فتّش في البرامج لكي يتأكّد بأنّه قد نجح في فتح كلّ التطبيقات: معالجة النصوص، محرّك البحث، خدمة الماسنجر، إدارة الصور. حينما شغّل هذا البرنامج الأخير، فوجِئ بالعثور على سلسلة من الصور الفوتوغرافية. أمرٌ غريب، لقد أكّد له البائع بأنّه قد هيّأ القرص الصلب.

ضغط على زرّ من لوحة المفاتيح لكي يستعرض عشرات الصور في عرض شرائح. كانت الصور عبارة عن ألبوم عطلة يُقدّم مشاهد للبطاقات البريدية. بحرٌ أزرق المياه، ألواح تزلّجٍ مغروزة عمودياً في الرمال البيضاء، رجل وامرأة يحتضنان بعضهما ويخلّدان صورتهما وسط النور الساحر للشمس المائلة إلى المغيب.

أهذه جزر هاواي؟ جزر الباهاما؟ جزر المالديف؟ تساءل ماتيو في نفسه وهو يتخيّل صخب الأمواج والإحساس بالريح وكأنّها تداعب شعره.

وقد تلت البحر الخضرة حينما ظهرت مناظر كثيرة الوديان وقصور وكروم وساحة قرية صغيرة.

هذه فرنسا أو توسكان. قال ماتيو في نفسه مراهناً.

أثار اكتشافه هذا فضوله فأوقف العرض وضغط على كلّ صورة من الصور لكي يظهر المزيد من المعلومات. علاوة على مزاياها التقنية، كانت كلّ صورة من مجموعة الصور تحمل عبارة «ملتقطة من قبل emma.lovenstein@imperatornyc.com».

إيما لوفنشتاين.

قارن هذا الاسم مباشرةً مع التوقيع الظاهر أسفل الرسمة التي كانت تزيّن هيكل الحاسوب.

«إيما. ل.»

على ما يبدو أنّها المالكة السابقة للحاسوب.

بمساعدة أزرار اللمس، حدّد جميع الصور وأزاحها نحو سلّة المحذوفات لكي يحذفها. في اللحظة التي فعّل فيها العملية، راوده شكٌّ خفيف وتبرئةً لذمته حرّر رسالةً مقتضبة:

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

الموضوع: صور

مساء الخير آنسة لوفنشتاين،

أنا المالك الجديد لحاسوبكِ من طراز ماك بوك.

لقد بقيت بعض الصور في القرص الصلب لحاسوبك السابق.

هل ترغبين في أن أرسلها إليكِ أم أنني أستطيع أن أحذفها؟

أخبريني.

أتمنى لكِ الخير.

ماتيو شابيرو

4

غرباء في الليل(*)

أنا لا أؤمن بقيمة الحيوات المنفصلة.
لا أحد منّا كاملٌ بمفرده.

فيرجينيا وولف

من: إيما لوفنشتاين
إلى: ماتيو شابيرو
الموضوع: ردّ: صور

السيّد العزيز،
أعتقد أنّك قد أخطأت في العنوان. لو كنتُ أملك حاسوباً من طراز ماك بوك، لما بعته أبداً! وبالتالي، الصور الموجودة بحوزتك ليست صوري ؛-)

تحياتي القلبية،
إيما

إيما لوفنشتاين
نائب شيف قسم المشروبات
إمبراتور
30 روكفيلر بلازا، نيويورك، ان يو 10020

(*) Strangers in the night (غرباء في الليل): ألبوم موسيقي للمغني الأميركي الراحل فرانك سيناترا (المترجم).

بعد دقيقتين.

لقد أخذت علماً. أنا متأسّف لهذا الخطأ. سهرة ممتعة

ماتيو

ملاحظة: هل تعملين في مطعم إمبراتور؟ ربّما نكون قد التقينا من قبل إذاً. احتفلنا زوجتي وأنا في هذا المطعم بالذكرى السنوية الأولى للقائنا!

بعد خمس وأربعين ثانية.

حقّاً؟ في أي تاريخ؟

بعد دقيقة واحدة.

قبل أربعة أعوام بقليل. في 29 أكتوبر.

بعد ثلاثين ثانية.

إذاً قبل وصولي للعمل في المطعم ببضعة أسابيع! أتمنى أن تكون قد احتفظت بذكرى جميلة من المطعم.

بعد دقيقة واحدة.

نعم، مطعمٌ ممتاز. حتى إنني ما زلتُ أتذكّر بعض الأطباق التي تمّ تقديمها: أفخاذ الضفادع بالكراميل،

بنكرياس العجل بالكمأة وطبقٌ من المعكرونة بالرز والحليب!

بعد ثلاثين ثانية.

وماذا عن أنواع النبيذ؟ والأجبان؟

بعد دقيقة واحدة.

لا شكّ أنني سوف أخيّب أملكِ، يا إيما، ولكن لأكون صادقاً معكِ، أنا لا أشرب النبيذ ولا أتناول أبداً الأجبان.

بعد دقيقة واحدة.

كم هذا محزن! أنت لا تعرف ما تخسره. إذا عدتَ إلى المطعم، سوف أجعلك تكتشف بعض الأنواع الطيّبة من النبيذ! هل تعيش في نيويورك، يا ماتيو؟

بعد ثلاثين ثانية.

كلا، أعيش في بوسطن، في حي بيكون هيل.

بعد عشرين ثانية.

هذا قريبٌ جداً! إذاً ادعِ زوجتك في الخريف القادم لكي تحتفلا بالذكرى السنوية الخامسة للقائكما!

بعد ثلاث دقائق.

سيكون هذا صعباً: زوجتي متوفّية.

بعد دقيقة واحدة.

أنا فعلاً خجلة منك.

أعتذر منك شديد الاعتذار.

بعد دقيقة واحدة.

ما كان لكِ أن تعرفي، يا إيما.

سهرة سعيدة.

* * *

بقفزة واحدة، نهض ماتيو من كرسيه وابتعد عن الحاسوب. هذا هو ما نعرّض له أنفسنا من خلال التحدّث مع أشخاصٍ مجهولين عبر الإنترنت! أيّ فكرة راودته لكي يجري هذا الحوار السوريالي؟ حذف دونِ أسفٍ الصور وفتح سدادة زجاجة جديدة من بيرة كورونا.

وإذا كانت هذه المحادثة قد أغاظته فقد فتحت أيضاً شهيّته للطعام! في المطبخ الفسيح، فتح باب الثلاجة ليتبيّن له بأنّها كانت خاوية.

هذا أمرٌ منطقي، فالثلاجة سوف لن تمتلأ بالتأكيد من تلقائها. همس له صوتٌ خفيض بهذا الكلام.

نبش في مجمّدة الثلّاجة، وعثر في نهاية المطاف على قطعة من البيتزا فخبزها في فرن المايكروويف. ضبط موقّت الفرن وعاد ليجلس خلف شاشة حاسوبه.

كانت رسالة جديدة قد وردت إليه من إيما لوفنشتاين.

* * *

عجباً، يا لكِ من حمقاء! ولكن كيف لي أن أعرف بأنّ زوجته متوفّية؟ عاتبت إيما نفسها بهذه الكلمات.

كان ذلك الحديث الذي تبادلته معه قد أثار فضولها. بمحض صدفة، كتبت «ماتيو شابيرو + بوسطن» في محرّك البحث غوغل. كانت أولى النتائج التي ظهرت تحيل إلى الموقع الرسمي لجامعة هارفارد. بدافعٍ من الحيرة والفضول، نقرت على الرابط الأوّل ووقعت على نبذة موجزة عن أحد أساتذة الجامعة في قسم الفلسفة.

بدا أنّ مراسلها الملغز كان يُعطي دروساً في الكلية الساحرة. كانت السيرة الذاتية للأستاذ مرفقة بصورة شخصية. إذا تمّ الاعتماد على الصورة، كان شابيرو شابّاً أسمر البشرة ووسيماً، ويُظهر عمراً في بداية الأربعينيات والسحر الأصيل للممثّل جون كازافيتس.

تردّدت لبضع ثوانٍ، ثمّ تركت أصابعها تسير على لوحة المفاتيح:

من: إيما لوفنشتاين

إلى: ماتيو شابيرو

هل تناولتَ العشاء، يا ماتيو؟

* * *

عبس ماتيو. لم يحبّ هذا التدخّل في حياته. ومع ذلك أجاب سريعاً:

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

إذا أردتِ معرفة كلّ شيء، فإنّ قرصاً من البيتزا على وشك أن يتحلّل في فرن المايكروويف.

بعد ثلاثين ثانية.

حسناً، دع البيتزا تتجمّد، يا ماتيو. هذا ما أعرضه عليك بدلاً عنها.

هل تعرف متجر زيليغ فود، البقالية الكبيرة الظريفة في شارع تشارلز ستريت؟ رفوفهم المليئة بالأجبان ولحومات الخنزير خرافية.

إذا أردت أن تمضي سهرة شرهة، اذهب لزيارتهم.

تبضّع من بين أجبان الماعز اللذيذة خاصّتهم. اختر على سبيل المثال أحد أجبانهم الخاصّة بالتين أو بنبتة الوسابي.

نعم، أنا أعلم أنّ الخليط قد يُفاجئك، ولكن مع زجاجة من النبيذ الأبيض من طراز سوفينيون من لوار - لنضع زجاجة من طراز سانسير أو من طراز بويلي - فوميه - سوف يكون التوافق تامّاً.

كما أنصحك أن تتذوّق من فطائرهم المحشوّة بالكبد وبالفستق الحلبي والتي سوف تتناسب تماماً مع نبيذ بُرغونيا من طراز كوت دي نوي. إذا وجدت نبيذ جيفري - شامبرتَن لعام 2006، انكبّ عليه ولا تدعه يفلت من بين يديك!

هذه هي مقترحاتي. وسوف ترى، هذا أفضل من البيتزا المجمّدة.

إيما

ملاحظة: لقد بحثتُ للتوّ عبر الإنترنت: من حي بيكون هيل، يمكنك حتى أن تذهب إلى زيليغ فود مشياً على القدمين، ولكن عليك أن تستعجل، لأن المتجر يغلق أبوابه في الساعة العاشرة مساءً.

هزّ ماتيو رأسه أمام شاشة حاسوبه. منذ زمنٍ طويل، لم يهتمّ أحدٌ براحته ورفاهيته. ومن ثمّ استدرك وثارت ثائرته في الحال. بأيّ حقٍّ تسمح إيما لوفنشتاين هذه لنفسها بأن تملي عليه طريقة قضائه لوقته في السهرة.

متضايقاً من ذلك، ترك تطبيق الرسائل الإلكترونية لكي ينتقل إلى محرّك البحث. مستسلماً للفضول، كتب «إيما لوفنشتاين + ساقية النبيذ» وأطلق عملية البحث. ضغط على أوّل نتيجة من نتائج البحث: مقالة منشورة في مجلّة **واين سبيكتاتور** (*Wine Spectator*). كانت المقالة تعود في تاريخ نشرها إلى السنة الماضية، تحت عنوان «عشر مواهب شابّة تستحقّ المتابعة»، كانت ترسم صورة الجيل الجديد من سُقاة النبيذ. كانت أغلبية هذه «المواهب الشابّة» من النساء. وكانت الصورة قبل الأخيرة صورة إيما لوفنشتاين. كانت النبذة المكتوبة عنها في المقالة مرفقة بلقطة بعيدة، ملتَقَطة في مخزن النبيذ لمطعم إمبراتور. كبَّر ماتيو حجم الصورة. لم يكن هناك أدنى شكّ: كانت الساقية الشابة المذكورة في المقالة هي المرأة نفسها التي شاهدها في

صور العطلة التي عثر عليها في القرص الصلب للحاسوب المحمول. فتاةٌ سمراء جميلة ذات عينين مرحتين وابتسامة ساخرة.

أمرٌ غريب. لماذا زعمت أنّ هذا الحاسوب لم يكن لها؟ أهو انزعاجٌ؟ أهو احتشامٌ؟ هذا محتمل، ولكن في هاتين الحالتين، لماذا واصلت المحادثة معه عبر الإنترنت؟

أعلن صفير موقّت المايكروويف نهاية نضوج البيتزا.

وبدل أن ينهض لجلب البيتزا، رفع ماتيو سمّاعة هاتفه لكي يتّصل بجيرانه. سألهم إن كانت ابنتهم إليزابيت حاضرة لكي تسهر على رعاية إيميلي لنصف ساعةٍ من الوقت. كان لديه ما يشتريه من متجر زيليغ فود وعليه أن يذهب إلى هناك في الحال: فالمتجر يُغلق أبوابه عند الساعة العاشرة مساءً.

* * *

بوسطن
حي باك باي
الساعة الواحدة صباحاً

كانت الحانة تهتزّ على وقع الأصوات الجهيرة لأسطوانة راقصة. فشقّت آبريل طريقها وسط الزحام لكي تنسلّ من بين حشد غون شوت وتخرج لكي تدخّن سيجارة.

واه، أنا. أنا ثملة بعض الشي فكّرت وهي تترنّح على حافة الرصيف. أراحها الهواء الليلي المنعش. كانت قد أفرطت في الشراب وفي الرقص وفي الإغواء. عدّلت حمّالة صدرها وهي تنظر إلى ساعة يدها. كان الوقت قد أصبح متأخّراً جدّاً. طلبت من خلال هاتفها المحمول سيارةً من شركة لسيارات الأجرة ومن ثمّ وضعت سيجارة بين شفتيها وهي تبحث عن ولّاعة في حقيبة يدها.

دمدمت: أين اختفت هذه القدّاحة الكريهة؟

سألها صوتٌ من خلفها:

- أهذا ما تبحثين عنه؟

التفتت آبريل فرأت امرأة شابّة شقراء ذات ابتسامة مشرقة. جوليا، الفتاة التي لم تكفّ عن التهامها بعينيها طيلة السهرة والتي لم تستجب لأيّ من مبادراتها. كان شعرها قصيراً على الطريقة الكاليفورنية ونظرتها برّاقة وقوامها رشيقاً وخفيفاً جاثماً على حذاءٍ خفيفٍ ومريح:

كانت عبارة عن النموذج الذي ترغب فيه آبريل تماماً.

قالت المرأة الشابّة وهي تشعل لهب قدّاحة من الصدف ومن البرنيق الصينيّ الوردي اللون:

- لقد نسيتِها على طاولة المشروبات.

اقتربت آبريل لكي تشعل سيجارتها. منبهِرةً بالبشرة الشفيفة والفم المثير والملامح الرقيقة للمرأة التي كانت قبالتها، أحسّت برغبةٍ محمومة في جوف بطنها.

قالت جولي:

- لم نعد نسمع الكلام في الداخل.

ردّت آبريل ممازحةً:

- هذا صحيح. هذه الموسيقى لم تعد تناسب عمري.

أثار ضوء فانوس سيارة انتباه الفتاتين المفرطتين في الشراب.

شرحت آبريل وهي تشير إلى السيارة التي توقفت أمام الحانة:

- هذه سيارة الأجرة التي طلبتها. إذا أردتِ أن تستفيدي منها.

أبدت جوليا تردّداً خلال بضع ثوانٍ.

كانت هي من تدير اللعبة وقد أجادتها.

- حسناً، هذا لطفٌ منكِ. سوف لن يطيل هذا عليك الطريق. أنا أقيم بجانب منزلكِ تماماً، في شارع بيمبروك ستريت.

صعدت المرأتان في المقعد الخلفي للسيارة. بينما كانت السيارة تغادر أرصفة نهر تشارلز، وضعت جولي رأسها بلطف على كتف آبريل، والتي اجتاحتها رغبة جامحة في أن تعانقها وتقبّلها. لم تفعل لها أي شيء، منزعجة من النظرة الملحّة لسائقهما. تحدّته وهي تحدّق فيه عبر المرآة العاكسة: إيّاك أن تعتقد بأنّك سوف تستطيع أن تمتّع بصرك بهذه الطريقة.

قطعت السيارة المسافة سريعاً وبعد أقلّ من خمس دقائق توقّفت وسط زقاقٍ تمتد أشجار على جانبيه.

عرضت جوليا بلامبالاة:

- إذا شئتِ الصعود معي لشرب كأسٍ. إحدى زميلاتي السابقات في الكليّة أرسلت إليّ زجاجة مشروبٍ بلبّ نبتة الصَّبْر. مشروبٌ مدهش تصنعه هي بنفسها! سوف تولعين به.

أفرجت آبريل عن ابتسامة، مبتهجةً بالدعوة؛ ومع ذلك، في اللحظة الحاسمة، ردعها شيءٌ ما. كان قلقٌ عميق يجتاحها ويُعادل رغبتها. كانت جوليا هذه قد راقت لها فعلاً، ولكنّها كانت تشغل اهتمامها بماتيو. في بداية السهرة، حينما غادرته، بدا لها مكتئباً للغاية، بل وربّما كان على شفا ارتكاب حماقة. كان ذلك بلا شكّ عبثياً، ولكنّها لم تكن تستطيع أن تنزع هذه الفكرة من رأسها. كان يتراءى لها بأنّها تعود إلى البيت لتجده معلّقاً على عارضة أو في غيبوبة طبية.

غمغمت:

- اسمعي، كان ذلك ليسعدني، ولكنني لا أستطيع الآن.

اغتاظت جوليا:

- حسناً، لقد فهمت.

- كلّا، انتظري! اعطني رقم هاتفك. قد نستطيع.

فات الأوان. كانت الحسناء الشقراء قد أغلقت البوابة من ورائها.

وتبّاً...

تنهّدت آبريل ثمّ طلبت من السائق أن يوصلها إلى زاوية مونت فيرنون وشارع ويلو ستريت.

طيلة المسافة، كانت شديدة القلق. لم تكن تعرف ماتيو سوى منذ عامٍ واحد، ولكنّها فعلاً كانت متعلّقة به وبالصغيرة إيميلي شديد التعلّق. وإذا كانت قد تأثّرت بحالته الصعبة، فإنّها لسوء الحظ لم تكن تعلم كيف تساعده: كان ماتيو يحمل لزوجته إخلاصاً شديداً بحيث لم تكن آبريل ترى كيف يمكن لطالبة زواجٍ أخرى أن تجد في زمنٍ قصير مكاناً لها في حياته. كانت كيت طلِقة المحيا وجميلة وشابّة ومحبّة للغير. أيّ امرأة قادرة على أن تتنافس مع طبيبة مختصة في الجراحة ولها جسم عارضة أزياء.

وصلت السيارة إلى أسفل عمارة تاون هاوس. دفعت آبريل أجرة السيارة وفتحت باب البيت محاولةً ألا تثير الكثير من الصخب. كانت تعتقد بأنّها سوف تجد ماتيو وهو يشخر، مسترخياً على الأريكة، مُرهقاً من جرّاء مزيج البيرة مع الأقراص المضادة للقلق. ولكن بدل ذلك، وجدته يجلس بهدوء خلف شاشة حاسوبه الجديد. كان رأسه يتحرّك برفق على إيقاع أنغام جازٍ وكانت ابتسامةٌ مرحة تنير وجهه.

سألها مندهشاً:

- هل عدتِ؟

أجابت مرتاحةً:

- حسناً لا بأس، اخفِ فرحتك بلقائي!

على الطاولة المستديرة في المطبخ، عاينت زجاجات النبيذ المفتوحة وكذلك بقايا الأجبان الظريفة والسومون المحشو.

- أرى أنّك قد أرضيتَ جميع أهوائك! هل خرجت وتبضّعت؟ كنتُ أعتقد أنّك لا تريد أن تغادر عرينك.

دافع عن نفسه برعونة:

- لقد أكلتُ ما يكفي من المأكولات المجمّدة.

نظرت إليه نظرة ارتيابية وتقدّمت نحوه.

ضايقته وهي تنحني على كتفه:

- هل تتسلّى جيّداً مع لعبتك الجديدة؟

أغلق ماتيو شاشة حاسوبه بضربةٍ خاطفة. بدا منحرف المزاج وحاول أن يخفي الصور التي كان قد استردّها من سلّة محذوفات الحاسوب وطبعها لتوّه. ولكن آبريل كانت أسرع منه واستولت عليها.

قالت وهي تتفحّص صور إيما:

- إنّها ظريفة، من تكون هذه؟

- إنّها ساقية نبيذٍ في مطعمٍ كبير في نيويورك.

- وهذه الموسيقى، ما هيَ؟ كنتُ أعتقد أنّك لا تحبّ موسيقى الجاز.

- إنّه كيث جاريت، حفلة كولن. هل تعلمين أنّ الموسيقى تستطيع التأثير على تذوّق النبيذ؟ لقد أظهر باحثون بأنّ بعض

مقطوعات العزف على الجاز تنشّط أجزاءً من الدماغ والتي تسمح بإدراكِ أفضل لمزايا النبيذ. هذا أمرٌ جدير بالاهتمام، أليس كذلك؟

- هذا مثير. هل صاحبتك الجديدة هي التي قالت لك ذلك؟

- إنّها ليست «صاحبتي». لا تكوني مضحكة، يا آبريل.

أشارت المرأة الشابّة بإصبع الاتهام نحو ماتيو.

- قل بأنّك فوّتَ عليّ صفقة القرن لأنني أبديتُ اهتماماً بك!

- أشكركِ على اهتمامكِ ورعايتكِ لي ولكنني لم أطلب منكِ شيئاً.

تابعت حديثها ورفعت من نبرة صوتها:

- كنتُ أتصوّر بأنّك مكتئب ومقبل على الانتحار في حين كنت تشارك في حفلة راقصة تتذوّق النبيذ مع فتاةٍ التقيتَ بها على الإنترنت!

- انتظري، ماذا تفعلين بي، هنا؟ أهي نوبةُ غيرة؟

أعدّت العارضة الحسناء لنفسها كأساً من النبيذ واستغرقت بضع دقائق قبل أن تستعيد هدوءها.

- حسناً، من تكون، هذه المرأة؟

بعد أن تمنّع ماتيو قليلاً، وافق على أن يحدّثها عن سهرته. منذ أن اكتشف الصور على القرص الصلب للحاسوب وحتى تلك المحادثة الغريبة التي جرت بين إيما وبينه. من خلال أزرار لوحة المفاتيح، وخلال ما يقارب ثلاث ساعات، استعرضا طيفاً واسعاً من المواضيع من خلال عشرات الرسائل الإلكترونية. وقد تقاسما تعاطفهما مع كاري غرانت ومارلين مونرو وبيللي ويلدر وغوستاف كليمت، وتمثال فينوي دي ميلو وفيلم **إفطار عند تيفاني** وفيلم **الموعد**. وأعادا الجدالات العلمانية: فرقة البيتلز مقابل فرقة رولينغ

ستونز، أودري مقابل كاثرين هيبورن، ريد سوكس مقابل اليانكيين، فرانك سيناترا مقابل ديم مارتان. وقد تجابها حول فيلم «ضائع في الترجمة»، الفيلم الذي يعتبره ماتيو «مفرطاً في المبالغة» بينما تعتبره إيما «التحفة التي لا مثيل لها». وكانا قد سألا بعضهما أي خبرٍ من أخبار الكاتب النمساوي ستيفان تسفايج هو الأكثر رواجاً، وأيّ لوحة من لوحات الرسام الأميركي إدوارد هوبر أثّرت فيهما أكثر، وما هي أفضل أغنية من ألبوم أنبلوغد لفرقة الروك الأميركية نيرفانا. وقد ساق كلّ منهما حججه فيما إذا كانت رواية **جين آير** لتشارلوت بروتني أفضل من رواية **كبرياء وتحامل** لجين أوستن، إذا ما كانت قراءة رواية على الآيباد مريحة مثل تقليب صفحات رواية مطبوعة، إذا ما كان ألبوم مايكل جاكسون «أوف ذي وول» أرقى من ألبومه «ثريلر»، إذا ما كان المسلسل الأميركي «ماد مان» هو أفضل مسلسل حالياً، إذا ما كانت النسخة الصوتية من أغنية «لايلا» تساوي النسخة الأصلية، إذا ما كان ألبوم Get Yer Ya-Ya's Out! لفرقة رولينغ ستونز هو أفضل ألبوم بث مباشر في كلّ العصور، إذا ما كان.

قاطعته آبريل قائلةً:

– حسناً، لقد فهمت. وعدا هذا، هل منحتما لنفسيكما جلسة حميمة عبر الإنترنت؟

ردّ عليها صارخاً بحنق:

– كلا، لم يحدث هذا! لقد تحدّثنا فقط، وهذا كلّ ما في الأمر.

– بالتأكيد.

هزّ ماتيو رأسه. لم يرق له المجرى الذي اتّخذه هذا النقاش.

سألت إيما:

- ومَن قال لك بأنّ هذه الفتاة السمراء الحسناء هي التي كانت خلف شاشة حاسوبها؟ انتحال الصفة أمرٌ شائع على شبكة الإنترنت. ربّما كنت تتحدّث منذ ثلاث ساعات مع جدٍّ ذي كرشٍ في الثمانين من عمره دون أن تدري ذلك.

- أنتِ فعلاً اتّخذتِ قراراً بأن تفسدي عليّ سهرتي.

- على العكس، أنا سعيدة بأن أراك وقد تعافيت من حالتك وعدتَ إلى مهج الحياة، ولكنني لا أريدك أن تُصاب بخيبة الأمل وتنتكس كثيراً فيما لو تبيّن أنّ هذه الشخصية التي تتحدّث معك ليست في الحقيقة المرأة التي تعتقد أنّها هي.

- ماذا تقترحين؟

- ألّا تنتظر كثيراً لكي تلتقي بها. لماذا لا تدعوها إلى المطعم؟

هزّ رأسه رافضاً:

- أنتِ مجنونة، هذا أمرٌ سابقٌ لأوانه! سوف تعتقد بأنّ.

- سوف لن تعتقد شيئاً على الإطلاق! يجب دقّ الحديد وهو حامٍ. هكذا تسير الأمور، في هذه الأيام. أعلم تماماً بأنّه قد مضى وقتٌ طويل جداً وأنت لم تشارك في لعبة الإغراء.

ارتبك ماتيو، واستغرق وقتاً في التفكير. أحسّ بأنّه كان يفقد السيطرة على الموقف. لم يرغب في أن يستعجل الأمور، ولا أن يستسلم للحماسة والجموح. ففي نهاية المطاف، هو لا يعرف حقّاً إيما لوفنشتاين هذه. ولكنّه كان مرغماً على أن يعترف بأنّه كان بينهما اتصالٌ، رغبة متبادلة في تبادل الحديث، ساعاتٌ من الاستراحة وسط تعاسة الحياة اليومية. أحبّ أيضاً الجانب الرومانسي في لقائهما، والدور الذي لعبته الصدفة فيه أو ربّما حتى. القدر.

نصحته آبريل من جديد:

- ادعُها بأسرع وقت ممكن. إذا احتجتَ إليّ، سأسهر على إيميلي.

تثاءبت ونظرت إلى ساعة يدها.

قالت له وهي تلوّح له بإشارةٍ من يدها:

- أفرطتُ في الشراب اليوم، سأذهب وأنام.

ردّ لها ماتيو التحية وهو ينظر إليها تصعد السلّم. ما أن أصبح لوحده فتح الحاسوب وأسرع إلى الضغط على الزرّ لكي يحدّث تطبيق الرسائل الإلكترونية. لم تكن لديه رسائل جديدة من إيما. ربّما تكون قد تعبت. ربّما كانت آبريل محقّة. ربّما ما كان يجب الانتظار كثيراً.

قرّر أن يكون صافي النيّة.

من: ماتيو شابيرو
إلى: إيما لوفنشتاين
الموضوع: دعوة

هل ما زلتِ أمام شاشة حاسوبكِ، يا إيما؟

بعد دقيقة واحدة.

أنا في سريري يا ماتيو، ولكنّ حاسوبي المحمول موضوعٌ بجانبي. لقد حمّلتُ «**الكتاب المضاد للفلسفة**» خاصّتك وأنا الآن أقرأه بنهم. لم أكن أعلم أن اسم سيشرون يعني «حمّص» في اللغة اللاتينية؛ -)

وكأنّه تحت تأثير قوّة غير مرئية، تجرّأ ماتيو على ما لا يُعقَل.

بعد خمس وأربعين ثانية.

لدي عرضٌ أقدّمه لكِ، يا إيما.

أعرف مطعماً إيطالياً صغيراً في حي إيست فيليج - مطعم الرقم 5 - في جنوب حديقة تومبكنس سكوير بارك. إنّه يُدار من قبل فيتوريو بارتوليتي وزوجته وكلاهما من أصدقاء طفولتي. وأنا أذهب لتناول العشاء في مطعمهما كلّما أقوم بزيارةٍ إلى نيويورك، وبشكلٍ رئيس من أجل المشاركة في دورة مؤتمرات مورغان ليبريري.

لا أدري ما أهمية قائمة أنواع النبيذ التي يقدّمانها، ولكن إذا كنتِ تحبّين طبق الأرانشيني على الطريقة البولونية واللازانيا بالفرن والتالياتيلي بالقدير والكانولي الصقليّ، فإنّ هذا العنوان سيحظى بإعجابكِ.

هل توافقين على الذهاب لكي نتناول العشاء معاً هناك؟

بعد ثلاثين ثانية.

سأكون سعيدة بذلك، يا ماتيو.

متى ستأتين إلى نيويورك في المرّة القادمة؟

بعد ثلاثين ثانية.

المؤتمر القادم مبرمج في الخامس عشر من ديسمبر، ولكن ربّما نستطيع أن نلتقي قبل ذلك التاريخ.

لماذا لا نلتقي غداً مساءً؟ لماذا لا نلتقي غداً في الساعة الثامنة مساءً؟

* * *

غداً.

غداً!

غداً!

أرادت إيما أن تنطّ وتقفز في سريرها.

سوف يكون ذلك أمراً في غاية الجمال لو أصبح حقيقة!

أعلنت ذلك بكلامٍ مفخّم للكلب الذي كان ينام عند قدمي سريرها.

- هل تسمع هذا الكلام، يا كلوفيس؟ رجلٌ مثقّف وذكيّ يريد أن يدعوني إلى تناول العشاء معه! أستاذ فلسفة مثير انهال عليّ!

إذا كان قد لزم المزيد لأجل إثارة الكلب شار-بيه، فإنّ هذا الأخير قد أطلق نخيراً لطيفاً.

ابتهجت إيما وفرحت. لقد أمضت سهرةً ممتازةً بقدر ما كانت غير متوقّعة. في بضع رسائل إلكترونية، أعاد ماتيو شابيرو الشمس والثقة إلى حياتها. وغداً مساءً، كانت ستلتقي به بشحمه وبلحمه. سوى أنّها غداً مساءً. ستكون في العمل.

داهمها شعورٌ مفاجئ بالقلق، فانتصبت على وسادتها وكادت أن

تقلب كوبها من نقوع رِغْي الحمام(*) كان ذلك الإكراه الأكبر في مهنتها: لم تكن تمتلك الحرية في وقت سهراتها. كان قد بقي لديها بعض أيام من إجازتها التي يمكنها أن تعطّل فيها ولكنها لا تستطيع أن تطرح هذا الموضوع بين ليلةٍ وضحاها.

كانت إجراءات الحصول على الإجازة معقّدة، وفي عمل المطاعم، يكون شهر ديسمبر من الأشهر التي يتكثّف فيها العمل.

فكّرت للحظة وقرّرت ألا تقلق بشأن الموضوع. سوف تطلب من أحد زملائها أن يحلّ محلّها في خدمة الدوام المسائي. كان ذلك إجراءً معقّداً ولكنّه ممكن التدبير.

في كلّ الأحوال، كان من غير الوارد أن تفوّت على نفسها فرصة «موعدها الغرامي»، كما كانت لتقول جدّتها. وبالتالي، كتبت بابتسامة عريضة آخر رسالة إلكترونية في تلك الأمسية:

من: إيما لوفنشتاين

إلى: ماتيو شابيرو

الموضوع: ردّ: دعوة

اتّفقنا يا ماتيو. سوف أعمل جهدي لأتفرّغ للموعد.

شكراً على هذه السهرة اللطيفة.

إذاً، إلى اللقاء غداً مساءً!

نوماً هانئاً.

ملاحظة: أنا أعشق اللازانيا والأرانشيني

وحلوى التيراميسو أيضاً!

(*) رِغْيُ الحمام: جنس نباتات برّية وتزيينية من فصيلة الساجيات عديدة الألوان وعطرية (المترجم).

اليوم الثاني

5

إبقاء السرّ بينهما

حتى من أجل أن يمثّل الشخص دوره الخاصّ،
عليه أن يصبغ وجهه بمساحيق التجميل.
ستانيسلاف جيرزي ليك

في اليوم التالي
بوسطن
الساعة الثانية عشرة والربع ظهراً

أغلق ماتيو الباب من خلفه ونزل السلالم المتعرّجة التي تفصل البيت عن الشارع. وإذا كان المطر قد هطل في الليلة السابقة، فالشمس تشعّ الآن على شوارع وأزقّة حي بيكون هيل. كان أريج نبتة الحراج يفوح على ساحة لويسبورغ سكوير وكانت أشعّة برتقالية تعلو وتزيّن الألوان الخريفية للحديقة.

علّق حقيبته على كتفه واعتمر قبّعة ذات واقية خاصّة بركوب الدراجات وركب دراجته الهوائية وسار بها وهو يُصفّر تصفيراً خفيفاً وسلك الطريق إلى شارع بينكني ستريت. منذ متى لم يكن قلبه بهذه الخفّة؟ منذ عامٍ واحد، كان يعيش مثل شبحٍ، ولكن هذا الصباح، استيقظ بروحٍ صافية. أعطى ثلاثة دروس تقوية في الجامعة وتبادل المزاح مع تلامذته واستعاد متعة التعليم ببشاشة وابتهاج. تراخت

القبضة الحديد التي كانت تعتصر أحشاءه وشعر بارتياحٍ وانشراح وأحسّ بالحياة التي كانت تدور من حوله وشعر من جديد بأنّه بدأ يشارك في حركة الحياة. ثملاً بهذا الإحساس الذي استعاده، ضاعف من سرعة دراجته وسلك بانسجامٍ وبانسيابية المنعطف الذي كان يميل نحو شارع بريمر ستريت. كانت الرياح تهبّ على وجهه فزاد من سرعة دراجته أكثر حينما لاحت له الحديقة العامّة في المدينة بيبليك غاردن، والتصق بدراجته وشقّ الهواء وسط شعورٍ مثملٍ بالحرية. استلذّ بتلك اللحظة الممتعة وسار على طول سور الحديقة سيراً حرّاً دون أن يستخدم دوّاسات الدراجة إلى حين انعطافه إلى اليمين لكي يصل إلى شارع نيوبوري ستريت.

كان الشارع الرئيس في المدينة، الذي يضجّ بالمقاهي الأنيقة والمعارض الفنية ومحلات الأزياء المعاصرة، أحد الأماكن الأكثر ارتياداً في حي باك باي. كانت الناس تقتحم أرصفته وقت الغداء وتمضي فيه أوقاتاً لطيفة وممتعة. ركَن ماتيو دراجته الهوائية أمام إحدى العمارات القرميدية الأنيقة التي كان الطابق السفلي منها قد حوِّل إلى مطعمٍ.

كان «بيسترو 66»، هو حانة هذا المطعم حينما كان يتناول الغداء مع آبريل. كان قد بقي مكانٌ واحد شاغر في الخارج فأسرع إلى الجلوس فيه بعد أن أشار النادل إليه.

ما أن جلس إلى الطاولة حتى أخرج حاسوبه المحمول الجديد من حقيبته واتّصل بشبكة واي - فاي للإنترنت المتوفّرة في المطعم. ببضع نقراتٍ على لوحة المفاتيح، حجز تذكرة سفرٍ بالطائرة إلى نيويورك على موقع شركة دلتا إيرلاينز للخطوط الجوية. كانت الرحلة التي تُقلِع في الساعة الخامسة وخمس عشرة دقيقة مساءً تسمح له بأن

يحطّ في مطار جون. إف. كندي في الساعة السابعة مساءً. وهو الوقت المناسب تماماً ليكون في الوقت المحدّد لتناول العشاء مع إيما. وسط الحشد، اتّصل بمطعم الرقم 5 وصادف صديقته كوني على الخط. لم يكن قد التقيا ولا تواصلا منذ زمنٍ طويل. كانت مبتهجة بأن كان معها على الطرف الآخر من الخط وكانت لديها ألف حكاية لترويَها له، ولكن كانت لحظة تدفّق الزبائن على تناول الغداء والازدحام في المطعم وكان أحد نُدُل المطعم مريضاً وغائباً عن العمل. سجّلت حجزه وأعربت عن سعادتها بأن تتحدّث معه على نحو أكثر هدوء في المساء نفسه.

- هل هذا المكان محجوز، أيّها الرجل الطيّب؟

أغلق ماتيو سماعة الهاتف وغمز لآبريل.

- إنّه شاغر ولا ينتظر سواكِ.

جلست تحت اللوحة المشعّة التي كانت تدفّئ رصيف المقهى ورفعت يدها لكي تطلب قدحاً من عصير العنب الأسود المائل إلى الرمادي وطبقاً من كراب كيك.

- ماذا ستتناول؟

- سأطلب طبقاً صغيراً من سلطة سيزار وزجاجة مياه معدنية.

- هل تُخضع نفسك لنظام غذائي للتنحيف؟

- بل أوفّر على نفسي إلى حين حلول المساء. سوف أتناول العشاء في المطعم.

- هل أنت جادٌّ فيما تقول؟ هل دعوت ساقية النبيذ خاصّتك؟ تهانيّ، يا مات، أنا فخورة بك!

أحضر النادل مشروبيهما. رفعت آبريل قدحها وضربا قدحاً بقدح وشربا بكلّ حبورٍ وسعادة.

سألت بنبرة يشوبها القلق:

- في الحقيقة، أريد أن أسألك أيّ لباسٍ قرّرت أن ترتدي لسهرتكما؟

هزّ ماتيو كتفيه بلامبالاة.

- حسناً، في الحقيقة لا شيء خاصّ أفكّر فيه. كنتُ أفكّر أن أذهب إلى هناك بلباسي هذا الذي أرتديه الآن.

عبست وحدّقت فيه من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه.

- ستذهب بسروال «باغي» فضفاض جدّاً، وبلوزة قديمة مع كبوشة وحذاء «كونفيرس» كالتي ينتعلها المراهقون ومعطف رياضي عسكري؟ أتمنى أنّك لو تمزح! هذا دون أن أتحدّث عن شعرك الكثّ المتلبّد ولحيتك التي تشبه لحية إنسان النياندرتال.

- لا تبالغي من فضلك.

- ولكنني لا أبالغ يا مات! فكّر لمدّة خمس دقائق فقط: هذه المرأة الشابّة تعمل في أحد أشهر المطاعم في مانهاتن. زبائنها من رجال الأعمال وشخصيات الفن والموضة ومن أناسٍ أنيقين وأصحاب الذوق الرفيع ومتأنقين في لباسهم. سوف تعتبرك قروياً أو طالباً متخلفاً.

- ولكنني لن أمثّل دور شخصية مختلفة عن شخصيتي الحقيقية!

رفضت هذا المبرّر.

- إنّه الموعد الأوّل ويجب الاستعداد والتحضير له، هذا كلّ ما في الأمر. المظاهر مهمّة في هذا الموعد: الانطباع الأوّلي هو دائماً الانطباع الذي سيبقى محفوراً في ذهن الناس.

اغتاظ ماتيو من جدالها:

- أن تحبّ أحداً من أجل مظهره هو كأن تحبّ كتاباً من غلافه[1]!

- هذا هو حالك: تلذّذ بمقولاتك. ولكن هذا لا يمنع أنّك ستكون الأقلّ افتخاراً، هذا المساء.

أطلق تنهيدة وارتسم الحزن على وجهه. لفّ لنفسه سيجارةً وقاوم رغبة إشعالها وبعد بضع ثوانٍ من التفكير، انتهى إلى الرضوخ:

- حسناً، ربّما يكون بوسعكِ أن تعطيني نصيحتين أو ثلاث.

* * *

نيويورك

الساعة الواحدة من بعد الظهر

صرخ بيتر بينيديكت وهو يدفع الباب نصف الشفّاف لمخزن النبيذ في مطعم إمبراتور:

- لوفنشتاين، لقد فقدتِ رشدكِ!

تقدّم شيف تقديم النبيذ بخطوة سريعة نحو مساعدته التي كانت ترتّب القوارير في صندوقٍ معدني.

صرخ وهو يلوّح بورقة مطبوعة على ورقٍ سكريّ اللون:

- إكراماً لماذا اتّخذت مبادرة شراء هذه الأنواع من النبيذ؟

ألقت إيما نظرةً على الوثيقة. كانت عبارة عن فاتورة معنونة بموقع بيع عبر الإنترنت متخصّص في مجال مصانع النبيذ الاستثنائية. كان يُذكر فيها طلب شراء ثلاث زجاجات:

1. زجاجة واحدة من طراز دومين دي لا رومانِي كونتي، 1991

---

(1) مقولة منسوبة إلى الروائية الكندية الفرنسية لور كانون.

1. زجاجة واحدة من طراز ايرميتاج كوفي كاثلين،
جي. ال. شاف، 1991

1. زجاجة واحدة من طراز غراشير هيملرايخ، اوسليس،
دومين جي. جي. بروم 1982

زجاجة من نبيذ برغونيا الأسطوري والباذخ، وزجاجة نبيذٍ مصنوعٍ من عنب سيرا الأصيل والقويّ وزجاجة نبيذٍ مصنوعٍ من عنب ريسلينغ الأبيض المعقّد واللذيذ في الفم.

وهي ثلاثة أنواع عظيمة من النبيذ ذات التاريخ الممتاز. أفضل ثلاثة أنواع من النبيذ تذوّقتها في حياتها. ومع ذلك، لم تكن هي من طلبت هذه الزجاجات.

- أؤكّد لك بأنْ ليس لي أي دور في هذه الحكاية يا بيتر.

- لا تسخري منّي يا لوفنشتاين: أمر الطلب يحمل توقيعك والحساب دُفِع من الودائع المصرفية لإمبراتور.

- هذا مستحيل!

استشاط بينيديكت غضباً وواصل سيل عتابه لإيما:

- لقد اتّصلت للتو بالمموّن وقد أكّد لي بأنّه قد تمّ تسليم زجاجات النبيذ إلى المطعم. وبالتالي أريد أن أعرف أين هي وبأقصى سرعة!

- اسمع من الواضح أنّ هناك خطأ ما. هذا ليس بالأمر الخطير. علينا فقط.

- الأمر ليس خطيراً؟ إنّ قيمة هذه الزجاجات تفوق 10 آلاف دولار!

- في الحقيقة هذا مبلغٌ كبير، ولكن.

- تدبّري أمركِ وانقذي نفسكِ من هذه الورطة كما يحلو لكِ، يا لوفنشتاين، ولكنني أريد أن تُزال هذه الفاتورة قبل نهاية هذا النهار!

صرخ بينيديكت هائجاً قبل أن يُشهر إصبعه نحوها مهدّداً: وإلّا، فباب الانصراف عن العمل ينتظرك!

دون أن ينتظر الجواب، استدار سريعاً وغادر مخزن النبيذ.

بقيت إيما جامدة في مكانها لبضع ثوانٍ دون حراك، مصعوقةً من جراء عنف المشادة الكلامية. كان بينيديكت شيف نبيذٍ ينتمي إلى المدرسة القديمة التي ترى بأنّ ليس للنساء ما يفعلنه في مخازن النبيذ. وكان محقّاً في الإحساس بأنّه مهدّدٌ من قبل مساعدته: قبل رحيله السريع من المطعم، كان جوناثان لامبيرور قد سلّم وظيفة شيف النبيذ إلى إيما. وكان من المفترض أن تحلّ المرأة الشابّة محلّ بينيديكت في بداية هذه السنة، ولكنّه نجح في إلغاء هذه الترقية الوظيفية لدى الإدارة الجديدة. ومنذ ذلك الحين، لم تكن في ذهن بينيديكت سوى فكرة واحدة: دفع زميلته الشابّة إلى ارتكاب الخطأ لكي يتمكّن في النهاية من التخلّص منها مرّة واحدة وإلى الأبد. نظرت إيما إلى الفاتورة وهي تحكّ رأسها. صحيحٌ أنّ بيتر بينيديكت كان ناقماً وحاقداً، ولكنّه لم يكن مجنوناً بما يكفي لتدبير هذه المكيدة.

مَنْ إذاً؟

لم تكن زجاجات النبيذ الثلاث التي تمّ طلبها موجودة بالصدفة. كانت عبارة عن الأصناف الثلاثة نفسها التي كانت قد ذكرتها في الأسبوع السابق خلال لقاءٍ مع صحافيّ من مجلّة **واين سبيكتاتور** والذي كان يعدّ تقارير عن الجيل الجديد من نادلي النبيذ. حاولت أن تتذكّر: كان الحديث قد جرى في مكاتب قسم الصحافة والاتصال في المطعم وتحت أنظار.

روما لد لوبلان!

مستاءةً للغاية، خرجت إيما من المخزن مسرعةً الخطى واستقلّت المصعد لتصل إلى مكتب الاستقبال. دون أن تعلن عن نفسها، دخلت إلى مكتب قسم الصحافة وطلبت التحدّث إلى الشاب المتدرّب الذي كان مطعم إمبراتور قد استأجره للاهتمام بصيانة الأجهزة الإلكترونية في قسم المعلوماتية. هرعت إلى المكتب الذي دلّوها عليه وأغلقت الباب وراءها.

- لنكن وحدنا نحن الاثنان، أيّها المتلصّص!

فوجئ روما لد لوبلان بهذا الاقتحام المباغت وقفز من خلف شاشة حاسوبه. كان مراهقاً مربوعاً بعض الشيء له شعرٌ دهني مقصوص على هيئة طاسة ووجهٌ مائل للشحوب ويضع نظّارة كبيرة مربّعة الشكل ذات إطارٍ سميك. كان يضع قدميه الحافيتين على شبشبه ويرتدي بنطال جينز مكحوت ورداءً ذي قلنسوة مشكوك في نظافته مفتوحٍ على قميصٍ رياضي من ماركة مارفيل.

استقبلها بحركة ارتباك:

- صباح الخير آنسة أوه. لوفنشتاين.

قالت وهي تتقدّم نحوه متوعّدة:

- أراك قد تعرّفت عليّ، وهذه بداية جيّدة.

ألقت نظرة على شاشة الحاسوب.

- هل المطعم يدفع لك أجوراً لكي تجثم أمام صور النساء العاريات؟

- أوه، كلا، يا سيّدتي، ولكن هنا. إنّها. إنّها استراحتي.

بدا الفتى الفرنسي منحرف المزاج وغير مرتاح، فغاص في

كرسيّه وفي محاولةٍ منه لتدارك حرجه، قضم لوحاً من الشوكولا كان موضوعاً على المكتب، كان قد سبق له وتناول بعضاً منه.

خاطبته إيما بلهجة آمرة:

- كفّ عن التهام الشوكولا، يا صاحب الرأس الشبيه برأس الصرصور.

أخرجت من جيبها الفاتورة ولوَّحت بها أمام أنفه.

- هل أنتَ منْ مرّرت هذه الطلبية؟

تراخى كتفا المراهق وأسبل عينيه. ألحّت عليه إيما بالسؤال.

- كنت تسمعني حينما كنتُ أتحدّث إلى الصحافي، أليس كذلك؟

ولأنّ رومالد لوبلان ظلّ صامتاً، رفعت ساقية النبيذ من نبرة صوتها.

- اسمعني جيّداً، أيّها المعتوه البائس، ليست لديّ النيّة في أن أخسر عملي. إذاً، أنت حرٌّ في أن تبقى ملتزماً الصمت وألا تردّ على سؤالي، ولكن في هذه الحالة، سوف أطلب من الإدارة أن تستدعي الشرطة وسوف تشرح موقفك لرجال التحقيق.

كان لهذا التهديد تأثير صدمة كهربائية على الصبي.

- كلا، من فضلك! هذا. هذا صحيح، لقد فتنتُ بطريقتكِ في الحديث عن هذه الأصناف من النبيذ وأردتُ أن أتذوّقها.

- أردتَ أن تتذوّق نبيذاً ثمن زجاجته أكثر من ثلاثة آلاف دولار، يا صاحب الرأس الفارغ؟ هل في رأسك لبنٌ رائب أم ماذا؟ وكيف تصرّفت لكي تطلبها؟

بحركةٍ من رأسه، أشار رومالد إلى شاشة حاسوبه.

- لا شيء أسهل من ذلك: الأجهزة التي تعملون عليها وكذلك أنظمتكم ليست آمنة. احتجت إلى عشرين ثانية فقط لكي أخترق حساب المطعم.

أحسّت إيما أنّ دقّات قلبها تتسارع في صدرها.

- وهل فتحت تلك القوارير التي طلبتها؟

أجاب وهو ينهض من كرسيه:

- كلا، إنّها هنا.

جرجر قدميه حتى وصل إلى درجٍ معدني أخرج منه صندوقاً خشبياً صغيراً كاشف اللون كان يحتوي على قوارير النبيذ الفاخرة الثلاث.

الحمد لله!

عاينت إيما كلّ زجاجة من الزجاجات الثلاث بتمعّن وحذر؛ وتبيّن لها أنّ الزجاجات سليمة.

ودون أن تنتظر للحظة واحدة، اتّصلت بمموّن المطعم لكي تشرح له بأنّ حساب الزبائن الخاصّ بمطعم إمبراتور قد تعرّض للقرصنة. اقترحت على المموّن أن تعيد على نفقتها الخاصّة كامل الطلبية مقابل إلغاء الفاتورة. وقد شعرت بارتياحٍ كبير حينما أبلغوها بالموافقة على عرضها.

خلال بضع ثوانٍ، ظلّت جامدة في مكانها بلا حراك وقد شعرت بالارتياح من جراء إنقاذها لوظيفتها. أُتيح لها حينذاك أن تفكّر من جديد بموعدها في ذلك المساء واستبدّ بها الضيق والقلق.

ولكي تطمئن وتهدأ، بحثت بعينيها عن انعكاس صورتها على السطح الأملس كالمرآة لواجهة المكتب، ولكنّ الصورة التي رأتها أعطت التأثير العكسي: كانت بشعة. كان شعرها منكوشاً ولونه باهتاً

وقَصّته مشوّهة. ليس برأسٍ كهذا سوف تنجح في نيل إعجاب ماتيو شابيرو. تنهّدت وانتبهت فجأةً لوجود الصبي المتدرّب.

- اسمع، سوف أكون مضطرّة لأن أخبر رئيس الموظفين بخطئك هذا. إنّ ما أقدمت على فعله أمرٌ خطير جدّاً.

- كلا! من فضلك!

على حين غرّة، انهار الصبي المراهق واستبدّت به نوبةٌ من ذرف الدموع.

تنهّدت قائلة:

- ابكِ، سوف تتبوّل على نحوٍ أقل.

ومع ذلك، أعطته منديلاً وانتظرت إلى أن توقّف عن النواح.

- كم من العمر تبلغ، يا رومالد؟

- عمري ستة عشر عاماً ونصف.

- من أين أنت؟

- من منطقة بون، في جنوب ديجون، إنّها.

- أنا أعرف أين تقع منطقة بون. إن بعض أفضل أنواع النبيذ الفرنسي يأتي من منطقتك. منذ متى تعمل في مطعم إمبراتور؟

قال وهو يرفع نظّارته لكي يفرك عينيه:

- منذ خمسة عشر يوماً.

- وهل يثير هذا العمل اهتمامك؟

هزّ رأسه وأشار بذقنه إلى شاشة حاسوبه الشخصي.

- الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامي حقّاً هو هذا.

- الحواسيب؟ ماذا تفعل في مطعمٍ إذاً؟

أسرّ لها بأنّه قد لحق بصديقته الصغيرة التي بعد أن أنهت

دراستها الثانوية سافرت إلى مدينة نيويورك لتعمل كمربية أطفال مقابل حصولها على السكن والطعام.

خمّنت إيما:

- وهل كفّت هذه الفتاة عن الاهتمام بك؟

بشيءٍ من الخجل، هزّ رأسه موافقاً بصمت.

- وهل يعلم والداك بأنّك في الولايات المتحدة الأميركية، على الأقلّ؟

أكّد لها ذلك وقد بقي مراوغاً:

- نعم ولكن لديهما الآن شؤونٌ أكثر أهمية.

- ولكن كيف نجحت في أن تتدبّر عملاً هنا، في نيويورك؟ لا تملك أوراقاً تسمح لك بالعمل كما أنّك لم تبلغ سنّ الرشد بعد.

- لقد زوّرت لنفسي تأشيرة عمل مؤقّتة من خلال تكبير سني بعض الشيء.

تزوير تأشيرة دخول. لم يكن من الغريب إذاً أن يخشى الشرطة وألا يرغب في لفت انتباه إدارة الموارد البشرية إليه.

نظرت إيما إلى المراهق مع مزيجٍ من الانبهار والشفقة.

- أين تعلّمت القيام بأمورٍ كهذه، يا رومالد؟

هزّ الصبي كتفيه.

- يمكن للمرء القيام بالكثير من الأمور إذا كان يجيد استخدام الحاسوب.

ولأنّها ألحّت عليه بالسؤال، روى لها الكثير من التفاصيل. حينما كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ونصف، قضى رومالد بضع ساعات في الاحتجاز لأنّه نشر على الإنترنت ترجمة مقرصَنة

من الجزء الأخير من قصّة **هاري بوتر**. بعد ذلك بفترة قصيرة، قام باختراق موقع مدرسته الثانوية وهو يتسلّى بتغيير درجاته المدرسية وبإرسال رسائل مختلّة إلى صناديق البريد الإلكتروني لآباء التلاميذ. في شهر يونيو الماضي، كان قد كشف في بضع نقرات على لوحة المفاتيح عن مواضيع البكالوريا العلمية لكي يقدّم درجةً إلى صديقته الصغيرة. أخيراً، وفي بداية شهر يوليو، سرق لوقتٍ قصير حساب الفيسبوك الخاصّ بالرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي. كانت مزحة من طالبٍ ثانوي لم تلقَ استحساناً من قصر الإليزيه. وقد لاحقت السلطات الموضوع ونجحت في الوصول إليه. نظراً إلى سجلّه، عوقب مع إخضاعه للامتحان، مرفقة بتوصية صارمة جدّاً بأن يبقى من الآن فصاعداً بعيداً عن الحاسوب.

وهي تصغي إليه، راودت إيما فكرة خاطفة. قالت له بلهجة آمرة:

- اجلس خلف شاشة حاسوبك.

نفذ الأمر ونقر على زرّ من لوحة المفاتيح لكي يفعّل الجهاز.

سحبت إيما كرسياً لكي تجلس بجانبه.

- انظر إليّ في عيني جيّداً، يا رومالد.

متوتراً، عدّل الصبي المراهق نظّارته ولكنّه لم يركّز نظرته سوى لثانيتين فقط.

غمغم:

- أنتِ. أنتِ جميلة جدّاً.

قالت وهي تشير إلى الحاسوب:

- كلا، أنا، بالضبط، مرعبة، ولكنّك ستساعدني على ترتيب هذا الأمر.

نقرت على الموقع الإلكتروني لإحدى صالات التزيين. على الشاشة، كانت رسائل متلألئة تتراقص على خلفية كاشفة وبسيطة.

Akahiko Imamura

Airstyle

شرحت له:

- آكاهيكو إيمامورا هو يابانيٌّ قام بثورة في عالم التزيين. في مانهاتن، هو المزيّن الأهمّ والأشهر، إنّه سيّد المقصّ والألوان. أنجيلينا جولي، آن هاتواي، كيت بلانشيت. كبرى النجمات يتزيَّن في محله.

وخلال أسبوع الموضة (fashion week)، يسعى جميع المصمّمين إلى الحصول على خدماته لتزيين مجموعة عارضات أزيائهم. يُقال بأنّه ساحرٌ حقيقي وأنا أحتاج على الأقلّ إلى هذا لكي أكون لائقة في مظهري هذا المساء. المشكلة تكمن في أنّ هناك قائمة انتظار لمدّة شهرين حتى تتمكّن من حجز موعد.

أدرك رومالد ما تنظره إيما منه. وعلى الفور، نشط لكي يحاول الدخول إلى نظام الحجز.

بينما كان المهووس بالمعلوماتية(*) ينقر على لوحة أزرار حاسوبه بسرعة مذهلة، تابعت إيما حديثها:

- لدى إيمامورا ثلاثة صالونات تزيين في نيويورك. أحدها في سوها، والثاني في ميدتاون والأخير في يوبر إيست سايد.

قال رومالد:

(*) **غيك** (Geek): وتعني الشخص المهووس بشكل كبير بمجال معين. وتستخدم الكلمة اليوم في أغلب استعمالاتها لوصف المهووسين بالكمبيوتر وشبكة الإنترنت والألعاب الإلكترونية (المترجم).

- إنّه يداوم هنا، بعد ظهيرة اليوم.

منفعلةً، انحنت إيما على شاشة الحاسوب.

شرح الفتى الفرنسي:

- إنّه المبدأ نفسه حينما تحجزين عبر الإنترنت طاولةً في مطعم.

- هل يمكنك تعديل الأسماء؟

- بالطبع يمكنني ذلك، وإلّا ما الفائدة من ذلك؟ في أيّ ساعةٍ تريدين الذهاب إلى هناك؟

- في الساعة الخامسة مساءً، هل هذا ممكن؟

- إنّها مسألة بسيطة للغاية كلعبة أطفال.

أدرج اسم إيما في محلّ اسم الزبونة التي كان يُفترض بها أن تحضر في تلك الساعة، دون أن ينسى إرسال رسالة إلى هذه الأخيرة لكي يخبرها بأن تؤخّر موعدها.

لم تصدّق ساقية النبيذ الشابّة عينيها.

قالت بحماس وهي تطبع قبلة على خدّ الصبي:

- لقد أحسنتَ صنعاً، أيها العازف كالاغان! أنت أيضاً ساحر!

احمرّت سحنة رومالد المدوّرة.

قال بتواضع:

- كان هذا أمراً سهلاً.

قالت له وهي تفتح الباب لكي تذهب إلى وظيفتها:

- لا يبدو عليك ذلك، ولكنّك فعلاً داهية على نحوٍ عجيب. طبعاً، سوف تحتفظ بكلّ هذا سرّاً لك وحدك، أليس كذلك؟

* * *

بوسطن
متجر بروكس براذرز
الساعة الثالثة وثلاثون دقيقة من بعد الظهيرة

أعطت آبريل رأيها:

- أنت فعلاً أنيق. القَصَّة الكلاسيكية، هذا ما سيجعلك الأفضل: كتفان مرسومان بدقّة، خصرٌ ضيّق ولكن الجذع مريح. هذا أنيق وعصري.

نظر ماتيو إلى صورته المنعكسة في المرآة الطويلة المنصوبة في المتجر الفاخر. وهو حليق الذقن، ومشذّب الشعر، ويرتدي سترة مطبّقة على قياسه تماماً، كان من المتعذّر التعرّف عليه.

منذ متى لم أعد أرتدي بزّة رسمية؟

دوّت الإجابة في رأسه. كانت غير مريحة ومزعجة.

منذ زواجي.

ألحّت عليه آبريل وهي تزرّر له أحد أزرار سترته:

- كدتُ أن أغيّر رأيي فيه.

أرغم نفسه على الابتسام لكي يشكرها على الجهود التي تبذلها من أجله.

أكّدت وهي تنظر إلى ساعةِ يدها:

- سوف ننهي لباسك بمعطفٍ مستقيمٍ من الصوف وننطلق إلى المطار. هناك دائماً ازدحامٌ في حركة المرور في هذه الساعة من النهار ومن غير الوارد أن تتخلّف عن موعد طائرتك!

بعد أن دفعا ثمن مشترياتهما، ركبا سيارة الكامارو وسلكت آبريل الطريق إلى مطار لوغان. التزم ماتيو الصمت طيلة المسافة إلى المطار. على مرّ تقدّم الوقت في النهار، كان يفقد نشاطه وحيوته

ويشعر بأن حماسته تخمد. في الوقت الراهن، لم يعد هذا اللقاء مع إيما لوفنشتاين يبدو له فكرة حسنة مثلما كانت مساء أمس. ومن خلال التفكير جيّداً فيه، لم يعد لهذا الموعد أيّ معنى:

كان ذلك الموعد ناجماً عن قرارٍ اتّخذ على نحوٍ متسرّعٍ بينما كان قد شرب كحولاً وتناول أدويةً. لم يكن يعرف تلك المرأة، كان كلاهما قد استسلم للانتشاء بحديثٍ تراسليٍّ مقتضب وإنّ اتصالاً جسدياً سوف لن يسبّب لهما سوى خيبة أملٍ متبادلة.

اندفعت سيارة الشيفروليه في المفرق المؤدّي إلى مرآبٍ. توقّفت آبريل لبرهةٍ قصيرة أمام الموقف المخصّص للتوقّف القصير لكي تتيح الوقت لصديقها لكي يخرج من السيارة. بينما منح ماتيو لنفسه فرصة معانقتها، حاولت العارضة إيجاد كلماتٍ مشجّعة.

- أعرف جيّداً بماذا تفكّر، يا مات. أعرف جيّداً بأنّك تخاف وبأنّك الآن نادمٌ على أنّك ملتزم، ولكنني أتوسّل إليك أن تذهب إلى هذا الموعد. وافق بإشارةٍ من رأسه وصفق باب السيارة خلفه وأخذ حقيبته من صندوق السيارة. وجّه إلى صديقته آخر تحية قبل أن يدخل إلى مبنى المطار.

عبر البهو بسرعة. ولأنّه كان قد حجز تذكرته عبر الإنترنت، مرّ على نقاط التفتيش الأمنية وانتظر في قاعة المسافرين. في اللحظة التي نهض فيها لكي يصعد إلى الطائرة، استبدّ به الشكّ ومن ثمّ سيطر عليه الخوف. بدأ يتصبّب عرقاً وتصادمت أفكار متناقضة لا تُعدّ ولا تُحصى في رأسه. للحظة قصيرة، بدا له وجه كيت واضحاً بشكلٍ مذهل ولكنّه أبى أن يشعر بالذنب، وطرف بعينيه مراراً عديدة لكي يطرد هذه الصورة من ذهنه وقدّم تذكرته إلى المضيفة.

* * *

متجر بيرغدورف غودمان
الجادة الخامسة
الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة عصراً

تائهةً بعض الشيء، تجوّلت إيما بين مساند المتجر النيويوركي الكبير ورفوفه. في هذا المكان، كان كلّ شيء مرهِباً، بدءاً من المبنى الضخم المبني من المرمر الأبيض اللون وصولاً إلى المظهر المتكلّف للبائعات - الجميلات مثل عارضات الأزياء - الذي كان يمنح للمرء هيئة مثيرة للرثاء لنفسه. في أعماقها، اعتقدت إيما أنّ متجراً «مثل هذا المتجر» - حيث لا يسأل المرء عن الأسعار فيه، وحيث يجب أن يكون المرء جميلاً وغنياً وواثقاً من نفسه حتى يستطيع أن يقيس ثياباً - لم يكن مخصّصاً لها، ولكنها اليوم كانت تشعر بأنّها قادرة على أن تتغلّب على كبتها. كان ذلك أمراً غير عقلاني ولكنّها كانت تثق كثيراً بهذا الموعد. في هذه الليلة، تقريباً لم تذق طعم النوم؛ هذا الصباح، وقد عيل صبرها، استيقظت باكراً وظلّت لأكثر من ساعة تستعرض خزانة ملابسها لكي تعثر على ثيابٍ تُظهر أهميتها.

بعد العديد من محاولات التجريب والشكوك، انتهت إلى اتخاذ القرار بارتداء طقم ناسبها تماماً: صدار بلون الشوكولا مطرّز بخيوط نحاسية اللون وتنوّرة عالية الخصر من الحرير الأسود اللون كانت تترك أثرها. ولاستكمال ثيابها، كانت تحتاج إلى معطفٍ جديرٍ بهذا الاسم. ومعطفها لم يكن سوى قطعة موكيت قديمة وشنيعة ومشوّهة. منذ أن أصبحت في المتجر، كانت خطواتها تقودها دائماً نحو ذلك المعطف المقصّب القصير الرائع. لمست نسيج الحرير المزيّن برسومات مطرّزة بالذهب والفضّة. كان في غاية الجمال إلى درجة أنّها لم تجرؤ حتى على ارتدائه لمعرفة مقاسه.

سألت بائعة كانت قد لاحظت حيرتها:
- هل يمكنني أن أقدّم لكِ مساعدة، يا سيّدتي؟
طلبت إيما أن تجرّب المعطف. كان مقاسه يناسبها على نحوٍ مذهل، ولكنّ ثمنه كان 2700 دولار. كان ذلك جنوناً لم تكن تتوفّر أبداً على الأموال اللازمة للإقدام عليه. للوهلة الأولى، كان راتبها لائقاً، سوى أننّا في مانهاتن وأنّ كلّ شيء غالي الثمن بشكلٍ غير معقول. سيما وأنّ جزءاً كبيراً من مدّخراتها تذهب لقاء الجلسات الأسبوعية للمعالجة النفسية. مصروفٌ ضروري للحياة. كانت طبيبتها النفسانية مارغريت وود قد أنقذتها حينما كانت في أسوأ حالاتها. وقد علّمتها كيف تحمي نفسها وتبني حواجز لكي لا تدع الخوف أو الجنون يلتهمانها.
وها هي الآن، تعرّض نفسها للخطر.
قدّمت إيما أعذارها وخرجت من حجرة القياس. قالت:
- سوف لن أشتريه.
راضية عن عدم خضوعها لنزوتها، اتّجهت نحو مخرج المتجر. بعد أن ألقت نظرة أخيرة على رفوف عرض الأحذية، تأمّلت بإعجاب في زوجٍ من الأحذية من ماركة بريان أتوود من الجلد الوردي اللون المنمّش. كان موديل الحذاء المعروض مناسباً لقياس قدميها. دسّت قدمها في الحذاء وأصبحت تشبه سندريلا. كان لزوج الأحذية المصنوعة من جلد الثعبان القديم وجه بنفسجي وكعبان ملبّسان عاليان جدّاً. كان من نوع الأحذية القابلة لأن تناسب أي لباسٍ كان. ناسيةً قراراتها المناسبة، أخرجت إيما بطاقتها الائتمانية لكي تدفع الثمن الحلم: 1500 دولار. قبل أن تذهب إلى صندوق المحاسبة، عادت على أعقابها باندفاعٍ وحماس لكي تشتري المعطف

المقصّب. كانت الميزانية التي كلّفها هذا التسوّق المغامر: راتب شهرٍ ونصف والذي تبخّر خلال بضع دقائق.

حينما خرجت إلى الجادة الخامسة، شعرت إيما بالبرد. تخدّر جسمها، فعقدت وشاحها وأخفضت رأسها لكي تتقي الريح، ولكنّ لسعة البرد كانت شديدة جداً. جمّدتها هبّة جليدية في مكانها وخدّرت وجهها ونمّلت كلّ أعضاء جسدها. كانت الدموع تنهمر من عينيها وتحرق وجنتيها من لسعة البرد. لم تعد لديها الشجاعة على الاستمرار في السير على قدميها. تقدّمت إلى حافة الرصيف لكي توقف سيارة أجرة، أعطت للسائق عنوان صالون التجميل ولكنّها طلبت منه أن يمرّ أوّلاً على روكفيلر سنتر حيث تركت لدى بواب مطعم إمبراتور الكيس الذي يحتوي على معطفها القديم وأحذيتها القديمة.

كان صالون آكاهيكو إيماموروا للتجميل عبارة عن محلٍّ فسيح ومُضاء في قلب حي يوبر إيست سايد: جدرانه مطلية بلون الصوف ورفوفه من الخشب الأشهب وفيه أرائك جلدية كبيرة وزوايا شفّافة مزيّنة بأزهار السحلبية.

أعطت إيما اسمها لمضيفة الاستقبال والتي تحقّقت من الموعد على لوحة أزرار حاسوبها. كان كلّ شيء منظّماً، وقد نجحت الحيلة المعلوماتية التي قام بها رومالد.

بانتظار المعلّم، غسلت إحدى المساعدات شعرها وأخذت وقتها في تمسيد فروة رأسها. تحت تأثير أصابعها الرشيقة، استرخت إيما ناسيةً مصاريفها وتوتّرها وقلاقلها لكي تنغمس بشهوانية في الراحة الدافئة والمثيرة للمكان. ثمّ دخل المزيّن إيماموروا وألقى عليها التحيّة منتصب القامة ونظرته نحو الأسفل.

أخرجت إيما من حقيبتها صورة للممثلة كيت بيكينسيل كانت قد اقتطعتها من مجلّة.

- هل يمكنك أن تزيّنني بهذه الطريقة نفسها؟

لم يبدِ إيماموارا اهتماماً بصورة الممثلة. وعوضاً عن ذلك، حدّق مطوّلاً في وجه زبونته وغمغم ببضع كلمات باللغة اليابانية مع مساعدته المختصّة بصبغ الشعر. ثمّ تسلّح بمقصّ وبدأ بقصّ بعض الخصلات. عمل لما يقارب عشرين دقيقة قبل أن يسلّم العمل إلى الاختصاصية في الصبغ والتي استخدمت لوناً جريئاً هو البنيّ المائل للاحمرار في صبغ الشعر من جذوره وحتى أطرافه. ما أن انتهت عملية صبغ الشعر، غسل إيماموارا بنفسه شعر إيما وبادر إلى قصّه. خصلة بخصلة، لفّ الخصلات الطويلة على لفّافات ضخمة وجففها معاً قبل أن يحلّها لكي يستأنف التصفيف بأصابعه.

كانت النتيجة مذهلة. كان شعرها قد رُفِعَ في جديلةٍ أنيقة ملتفّة حلزونياً في مؤخّر رأسها. قصّة وتسريحة لائقة ورهيفة ومتكلّفة جعلت وجهها مشرقاً وأظهرت جمال عينيها الصافيتين وأنوثتها. اقتربت إيما من المرآة، مسحورة بصورتها الجديدة.

افترقت بعض الخصلات المتمرّدة والمتموّجة من الجديلة الملتفّة وجعلت التسريحة أكثر عفوية وطبيعية. أمّا بالنسبة إلى لون الشعر، فكان بكل بساطة رائعاً. كانت أفضل من كيت بيكينسل!

لم تكن قطّ جميلة كما هي عليه الآن. ولذلك استقلّت سيارة الأجرة بلا اكتراث لكي تذهب إلى إيست فيليج. في السيارة، أخرجت علبة مكياجها وأكملت زينتها بقليلٍ من المسحوق الوردي على وجنتيها وبقلم كحلٍ على حاجبيها ولمسة من أحمر الشفاه المرجاني اللون.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة ودقيقة واحدة مساءً حينما دفعت باب مطعم الرقم 5، المطعم الإيطالي الصغير في جنوب حديقة تومبكنس سكوير بارك.

* * *

حطّت طائرة رحلة دلتا 1816 في مطار كندي بعد بضع دقائق من التأخير. في مؤخّرة الطائرة، نظر ماتيو بعصبية إلى ساعةِ يده. كانت الساعة قد بلغت السابعة وثماني عشرة دقيقة مساءً. ما كاد أن ينزل من الطائرة، حتى انقضّ على رتل سيارات الأجرة وانتظر بلهفة لما يقارب عشر دقائق لكي يحصل على سيارة. أعطى عنوان المطعم للسائق وكما لو كان في فيلمٍ سينمائي، وعده بمكافأة جيّدة إن وصل في الوقت المحدّد.

كان الجوّ في نيويورك أيضاً لطيفاً للغاية بالنسبة إلى شهر ديسمبر. كانت حركة المرور نشطة ولكن ليس بالقدر الذي كان متصوّراً. سريعاً جداً، تمكّنت سيارة الأجرة الصفراء اللون من الخروج من منطقة كوينز والوصول إلى جسر وليامزبرغ بريدج قبل أن ينسلّ إلى الشوارع الضيّقة لحي إيست فيليج. كانت الساعة قد بلغت الثامنة وثلاث دقائق حينما توقّفت سيارة الأجرة أمام باب مطعم الرقم 5.

تنهّد ماتيو بعمق. كان قد وصل في الموعد المحدّد، بل ربّما يكون قد وصل أوّلاً دفع أجرة السيارة وخرج إلى الرصيف. شعر بأنّه متوتّر وحائص في آنٍ واحد. تنفّس وتنهّد من جديد لكي يستعيد هدوءه ودفع باب المطعم الإيطالي.

6

مصادفة اللقاءات

الوقت هو السيّد المطلق للبشر؛ هو خالقهم وقبرهم في آنٍ واحد، يمنحهم ما يروق له لا ما يطلبونه هم.

وليم شكسبير

مطعم الرقم 5
نيويورك
الساعة الثامنة ودقيقة واحدة مساءً

قدّمت إيما، وقلبها يدقّ بسرعة، نفسها إلى قسم الاستقبال في المطعم. استُقبِلَت من قبل امرأة شابّة جميلة ذات ابتسامة جذّابة.

– مساء الخير، لدي موعد مع ماتيو شابيرو. لقد حجز طاولةً لشخصين.

سألت المرأة باندهاش:

– حقّاً، ماتيو في نيويورك؟ هذا خبرٌ ممتاز!

نظرت إلى قائمتها الخاصّة بالحجوزات. كان من الواضح أنّ اسم ماتيو غير موجود في القائمة.

– لا بدّ أنّه قد اتّصل مباشرةً بالهاتف المحمول لزوجي فيتوريو. وقد نسي هذا الطائش أن يحدّثني عن الأمر، ولكن هذا ليس بالأمر الجلل، سوف أجد لكما مكاناً جميلاً في العُليّة.

قالت المرأة الشابّة ذلك وغادرت طاولتها.

لاحظت إيما أنّها كانت حامل، بل وفي مرحلة متقدّمة من الحمل.

- هل تريدين أن أنزع عنكِ معطفك؟

- كلا، سأحتفظ به.

- إنّه رائع.

- نظراً لما كلّفني، أنا سعيدة بأن أرى بأنّه قد فعل فعله!

تبادلت المرأتان ابتسامةً.

- أنا اسمي كوني.

- سعدتُ بلقائكِ، أنا اسمي إيما.

- اتبعيني.

- صعدتا درجات سلّم خشبيّ يقود إلى عليّةٍ ذات سقفٍ مقبّب.

أشارت صاحبة المطعم لزبونتها إلى طاولةٍ ذات حواف كانت تطلّ على الصالة الرئيسة.

- هل أقدّم لكِ مشروباً فاتحاً للشهية؟ مع هذا البرد الشديد، هل أجلب لكِ كأساً من النبيذ الدافئ؟

- سوف أنتظر ماتيو.

قالت كوني وهي تمدّ نحوها قائمةً للطعام، قبل أن تتوارى عن الأنظار:

- ممتاز.

نظرت إيما حولها. كان المطعم دافئاً وحميماً وتفوح منه روائح طيّبة.

على قائمة الطعام، كان هناك نصٌّ قصير يشرح بأنّ المطعم يُسمى «الرقم 5» تكريماً للاعب البيسبول جو ديماجيو. حينما كان

يلعب مع فريق نيويورك يانكيز، كان اللاعب الأسطوري يرتدي في الحقيقة سروالاً قصيراً مطرّزاً بهذا الرقم. وعلى الجدار المبني من القرميد، كانت صورة للبطل الرياضي وللمثلة مارلين مونرو تترك الانطباع بأنّ الزوجين كانا قد تناولا العشاء معاً في هذا المطعم. كان من الصعب تصديق هذا الأمر ولكنّ الفكرة كانت جميلة.

نظرت إيما إلى ساعتها: كانت الساعة قد بلغت الثامنة وأربع دقائق مساءً.

* * *

مطعم الرقم 5
نيويورك
الساعة الثامنة وأربع دقائق مساءً

صرخ فيتوريو وهو يشاهد صديقه يعبر باب المطعم:

– ماتيو! هذه هي إذاً، إنّها المفاجأة المقدّسة!

– فيتوريو، هذا يسعدني!

أخذ الرجلان بعضهما بالأحضان وتعانقا:

– لماذا لم تخبرني بأنّك سوف تمرّ؟

– اتّصلتُ هذا الصباح بكوني، أليست هنا؟

– كلا، لقد بقيت في البيت اليوم، بول يسبّب لنا التهابات في الأذن باستمرار.

– كم يبلغ عمره الآن؟

– بعد شهر، سيصبح عمره عاماً كاملاً.

– هل لديك صورة له؟

– نعم، انظر كم غدا كبيراً!

أخرج فيتوريو محفظته لكي يسحب منها صورةً لطفلٍ رضيعٍ ممتلئ الخدّين.

ابتسم ماتيو:

- إنّه فعلاً صبيٌّ قويّ البنية.

قال صاحب المطعم ممازحاً وهو يلقي نظرة على قائمة حجوزاته:

- نعم، هذا بفضل البيتزا التي أضعها في رضّاعاته!

- آه، أرى أنّك قد طلبت من كوني بأن تحجز لك «طاولة العشّاق» خاصّتنا! هكذا إذاً، أتمنى أن تكون ضيفتك جميلة!

كان متضايقاً ولكنّه حاول أن يلطّف الجو قائلاً:

- لا تتحمّس كثيراً. ألم تصل بعد؟

- كلا، ما زالت الطاولة شاغرة. تعالَ معي لكي تجلس إلى الطاولة وتنتظرها. هل أقدّم لك شراباً فاتحاً للشهية؟

- كلا، شكراً لك، سوف أنتظر إلى حين مجيء إيما.

* * *

مطعم الرقم 5

نيويورك

الساعة الثامنة وستّ عشرة دقيقة مساءً

ماتيو شابيرو، يبدو أنّ والديك لم يعلّمانك بأنّ الالتزام الدقيق بالمواعيد هو من آداب الملوك... عاتبته وهي تنظر إلى ساعة يدها.

وهي تجلس في العلية، كانت تستطيع أن تراقب باب المطعم. في كلّ مرّة كان ينفتح الباب، كانت تتوقّع دخول ماتيو، وفي كلّ مرّى كانت تُصاب بخيبة أمل. أدارت رأسها لكي تنظر من خلال

النافذة. كان الثلج قد بدأ بالتساقط. كانت بعض الندائف القطنية والفضيّة اللون تدوّم وسط أضواء المصابيح المعلّقة في الشارع. أطلقت تنهيدة خفيفة ثمّ أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها لترى إن كانت قد تلقّت رسائل جديدة.

لم تكن هناك أيّ رسائل واردة إليها.

بعد تردّدٍ، قرّرت أن ترسل رسالة إلكترونية عبر هاتفها الذكيّ. بعض الجمل الخفيفة التي كانت تخفي نفاد صبرها:

عزيزي ماتيو،

لقد وصلتُ إلى مطعم الرقم 5.

أنا أنتظرك في الداخل.

البيتزا بالأرضي شوكي وبجبنة البارميزان والجرجير

لها مظهرٌ مدهش!

تعال بسرعة، أنا أتضوّر جوعاً!

إيما

* * *

مطعم الرقم 5

نيويورك

الساعة الثامنة وتسع وعشرون دقيقة مساءً

قال فيتوريو وهو يرافق صديقه إلى العليّة:

- حسناً يا ماتيو، لقد تأخّرت أميرتك عليك.

أقرّ ماتيو بذلك:

- هذا صحيح.

- ألا تريد الاتصال بها؟

- لم نتبادل أرقام هواتفنا.

- هيّا، لا تقلق: نحن في مانهاتن. أنت تعلم جيّداً بأننا نحن سكان نيويورك لدينا مفهوم مطّاطي عن الدقّة في المواعيد.

بدرت من ماتيو ابتسامة مشوبة بالتوتّر والاضطراب. ونظراً إلى عدم القدرة على الاتصال بإيما، كتب رسالة لكي يُعلِمُها بوصوله إلى المطعم:

عزيزتي إيما،

صديقي فيتوريو حريصٌ حرصاً شديداً على أن يجعلكِ تتذوّقين كأساً من نبيذ توسكان. إنّه نبيذٌ من كروم سانجيوفيز أنتِجَ في مزرعة صغيرة خاصّة قرب مدينة سيينا الإيطالية. نبيذ لا ينضب من بين أصناف النبيذ الإيطالية التي يعتبرها فيتوريو كأجود أنواع النبيذ في العالم. تعالي بسرعة وضعي حدّاً لثرثرته وتباهيه!

مات

* * *

مطعم الرقم 5

نيويورك

الساعة الثامنة وست وأربعون دقيقة مساءً

أحسّت إيما بالخزي. كان هذا الرجل وغداً! ثلاثة أرباع الساعة من التأخير دون أن يرسل رسالة إلكترونية أو يتّصل بالمطعم لكي يعتذر عن الحضور إلى الموعد!

اقترحت كوني:

- هل ترغبين في أن أتّصل بماتيو على هاتفه المحمول؟

كانت صاحبة المطعم قد لاحظت اضطرابها وتوتّرها. منحرفة المزاج، غمغمت إيما:

- أنا. أنا أريد ذلك، نعم.

اتّصلت كوني على رقم هاتف ماتيو، ولكنّها تلقّت الردّ من المجيب الآلي.

- لا تقلقي، سوف يأتي. لا شكّ أنّ هذا التأخير سببه تساقط الثلج.

أشار «رنينٌ» خفيف إلى وصول رسالة إلكترونية.

أخفضت إيما عينيها نحو شاشتها. كانت رسالة ردّ تعلن عن وجود خطأ من نمط «مستخدم مجهول» والتي تنبئها بأنّ الرسالة التي أرسلتها إلى ماتيو لم تستطع الوصول إلى وجهتها.

غريب...

تحقّقت من العنوان وحاولت أن ترسل الرسالة للمرّة الثانية ولكن محاولتها باءت بفشلٍ جديد.

* * *

مطعم الرقم 5

نيويورك

الساعة التاسعة وثلاث عشرة دقيقة مساءً

قال ماتيو وهو يوافق على أخذ زجاجة البيرة التي قدّمها له فيتوريو:

- أعتقد أنّها سوف لن تأتي.

ردّ صديقه متأسّفاً:

- لا أدري ماذا أقول لك.

La donna è mobile, qual piuma al vento...[1]

تنهّد قائلاً:

- يمكننا أن نقول هذا.

كان قد أرسل رسالتين إلكترونيتين جديدتين إلى إيما ولم يتلقّ أيّ ردّ. نظر إلى ساعة يده ونهض من الكرسي.

- هل تطلب لي سيارة أجرة إلى المطار؟

- هل أنت متأكّد من أنّك لا تريد النوم في البيت؟

- كلا، أشكرك. قبّل كوني نيابة عني.

غادر ماتيو المطعم في الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة مساءً وكان في المطار عند الساعة العاشرة وعشر دقائق. استغلّ مسافة الطريق لكي يفعّل بطاقته لرحلة الإياب. وقد حجز على الرحلة قبل الأخيرة في ذلك النهار.

أقلعت طائرة المسافات المتوسّطة من نيويورك في الوقت المحدّد وحطّت في بوسطن في الساعة الثانية عشرة وثلاث وعشرين دقيقة من بعد منتصف الليل. في تلك الساعة، كانت الحركة بطيئة في مطار لوغان. ما أن نزل من الطائرة، استأجر ماتيو سيارة أجرة وعاد إلى بيته قبل الساعة الواحدة فجراً.

حينما دفع باب منزله في حي بيكون هيل، كانت آبريل قد نامت. أدخل رأسه إلى غرفة ابنته لكي يتبيّن أنّ إيميلي كانت تنام نوماً عميقاً ومن ثمّ عاد إلى المطبخ. شرب كوباً كبيراً من الماء

---

(1) المرأة متقلّبة، مثل ريشةٍ في الريح.

وبحركة آلية، شغّل الحاسوب المحمول الذي كان قد بقي على طاولة البار. لدى مراجعته لبريده الإلكتروني، لاحظ أنّه قد تلقى بريداً من إيما لوفنشتاين، لكن الغريب في الأمر، إنّ البريد كان موجوداً في الحاسوب وليس على هاتفه.

* * *

مطعم الرقم 5
نيويورك
الساعة التاسعة وتسع وعشرين دقيقة مساءً

أغلقت إيما باب المطعم وصعدت إلى سيارة الأجرة التي كانت كوني قد طلبتها لها. كانت الرياح قد هدأت، ولكن الثلج الذي كان يتساقط بإيقاع منتظم بدأ يغطّي الأرض. في السيارة، حاولت أن تتخلّص من الأفكار السلبية التي كانت تراودها، ولكن الغضب كان يزداد قوّةً في داخلها. أحسّت بأنّها قد أُهينَت وجرت خيانتها. احتقرت نفسها لأنّها جعلت نفسها تقع مرّة أخرى في فخّ رجل؛ لأنّها اعتقدت بأنّها سوف تسمع كلمات جميلة؛ بأنّها كانت على هذا القدر من السذاجة. حينما وصلت إلى بهو عمارة 50 نورث بلازا، سارت على السلالم لكي تنزل إلى قبو المسكن. كان مغسل الثياب الجماعي مقفراً وكئيباً ومتّسخاً. جالت في الممرّات الرمادية ذات الجدران الباهتة لكي تدخل إلى حجرة حاويات القمامة في الجزء الأكثر عتمةً والأكثر توسّخاً في العمارة. من شدّة غضبها وحنقها، حطّمت كعبي حذائها ورمتهما في إحدى الحاويات المعدنية. بعد أن مزّقت المعطف باهظ الثمن والذي لاقى مصير الكعبين نفسه في الحاوية.

انهمرت دموعها واستقلّت المصعد حتى وصلت إلى شقتها.

فتحت الباب وتجاهلت نباح كلبها ونزعت ثيابها قبل أن تهرع إلى الحمام وتقف تحت رشّاش المياه الباردة جدّاً. من جديد، أحسّت بأن تلك الرغبة الجامحة في إيذاء نفسها تتصاعد في داخلها وأحسّت بأنّها تريد العودة إلى ذلك العنف القاسي الذي كانت تمارسه ضدّ ذاتها والذي كان يجتاح كيانها بأكمله. كانت تتألّم بشدّة لدرجة أنّها لم تعد تسيطر على انفعالاتها.

كان الأمر منهكاً لها ومرعباً. كيف استطاعت في غضون دقائق قليلة أن تنتقل من حالة الإثارة والحماس إلى حالة من الكآبة؟ وأن تتعاقب في وقتٍ قصيرٍ للغاية الفرحة العارمة والأفكار الأكثر سوداويةً؟

كانت أسنانها تصطكّ من البرد الشديد حينما خرجت من الحجرة الزجاجية في الحمّام ولفّت جسدها بمئزرها وأخذت قرصاً منوّماً من درج الصيدلية المنزلية وأوت إلى سريرها. على الرغم من تناولها القرص المنوّم، لم تفلح إيما في القدرة على النوم. تقلّبت في السرير على كلّ الجهات، لكي تحظى بوضعية مريحةٍ للنوم، ثمّ بعد أن يئِست، استكانت وأخذت تحدّق بيأس إلى السقف. كان من الواضح أنّها كانت متوتّرة للغاية ولا يمكنها أن تنام. وإذ لم تستطع النوم أبداً، وقد بلغت الساعة الواحدة فجراً، شغّلت حاسوبها المحمول لكي ترسل آخر رسالة إلكترونية إلى الرجل الذي أفسد عليها سهرتها. رفعت، حانقةً، الغطاء المزخرف بلاصقةٍ تمثّل حوّاء جميلة منمنمة.

* * *

اكتشف ماتيو، مذعوراً، الرسالة الإلكترونية المرسلة من قبل إيما.

من: إيما لوفنشتاين

إلى: ماتيو شابيرو

الموضوع: الرجل القذر

بخلاف ما جعلتني أعتقد، ليس لديك أيّ لباقة ولا أي تربية. لا تكتب إلي مرّة أخرى، لا ترسل إليّ رسائل مرّة أخرى.

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

الموضوع: ردّ: الرجل القذر

ولكن عن ماذا تتحدّثين، يا إيما؟ لقد انتظرتكِ طيلة السهرة في المطعم! وأرسلتُ إليكِ رسالتين إلكترونيتين ولم ترديّ عليهما!

هذا هو، اسخر منّي! بماذا تتسلّى، هنا؟ تحمّل على الأقل عناء اختلاق حجّة واهية: البرد، الثلج. لك حرية الاخيار.

الثلج؟ لا أفهم على ماذا تلومينني، يا إيما. في نهاية المطاف، أنتِ مَنْ تخلّفتِ عن موعدٍ حددتِه معي!

أنا كنتُ موجودة في الموعد، يا ماتيو. انتظرتكَ طيلة السهرة. ولم أتلقّ أي رسالة إلكترونية منك!

إذاً لا بدّ أنّكِ قد أخطأتِ في المطعم.

كلا. لم يكن هناك سوى مطعمٍ واحدٍ باسم رقم 5 في حيّ إيست فيليج. حتى إنني تحدّثتُ مع صديقتك كوني، زوجة فيتوريو.

أنتِ تكذبين: لم تكن كوني في المطعم ذلك المساء!

بالتأكيد كانت موجودة في المطعم! إنّها جميلة، سمراء، شعرها قصير وهي حامل على الأقلّ في شهرها الثامن!

أنتِ تتفوّهين بترّهات. لقد وضعت كوني طفلها منذ سنة على الأقلّ!

قبل أن ينقر على لوحة اللمس لكي يرسل الرسالة، رفع ماتيو رأسه عن شاشة حاسوبه. كانت هذه المحادثة أشبه بحوار الطرشان. بدت إيما صادقة وحسنة النيّة ولكن حججها لم تكن لها أي معنى. لم يكن هناك أي شيء منطقي في روايتها. شرب جرعةً من الماء وفرك أجفانه.

هذه الإشارة إلى الثلج، إلى حبل كوني...

عبس وتفحّص بإمعان كلّ الرسائل الإلكترونية التي كانت إيما قد أرسلتها إليه منذ عشية اليوم السابق.

فجأةً، أذهله أمرٌ - تفصيلٌ مميّز لم يكن له مثيل - وراودت فكرة مجنونة ذهنه. سأل:

في أيّ يومٍ نحن اليوم، يا إيما؟

أنت تعرف التاريخ جيّداً: إنّه العشرون من ديسمبر.

من أيّ عام؟

استمرّ في السخرية من.

أخبريني من أيّ عام، من فضلك!

هذا الرجل مجنون، فكّرت وهي تنقر على أزرار لوحة المفاتيح. ومن باب تبرئة الذمّة، راجعت من جديد الرسائل الإلكترونية المرسلة من قبل ماتيو. كانت كلّ الرسائل مؤرّخة بتاريخ شهر ديسمبر. 2011. بعد عامٍ واحدٍ، يوماً بيوم، مقارنة بهذا اليوم.

* * *

استبدّ بها الذعر، فأطفأت حاسوبها.
احتاجت إلى عدّة دقائق لكي تتجرّأ على صياغة الموقف ذهنياً.
كانت تعيش في عام 2012.
وكان ماتيو يعيش في عام 2011.
ولسببٍ كانت تجهله، بدا أنّ حاسوبهما المحمولين كانا الوسيلة الوحيدة للتواصل بينهما.

القسم الثاني

المتوازيات

اليوم الثالث

7

المتوازيات

لا خوف بلا أمل ولا أمل بلا خوف.

باروخ سبينوزا

في اليوم التالي

21 ديسمبر

حينما استيقظا في اليوم التالي، كان لدى إيما وماتيو ردّ الفعل نفسه: راجعا باضطرابٍ وعصبية صندوق بريدهما الإلكتروني وارتاحا لعدم وجود أي رسالة فيه.

سألت إيميلي وهي تتدحرج في المطبخ كالعاصفة لكي ترتمي بين ذراعي والدها:

- بابا، هل سنذهب لمشاهدة هداياي بمناسبة أعياد الميلاد، هذا الصباح؟

رفعها إلى الكرسي وأجلسها بجانبه. ثمّ وبّخها قائلاً:

- أوّلاً، نقول صباح الخير.

لثغت وهي تفرك عينيها:

- ثباح الخير بابا.

انحنى لكي يقبّلها. ألحّت عليه بالسؤال:

- إذاً أخبرني، هل سوف نذهب؟

- حسناً عزيزتي. سوف نذهب لنقتني لكِ الهدايا من المتاجر لكي تستطيعي أن تكتبي رسالتكِ إلى بابا نويل.

طقس بابا نويل... أيمكنه أن يُبقي إيميلي أسيرة الوهم والسذاجة وسهولة التصديق؟ لم يكن لديه رأي واضح حول هذا السؤال. بشكلٍ عامّ، لم يكن يريد أن يكذب على ابنته، ومن وجهة النظر هذه، كان عدم الإيمان ببابا نويل يُعتبَر خطوة نحو سنّ البلوغ وتشكيل فكر عقلاني. ولكن من جانبٍ آخر، ربّما كان الوقت لا يزال مبكّراً لكي يحرمها من هذا السحر. من جرّاء الصدمة التي تعرّضت لها بوفاة كيت، عاشت إيميلي سنةً عصيبة. وكان من الممكن أن يكون لإدامة الاعتقاد بالمعجزة تأثيراً نفسياً إيجابياً على الفتاة الصغيرة. وبالتالي قرّر ماتيو أن يُمدّد، في فترة الأعياد هذه، الفاصل السحري وأن يؤجّل كشف هذا «السرّ العظيم» إلى السنة المقبلة.

سألت آبريل بمرح وسعادة وهي تنزل السلالم:

- مَنْ يُريدُ لبناً بالحبوب؟

قالت إيميلي وهي تقفز من كرسيّها وتهرع إلى معانقة المرأة الشابّة:

- أنا! أنا!

تلقّفتها على نحوٍ خاطف وقبّلتها.

سألت إيميلي:

- هل ستأتين معنا إلى متجر الألعاب؟

قال ماتيو:

- آبريل لديها عمل اليوم.

أبدت الطفلة ملاحظة:

- ولكننا في يوم الأحد!

شرحت آبريل:

- هذه آخر عطلة نهاية الأسبوع قبل أعياد الميلاد. ولذلك يبقى محلّنا مفتوحاً بشكلٍ يومي حتى يتمكّن البالغون أيضاً من شراء هداياهم، ولكنني سوف لن أذهب إلى العمل إلا بعد منتصف النهار وبالتالي يمكنني مرافقتكم هذا الصباح.

- هذا رائع! وهل يمكنكِ أن تعدّي لي كوباً كبيراً من الشوكولا الساخنة مع قطع صغيرة من المارشملو؟

- شريطة أن يوافق بابا على ذلك.

لم يعترض ماتيو على تقديم هذه الحلوى. غمزت له آبريل وشغّلت جهاز الراديو وهي تعدّ الفطور.

سألت:

- إذاً، ماذا عن تلك السهرة؟

غمغم ماتيو وهو يدسّ كبسولة من القهوة في جهاز الإكسبريسو:

- باءت بالفشل الذريع.

ألقى نظرةً على إيميلي. كانت، وهي تنتظر كوبها من الكاكاو، تلعب بحاسوبها اللوحي وهي تدمر خنازير خضراء اللون بوساطة لعبة **الطيور الغاضبة**(*) بصوتٍ خفيض، روى ماتيو لشريكته في الإيجار مغامرته التي لا تُصدّق في الليلة الماضية.

أقرّت آبريل:

- تفوح رائحة سيّئة من هذه الحكاية. ما الذي تنوي فعله؟

(*) *Angry Birds*: الطيور الغاضبة هي لعبة فيديو واسعة الانتشار (المترجم).

- لا شيء، فقط نسيان هذه الهزيمة على أمل ألا أعود لتلقّي رسائل من هذه المرأة.

- لقد حذّرتك: المزاح على الإنترنت أمرٌ خطيرٌ للغاية.

- أنتِ وقحة! ولكنّكِ أنتِ من شجّعتِني على دعوتها إلى المطعم!

- فقط لكي لا تعيش في الوهم! اعترف بأنّ القصة كانت بعيدة بعض الشيء من أن تكون حقيقية، هذه المرأة التي كان لها مزاجك نفسه، التي كانت تتقاسم معك الأذواق نفسها والتي نجحت سريعاً جدّاً في أن تجعلك تتجاوز تحفّظك ضارباً عرض الحائط كلّ حذر.

اعترف:

- ربّما كان عليّ أن أكون أكثر حذراً.

كما لو كانت تريد أن تغلغل السكين في جرحه وتؤجّج قلقه، روت له سلسلة من الوقائع المحزنة المختلفة المرتبطة بحالات نصب واحتيال عبر الشبكة العنكبوتية. قصص محزنة لأشخاصٍ سذّج صدّقوا بأنهم قد التقوا عبر الإنترنت مَنْ اختاره قلبهم قبل أن يتبيّن لهم بعد فترة قصيرة بأنّهم قد وقعوا في فخٍّ يهدف إلى سلبهم أموالهم.

أردفت:

- إمّا أنّ هذه الفتاة مجنونة وإمّا أنّ لديها نوايا سيئة. وفي كلتا الحالتين، لا بدّ أنّها قد استعلمت عنك لكي توقعك في الفخّ بكلّ هذه السهولة. أو أنّه شخصٌ يعرفك جيّداً وقام بهذه الخديعة بهويّة غير حقيقية.

أتكون إحدى طالباتي؟ فكّر ماتيو.

تذكّر فجأةً حادثة مأساوية وقعت السنة الماضية في

Emmanuel College، وهي جامعة كاثوليكية في بوسطن. معتقدةً بأنّها تثرثر عبر الإنترنت مع صديقها العزيز، وافقت طالبةٌ على أن تتجرّد من ملابسها وأن تداعب نفسها أمام كاميرا الويب. ولكن لسوء حظّها، لم يكن خطيبها من كان موجوداً وراء الكاميرا، وإنّما شخصٌ كان قد انتحل صورته الشخصية.

وكان النذل قد سجّل المشهد لكي يبتزّ به الفتاة. وقد طالبها بمبلغٍ ضخم جداً من المال لكي لا ينشر مقطع الفيديو. ولكي يمنح المصداقية لتهديده، أرسل في الليل بعض المقتطفات من الفيلم إلى بعض أقارب الطالبة. تحطّمت الفتاة من الخجل وأُصيبَت بالهلع من تبعات فعلتها، عُثِرَ عليها مشنوقةً في غرفتها صباح اليوم التالي.

سبّبت ذكرى هذه المأساة رعشة رعب عند ماتيو. وجرى عرقٌ باردٌ على سلسلة عموده الفقري.

لم أكن حذراً بالقدر الكافي! لام نفسه من جديد. عند التفكير العميق في المسألة، كان يتمنى لو أنّ هذه المرأة هي مجرّد محتالة، ولكنّه كان يميل أكثر إلى الاعتقاد بأنّها مريضة عقلياً. **إنّ امرأةً تعتقد بأنّها تعيش في عام 2010 هي مشوشّة للغاية.**

وبالتالي في غاية الخطورة.

أعدّ قائمةً بكلّ الأمور التي كان قد أسرّ إليها بها: اسمه، الشارع الذي يقيم فيه، الجامعة التي يدرّس فيها. كما كانت تعرف بأنّ لديه طفلة تبلغ من العمر أربع سنوات ونصف، وبأنّه يمارس رياضة الجوكينغ في الحديقة صباح كلّ يوم ثلاثاء وخميس وأنّ ابنته كانت تذهب إلى مدرسة مونتيسوري وكذلك كانت تعرف في أيّ ظروفٍ كان قد فقد زوجته.

كانت تعرف كلّ شيء... وكان هذا يكفي في كلّ الأحوال

فيما لو أرادت أن تُلحِق به الأذى أو التهجّم عليه. أو أن تُلحِق الأذى بابنته إيميلي. مستسلماً بهذه الطريقة، أحسّ فجأةً بأنّه قد عرّض جزءاً من حياته للخطر.

كلا، أنت مصابٌ بالرُهاب، استمع إلى صوت العقل. من المحتمل أنّه لم يعد ينوي الحديث عن إيما لوفنشتاين هذه وأنّ هذه المغامرة المزعجة سوف تخدمه في المستقبل كدرسٍ يمكن الاستفادة منه. وضع الكوب الذي قدّمته آبريل إليه على طبقٍ وعقد العزم على أن ينسى تلك القصّة نهائياً وإلى الأبد.

- تعالي واجلسي، يا عزيزتي، كوبكِ من الشوكولا جاهز.

* * *

- ابتسما!

بعد ساعة من ذلك، كانت آبريل تلتقط صوراً لإيميلي وماتيو أمام مدخل تويز بازار، أحد متاجر المدينة.

وهو يقع بين زاوية ساحة كوبلي سكوير وشارع كلارندون ستريت، كان متجر بازار عبارة عن متجر ضخم للألعاب في مدينة بوسطن. على بُعد بضعة أيام من أعياد الميلاد، كان الازدحام يبلغ أوجَه: رسوم متحركة، موسيقى، توزيع السكاكر. أعطت إيميلي إحدى يديها لوالدها والأخرى لآبريل. على جانبي الباب ذي المصاريع، كان بوّابون يرتدون أزياء شخصيات من ألبوم ماكس وماكسيمونستر(*) يستقبلونهم وهم يقدّمون لهم مصّاصات من

(*) *Max et les Maximonstres*: ألبوم مصوّر للأطفال أعدّه موريس سينداك ونشره عام 1963، وهو يصف المغامرات المتخيّلة من قبل طفلٍ يُدعى ماكس، غاضبٌ لأنّه أُرسِل إلى غرفته دون عشاء (المترجم).

الحلوى. جالوا على الرفوف الأولى مذهولين ومشدوهين. إذا كانت رفوف المتجر مزدحمة بالأجهزة فائقة التقنية (أجهزة ألعاب فيديو، تماثيل للتعرّف على الأصوات، ألعاب إلكترونية. .)، فإنّ الطابق الأرضي منه كان القسم الجميل المخصّص للألعاب التقليدية: دمى حيوانات من دباديب وكلاب وزرافات وسواها، بيوتات خشبية، لعبة الليغو، دمى.

حملقت إيميلي بعينيها أمام مجسّمات الحيوانات بأحجامها الطبيعية.

قالت بدهشة وهي تداعب زرافة يبلغ ارتفاعها ستّة أمتار:

- إنّها لطيفة!

كان هذا الأمر لا يقبل الجدل: كان المكان ساحراً ومذهلاً وسُرعان ما يُعيد المرء إلى طفولته. انذهلت آبريل للحظةٍ طويلة أمام المجموعة المذهلة لدمى باربي، في حين ظلّ ماتيو فاغر الفاه وهو ينظر إلى قطارٍ كهربائي عملاق كانت سككه الحديد تمتدّ على مسافة عشرات الأمتار.

ترك إيميلي تجري لدقائق إضافية بين رفوف المتجر ومن ثمّ جثا على ركبتيه لكي يكون على مستوى الطفلة. قال لها:

- حسناً، أنتِ تعرفين القوانين: يمكنكِ أن تختاري لعبتين، ولكن يجب أن تكونا مناسبتين للدخولِ إلى غرفتكِ.

قالت إيميلي وهي تزمّ شفتيها:

- إذاً، ليست الزرافة.

- لقد فهمتِ كلّ شيء، يا عزيزتي.

برفقة آبريل، أمضت الفتاة الصغيرة وقتاً مجنوناً في اختيار دمية تيدي بير من بين ما يُقارب مائة نموذج معروضٍ على الرفوف. تجوّل

ماتيو شارد الذهن في المكان الذي كان تُعرض فيه نماذج معدنية من طراز ميكانو(*) ثمّ تبادل بعض الكلمات مع ساحرٍ كان يجول أمام السلالم.

حتى وإن كان عن بعد، كان يُبقي عيناً على ابنته، وهو سعيدٌ برؤيتها على هذه الدرجة من الحماسة. ولكن هذه اللحظات السعيدة كانت تُحيي في داخله ألم فقدان كيت. وشعر بظلمٍ كبير في عدم قدرته على تقاسم هذه اللحظات السعيدة معها. كان يتهيّأ للانضمام إلى آبريل حينما رن هاتفه. ظهر رقم فيتوريو بارتوليتي على شاشة هاتفه المحمول. فتح سمّاعة الهاتف وحاول أنّ يغطّي بصوته على الجلبة المدوّية في المتجر.

- مرحباً، يا فيتوريو.

- صباح الخير، يا مات. أين أنت الآن؟ ما هذا الصخب؟ هل أنتَ في دار حضانة؟

- وسط زحمة مشتريات أعياد الميلاد، يا صديقي العجوز.

- هل تفضّل أن تتّصل بي في وقتٍ لاحق؟

- امنحني فرصة دقيقتين.

من بعيد، وجّه إشارةً إلى آبريل لكي يُخبرها بأنّه سوف يخرج لكي يدخّن سيجارةً، ثمّ غادر المتجر وعبر الشارع لكي يذهب إلى ساحة كوبلي سكوير.

كانت الساحة المزروعة بالأشجار والمنظّمة حول نافورةٍ معروفةً بتناقضاتها المعمارية. كان جميع السوّاح يلتقطون فيها الصورة الساحرة نفسها: الأقواس، الأروقة والنوافذ الزجاجية المزخرفة

(*) ميكانو: لعبة بناء تعتمد على عناصر هي في الأصل معدنية بالكامل (المترجم).

لكنيسة ترينيتي التي كانت تنعكس على الواجهات الملبّسة بالمرايا لبرج هانكوك تاور، وهي ناطحة السحاب الأعلى في المدينة. في يوم الأحد المشمس هذا، كان المكان يضجّ بالحياة والحيوية ولكنّه مع ذلك كان أكثر هدوءً من المتجر. جلس ماتيو على مقعدٍ واتّصل بصديقه.

- إذاً يا فيتوريو، كيف حال بول؟ ماذا بشأن التهاب أذنه؟

- إنّه أفضل حالاً الآن، شكراً لك. وأنت، هل تعافيتَ من أثر سهرتك العجيبة؟

- لقد نسيتها.

- في الحقيقة، أنا أتصل بك بشأن تلك السهرة. هذا الصباح، رويتُ لكوني مغامرتك المزعجة وقد انزعجت كثيراً.

- حقّاً؟

- لقد تذكّرت فجأةً أمراً. قبل ما يُقارب عاماً واحداً، ذات مساءٍ لم أكن فيه في المطعم، استقبلت كوني امرأة شابّة في مطعم الرقم 5. فتاةٌ ادّعت حينذاك بأنّها كانت على موعدٍ معك. وقد انتظرتكَ لأكثر من ساعة، ولكنّك لم تأتِ أبداً.

أحسّ ماتيو فجأةً أنّ الدم يتدفّق إلى صدغيه.

- ولكن لماذا لم تكلّمني كوني عن ذلك أبداً؟!

- لقد حصل ذلك قبل بضعة أيام فقط من حادثة وفاة كيت. كانت كوني تنوي أن تتّصل بك لكي تُعلمك بالأمر ولكن موت زوجتك جعل الواقعة أمراً ثانوياً. حتى إنّها كانت قد نسيت ذلك إلى أن حدّثتها هذا الصباح عمّا جرى معك.

- هل تتذكّر كيف كان شكل تلك المرأة ومَنْ كانت تشبه؟

- حسبما ذكرت لي كوني، كانت امرأة من نيويورك في حدود الثلاثين من عمرها، وكانت جميلة جدّاً وأنيقة للغاية. كوني الآن في بيت والدتها مع بول، ولكنني طلبتُ منها أن تتّصل بك بعد الظهيرة. سوف تحدّثك عنها بالمزيد من التفاصيل.

- هل لديك وسيلة يمكنك من خلالها أن تعرف التاريخ الدقيق الذي جاءت فيه تلك المرأة لكي تتناول العشاء؟

- اصغِ إليّ، أنا الآن في سيارتي، في الطريق إلى المطعم. سوف أحاول أن أعثر في قائمة حجوزاتنا على قاعدة البيانات الخاصّة بنا. تتذكّر كوني بأنّها جاءت في المساء نفسه الذي جاء فيه ابنّ عمّها من هاواي لتناول العشاء في المطعم.

- شكراً لك، يا فيتوريو. أنتظر منك أن تعاود الاتصال بي مرة أخرى. الأمرُ فعلاً مهمٌّ بالنسبة لي.

* * *

نيويورك
مطعم إمبراتور
فترة خدمة الظهيرة

ارتعشت يد إيما على نحوٍ خفيف وهي تسكب النبيذ الأبيض في كؤوسٍ من الكريستال مُعيّنة الشكل.

- سيّداتي، سادتي، لكي ترافقوا أطباقكم من أفخاذ الضفدع المعدّة بالكراميل والفول المحمّص بالثوم في مسحوق الخبز المتبّل، أقترح عليكم نبيذاً من وادي رون: نبيذ من بلدة كوندريو مصنوع في عام 2008، من كروم العنب الأبيض.

ازدردت المرأة الشابّة جرعةً من النبيذ لكي يصبح صوتها

صافياً. لم يكن هناك سوى يدها ترتعش. كان كلّ شيء فيها يترنّح. كانت سهرة اليوم السابق قد زعزعت كيانها تماماً. لم تنم الليلة تقريباً وكانت آلامٌ حادّة في معدتها تتصاعد في طولِ بلعومها.

– يمكنكم الحصول على عذوبة نبيذ كوندريو المعتدل والممدّد. إنّه نبيذٌ عذب يفوح بأريج الورود والأزهار.

انتهت من إعداد المائدة ثمّ أشارت إلى مساعدتها لتخبرها بأنّها بحاجةٍ إلى استراحة. استبدّ بها الغثيان، فتوارت عن الصالة وأغلقت على نفسها باب المغاسل. كانت محمومة ومضطربة وتنضح عرقاً وكان طنينٌ متواصل وموجع يدوّم في جمجمتها. كانت دفقات من سوائل حمضية تؤجّج قناتها الهضمية. لماذا ساء حالها إلى هذه الدرجة؟ لماذا تشعر بأنّها ضعيفة إلى هذه الدرجة؟ منهكة ومنهارة إلى هذه الدرجة؟ كانت بحاجة إلى أن تنام. حينما كانت تتعب، كان كلّ شيء يتسارع ويتدافع في رأسها وتراودها أفكارٌ سلبية بلا انقطاع تقريباً، كانت تتأرجحُ خارج الواقع في عالمِ للأشباح مثيرٍ للرعب والهلع.

هزّها اختلاجٌ فانحنت فوق المغسلةِ لكي تتقيّأ فطورها وظلّت لأكثر من دقيقة في هذه الوضعية، محاولةً أن تستعيد أنفاسها. كانت حكاية البريد الإلكتروني الصادر في المستقبل تلك تدبّ فيها الذعر. **كنّا في شهر ديسمبر من عام 2010**. لم يكن بوسعها أن تتواصل مع رجلٍ يعيش في شهر **ديسمبر من عام 2011**! وبالتالي، هذا الرجل إمّا أنّه مريضٌ عقلياً وإمّا أنّه شخصٌ لديه نوايا سيئة حيالها. وفي كلتا الحالتين، كان ذلك يمثّل تهديداً بالنسبة إليها. تهديدٌ لها ولصحّتها العقلية. كان قد سبق لها وعانت الكثير من الاضطرابات الذهنية وحالات الخبل، لكن هذه المرّة، كانت المصيبة أكبر! خلال الأشهر

الأخيرة، كانت حالتها قد استقرّت، ولكنّها تشعر اليوم بأنّها قد غرقت من جديد في القلق والاضطراب.

ربّما كانت بحاجة إلى أدوية لكي تستردّ هدوءها قليلاً. ربّما كان عليها أن تتحدّث عن ذلك مع طبيبتها النفسانية، ولكن حتى مارغريت وود تغيّبت عن الموعد فقد ذهبت في عطلة أعياد الميلاد إلى آسبن.

تبّاً!

نهضت من مكانها ونظرت إلى نفسها في المرآة، وقد أسندت يديها إلى جانبَي المغسلة. كان القليل من سائلٍ أصفر قد علق بشفتيها فمسحته بمحرمة ورقية وغسلت وجهها ببعض الماء. كان عليها أن تسمع صوت العقل وتستردّ أنفاسها. ليس بوسع هذا الرجل أن يفعل أيّ شيء ضدّها. وإذا ما حاول أن يعاود الاتصال بها، فسوف تتجاهل رسائله. وإذا ما ألحّ على الاتصال بها فسوف تبلّغ الشرطة عنه. وإذا ما حاول التقرّب منها، فسوف تعرف كيف تستقبله: كانت تحمل في حقيبتها على الدوام مسدّساً للذبذبات الكهربائية. بلونه الوردي، كان مسدّسها من طراز **تازر** لا يبدو للوهلة الأولى أنه سلاح للدفاع عن النفس، ولكنّه يبقى فعالاً بشدّة. بعد أن هدأت قليلاً، أخذت إيما نفساً عميقاً ورتّبت شعرها وعادت إلى عملها.

* * *

بوسطن

سألت إيميلي:

– هل يمكنني الحصول على **لوبستر رول**(1) مع بطاطا مقلية؟

---

(1) خبز محشو بسلطة الكركند.

اقترح عليها ماتيو:

- بل مع سلطة.

- عجباً لماذا؟ البطاطا المقلية أفضل!

امتثل ماتيو لطلبها:

- حسناً، ولكن في هذه الحالة، لن تتناولي حلوى. هل اتّفقنا؟

وافقت الفتاة الصغيرة وهي تحاول أن تغمز والدها:

- نعم اتّفقنا.

سجّل ماتيو الطلب لدى النادل وأعاد إليه قائمة الطعام. جلس ماتيو وإيميلي إلى طاولةٍ على شرفة بيسترو 66 في شارع نيوبوري ستريت. بعد نزهتهم في متجر الألعاب، تركتهما آبريل لكي تذهب إلى معرضها. كان ماتيو سعيداً بأن رأى أنّه لا يزال هناك بريقٌ في عيني ابنته. سألها ما هي الهدايا التي تريد أن تذكرها في رسالتها إلى بابا نويل؟ أخرجت إيميلي الآيباد من حقيبتها الظهرية الصغيرة وسألت ما إذا كان بوسع المرء أن يرسل بالأحرى رسالةً إلكترونية إلى بابا نويل، ولكن ماتيو رفض ذلك. كان هذا المَيل إلى زجّ التكنولوجيا في جميع أبعاد الحياة اليومية ينحو على نحوٍ متزايد نحو إزعاجه. وخاصّة اليوم! كان النادل يُحضر إليهما شطيرتهما بالكركند حينما رن هاتفه. كان فيتوريو هو من يتّصل. لم تكن كوني قد عادت بعد ولكنّه كان قد أجرى عمليات بحثٍ من جانبه واستطاع أن يعلم في أيّ يومٍ بالضبط جاءت فيه المرأة الشابّة التي زعمت بأنّ لديها موعدٌ مع ماتيو.

- البارحة، مضى عامٌ كامل على تاريخ مجيئها إلى المطعم: 20 ديسمبر 2010.

أغمض ماتيو عينيه وتنهّد. استمرّ الكابوس.

تابع صاحب المطعم:

- ولكن هذا ليس كلّ شيء. تخيّل لدي فيلمٌ هي موجودة فيه!

- مَنْ؟

- تلك المرأة.

- أهذه مزحة أم ماذا؟

- سأشرح لك ما جرى: في شهر نوفمبر من السنة الماضية، تعرّض المطعم لسرقة محتوياته وتخريب معدّاته أثناء الليل، وقد فصلت بين المرّتين بضعة أيام.

- أتذكّر ذلك. كنتَ تعتقد حينئذٍ بأنّ تلك الحادثة كانت من تدبير الأخوين مانشيني.

- نعم، لم يقبلا قط بأن ننافسهم، ولكنني لم أستطع قط أن أثبت ذلك. باختصار، في تلك الفترة، طلب منّا رجال الشرطة، بصفتهم ضامنين لنا، أن نتزوّد بكاميرا فيديو لتصوير ما يجري في المطعم. على مدار ما يقارب ثلاثة أشهر، عملت الكاميرات على التصوير طوال أربع وعشرين ساعة متواصلة. وقد جرى تسجيل كلّ ما كان يجري في المطعم وتحويله إلى نادلٍ لكي يقوم بحفظه في الأرشيف على أقراصٍ صلبة.

- وهل استطعت أن تضع يدك على صور سهرة العشرين من ديسمبر؟

- تماماً، بل وعثرتُ على صورة الفتاة. وقد كانت الفتاة الوحيدة التي وصلت لوحدها دون أن يرافقها أحد إلى المطعم في تلك السهرة.

- هذا أمرٌ لم نكن نتأمّله، يا فيتوريو! هل يمكنك أن ترسل إليّ نسخة منها؟

- لقد أرسلتُ لك الرسالة الإلكترونية، يا رفيقي.

أغلق ماتيو السماعة وأخرج الحاسوب المحمول من حقيبته الحافظة لكي يوصله بشبكة واي - فاي للإنترنت في مطعم بيسترو 66. لم يكن هناك أي خبر عن إيما لوفنشتاين، ولكن الرسالة الإلكترونية لفيتوريو كانت قد وصلت. كان حجم مقطع الفيديو ضخماً واستغرق وقتاً طويلاً إلى أن تمّ تحميله.

- هل يمكنني أن أتناول منفوشاً بالشوكولا، من فضلك، يا بابا؟

- كلا، يا عزيزتي، لقد قلنا: لا توجد حلوى. أكملي شطيرتكِ.

فتح ماتيو الفيديو ملء الشاشة. ومن دون مفاجأة، كانت الصورة مغبّشة وملتقطة بكاميرا مراقبة. كان المقطع الذي عزله فيتوريو يستغرق أقلّ من دقيقتين. كانت الكاميرا مثبّتة على علوٍّ في ركنٍ من الصالة الرئيسة. كانت ساعة رقمية في أسفل الشاشة تشير إلى أنّه في الساعة الثامنة ودقيقة واحدة مساءً، دفعت امرأة متأنّقة في ملبسها باب المطعم. وقد شوهِدَت تتحدّث باقتضاب مع كوني قبل أن تخرج من الإطار. أشارت شاشة بيضاء إلى أنّه قد تمّ قطع مشهدٍ يجري بعد حوالي ساعةٍ ونصف، أي في الساعة التاسعة وتسع وعشرين دقيقة بالضبط من الليلة نفسها. وتُشاهَد فيه المرأة نفسها وهي تغادر المطعم دون تأخّر. ثمّ تغبّشت الصورة وتوقّف الفيلم. ثمّ أعاد ماتيو تشغيل المقطع وضغط على زرّ التوقيف لكي يجمّد الصورة عند اللحظة نفسها التي كانت المرأة تدخل فيه إلى المطعم. لم يكن

هناك أدنى شكّ. بدا المشهد في غاية الحماقة. كان المشهد يخصّ إيما لوفنشتاين.

- ارتدي معطفكِ يا عزيزتي، سوف ننصرف.

أخرج ماتيو من جيبه ثلاث أوراق نقدية من فئة 20 دولاراً وغادر المطعم دون أن ينتظر المبلغ المرتَجَع من نقوده.

* * *

- لدي مشوار طارئ يجب أن أقوم به، يا آبريل. يجب أن تجهّزي لي سيارتكِ وأن تعتني لي بابنتي إيميلي خلال ساعةٍ أو ساعتين.

ظهر ماتيو فجأةً، وابنته بين ذراعيه، في المعرض الذي كانت شريكته في الإيجار تديره. كانت جدران صالة العرض مفروشة بلوحات يابانية إيروتيكية وبصور ماجنة ملتقطة في دور المتعة في بدايات القرن العشرين. كان المكان مشغلاً بتماثيل أفريقية لا لبس فيها، وبواقيات للعانة وبتماثيل معاصرة على هيئة العضو الذكري على نحوٍ مبالغٍ فيه. حتى وإن كان للمكان طابع فني بحت، إلا أنّه لم يكن مكاناً مناسباً لا للأرواح المحتشمة ولا للأطفال. فعبر ماتيو الصالة بخطوات مستعجلة لكي يضع إيميلي «في مأمنٍ» في مكتب آبريل.

- ستكوني هادئة وستنتظرينني هنا، اتّفقنا، يا عزيزتي؟

- كلا، أريد أن أعود إلى البيت!

أخرج الحاسوب اللوحي من حقيبتها الظهرية واقترح على ابنته:

- هل تريدين مشاهدة فيلمٍ للرسوم المتحركة؟ فيلم **قطط ذوات؟** فيلم **الثعلب والكلب؟**

- كلا، لا قيمة لهذه الأفلام! أريد أن أشاهد فيلم صراع العروش!

- لا يمكن، هذا فيلمٌ عنيفٌ للغاية. هذا ليس مسلسلاً مناسباً للفتيات الصغيرات.

أخفضت إيميلي رأسها وأجهشت في نوبةٍ من البكاء.

مسّد ماتيو صدغيه. كان يعاني من الصداع وكانت ابنته متعبة، من جرّاء ركضها في كلّ الاتجاهات في متجر **تويز بازار**. كانت تحتاج إلى أخذ قيلولة لكي ترتاح هادئةً في سريرها وليس مشاهدة مسلسل للبالغين في الغرفة الداخلية لمعرضٍ فيه تماثيل وصور إباحية.

أتت آبريل للمساعدة.

- أعتقد أنّه من الأفضل لو أنني أعود إلى البيت مع إيميلي.

- أنا أشكركِ! سوف أتغيّب لساعة ونصف على أبعد تقدير.

- ما هذا المشوار؟

- سوف أحدّثكِ عنه، أعدكِ بذلك.

حذرته وهي ترمي له مفاتيح السيارة:

- ستحرص على سيارتي وتحافظ عليها، اتّفقنا؟

* * *

استقلّ ماتيو سيارة الكامارو المركونة تحت الأشجار الضخمة لجادة كومونويلث أفينيو. وكما لو أنّه يذهب إلى عمله، غادر حي باك باي من طريق جسر جادة ماساتشوستس أفينيو الذي كان يعبر النهر ويواصل اتجاهه نحو كامبردج. مرّ بالجامعة ولفّ على بحيرة فريش بوند الشاسعة، ثمّ تابع سيره لبضعة كيلومترات لكي يصل إلى بيلمونت. كان من المفترض أن يعثر على الرجل الذي باع له الحاسوب.

كان عنوان زبون آبريل قد بقي مخزّناً في جهاز تحديد المواقع (GPS)، الأمر الذي أتاح له أن يعثر بسهولة على الشارع الذي كانت تصطفّ بيوت على جانبيه في الحيّ السكني الصغير. هذه المرّة، أوقف السيارة مباشرةً أمام البيت الريفي الأنيق ذي الواقية الخشبية والسقف الشبيه بسقف كاتدرائية. أمام البوابة، استُقبِل بنباح الكلب شار-بيه ذي الوبر الكاشف الذي سبق له أن رآه يوم «خردة التصفية». مغرقاً رقبته في ثنايا جلده كما لو أنّه كان في معطفٍ كبيرٍ جداً، أظهر الكلب احتراساً حذراً وعدائياً.

خرج مالك البيت إلى عتبة الدار وصرخ:

- كلوفيس! تعال إلى هنا!

بينما كان الرجل يجتاز المرج الأخضر للفسحة لكي يأتي لملاقاته، لاحظ ماتيو الاسم على لوحة الجرس: لوفنشتاين.

- هل ترغب؟

كان الشخص نفسه الذي ترك له الحاسوب الشخصي المخفض السعر.

البنية الجسدية الصارمة نفسها، النظّارة المربّعة نفسها، البزّة الخاصّة بدفن الموتى نفسها.

- طاب نهارك، يا سيّد لوفنشتاين، هل يمكنك أن تمنحني بضع دقائق من وقتك؟

- بخصوص أيّ موضوع؟

- لقد بعتني حاسوباً، قبل يومين، خلال عملية خردة التصفية التي.

- نعم، أقرُّ لك بذلك، أنا لا أقدّم خدمات ما بعد البيع.

- لا يتعلّق الأمر بهذا. أتمنى فقط أن أطرح عليك بعض الأسئلة. هل يمكنني الدخول؟

- كلا. أيّ نوعٍ من الأسئلة؟

- لقد أخبرتني بأنّ هذا الحاسوب كان لشقيقتك، هذا صحيح؟

قال باقتضاب:

- احم.

دون أن يُصاب بالإحباط، أخرج ماتيو من جيب معطفه الصور التي كان قد طبعها.

- هل شقيقتك هي هذه المرأة الشابّة نفسها التي تظهر في هذه الصور؟

- نعم، إنّها إيما. كيف حصلت عل هذه الصور؟

- كانت قد بقيت على القرص الصلب للحاسوب. سوف أرسلها لك عبر البريد الإلكتروني إذا أردتَ ذلك.

هزّ رأسه في صمت.

استطرد ماتيو:

- هل يمكنك أن تخبرني أين تقيم إيما الآن؟ أودّ كثيراً أن أتحدّث معها.

- ترغب في التحدّث إليها!

- نعم، هذا أمرٌ شخصي. وهامٌّ جدّاً.

- يمكنك أن تحاول ذلك دائماً، ولكنني أشكّ في أن تردّ إيما عليك.

- لماذا إذن؟

- لأنّها ماتت.

8

قيامة الأموات

لقد دمّر الخوف من الأشياء في هذا
العالم أكثر مما خلقه الفرح.

بوب موران

– منذ مراهقتها، كانت شقيقتي. كانت تُبدي باستمرار جانباً غريب الأطوار وكئيباً، وهي صفة يمكنني أن أنعتها بنوعٍ من «الجنون الدوري».

كان دانييل لوفنشتاين يتحدّث بصوتٍ متصنّع. أمام إلحاح ماتيو، وافق في النهاية على أن يدعه يدخل إلى البيت وأن يروي له حكاية إيما.

واصل دانييل لوفنشتاين الحديث عنها:

– كان مزاجها يتقلّب بشدّة. كنت تراها يوماً المرأة الشابّة الأكثر سعادةً في العالم، وفي اليوم التالي، كانت تتّشح بالسواد ولا تجد معنى لأيّ شيء. هذا التعاقب بين الحالات العفوية والفترات المُحبِطة تسارع بمرور الزمن. في هذه السنوات الأخيرة، تبيّن لي على نحوٍ جليٍّ وواضح بأنّها كانت تعاني من اضطرابٍ في الشخصية. خلال أشهرٍ طويلة، كنتَ تشعر بأنّها ستصبح أحسن

حالاً، ولكن كان هناك باستمرار انتكاسٌ أشدّ وأكثر خطورةً من سابقه.

توقّف لبضع ثوانٍ لكي يشرب جرعةً من الشاي. أصبح الرجلان متقابلين، يغوص كلٌّ منهما في أريكةٍ منجّدة. كانت الغرفة الحزينة والباردة غارقة في الظليل كما لو أنّها مسكونة بشبح إيما.

أسرّ دانييل لوفنشتاين بنبرة مريرة:

- كانت علاقاتها الغرامية هي التي تزلّ بها قدمها على نحوٍ خاصّ. كانت إيما تغرم وتشغف بسهولة كبيرة ببعض الرجال ولم يكن الإحباط الذي ينجم عن ذلك إلا أكثر إيلاماً. على مرّ السنوات، لم توفر علينا شيئاً: نوباتٌ من الهستيريا، محاولات انتحار، عمليات شطب لجسمها بأدوات حادّة، زيارات إلى المستشفيات العامّة. لم تُشخّص قط حالتها رسمياً على أنّها تعاني من ازدواجية في الشخصية، ولكن بالنسبة لي، لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّها كانت تعاني من تلك الحالة.

كلما كانت الأسرار التي يبوح بها دانييل تتّضح أكثر، كلما كان ماتيو يشعر أكثر بانحرافٍ في مزاجه، لشدّة ما كان حقد الأخ على أخته واضحاً وجليّاً. ولكن ما هو جانب الحقيقة في هذه الرواية؟ لم يتردّد دانييل لوفنشتاين في إطلاق فرضيات لم تكن على الإطلاق سليمة من الناحية الطبية بقدر ما كان يفهم ماتيو في هذا المجال.

انحنى دانييل لكي يلتقط الصور من على الطاولة الخفيضة.

- قبل ثلاثة أشهر، خلال فصل الصيف، ارتبطت من جديد بأحد عشّاقها السابقين.

أوضح وهو يشير إلى الرجل الظاهر في الصور:

- هذا الرجل. إنّه رجلٌ فرنسي يُدعى فرانسوا جيرو، وريث

أحد الكروم في بوردوليه. لقد تسبّب لها بالكثير من الألم.

مرّة أخرى، كانت إيما في غاية السذاجة. اعتقدت بأنّه، في هذه المرّة، كان مستعداً لأن ينفصل عن زوجته. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالطبع وبالتالي حاولت مرّة أخرى أن تنتحر في محاولةٍ بدت مشؤومة و.

قوطِع شرحه بالنباح المفاجئ لكلبه.

خمّن ماتيو:

– هذا الكلب كان لإيما، أليس كذلك؟

– نعم، إنّه كلوفيس. كانت متعلّقة به كثيراً. كانت تقول إنّه «الشخص» الوحيد الذي لم يخنها أبداً.

تذكّر ماتيو أن إيما قد تحدّثت عنه مستخدمةً العبارات نفسها في رسائلها الإلكترونية التي تبادلتها معه.

– لا أريد أن أُثير الذكريات الأليمة، يا سيّد لوفنشتاين، ولكن كيف ماتت إيما؟

– رمت نفسها أمام قطارٍ في مدينة وايت بلينس، يوم الخامس عشر من أغسطس الماضي. لا شكّ أنّها أقدمت على ذلك تحت تأثير خليطٍ من الأدوية. في كلّ الأحوال، كانت هناك علب أدوية في كلّ مكانٍ من شقّتها: أقراصٌ من البنزوديازيبينات الخاصّة بالمعالجة النفسية، أقراص منوّمة وقاذورات أخرى.

مغموراً باستذكار ذكرياته الأليمة، نهض لوفنشتاين فجأةً من أريكته لكي يشير إلى أنّ المحادثة قد انتهت.

سأل وهو يُرافق ماتيو إلى باب المنزل:

– لماذا تحرص إلى هذه الدرجة على أن تتحدّث عن أختي؟

من خلال تحاشيه أن يشرح له دوافعه الحقيقية، مهّد ماتيو الطريق لكي يطرح عليه سؤالاً جديداً:

- لماذا نظّمت عملية بيع كلّ هذه الأشياء؟

مسّت الذريعة دانييل لوفنشتاين في الصميم.

أجاب بحدّة:

- لكي أتخلّص من الماضي وأفتح صفحةً بيضاء! لكي أتخلّص من التعلّق بإيما! الذكريات تقضي عليّ، إنّها تقتلني على نارٍ هادئة. إنّها تُعيدني إلى أنقاض ماضٍ سبق له أن هدّني بما فيه الكفاية!

هزّ ماتيو رأسه. قال وهو يجتاز عتبة باب المنزل:

- أنا أفهمك.

ولكن في قرارة نفسه، كان يعتقد العكس تماماً. كان يعلم بأنّ هذه المعركة وهمية وخادعة. لا يمكن لنا تصفية الذكريات بمجرّد ضربة من المكنسة. إنّها تبقى معشعشة في داخلنا وتترقّب اللحظة التي نخفّض فيها مستوى الحراسة لكي تنبثق فينا بقوّة مضاعَفة.

* * *

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

الموضوع: فلنتحدّث مع بعضنا

التاريخ: 21 ديسمبر 2011 - الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة وثلاث ثوانٍ من بعد الظهيرة

عزيزتي إيما،

إذا كنتِ أمام شاشة حاسوبكِ، هل يمكنكِ أن ترسلي

إليّ إشارةً؟ أعتقد أننا بحاجة إلى أن نتحدّث مع بعضنا حول ما جرى معنا.

مات

* * *

من: ماتيو شابيرو
إلى: إيما لوفنشتاين
الموضوع:
التاريخ: 21 ديسمبر 2011 - الساعة الواحدة وثمانٍ وأربعين دقيقة وأربع عشرة ثانية من بعد الظهيرة

إيما،

أنا أُدرِك بأنّ هذا الوضع يزعجك ويقلقكِ. إنّه يُخيفني أيضاً، ولكننا فعلاً بحاجة إلى أن نتحدّث فيه معاً.

ردّي عليّ، من فضلكِ.

مات

* * *

نقر ماتيو على أزرار لوحة مفاتيح الحاسوب لكي يرسل رسالته الثانية إلى إيما. انتظر، محموماً، للحظة طويلة على أمل أن تردّ عليه المرأة الشابّة في أعقاب خطوته هذه.

بعد زيارته لدانييل لوفنشتاين، كان قد استقلّ سيارة الكامارو لكي يعود إلى بوسطن، ولكن بعد بضعة كيلومترات، توقّف في مطعمٍ على ضفاف نهر تشارلز ريفر. كان مطعم براند نيو داي عبارة عن سيارة قديمة مطلية بالكروم حوِّلَت إلى مطعمٍ صغير يرتاده متنزّهون

وكذلك طلبة جامعة هارفارد بعد تمرينهم في التجديف. جالساً على أحد المقاعد المصنوعة من الكراريس الجامعية من ماركة المولیسكين، أخرج ماتيو حاسوبه المحمول واتّصل بشبكة الإنترنت.

لم يكن قط في هذه الحالة من الاضطراب في حياته، ولم يكن قطّ بهذه الدرجة من الارتياب في قناعاته. كانت الأدلّة تتراكم: تاريخ الرسائل الإلكترونية، الفيلم المرسَل من قبل فيتوريو، شهادة شقيق إيما الذي كشف له عن موت شقيقته. كان كلّ شيء يدفعه إلى جعله يُصدِّق ما لا يُصدَّق: بفضل هذا الحاسوب، كان بوسعه أن يتواصل مع امرأة، ميّتة الآن، كانت تتلقى رسائله في حين أنّها قد توفيّت قبل عامٍ من الآن.

كيف يمكِن لهذا أن يكون ممكناً؟ لم يفسّر لنفسه الأمر، ولكنّه يستطيع من الآن فصاعداً أن يحدّد بعض القواعد. أخرج القلم والمفكّرة التي كان يحملها باستمرار في جيبه وخربش بعض الملاحظات لكي ينقّي فكره.

1 - تتلقّى إيما لوفنشتاين رسائلي الإلكترونية بفارق من التوقيت يبلغ عاماً كاملاً بدقّة.

2 - الحاسوب الذي اشتريته من سوق الأدوات المستعملة هو وسيلتنا الوحيدة للتواصل فيما بيننا.

رفع ماتيو رأسه عن مفكّرته وتساءل عن مدى صلاحية هذه القاعدة الثانية. كانت الوقائع هي التالية: لم تتلقَّ إيما الرسائل التي أرسلها إليها من خلال هاتفه، مثلما لم يتلق هو الرسائل التي جعلتها تصل من خلال هاتفها الذكيّ. لماذا؟

فكّر لبرهةٍ. إذا كانت إيما قد ماتت منذ ثلاثة أشهر، فهذا يعني

أنّ الرسائل التي يرسلها إليها اليوم من دون المرور على الحاسوب لا بدّ وأنّها تصل إلى حسابٍ لم يعد أحدٌ يفتحه أو يطّلع على محتوياته. هذا أمرٌ منطقي.

ولكن ماذا حصل للرسائل التي كانت إيما قد أرسلتها إليه في عام 2010 عبر هاتفه؟ ربّما شاء المنطق أن يكون قد تلقّاها في الماضي، والحال أنّه لا يتذكّر أنّه قد قرأ رسائل موقّعة من قبل إيما لوفنشتاين في ديسمبر 2010.

بالتأكيد تلقّى الكثير من الرسائل الإلكترونية، ولكن لا بدّ أن تلك المُرسلة منها كانت تشير إليه. نبش في ذاكرته ووجد الحلّ: كان قد غيّر مورّد الوصول - وبالتالي عنوان الرسالة الإلكترونية -منذ شهر ديسمبر من عام 2010! العنوان الذي كانت ترسل عليه الرسائل الإلكترونية بوساطة هاتفها لم يكن موجوداً بكلّ بساطة في تلك الفترة! بعد أن هدأ لاكتشافه القليل من المنطق وسط هذه الفوضى، كتب ملاحظة جديدة في مفكّرته:

3 - اليوم، في شهر ديسمبر من عام 2011، ليس لدي أيّ إمكانية للدخول في علاقة جسدية مع إيما...

لسوء الحظ، لقد ماتت.

4 - ولكن العكس ليس صحيحاً!

فكّر في هذا الاحتمال: لو أرادت ذلك، كان بوسع «إيما 2010» أن تستقلّ في أيّ لحظة طائرةً إلى بوسطن وتلتقي مع «ماتيو 2010». هل كانت لتفعلها؟ نظراً إلى مستوى الحماسة التي كانت تبديها خلال الردّ على رسائله، كان ذلك احتمالاً ضعيفاً للغاية.

ألقى ماتيو، بعصبية، نظرةً على شاشة الحاسوب. لم يكن هناك أيّ خبر عن ساقية النبيذ. حاول أن يدخل في رأس إيما: امرأة ذكية،

ولكنّها غير مستقرّة في انفعالاتها. خمّن أنّها ضعيفة، مذعورة، وشكّاكة في مواجهة الوضع. كان عليه بفيديو فيتوريو وبالمحادثة مع شقيقها لكي يُقنِع نفسه بحقيقة ما كان يعيشه. ولكنّ إيما لم تكن تمتلك هذه العناصر. لا بدّ أنّها كانت تعتبره مجنوناً ولهذا السبب لم تكن تردّ على نداءاته. كان عليه أن يجد وسيلةً لإقناعها.

ولكن أيّ وسيلة؟

نظر من خلال النافذة. كان مهرولون ودراجات هوائية يتقاسمون الحلبة المحاذية للنهر، في حين، على صفحة الماء، كانت المجاديف تشقّ الأمواج تحت صرخات الإوزّ البريّ.

كان المطعم قد خلا من الزبائن منذ لحظة وصوله. على طاولة الفورميكا المجاورة لطاولته، لاحظ ماتيو الصحيفة التي تركها أحد الزبائن. كانت صحيفة **نيويورك تايمز** الصادرة في اليوم نفسه. التقط الصحيفة وتكوّنت فكرةٌ في ذهنه. بمساعدة كاميرا الحاسوب، صوّر الصفحة الأولى من الصحيفة - مُظهراً تاريخ صدورها بوضوح - وأرسل الصورة إلى إيما مرفَقة بكلمة موجزة:

من: ماتيو شابيرو
إلى: إيما لوفنشتاين

إيما،

إذا كنتِ بحاجة إلى دليلٍ على أنني أعيش في عام 2011، ها هو.
أرسلي إليّ إشارة.

مات

* * *

نيويورك

استعرضت إيما البريد ونقرت على الزرّ لكي تفتح النصّ المرفق. قرّبت الصورة لكي تكبّر حجمها وهزّت رأسها. ليس هناك اليوم شيءٌ أسهل من التلاعب بصورةٍ عبر برنامج الفوتوشوب الخاصّ بذلك.

هذا لا يُثبت أيّ شيء، إنّه ضربٌ من التشويه!

* * *

بوسطن

رعد البرق. وتغطّت السماء فجأةً بالغيوم وانهمر وابلٌ من المطر على المطعم. خلال بضع دقائق، اجتاح حشدٌ صاخبٌ من الناس المطعم لكي يحتموا من المطر.

كانت عينا ماتيو مثبتة على شاشة حاسوبه فتجاهل الصخب والحركة في المطعم.

لا يوجد ردّ.

يبدو أنّ إيما لم تقتنع بالصورة. كان عليه أن يجد شيئاً آخر. وبسرعة. اتّصل بالموقع الإلكتروني لصحيفة **نيويورك تايمز** وأجرى عملية بحث في أرشيف الصحيفة اليومية. وفي بضع نقراتٍ على الأزرار، وضع يده على المعلومة التي كان يبحث عنها. هذه المرة لن يعود بوسع إيما لوفنشتاين أن تتجاهله.

* * *

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

سوف أزعجكِ مرّة أخرى، يا إيما.

حتى وإن لم تردّي عليّ، أنا متأكّدٌ من أنّكِ أمام شاشة حاسوبكِ.

هل تحبّين الرياضة؟ كرة السلّة؟ إذا كان هذا صحيحاً، لا شكّ أنّكِ تعلمين بأنّ هناك اليوم (أتحدث عن اليوم «خاصّتكِ») مباراة مشوّقة جدّاً: المواجهة بين نيويورك نيكس وبوسطن سيلتكس.

أوصلي جهاز الراديو خاصّتكِ أو أديري جهاز تلفازكِ على القناة التاسعة، وسوف أُقدِّم لكِ الدليل الذي تنتظرينه.

مات

أحسّت إيما أن إيقاع نبض قلبها يتسارع. مع كلّ رسالةٍ من ماتيو، كانت تشعر بأنّ فكّي كمّاشةٍ يُطبقان عليها، مهدّدة بسحقها. ولكن الهيجان امتزج أيضاً بالخوف. أطبقت الشاشة وأخذت حاسوبها تحت إبطها وغادرت مكتبها لكي تستقلّ المصعد إلى الطابق السفلي حيث يوجد مكان استراحة موظّفي مطعم إمبراتور.

دفعت الباب ودخلت إلى صالةٍ فسيحة ذات جدرانٍ كاشفة ومفروشة بطاولاتٍ خشبية مستديرة وأرائك وكراسي من طراز فاسيلي.

ألقت إيما التحية على الأناس الذين تعرفهم: بعض الموظّفين الذين كانوا يثرثرون وهم يقرأون مجلاتٍ على أريكةٍ ناعمة الملمس، مجموعةٌ بمعظمها من «الذكور» والتي اجتمعت حول شاشةٍ مسطّحة كبيرة معلّقة على الجدار من أجل مشاهدة مباراة لكرة السلّة.

جلست إيما إلى طاولةٍ، أوصلت القابس الكهربائي لحاسوبها ثمّ نهضت لكي تذهب وتجلب لنفسها مشروباً من الآلة الموزّعة للمشروبات. فتحت علبتها وهي تقترب من جهاز التلفاز.

قال المعلّق الرياضي بحماس:

«لقد استؤنفَت المباراة للتوّ في ملعب ماديسون سكوير غاردن. على مشارف نهاية هذا الشوط الأخير، يتقدّم فريق نيويورك نيكس 90 - 83. منذ انطلاقة المباراة، يُقدّم لنا الفريقان مواجهة مثيرة. اللاعبون من ذوي مهارات مختلفة يتنافسون على. . . »

تشكّلت عقدة في بطن إيما. كانت المباراة نفسها التي ألمح إليها ماتيو. عادت وجلست لكي تتابع على انفرادٍ سير المباراة. بعد مرور بضع دقائق، ظهرت رسالة إلكترونية جديدة على شاشة حاسوبها المحمول.

من: ماتيو شابيرو
إلى: إيما لوفنشتاين

هل عثرتِ على شاشة أو محطّة راديو، يا إيما؟
إلى هذه اللحظة، نيويورك نيكس يحقّق تقدّماً كبيراً، أليس كذلك؟ إذا كنتِ تشاهدين المباراة في حانة أو في مكانٍ عام، أنا واثقٌ تماماً بأنّ الرجال من حولكِ مقتنعون بأنّ فريقهم سوف يفوز بالمباراة.

توقفّت عن قراءة الرسالة الإلكترونية لكي ترفع رأسها وتنظر إلى مجموعة الموظّفين المسمّرين أمام الشاشة. كانوا يضربون الكفّ

بالكفّ بمرحٍ وابتهاج ويصفّقون بحماسةٍ ويهلّلون عند كلّ نقطةٍ يسجّلها فريقهم.

كان من الواضح أنّهم يكادون أن يطيروا فرحاً. تابعت قراءة الرسالة الإلكترونية:

مع ذلك، فريق بوسطن هو الذي سوف يفوز بنتيجة 118 - 116. وذلك في الثانية الأخيرة من المباراة.
تذكّري النتيجة جيّداً، يا إيما:

نيويورك 116 - بوسطن 118

ألا تصدقّينني؟
انظري إذن إلى شاشتكِ.

دقّ قلبها بشدّة في قفص صدرها. أصبح هذا الرجل فعلاً يخيفها. قامت بصعوبة من كرسيها، وقد شعرت بالتشنّج والانقباض في قلبها وبالتكزّز في أعضاء جسمها، واقتربت لكي تتابع نهاية المباراة وهي تطلق صلوات صامتة لكي لا تتحقّق نبوءة ماتيو.

«ندخل الآن في آخر خمس دقائق من عمر اللقاء. ما زال فريق نيويورك نيكس يتقدّم بنتيجة 104 - 101».

عاشت آخر لحظات اللعبة وسط شعورٍ بالخوف والتوجّس. ولكي تبدّد قلقها، حاولت أن تتنفس بعمق. كانت قد بقيت دقيقتان من عمر اللقاء وكان فريق نيويورك نيكس لا يزال متقدّماً.

دقيقة واحدة وثلاثون ثانية.

أدى تسجيل سلّة من قبل فريق سيلتكس إلى التعادل بين الفريقين، وذلك بـ 113 نقطة لكلّ من الفريقين، ومن ثمّ أدى تسجيل كل فريق لرميتين ثلاثيتين إلى التعادل بنتيجة 116 - 116.

عضت إيما على شفتها. كان قد بقي من عمر اللقاء أقلّ من عشر ثوانٍ، حينما اخترق بول بيرس، أحد لاعبي بوسطن، سريعاً الدفاع وتملّص من خصمه بحركة ستيب باك قبل أن يسدّد رميةً. ويسجّل نقطتين.

«فريق بوسطن يتقدّم بنقطتين! 118 - 116! ليست لدى لاعبي نيكس الفرصة من جانبهم!»

بينما كان اللاعب يحتفل بأدائه في تسجيل النقطتين، دوّى الملعب بعبارات الشعور بالإحباط. نظرت إيما، مذعورةً، إلى لوحة التوقيت. كانت اللوحة تشير إلى «00,4». لم يكن قد تبقّى من المباراة سوى أربعة أعشار من الثانية. لقد خسرت الرهان.

كلا! لأنّه ما أن استُؤنِفَت اللعبة، حاول أحد لاعبي نيكس المستحيل: رمية مباشرة من بعد ثمانية أمتار من الكادر. وفي مسارٍ خارق، دخلت الكرة في السلّة. بحّ صوت المعلّق الرياضي وهو يهتف:

«رميةٌ مذهلة! لا شكّ أن ستودماير قد سجّل السلّة الأهمّ في كلّ مسيرته! فاز فريق نيويورك نيكس بالمباراة! 119 - 118!»

ابتهجت إيما مع مجموع زملائها ولكن ليس للسبب نفسه. ارتخى كلّ شيء في داخلها فجأةً وارتاحت. لقد كان ماتيو على خطأ! إنّه لا يعيش في المستقبل! لم يستطع أن يتوقّع نتيجة المباراة! إنّها ليست مجنونة!

على الشاشة، كان حرم ملعب ماديسون سكوير غاردن يتأجّج. كان لاعبو فريق نيويورك نيكس يقومون بجولةٍ على مضمار الملعب. وكان الجمهور واقفاً ويهتف بصيحات الانتصار. إلى أن طلب حكم المباراة إعادة مشاهدة تسجيل الرمية عبر الفيديو وأظهرت

الصور ما لم يشأ أحدٌ أن يراه: كانت الكرة قد انطلقت من بين يدي اللاعب بعد بضعة أجزاء من الثانية من إطلاق صفارة النهاية!

«يا له من وقتٍ ثمين! في نهاية مباراة في غاية الإثارة وتشويقٍ هتشكوكيّ، أسقط بوسطن إذاً نيويورك نيكس بـ 118 نقطة مقابل 116 نقطة، واضعاً بذلك حدّاً لسلسة من الانتصارات التي توالت في ثماني مباريات!»

استبدّ بها الغثيان، فلجأت إيما إلى مغاسل الطابق العلوي.

لقد جُننت!

كانت مذعورة، غير قادرة على خوض المعركة ضدّ العفريت الداخلي الذي كان يستولي على عقلها. كيف يمكن إعطاء معنى لهذه الفوضى؟ بدا أنّه من غير الوارد أن يكون هناك تلاعباً: فالمباراة كانت تُبثّ في بثّ حيّ ومباشر ولم يكن من الممكن الغشّ في مباراةٍ بهذه الدرجة من العنفوان والحدّة. أهو الحظّ؟ ربّما يكون ماتيو قد توقّع نتيجة هذه المباراة بالمصادفة. خلال برهة، تمسّكت بهذه الفكرة.

تبّاً!

لا يمكننا التواصل مع رجلٍ يعيش في المستقبل. بكلّ بساطة هذا ليس ممكناً!

نظرت إيما في المرآة. كان كحلها قد سال وبشرتها أصبحت صفراء شمعية أشبه ببشرة جثّة. مسحت آثار مساحيق التجميل من على وجهها بقليلٍ من الماء محاولةً في الوقت ذاته ترتيب أفكارها وإعادة التوازن إليها. حينها ظهر إلى السطح تفصيلٌ بَلبَل أفكارها. لماذا، عند أوّل بريدٍ تلقّته، كتب لها ماتيو: «أنا المالك الجديد لحاسوبك من طراز ماك بوك»؟ ماذا كان يعني بذلك؟ هل هذا يعني

أنّها قد باعت حاسوبها في المستقبل؟ وأنّ هذا الرجل قد اشتراه بطريقة خردة التصفية وأنّهما، بسبب نوعٍ من الخلل الزمني، يستطيعان الآن أن يتواصلا معاً على الرغم من أنّ كلّاً منهما على خطٍّ زمنيّ مختلف؟ هذا الأمر لا يستقيم.

لاهثةً كما لو أنّها قد ركضت لمائة متر، استندت إلى الجدار وشعرت فجأةً بهشاشتها وعزلتها. لم يكن لديها أحدٌ لكي تأخذ منه النصيحة أو تجد عنده العزاء والسلوان. لم تكن لديها عائلة حقيقية لتثق بها، سوى أخٍ عنيدٍ يزدريها. لم يكن لديها أصدقاءٌ حقيقيون. لا رجل في حياتها. حتى طبيبتها النفسانية التي دفعت لها ثروةً تخلّت عنها.

مع ذلك، انبثق اسمٌ غير محتمل في ذاكرتها: اسم. رومالد لوبلان.

إذا كان هناك شخصٌ ربّما يمكنه أن يساعدها في حكاية الحاسوب هذه، سيكون حتماً ذاك العبقريّ الصغير في المعلوماتية!

فجأةً ارتفعت معنوياتها، فخرجت من المغاسل وصعدت في المصعد إلى طابق قسم الاتصالات. كان هناك شخصٌ مناوب، ولكن في يوم السبت ذاك، كان الدوام يسير ببطء ولم يكن الفتى المتدرّب يعمل في عطلة نهاية الأسبوع. من خلال إلحاحها، نجحت في الحصول على رقم الهاتف المحمول للفتى الفرنسي واتّصلت به على الفور. بعد رنّتين من الهاتف، ردّ المراهق بصوتٍ مرتبك:

- ألو؟

- أنا بحاجةٍ إليك، يا صاحب النظّارة، أين أنت؟ هل ما زلتَ أمام شاشات حواسيبك تقضي وقتك في ترويض فتيات يرتدين فقط سراويل داخلية؟

9

المسافرون في الزمن

المستقبل، شبحٌ بيدين فارغتين، يعدُ بكلّ شيء ولا يملك أيّ شيء.

فيكتور هوغو

نيويورك، عام 2010
ميتباكينغ ديستريكت
بعد ذلك بربع ساعة

كان بردٌ شديد يجمّد أرصفة ضفاف نهر هيدسون. صفقت إيما باب سيارة الأجرة. استقبلتها نسمة باردة منذ نزولها من السيارة. متجمّدة من البرد، دسّت يديها في جيوب معطفها. في نهاية فترة ما بعد الظهيرة تلك، كان حيّ المسالخ القديم غارقاً وسط الضباب. عقدت وشاحها وعبرت القوس الفولاذي الذي كان يؤدّي إلى الرصيف رقم 54، رصيف الشحن التاريخي لسفن النقل العابرة للمحيط الأطلسي.

المكان الذي كان رومالد أعطى لها موعداً فيه. جعلها هدير محرّك أن ترفع رأسها واكتشفت سرباً حقيقياً مؤلّفاً من ما يقارب عشرين طائرة مروحية مصغّرة وطائرات يتمّ التحكّم بها لاسلكياً كانت تحوم في سماءٍ ثلجية. كان رجالٌ من كلّ الأعمار، مبعثرين على

طول الرصيف المُقطرَن، يتنافسون بمهارة لتطيير طائراتهم.

بحثت بعينيها عن رومالد واستغرقت عدّة ثوانٍ قبل أن تتعرّف عليه. كان الفتى المراهق متدثّراً بمعطفٍ رياضيّ ويعتمر طاقية خاصّة بالتزلّج كانت تغطّي أذنيه وتنزل حتى تصل إلى حاجبيه.

كان يحاول أن يجعل طائرته تُقلِع، وهي عبارة عن جهازٍ ذي أربع مراوح والذي ظلّ على نحوٍ يائسٍ مسمّراً بالأرض.

قالت وهي تقترب من خلفه:

- مرحباً، يا سابق عصرك!

قفز وعدّل نظّارته.

- صباح الخير، يا آنسة لوفنشتاين.

- أين نحن، في هذا المكان؟ هل نحن في اجتماعٍ للمهووسين المجهولين من عشّاق الطيران؟

شرح المراهق:

- هذه طائرات من دون طيار.

- ماذا؟

- هذه الأجهزة الصغيرة: إنّها طائرات مدنية من دون طيار.

مفتونة بالمشهد، تابعت إيما بنظرها واحدة من المروحيات الرباعية المراوح المصغرة والتي ارتفعت عالياً جدّاً على طريقة الطائرات الورقية التي كانت تشاهدها في طفولتها، قبل أن تتهاوى متسارعةً وتنهار على الرصيف. لاحظت أنّ ولا واحدة من الطائرات المسيرة باللاسلكي لها المظهر نفسه لطائرة أخرى: طائرات، مروحيات بأربع أو خمس بكرات، أجهزة على شكل أطباق طائرة. أجسام غامضة حرفية تمّ جمعها من قبل تجمّعٍ للمحترفين والمتحمسين. تصوّرت هؤلاء الأشخاص في مرأبهم: خبراء

معلوماتية، أنصار أبحاث الإنسان الآلي، منكبون على تلحيم مكونات إلكترونية وقطع غيار لكي يعدّلوا جهازهم وفق ذوقهم الشخصي قبل أن يخرجوا ويجرِّبوه أمام زملائهم.

أطفالٌ حقيقيون.

انتقلت من مجموعةٍ إلى أخرى وتبيّن لها أنّ أغلبية الطيّارين كانوا قد قرنوا طائرتهم من دون طيار مع هواتفهم الذكية لكي يتحكّموا بجهازهم من خلال جهاز هاتفهم المحمول، بل كان بعضهم يحمّلون كاميرات خفيفة الوزن للغاية كانت تصوّر وترسل الصور مباشرة إلى شاشة الهاتف.

عادت نحو رومالد الذي كان لا يزال يصارع من أجل تطيير طائرته رباعية البكرات. لم ينذر أحدٌ نفسه لمساعدته. لم يكن هناك أيّ روح جميلة بين «التجمّع» لكي تقدّم له يد العون. وهي تراقبه، صعُب عليها. توقّعت أنّه مُنعزل وذكيّ وتائهٌ بعض الشيء.

حاله كحالي أنا...

– لماذا لا تطير طائرتك؟

ردّ بنبرةٍ قلقة:

– لا أدري. هناك الكثير من الرياح. لم أقُم بتعييرها بشكلٍ سليم، أنا.

– هذا ليس أمراً خطيراً.

ردّ وقد أسبل عينيه:

– أجل!

أحسّت إيما أنّه بلا شك ليس من المعتاد بالنسبة إليه أن يواجه صعوبةً في هذه المعارف في مجال الميكانيك أو المعلوماتية. غيّرت الموضوع.

سألت بنبرة تجمع بين الإعجاب والقلق:

- هل استخدام هذه الأشياء مشروعٌ قانوناً على الأقل؟

أجاب وهو يستنشق:

- الطائرات من دون طيار؟ تقريباً. هناك بعض القواعد التي يجب مراعاتها والالتزام بها: عدم التحليق فوق رؤوس كائنات بشرية، الإبقاء على الجهاز في مدى حقل نظر صاحبه، عدم الطيران لارتفاعٍ أعلى من حوالي مائة متر.

هزّت رأسها، مندهشة لكون رجل التكنولوجيا هذا لم يُخصّص للأمور العسكرية أو لمخابر الأبحاث العلمية. ما الذي يمنع الناس من استخدام هذه الطائرات من دون طيار للتجسّس على جيرانهم أو التحليق بها فوق الأماكن الخاصّة؟ استيقظ الجانب الرُهابي في داخلها فجأةً وتخيّلت المرحلة المقبلة: طائرات من دون طيار مصغّرة بحجم حشرة تستطيع أن تصوّر بكل سريّة الناس في حياتهم الحميمية الخاصّة وتسجّل أحاديثهم. نمطٌ من الرقابة المعمّمة. وهو نمط العالم الذي في كلّ الأحوال لا تريد أن تعيش فيه.

طردت هذه الفكرة من ذهنها ونظرت نحو الشمال. أبعد من هناك، على الأرصفة، كان يتعرّج الهيكل الفولاذي والإسمنتي لحديقة هاي لاين المعلّقة في نيويورك والتي كان يوجد في أسفلها مقهى نوفوسكي الذي كان يمكن للمرء أن يشرب فيه أفضل كوب شوكولا ساخنة في المدينة.

أمرت رومالد:

- حسناً، احزم معدّاتك. سوف أقدّم لك وجبة عصرونية شهيّة.

* * *

مقهى نوفوسكي
بعد عشر دقائق

التهم رومالد قطعة كبيرة من حلوى **ستروديل** بالكرز مع كأسٍ دهاقٍ من الشوكولا الساخنة.

- طمنّي، هل تغذّيت بما يكفي لهذه الأيام الثلاث الأخيرة؟

هزّ المراهق رأسه قبل أن يلتهم النصف المتبقّي من قطعة الحلوى.

مسحت بوساطة منديلٍ ورقي ما تبقى من فتات الحلوى العالقة على أطراف شفتي الصبي ووعدته:

- ذات يوم، سوف أعلّمك كيف تتناول الطعام بطريقة أنيقة وراقية أمام امرأةٍ شابّة.

أسبل عينيه كما كانت عادته غالباً واجتذب أسفل بلوزته إلى عينيه كما لو أنّه كان يخفي استدارة جسمه. قلقت بشأنه.

- أين تسكن، يا رومالد؟
- في نُزُل الشباب في تشيلسي.
- هل أعلمت والديك بأخبارك هنا مؤخّراً؟

أجاب مراوغاً:

- لا تقلقي.
- بلى، هذا هو الأمر بالضبط، أنا قلقةٌ بعض الشيء بشأنك. هل لديك نقود، على الأقلّ؟

أجاب مؤكّداً:

- لديّ ما يكفيني.

دعك شعره بعصبية وسارع إلى توجيه الحديث نحو موضوعٍ آخر.

- لماذا أردتِ أن تلتقي بي؟

قالت وهي تُخرج حاسوبها المحمول من حقيبته وتضعه أمام المراهق:

- أريدك أن تفحص حاسوبي.

تناول رومالد جرعة أخرى من الكاكاو قبل أن يرفع شاشة الحاسوب التي انفتحت على برنامج إرسال الرسائل.

- ما المشكلة؟

أتلقى رسائل غريبة من نوعها منذ بضعة أيام. هل يمكنك أن تحدّد مصدرها؟

أكّد الفتى:

- في الحالة الطبيعية هذه ليست مسألة معقّدة جدّاً.

وضعته أمام التحدّي.

- حسناً، أظهر لي ما تُجيدُ فعله. الأمر يتعلّق بكلّ مراسلاتي مع ماتيو شابيرو.

بسرعته المعهودة، اختار رومالد الرسائل المرسلة من قبل شابيرو وعزلها في ملفٍّ مستقل.

منطلقاً حسب التسلسل الزمني لوصول الرسائل، فتح العنوان المحرّر لأوّل رسالة إلكترونية، مستعرضاً بروتوكول الإنترنت (IP) الخاصّ بالمرسل، ونمط الرسائل المستخدم وتسلسل مختلف المستخدمين المارّين عبر البريد منذ إرساله وإلى حين استقباله.

من الناحية النظرية، لم يكن هناك ما هو أسهل من الوصول إلى مصدر رسالة إلكترونية إلا إذا كان هناك خللٌ ما كما هي الحالة هنا مع الرسائل الواردة إلى حاسوب إيما. ارتسمت علامة انزعاجٍ على وجه رومالد.

رفع نظّارته ذات العدستين المتّسختين لكي ينظّفهما بقطعةٍ من بلوزته. أغاظ ذلك إيما، فانتزعت النظّارة من بين يديه وأخرجت من حقيبتها قطعة نسيجٍ خاصّة بمسح العدسات ونظّفت بها عدستي النظّارة وركّزتها على أنف المراهق.

فقدت صبرها وسألت متلهّفة:

- ماذا حققت؟

دون أن يجيب عن سؤالها، سارع رومالد إلى فتح رسالة ثانية، والتي طبّق عليها الإجراءات نفسها، ثمّ تابع عمله مع رسالة ثالثة: واحدة من الرسائل الجوابية التي كانت إيما قد أرسلتها إلى ماتيو.

- أوه! هل عثرت على شيءٍ ما، يا فهيم؟

غمغم رومالد:

- الـ التواريخ. وكأنّ هذا الرجل يرسل إليك رسائل من المستقبل.

- نعم، لاحظتُ ذلك، شكراً لك. كيف تفسّر ذلك؟

هزّ رأسه:

- بالضبط، لا أجد تفسيراً لهذا الأمر.

- ابذل جهداً، من فضلك!

اختار رومالد إحدى رسائل ماتيو، ومن ثمّ وبنقرة على لوحة الأزرار، فتح المنطقة المخفية من العنوان.

- على الإنترنت، يتم تبادل المعطيات بين عنوانين من بروتوكول الإنترنت، اتّفقنا؟

وافقت إيما بإشارةٍ من رأسها.

تابع الفتى الفرنسي:

من حاسوبٍ إلى آخر، يمكن للرسالة نفسها أن تحوّل بمستخدمات وسيطة عديدة والتي تضع توقيت كلّ دخول إلى التطبيق.

اقتربت إيما منه. على شاشة الحاسوب، كان من الممكن تتبّع مسار الرسالة الإلكترونية انطلاقاً من حاسوب ماتيو وإلى حين وصولها إلى حاسوبها.

واصل رومالد شرحه:

- حينما يرسل هذا الرجل رسالة إليكِ، تبدو جميع المستخدمات بتاريخ 2011، ومن ثمّ فجأةً، في منتصف المسافة تقريباً، يجري أحد المستخدمات نوعاً من «القفز الزمني» لكي ينتقل إلى عام 2010. وتتمّ الظاهرة المعاكسة لهذه حينما ترسلين أنتِ الرسائل.

ألحّت إيما:

- لا بدّ أن يكون هناك تفسيرٌ منطقي لهذا الأمر. ألم تسمع قطّ في أوساطك حديثاً يجري حول ظاهرةٍ من هذا النوع؟ على مواقع المنتديات؟ في أحاديث قراصنة الإنترنت؟

هزّ رومالد رأسه. ترك بضع ثوانٍ تمرّ قبل أن يضيف:

- قصّة التاريخ هذه ليست الوحيدة التي تسبّب لنا إرباكاً.

- ما معنى هذا الكلام؟

أشار إلى شاشة الحاسوب بسبابته.

- في كلتا الحالتين، مصدر الرسالة وكذلك نقطة وصولها محدّدين. كما لو أنّ الرسالة الإلكترونية تنطلق في عام 2011 لكي تصل في عام 2010. على الحاسوب نفسه.

قدّر رومالد حجم الأثر المدمّر لهذا الاكتشاف. امتقع وجه إيما

وبدرت منها حركة تراجعٍ إلى الخلف. وإذ أراد رومالد أن يكون باعثاً على الاطمئنان، وعد إيما أن يجري أبحاثاً أخرى وأن يطلب المساعدة من أناسٍ آخرين أكثر خبرةً وكفاءةً منه.

كان على وشك أن ينتهي من عرض خدماته حينما أعلن رنين شجي عن وصول رسالة إلكترونية جديدة.

* * *

أدارت إيما شاشة الحاسوب باتجاهها. وكما كانت تخشى، كانت رسالة جديدة من ماتيو.

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

الموضوع: ثمن الصمت

إيما،

أنا أجهد لكي أفسّر صمتكِ. لا يمكنني أن أصدّق بأنّكِ لا ترغبين في أن تعرفي المزيد عمّا يحصل لنا. وأن تكتشفي ما هو مسموحٌ لنا أن نفعله وما هو غير مسموح. يمكنني أن أفهم مخاوفكِ، ولكن ينبغي للفضول أن يتجاوزها!

ربّما لا تزالين تحتاجين إلى أمرٍ آخر لكي تتّخذي القرار في أن تخطين الخطوة. ماذا تريدين؟ هل تريدين دليلاً جديداً؟ هل تريدين مالاً؟ أنا سأقدّم لكِ الاثنين معاً، إذا ما تجرأتُ على قول ذلك.

من فضلكِ، ردّي عليّ.

مات

كان هناك ملفّاً مرفقاً مع الرسالة. كان ملف بي دي إف (PDF) لمقالة من صحيفة نيويورك تايمز يعود تاريخها إلى يوم الإثنين 23 ديسمبر 2010.

سائحة سويدية تربح
5 مليون دولار في الكازينو
يوم عيد ميلادها المائة

ربِحت سائحة محظوظة في ليلة السبت على الأحد أكثر من 5 مليون دولار (5,023,466 بالضبط) من ماكينة قمار (حورية البحر الصغيرة) في كازينو فندق نيو بلينهايم في مدينة أتلانتيك سيتي. وهذا مبلغٌ مهمٌّ ربحته السائحة... في اليوم نفسه لعيد ميلادها المائة! كانت السيّدة لينا نوردفيست، المتحدرة في الأصل من مدينة ستوكهولم، تشكّل جزءاً من متقاعدين سويديين يشاركون في رحلة نُظِّمَت إلى شمال شرق الولايات المتحدة الأميركية. روت السيّدة الرابحة بأنّها كانت قد وضعت، كرهانٍ، دولارين في فتحة ماكينة القمار نحو الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة من بعد الظهر. بعد أن صفّق لها جميع مَنْ في صالة اللعب في فندق نيو بلينهايم، كشفت السيّدة نوردفيست بأنّها سوف تستخدم جزءاً كبيراً من هذا المبلغ في سبيل تحقيق حلمها: أن تقوم مع زوجها بجولةٍ حول العالم باستخدام المنطاد...

على الصورة التوضيحية المرفقة مع المقالة، كان يمكن رؤية صورة السيّدة المئوية الخارقة بجانب ماكينات القمار متشبثةً بمساند المشي الخاصّة بالعجزة. كانت ترتدي بلوزة رياضية مطبوعة عليها

عبارة «أنا أحبّ ستوكهولم» وتعتمر ما يشبه قبّعة من القش.

نظرت إيما إلى ساعة يدها.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة وثلاثين دقيقة مساءً.

لم يكن قد بقي لديها أكثر من ثلاث ساعات لكي تتصرّف. كان عليها أن تتصرّف بسرعة. لم يكن بوسعها أن تبقى في حالة من الحيرة والتردّد لوقتٍ أطول. كان عليها أن تعلم ما هو السرّ.

على نحوٍ قطعي.

- هل تعرف أين يمكننا أن نستأجر سيارةً في هذا المكان، يا رومالد؟

- أعتقد بأنّ هناك مكتب لتأجير السيارات يُدعى **فاست كار** على بعد ثلاثمائة متر من هنا، عند تقاطع غانسفورت وغرينيتش.

أكّدت وهي تترك على الطاولة ورقة نقدية من فئة عشرين دولاراً:

- سوف أرى أين يكون هذا المكتب.

نهضت وزرّرت معطفها قبل أن تواجه البرد.

- أشكرك على مساعدتك لي يا رومالد. اعتنِ بنفسك.

- سوف أتّصل بكِ إن عثرتُ على شيءٍ ما. وأوه. مع ذلك كوني حذرة!

خرجت من المقهى وهي تلوّح له بإشارةٍ من يدها من خلال الواجهة الزجاجية.

* * *

حينما وصلت إيما إلى أمام وكالة تأجير السيارات، كان الليل قد حلّ. وقفت في الدور خلال عشرين دقيقة في قاعة سيئة التدفئة قبل أن تُستَقبَل من قبل موظّفٍ كريهٍ ومتعجرفٍ جداً لدرجة أنّها كادت

أن تعدل عن مشروعها. وفي نهاية المطاف أخذت أوّل سيارة قُدِّمت لها: سيارة إس يو في جنرال موتورز، لونها برتقالي دموي. دفعت الحساب بوساطة بطاقتها الائتمانية، وغادرت مانهاتن عبر نفق هولاند تونيل وسلكت الطريق نحو الجنوب.

كانت إيما تكره أن تقود السيارة أثناء الليل، وخاصّةً على طريقٍ لا تعرفه جيّداً، ولكن المسافة من نيويورك إلى أتلانتيك سيتي كانت محدّدة بالعلامات الطرقية على نحوٍ جيّد. كان الأمر الأساسي هو سلوك طريق غاردن ستايت باركواي، الطريق السيّار الذي يعبر نيوجيرسي عبر الساحل.

طيلة الرحلة، جهدت لئلا تعود مخاوفها من جديد. أدارت الراديو على محطّة موسيقية وحاولت أن تدندن معها لكي تُريح ذهنها وتزيل قلقها وتوترها. ولكنّ الكثير من الأفكار كانت تهزّها وتفقدها توازنها. خشية من أن تصل متأخّرةً، كانت تلقي نظرات متواترة على ساعة لوحة السيارة. وبينما اعتقدت أنّها قد وصلت إلى وجهتها، تصاعد القلق في داخلها حينما وجدت نفسها محاصرة وسط ازدحام حركة المرور. كانت عملية تصادم بين سيارات عديدة تمنع الوصول إلى **الطريق السريع** الذي كان يحاذي الشاطئ.

انتظرت لوقتٍ طويل قبل أن يصبح مفرق الطريق السيّار سالكاً وتستطيع أخيراً الوصول إلى عاصمة القمار في الشاطئ الشرقي: مدينة لطالما اعتبرتها إيما مميّزة والتي لم يسبق لها قط أن وطأتها قدمها.

ألقت نظرة جديدة على ساعة لوحة السيارة.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس وعشرين دقيقة مساءً.

انطلقت على جادة أتلانتيك أفينيو، التي تسمح بالوصول إلى

شوارع بوردووك(*) الشهيرة، التي يؤمّها الناس للتنزّه على شاطئ البحر والذي تتعاقب على طولها أغلبية الكازينوهات الكبيرة التي تصنع شهرة محطّة الحمّامات.

في بداية السهرة هذه، كانت المدينة تضجّ بالحياة: كان الشارع الرئيس التي تتركّز فيه الفنادق الرئيسة والمطاعم وصالات العرض مستسلماً لشراب السيّاح ولسيارات ليموزين الفاخرة المزيّنة بالإكسسوارات والعربات ذات العجلتين الغريبة التي يجرّها أشخاص.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة وتسع وعشرين دقيقة مساءً.

حينما لاحظت توقفاً لحركة المرور على إشارة ضوئية، استغلت إيما ذلك لكي تُعيد تحديد موقعها وسط تلك الشلالات من الأضواء والأنوار. وسط شارع بوردووك، تعرّفت على الشبح الفريد لكازينو نيو بلينهايم، الكازينو الأخير الذي بُني في المدينة، والذي كانت قد شاهدت صوراً له في إحدى المجلات. كان المجمّع، الذي بُني في أواسط العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين، يُعدّ بمثابة مرسى تتحلّق حوله أربعة أهرامات مموّجة، في محاكاةٍ للأمواج الزرقاء العاتية والتي ترتفع ستين متراً فوق سطح البحر. في الليل كانت المباني الأربع وغرفها الألفين تُضيء بنورٍ فيروزي وتبدو أشبه بسربٍ من المراكب الشراعية القائمة بين المجرّات المستعدّة للانقضاض على عدوٍّ غير مرئي.

(*) بوردووك (Boardwalk): هو تصميمٌ من الشوارع المحاذية للسواحل البحرية أو في المحميات الطبيعية يُستخدم فيه الإسمنت والألواح الخشبية (المترجم).

الساعة الثامنة وأربع وثلاثين دقيقة مساءً.

تجاوزت إيما سيارة أجرة وانسلّت إلى مدخل مرآب **نيو بلينهايم** الذي كان يغوص لستّة طوابق.

ركنت السيارة المستأجرة وجرت حتى وصلت إلى المصاعد العديدة التي كانت تخدم بهو الفندق. هناك، استغرقت بعض الوقت في البحث عن مخطّطٍ تفاعليٍّ لقاعة ماكينات القمار.

الساعة الثامنة وتسع وثلاثين دقيقة مساءً.

كان المجمّع الفندقي هائلاً، يضمّ ما يقارب عشرة مطاعم ومنتجعاً واحداً ومسبحاً وناديين ليليين وثلاثة بارات وسطحاً مخصّصاً للألعاب التي كانت تمتد على مساحات تفوق عشرة آلاف متر مربّع. كانت قد تمكّنت من تحديد موقع الصالة المخصّصة لماكينات القمار وحفظت في ذاكرتها المسار الذي يُفضي إليها. لم يكن لها الحقّ في أن تُخطئ العنوان.

الساعة الثامنة وأربعين دقيقة مساءً.

عبرت البهو وهي تركض، وبدّلت المصعد مرّتين، وسلكت النفق الزجاجي الهائل الذي كان يربط بين الأهرامات الأربعة. ثمّ استقلّت آخر مصعد لتنزل طابقاً واحداً، وقدّمت بطاقتها الشخصية لحارسٍ ليلي ووصلت إلى وكر ماكينات القمار.

الساعة الثامنة وإحدى وأربعين دقيقة مساءً.

كان جحيم القمار على شكل بهوٍ شاسع ذي سقفٍ خفيض. كان المكان محروماً من النوافذ ولذلك كان مثيراً للاكتئاب على الرغم من الرنين المرح المنبعث من الماكينات. صرفت إيما خمسين دولاراً إلى قطع نقدية صغيرة وانضمّت إلى الدوّامة المدوية والمشرقة لجيش ماكينات القمار: جاكبوت كندي، كليوباترا، ثلاثة ملوك،

وايت أوركيد، الجمال الخطير. كانت المئات من الماكينات تشكّل شبكة مترامية الأطراف تعمل على مدار أربع وعشرين ساعة في النهار.

غاصت بين الحشود الصاخبة المتواجدة بين «المفاتن»: شبابٌ يلعبون لعبة الفلامبور، بعثات عائلية للسطو على البنك، لاعبون مدمنون لهم وجوه الأشباح يهدرون ثروتهم بطريقة منهجية، رهطٌ من الرجال الثلاثينيين الذي جاؤوا لدفن الحياة الصبيانية لزملائهم، شيوخٌ متهالكون بلا أسنان يستعيدون نكهات أعياد اللهو في طفولتهم.

الساعة الثامنة وثلاث وأربعين دقيقة مساءً.

لم تفهم إيما قط أن يستطيع المرء المجيء إلى هذا المكان ويضيّع نفسه. لمعت بضع قطرات من العرق على جبينها وجعلتها دوخة خفيفة تترنح. على الرغم من سعة مساحته، كان المكان يُعطي الانطباع بأنّه محصور وخارج سياق الزمن. بلغت حافة الغثيان، توقّفت لبرهةٍ قصيرة لكي تستعيد أنفاسها. في تلك اللحظة، لمحت قبّعة من القش بين القبعات! اقتربت من مجموعة المتقاعدين السويديين. لم يكن هناك أدنى شكّ، إنّها هي نفسها: لينا نوردفيست، المتقاعدة المئوية وهي ترتدي بلوزتها المكتوبة عليها عبارة «أنا أحبّ ستوكهولم». كانت يدها اليمنى تمسك بمطمورةٍ كبيرةٍ من النقود مضمومة إلى صدرها. بينما كانت يدها اليسرى متشبّثة بالدعامة المعدنية لعكازة ذات دواليب. وبسرعة يرقانة رخوية، كانت تتّجه نحو صفٍّ من ماكينات القمار والذي كانت توجد في نهايته ماكينة «حورية البحر الصغيرة». متناسية قواعد السلوك السليم، خرقت إيما الآداب لكي تأخذ مكانها في الصفّ الأوّل أمام الشاشة.

قالت السيّدة المسنّة بعصبية وهي في غاية الامتعاض باللغة السويدية:

– Du gick in i mig! Jag är en gammal dam! Tillbaks till skolan med dig så att du kan lära dig lite hyfs!

الساعة الثامنة وأربع وأربعين دقيقة مساءً.

قولي ما تشائين، أنتِ تهمّينني. فكّرت إيما وهي تعتذر برخاوة. انتظرت أن تعود السويدية على أعقابها لكي تدرج قطعتها النقدية الأولى في فتحة الماكينة.

الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة مساءً.

هذه القصّة ليس لها أيّ معنى. ردّدت في نفسها وهي تضغط على زرّ الشاشة اللمسية لكي تُطلق دورة منظمات ماكينة القمار.

هذه المرّة، نجت الألعاب. فكّرت بينما انطلقت الدواليب الخمسة بالدوران بأقصى سرعة على نفسها.

* * *

بوسطن، 2011

الساعة العاشرة مساءً

صرخت آبريل وهي تُخرج من الفرن قالباً محروقاً:

– **اللعنة! اللعنة! ولعنة ثلاثية!**

متفاجئةً بالحرارة، تركت الإناء الزجاجي يسقط من يدها فتحطّم على الأرضية وتحوّل إلى شظايا متناثرة.

كان ماتيو هامداً في الأريكة، فقفز من مكانه ونهض دفعةً واحدة. بعد أن أخلد ابنته إلى النوم، خارت قواه من التعب أمام عددٍ لا يُحصى من المرات من بثّ فيلم **إنّها حياةٌ رائعة**، الفيلم الأميركي الكلاسيكي الخاصّ بعيد الميلاد للمخرج فرانك كابرا.

قال غاضباً:

- ربّما كان عليكِ أن تثيري المزيد من الضوضاء. لستُ متأكّداً من أنّ إيميلي قد استيقظت.

تأوّهت آبريل:

- أوه، لا بأس! لقد احترق خبزي المتبّل تماماً! لمرّة واحدة حاولت أن أنشغل بالأفران!

فرك ماتيو أجفانه. شعر بالبرد وأحسّ بأنّه محمومٌ وقلق. كان قد أمضى فترة ما بعد الظهيرة في إرسال الرسائل إلى إيما وهو يراكم الأدلّة والبراهين لإقناعها بأنّ ما يعيشانه حقيقيٌّ تماماً، ولكن كلّ رسائله ظلّت من دون ردّ. انتقل من الصالون إلى المطبخ حيث ساعد آبريل في ترميم ما ارتكبته من حماقات ومن ثمّ تحقّق من رسائله الإلكترونية للمرة الخمسمائة في النهار نفسه.

هذه المرّة، ومضت علبة رسائله! بينما كان قد فقد الأمل في ذلك ولم يعد يُصدّق الأمر، أرسلت إليه إيما إشارة ببضعة أسطر مقتضبة.

من: إيما لوفنشتاين

إلي: ماتيو شابيرو

الموضوع: جاكبوت(*)

ماتيو،

أنت الذي تحبّ الصحف كثيراً، ألقِ إذاً نظرةً جديدة على مقالة **نيويورك تايمز**.

إيما

(*) جاكبوت: هو مصطلح يخصّ ماكينات القمار، يُطلق حينما يكسب لاعب القمار الجائزة الكبرى في ضربة واحدة (المترجم).

إلى ماذا تلمّح هنا؟ لماذا تُريد أن أعود مرّة أخرى إلى هذه المقالة؟ هل يمكن أن.

شعر بأنّ نسبة الأدرينالين ترتفع لديه، قرّب مقعداً لا ظهر له ولا مسندين وجلس أمام الحاسوب الموضوع على طاولة التحضير في المطبخ. كان يحتاج إلى أن تكون لديه أفكار واضحة. إلى جانب اتّصاله بأرشيف صحيفة **نيويورك تايمز**، أدخل كبسولة قهوة في ماكينة التحضير وأعدّ لنفسه مشروباً سريع التحضير. عثر بسهولة على طبعة يوم الاثنين 23 ديسمبر 2010 من الصحيفة وحمّل منها نسخة PDF وبمساعدة اللوحة اللمسية تصفّح صفحات الصحيفة الإلكترونية بحثاً عن المقالة المطلوبة. في البداية، لم ير شيئاً. ومع ذلك تذكّر تماماً تلك الصورة السوريالية للمتقاعدة السويدية، المستندة إلى عكازتها ذات العجلات والواقفة بافتخار أمام ماكينات القمار البرّاقة. ولكنّ الصورة كانت قد اختفت. ألزم نفسه بقراءةٍ جديدة وفي النهاية وضع يده على مقالةٍ أكثر تواضعاً بكثير، من دون صور، تتحدّث عن حكاية جاكبوت أتلانتيك سيتي.

شابّة من مدينة نيويورك تفوز
بخمسة ملايين دولار في كازينو
لم تقامر سوى بقطعة نقدية واحدة!

ربِحت امرأة شابّة، أرادت أن تبقى هويتها مجهولة، مساء يوم السبت أكثر من خمسة ملايين دولار أميركي (5,023,466 بالضبط) من ماكينة قمار (حورية البحر الصغيرة) في كازينو فندق نيو بلينهايم في مدينة أتلانتيك سيتي. وهذا مبلغٌ مهمٌّ ربحته المرأة الشابّة وهي لم تقامر سوى بدولارين. روت

الشابّة الرابحة بأنّها كانت قد وصلت لتوّها إلى الصالة حينما أدخلت القطعة النقدية في فتحة ماكينة القمار نحو الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة من بعد الظهر.

بعد أن صفّق لها جميع مَن في صالة اللعب في فندق نيو بلينهايم، كشفت الشابّة بأنّها سوف تستخدم جزءاً من هذا المبلغ «ربّما في شراء سيارة جديدة، ولكن بالتأكيد ليس في شراء حاسوبٍ جديد....».

في حالةٍ من الذهول، قرأ المقالة مرّة ثانية وهو يُعاين كلّ التداخلات بينها وبين المقالة الأخرى. جفّ حلقه وتعرّق جبينه. حاول أن يشرب جرعةً من القهوة، ولكنّه عانى من صعوبةٍ في ابتلاعها. كان سينهض من مقعده حينما ظهرت رسالةٌ جديدة على شاشة الحاسوب:

من: إيما لوفنشتاين

إلى: ماتيو شابيرو

إذاً، يا ماتيو، ماذا نفعل الآن؟

إيما

ارتدّ السؤال في داخله مثل صدى. ما العمل الآن؟ لم يكن يعلم عن ذلك أيّ شيءٍ على الإطلاق، ولكنّه على الأقل لم يعد الوحيد الذي يسأل نفسه هذا السؤال.

فجأةً، حرّك قلبه وعيٌ أقوى بكثير: في اللحظة التي كانت إيما ترسل إليه هذه الرسالة، كانت كيت لا تزال على قيد الحياة.

القسم الثالث

المظاهر

اليوم الرابع

10

اليد التي تُهدهد الطفل

اليدُ التي تُهدهد الطفل هي اليد التي
تُسيطر على العالم.

وليام والاس

بوسطن
22 ديسمبر 2010
الساعة الحادية عشرة صباحاً

عن الرغبة.
عن الضغينة.
عن الغيرة.

كان لخليط المشاعر التي عانت منها إيما وهي تتأمّل سعادة أسرة شابيرو طعم المرارة.

في صباح يوم الأحد ذاك، كان ماتيو وزوجته وابنته الصغيرة إيميلي يتنزّهون في ممرّات الحديقة العامّة المغطّاة بالثلج. كانت حديقة بوسطن الكبيرة مغطّاة بطبقةٍ رقيقة من الثلج الذي تساقط عند طلوع الشمس. كان هذا التساقط الأوّل لثلج الشتاء يُعطي بياضاً للمشهد ويمنح المدينة جوّاً احتفالياً.

قال ماتيو وهو يرفع ابنته لكي يدلّها على إوزٍّ عراقيّ ضخم كان

يلحق بمجموعةٍ من البطّ على المياه الهادئة للبحيرة:

- تعالي بين ذراعيّ، يا عزيزتي!

على بعد بضعة أمتارٍ من هناك، كانت إيما، جالسةً على مقعدٍ، تراقب المشهد دون أن تسعى إلى إخفاء حضورها. لم تكن تعرّض نفسها لأيّ خطرٍ فيما لو اكتُشِف حضورها هناك طالما أنّ «ماتيو 2010» لم يكن يعرف لا وجهها ولا حتى يعلم بوجودها. حالة غريبة ومفارقة بدت للمرأة الشابّة أنّها غير محتملة الحدوث مثلما هي مثيرة.

بفضل النوم، كانت قد استعادت شيئاً من هدوئها. كانت قد نامت طيلة الليل في حافلة تابعة لشركة غريهوند التي قطعت المسافة من أتلانتيك سيتي إلى بوسطن. عشية ذلك اليوم، بعد أن حقّقت الجاكبوت وربحت ذلك المبلغ الطائل، جعلتها إدارة الكازينو تملأ بعض الأوراق. وهو إجراءٌ ضروري لكي يُقيَّد المبلغ الذي ربحته في حسابها المصرفي. من خلال النوافذ الزجاجية لفندق نيو بيرنهايم، لمحت أولى ندائف الثلج في سماء أتلانتيك سيتي. ولأنّها لم تكن لديها الرغبة في أن تقود السيارة لساعات طويلة تحت الثلج، سلّمت مفاتيح السيارة المستأجرة لبوّاب فندق الكازينو لكي يودعها في إحدى وكالات المدينة. ثمّ استقلّت سيارة أجرة إلى محطّة المسافرين واشترت بطاقة سفر بالحافلة إلى بوسطن. غادرت الحافلة، التي كانت نصف مقاعدها فارغة، أتلانتيك سيتي في الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة مساءً. وقد سار السائق في إيقاعٍ هادئٍ طيلة الليلة. فتحت المرأة الشابّة إحدى عينيها أثناء توقّفٍ قصيرٍ في مدينة هارتفورد، ولكنّها لم تستيقظ تماماً إلّا حينما عبرت حافلة شركة غريهوند أبواب عاصمة ماساتشوستس في الساعة الثامنة صباحاً.

نزلت إيما في فندق فور سيزن، الفندق الكبير الذي يطلّ على الحديقة. مع عدّة ملايين من الدولارات في حسابها المصرفي، كان ذلك أمراً ممكناً بالنسبة إليها منذ الآن فصاعداً. كانت قد اتّصلت بإدارة مطعم إمبراتور لتخبرها بأنّها مريضة وأنّها سوف لن تذهب إلى العمل طيلة الأسبوع. ثمّ استحمّت واشترت ثياباً دافئة من متجر الفندق ثمّ خرجت لكي تسير في الشوارع المتعرّجة لحي بيكون هيل.
لم تكن لديها خطّة واضحة ومحدّدة في ذهنها. كانت الأسئلة تتزاحم في ذهنها فقط. هل كان عليها أن تقترب من ماتيو؟ ولكن ماذا ستقول له؟ وكيف يمكن القيام بذلك من دون أن تصبح مجنونة؟

قبل أن تتّخذ قراراً، كانت بحاجة إلى أن تراقب الرجل الطيّب. كانت تعرف عنوانه: عمارةٌ قرميدية عند تقاطع ساحة لويسبورغ سكوير وشارع ويلو ستريت. ولدى ذهابها إلى هناك، افتُتِنَت بالسحر الفريد لحي بيكون هيل. عندما سارت على الأرصفة ذات البلاطات المشوّهة، تخيّلت نفسها في هيئة بطلةٍ من بطلات الكاتب الأميركي هنري جيمس. كان الحيّ بأكمله يبدو وكأنّه قد تجمّد عند القرن التاسع عشر. كانت واجهات المتاجر ملبّسة بخشبٍ مدهون، وكانت المصابيح الغازية تشعّ نوراً ينتمي إلى عصرٍ آخر، بينما كانت أزقّة ضيّقة تتعرّج نحو الحدائق السرية التي كانتُ تُشاهَد بعض أغصان أشجارها خلف البوابات المعدنية المزخرفة. عثرت بسهولة على منزل آل شابيرو، المزيّن بشرائط مزخرفة وأكاليل من شجر التنّوب المزيّنة بجوز الصنوبر وأشرطة ملوّنة. وكأنّها خارج الزمن، انتظرت قرابة ساعةٍ كاملة، مسكونةً بذلك الإحساس الفريد بالتحرّك تحت لعبة **كرة الثلج** في طفولتها: كرة عملاقة من الزجاج يتمّ هزّها في الليل لكي يتساقط منها الثلج المبرَّق على القرميد الأحمر لأسطح

المنازل. قُبّةٌ غير مرئية تحميها من الاعتداءات ومن جنون العالم.

نحو الساعة العاشرة، انفتح الباب ولمحته لأوّل مرّة بشحمه ولحمه. إنّه هو، ماتيو. كان يرتدي قلنسوة من الصوف ونزل بحذر الدرجات اللزقة لدرج المدخل، ممسكاً بابنته بين ذراعيه. حينما وصل إلى أسفل الدرج، وضع إيميلي في العربة وهو يغني لها مقطعاً من أغنية ألعاب فكهة. وجدت إيما بأنّه أكثر سحراً مما كانت قد تخيّلته في ذهنها.

تعرّفت فيه على هذا الجانب النقي والصادق والصلب والذي كانت قد تلمّسته عبر رسائله الإلكترونية. ورؤيته مهتماً بابنته جعلته أكثر جاذبية.

ثمّ شاهدتها، هي، المرأة الأخرى، كيت شابيرو. شابّة شقراء، نحيلة ورشيقة، والتي لم تكن جميلة فحسب، بل وكانت بكلّ بساطة. امرأة رائعة. جمالٌ كلاسيكي، تماماً مثل نبيلةٍ رومانية، مُحاطة بهالةٍ من العذوبة الأمومية ومن السحر: عينان واسعتان صافيتان، خدّان بارزان، وجهٌ ذو بشرة نقية وذو شفتين ممتلئتين، وشعرٌ ملفوفٌ على شكل كعكة في مؤخرة رأسها كما لو أنّها بطلة من بطلات أفلام هيتشكوك.

بعد أن أحسّت بأنّها متواضعة - كانت كيت من نوع النساء التي شعرت بجانبها بأنّها بائسة مقارنةً بها-، تتبّعت إيما خطى الأسرة حتى بلغت الحديقة العامّة في بوسطن، الحديقة التي تُستخدَم كصلة وصل بين حي بيكون هيل وحي باك باي.

قالت كيت لابنتها وهي تشير إلى سنجاب كان ذيله المكسو بشعرٍ كثّ يظهر من خلف شجرة:

- انظري، يا عزيزتي!

قفزت الفتاة الصغيرة من عربتها لكي تلاحق الحيوان، ولكن بعد خطوتين، تعثّرت وسقطت أرضاً واندسّ أنفها بين شذرات الثلج. لم تُصَب بجروح ولكنّها شعرت بالمهانة، فانفجرت باكية.

- هيّا، يا قلبي، تعالي مع بابا.

أعادها ماتيو إلى عربتها وواصل الثلاثي نزهتهم عابرين شارع تشارلز ستريت لكي يذهبوا إلى حديقة كومون في بوسطن حيث توجد حلبة تزلّجٍ تُفتح في أشهر فصل الشتاء. ولمواساة إيميلي، اشترت كيت حبّات كستناء ساخنة من بائعٍ متجوّل. تناولوا حبّات الكستناء وهم يراقبون المتزلجين الذين نَجحوا في أن يكونوا شخصيات جسورة أو شخصيات سقطوا بقوّة على الجليد.

كان هذا النموذج الثاني هو الذي يُمتع إيميلي أكثر.

مازحها والدها بالسؤال:

- يكون الأمر أكثر تسلية حينما يقع الآخرون، أليس كذلك، يا صغيرتي؟

ثمّ انتقلوا ببطء نحو مركز المرج الشاسع حيث يجتمع العدد الأكبر من المتنزّهين.

رفع ماتيو طفلته على كتفيه. لمعت عيناها وأعجبتها الديكورات الثرية لشجرة الميلاد الكبيرة التي كانت مدينة هاليفاكس تقدّمها كلّ عام لسكان بوسطن بموجب تقليدٍ قديم.

على بعد بضع خطوات من ذلك المكان، لم تكن إيما تحيد ببصرها عن إيميلي. مثل الفتاة الصغيرة، كانت عيناها هي الأخرى تلتمع. ولكن الوميض الذي كان يشتعل فيهما كان مشوباً بالمرارة.

لم تكن قد عرفت قطّ هذه السعادة العائلية، هذا الهدوء الذي كان ينبعث منهم، الحبّ الذي كان ينتقل بحرية من أحدهم إلى

الآخر. لماذا؟ ما الذي كان ينقصها مقارنةً مع الآخرين حتى لا تبلغ هذه السعادة؟

* * *

بوسطن
22 ديسمبر 2011
في منتصف الليل

وهو يرتدي سروال منامته وقميصاً رياضياً من ماركة ريد سوكس، أضاء ماتيو سلّم الإنارة الذي كان يحيط بمرآة صالة الاستحمام.

من المستحيل إغماض العين. كان حلقه جافّاً ويعاني من تسارعٍ في الخفقان ومن صداعٍ شديد. أخذ قرصين من المسكّنات من درج الصيدلية المنزلية وابتلعهما دفعةً واحدة مع جرعةٍ من الماء. نزل السلالم حتى وصل إلى المطبخ. منذ ثلاث ساعات كان يتقلّب خلالها في سريره على كلّ الجهات، لم تكن فكرةٌ تبارح ذهنه. بديهةٌ كانت قد فرضت نفسها شيئاً فشيئاً عليه. فكرةٌ مجنونة، لكانت في غاية الجمال لو أنّها تحقّقت، والتي كانت تسبّب له الدوران: كان عليه أن يجرّب كلّ شيء لكي يُقنِع إيما بأن تمنع وقوع حادث كيت! حينما كان يفكّر بهذا الاحتمال، كانت كلمةٌ تراود ذهنه دون توقّف. **القيامة**: المصطلح الذي استخدمه الإغريقيون للحديث عن بعث الأموات. كما هو الحال في رواية للخيال العلمي. هل هناك حقاً هذه الفرصة في العودة إلى الوراء ليتمكّن المرء من تغيير مسار حياته؟ كان ذلك أملاً ضئيلاً، ولكنّها فرصةً يجب انتهازها حتى النهاية.

فكّر في هذا الحلم الذي كان يتقاسمه كلّ البشر: السفر في

الزمن، لتصحيح أخطائهم ولتجاوز مظالم الحياة. فكّر في أسطورة **أورفيوس** وعاش في جلد عازف القيثارة الذي نزل حتى بلغ أبواب الجحيم لكي يتوسّل إلى الآلهة لكي تعيد إليه زوجته المتوفاة. كانت كيت أوريديس خاصّته، ولكن لإعادتها إلى الحياة، كان بحاجة ماسّة إلى مساعدة إيما لوفنشتاين.

في وسط العتمة، أنار المصباح الجداري المعلّق الذي كان يقع تحت الرفّ الخشبي المبرنق للمطبخ. رفع شاشة الحاسوب المحمول وجلس على أحد المقاعد وكتب رسالة إلى إيما وضع فيها كلّ مشاعره القلبية وكلّ إيمانه.

* * *

بوسطن
22 ديسمبر 2010

غادرت أسرة شابيرو مروج حديقة كومون في بوسطن نحو الشرق. سارت إيما في إثرهم بحذر، تاركةً مسافةً مناسبة بينها وبينهم، وهي تحاول أن تحدّد مكانها وأن تتآلف مع المدينة. وقد أُعجِبَت بمدينة بوسطن مباشرةً: كانت أكثر أناقةً وأكثر حضارية من نيويورك وأقلّ خشونةً وصخباً منها. عند كل تقاطعٍ للشوارع، بين العمارة الكلاسيكية والبناء المعاصر، بدا الماضي والحاضر يندمجان في انسجام لطيفٍ وهادئ.

سرعان ما فاحت روائح بنٍّ محمّصٍ في الجوّ، بالقرب من حي نورث إند الإيطالي. في شارع هانوفر ستريت، كانت واجهات محال الأطعمة والحلويات تستثير لعاب الزبائن الدائمين: جبنة **موزاريلا دي بوفالا**، أرضي شوكي على طريقة روما، خبز جنوى المحمّص، ستروفولي بالعسل، كانولي مغطّس بالقشدة.

دخل ماتيو وزوجته، وهما يمسكان بيدي بعضهما، إلى مطعم فيه كوّات زجاجية كان عليهما أن يحصلا منه على ما يتناولانه عادةً: كان مطعم **ذي فاكتوري** مطعماً إيطالياً رخيصاً معاصراً ذا جو نصف عائلي ونصف معاصر، يرتاده طلاب وطالبات على علاقة ببعضهم وكذلك يرتاده آباء شباب محليون.

دخلت إيما في أعقابهم إلى المطعم وطلبت طاولة.

سألتها النادلة بلهجة فيها نبرةٌ من العتب:

- هل أنتِ بمفردكِ، يا آنستي؟

أقرّت بإشارةٍ من رأسها. كان الوقت باكراً. وبدأ المطعم يمتلئ بالزبائن، ولكن كان واضحاً بأنّه لا يزال هناك مكانٌ شاغر.

سألتها النادلة للمرّة الثانية بنبرةٍ معاتبة:

- ليس لديكِ حجزٌ مسبق، أليس كذلك؟

هذه المرّة، لم تردّ على سؤال النادلة، مخضعة للصمت عجرفة تلك الفتاة ذات القسمات الرقيقة والشعر الطويل المجعّد وذات السروال القصير الذي كان يُظهر جمال ساقيها البالغين عشرين عاماً.

- تفضّلي بالانتظار. سوف أرى إن كان قد بقي لدينا شيءٌ.

نظرت إليها إيما وهي تقوم بنصف دورة، عابرةً الصالة كما لو أنها تمشي على بوديوم عارضات الأزياء. لكي تمنح لنفسها شيئاً من رباطة الجأش، تقدّمت نحو البار - كان عبارة عن قالب من الإسمنت والأميانت محاطاً بكراسٍ معدنية بلا مسند - وطلبت كوباً من كوكتيل كيبيروسكا.

كانت الشمس قد أشرقت وفاض نورٌ بهيّ على الصالة. ذكّر المكان، المبني على عدّة طوابق، إيما بأجواء بعض المطاعم النيويوركية، بديكورٍ صناعي له درجات لونية من الرمادي ومن

الخشب الطبيعي. على الطاولة، كان هناك «جانبون بارما» منظّف معروضاً كتحفة فنية بجانب فرّامة يدوية، بينما في عمق الصالة كان يُسمع صوت نارٍ تُطقطقُ في فرنٍ كبيرٍ لخبز البيتزا.

عادت النادلة نحوها وقالت:

- من فضلكِ، اتبعيني، يا آنستي.

بغمزة من العين، أفهم مقدّم المشروبات إيما بأنّه سيجلب لها كوبها من الكوكتيل إلى طاولتها. ومن محاسن الصُدَف أنّها أُجلسَت على مقعدٍ كان على بعد أقلّ من عشرة أمتار من ماتيو وزوجته. بعد أن اطمأنّت إلى أنّها قد حظيت بمرصد مراقبة متميّز، أفرغت قدحها من الفودكا في جرعةٍ واحدة وطلبت كأساً آخر مع طبقٍ من السمك وطبق من البيتزا بالأرضي شوكي والجرجير. قطّبت عينيها لكي ترى على نحوٍ أفضل أفراد أسرة شابيرو. كانوا يشكلون أسرة سعيدة. كانت النكات تنتشر والمزاج الرائق سارياً. وكان ماتيو يمثّل دور المهرّج لكي يسليّ ابنته وكانت كيت تضحك من كلّ قلبها بمرحٍ وابتهاج. بدا واضحاً أنّ الزوجين مرتبطان ومتّحدان بتفاهمٍ قويّ. كانا من نوع الأشخاص الذين لا يمكننا أن نمنع أنفسنا عن القول عنهم بأنّهم «على أفضل ما يرام مع بعضهم». ألقت إيما النظرة على الطفلة إيميلي.

إي - مي - لي. تردّدت أصداء المقاطع الصوتية الثلاثة على نحوٍ غريبٍ في داخلها. كانت إيما دائماً تقول في نفسها بأنّها سوف تمنح هذا **الاسم** لابنتها إذا ما أصبحت ذات يومٍ أمّاً لطفلة. أحيا هذا التصادف قلقاً وألماً لم يكن قد التأما تماماً في داخلها. لم تكن قد تحدّثت عن هذا الأمر مع أحد، ولا حتى مع طبيبتها النفسانية، ولكن خلال السنتين اللتين كانت خلالهما على علاقة متقطّعة مع

فرانسوا، حاولت سرّاً أن تَحبَل منه. كذبت على عشيقها وجعلته يعتقد بأنّها كانت تتناول أقراصاً مانعة للحمل. ولكن على العكس من ذلك، كانت تحسب في غاية الدقّة مراحل ومواعيد دورتها الشهرية وفي كلّ مرّة كان ذلك ممكناً، كانت تُقيم علاقة في الوقت المناسب. في البداية، كانت تقول لنفسها بأنّها إذا ما استطاعت أن تمنح طفلاً لعشيقها فرانسوا، ربّما سيقرّر هجر زوجته والانفصال عنها. ولكنّها أدركت بعد ذلك أنّ هذا الأمر سوف لن يكون له أيّ تأثير على تردّد وحيرة عشيقها، ولكنّ الرغبة في إنجاب طفلٍ ظلّت راسخة في داخلها.

لسوء الحظّ، لم يأتِ الطفل الذي كانت تتأمّله أبداً. لم تقلق من هذا الأمر بإفراط. ففي نهاية المطاف، لم تكن قد بلغت من العمر سوى ثلاثة وثلاثين عاماً. ولكن بينما كانت تتصفح ذات يوم عدداً من مجلّة **نيوزويك** في صالة الانتظار في عيادة طبيبتها النفسانية، وقعت على مقالةٍ كانت تتحدّث عن ظاهرة «سنّ اليأس المبكّر». وقد صُدِمت بشهادات أولئك النسوة اللواتي بدأت خصوبتهنّ بالنضوب تماماً في بداية الثلاثينيات من عمرهنّ. بداهةً، لم يكن هناك سببٌ خاصّ يجعلها تشعر بأنّها معنية بهذا الأمر: لم تكن لديها أبداً مشاكل في دورتها الشهرية وكان الطمث عندها منتظماً. ولكنّ قلقاً شديداً انتابها مباشرةً بعد قراءتها لتلك المقالة في المجلّة. ولكي تضع حدّاً لقلاقلها وهواجسها، انتهى بها المطاف إلى شراء جهاز اختبار «الساعة البيولوجية» الذي يُباع في الصيدلية. كان التدبير جدّياً. كان يتوجّب عليها أن تذهب في اليوم الثاني من حيضها لكي تجري تحليلاً على عيّنة من دمها. ومن ثمّ كانت العيّنة تُرسَل إلى مختبرٍ كان يحلّل ثلاث نماذج من الهرمونات والتي كانت

تتيح قياس عدد البيوض الأنثوية غير الناضجة ومقارنتها مع العدد الطبيعي المتوقّع عند امرأة في سنّها نفسه.

تلقّت إيما نتائج التحليل عبر البريد بعد أسبوعٍ من موعد إجرائه، لتكتشف بأنّ ذخيرتها من البيوض الأنثوية غير الناضجة كانت بالعدد نفسه لبيوض امرأة تبلغ من العمر أكثر من أربعين عاماً! أنهكها هذا الاكتشاف وأضناها. ربّما كان عليها أن تُعيد إجراء التحليل أو أن تذهب لمراجعة واستشارة طبيب مختصّ بالأمراض النسائية؛ ولكنّها آثرت أن تتكتّم على هذه المعلومة التي تعاودها الآن بالقوة التدميرية لكيدٍ مرتدٍّ. أحسّت إيما بالخوف والغضب يخفقان في صدرها. كان كلّ جسمها يرتعش ويرتعد. ولكي تطرد هذه الذكرى من ذاكرتها، ثبّتت نظرها على طاولة أسرة شابيرو.

لكن الغضب لم يهدأ ولم يتراجع. أحسّت من جديد بأنّ غبناً يُصيبها واجتاحتها أسئلة لم تكن لها أجوبة. لماذا يُجري البعض اللقاءات المناسبة في اللحظة المناسبة؟ لماذا يكون للبعض الحقّ في الحبّ وفي التمتّع بأسرة؟ هل هذا الأمر يتعلّق بالجدارة، بالحظّ، بالصدفة، بالقدر؟ في ماذا أخفقت في حياتها حتى تكون وحيدة إلى هذا الحدّ، هشّة إلى هذه الدرجة، وفي حالةٍ من الفقدان المطلق للثقة بنفسها؟

أشارت إلى نادلٍ لكي تطلب منه أن يقوم بإجلاء ما على الطاولة وأخرجت حاسوبها المحمول من حقيبته. بوسطن مدينة فائقة التقدّم في مجال الاتصالات وكان المطعم يضع نقطة واي - فاي للاتصال عبر الإنترنت مجانّاً في خدمة زبائنه. رفعت شاشة حاسوبها وفتحت صندوق بريدها الإلكتروني لكي تراجع رسائلها الإلكترونية وكما كانت تتوقّع، وجدت رسالة مرسلة من ماتيو.

من: ماتيو شابيرو
إلى: إيما لوفنشتاين
الموضوع: Sustine et abstine(*)

«تألّم وقاوم»

هل تعرفين مقولة الرواقيين هذه، يا إيما؟

إنّها تحثّ على القبول بالقدر والمصير. بالنسبة إلى هؤلاء الفلاسفة، لا جدوى من الرغبة في تغيير نظام الأمور المفروض من قبل «العناية الإلهية».

لماذا؟ لأنّه ليس لدينا أي سيطرة على المرض أو على الزمن الذي ينقضي أو موت الشخص الذي نحبّ. نحن عاجزون تماماً أمام هذه الآلام والعذابات. ليس بوسعنا سوى أن نعاني منها بالطريقة الأكثر تواضعاً.

هذا ما أحاول أن أفعله منذ عام: القبول بموت زوجتي كيت، حبّ حياتي. القبول بما لا يمكن قبوله، ممارسة حدادي وحزني، والاستمرار في الحياة في سبيل ابنتي إيميلي.

سوى أنّ كلّ شيء قد تغيّر مذ اشتريتُ حاسوبكِ. ليس أكثر منكِ، لا أستطيع أن أفهم هذا التشوّه في الزمن. لا شكّ أنّ هناك ظواهر تعصى على كلّ تفسير منطقي أو علمي وهذا ما نحن كلانا نعاني منه. لقد «تعثّرنا

(*) Sustine et abstine: مقولة الفيلسوف الرواقي أبيكتيت والتي أصبحت بمثابة حكمة عند الرواقيين وهي تدعو إلى الزهد والتحمّل.

بالزمن» كما يقول أينشتاين.

اليوم، وبفضل مساعدتكِ، ربّما تكون لدي إمكانية أن أحظى بنعمة لم يحصل عليها قط أي إنسانٍ من السماء: بَعثُ مَنْ نحبّ.

أرجوكِ أن تساعديني، يا إيما. حياة زوجتي بين يديكِ. لقد سبق لي أن رويتُ لكِ ظروف وفاتها: في 24 ديسمبر، بعد الساعة التاسعة مساءً بقليل، بينما كانت قد أنهت دوامها، صدمت شاحنة خاصّة بنقل الطحين سيارتها في اللحظة التي كانت تغادر فيها مرآب المستشفى. لديكِ القدرة على إلغاء هذا الحادث، يا إيما. افعلي أيّ شيءٍ من أجل منعها من أخذ سيارتها: اثقبي إطارات العجلات الأربع لسيارتها من طراز مازدا، ضعي سكّراً في خزّان الوقود، انزعي أحد كابلات التغذية من تحت غطاء محرّك السيارة. أو أوجدي طريقة لكي لا تستطيع الذهاب إلى العمل في المستشفى في ذاك اليوم. افعلي أي شيءٍ لمنع تلك اللحظة المشؤومة!

يمكنكِ أن تعيدي إليّ زوجتي، ولكن الأهمّ من ذلك، أنّكِ تستطيعين أن تعيدي إلى ابنتي الصغيرة أمّها. يمكنكِ أن تعيدي لمّ شمل أسرتنا معاً. أعرف أنّكِ امرأةٌ كريمة ونبيلة. لا أشكّ في أنّكِ سوف تُساعدينني وسوف أكون ممتناً ومديناً لكِ بالجميل والعرفان إلى الأبد.

يمكنكِ أن تطلبي منّي أيّ شيء، يا إيما. إذا أردتِ

المزيد من المال، يمكنني أن أرسل إليكِ أرقام أجهزة اللوتو أو البورصة أو نتائج المباريات المقبلة لكرة السلّة. اطلبي منّي أي مبلغٍ تشائين وسأجعلكِ تحصلين عليه.

أقبّلكِ،

مات.

أخرجتها هذه الرسالة عن طورها. لم تستطع أن تسيطر على اندفاعها، فردّت عليه ببضعة أسطرٍ ركّزت فيها كلّ غضبها وكلّ إحباطها.

من: **إيما لوفنشتاين**
إلى: **ماتيو شابيرو**
الموضوع: ردّ: Sustine et abstine

ليس المال هو ما أريده، أيّها الرجل المسكين!

أريدُ الحبّ! أريدُ أسرةً!

أُريدُ أشياءَ لا تُشترى!

بالكاد كانت قد نقرت على الأزرار لإرسال الرسالة حتى شاهدت أنّ ماتيو وأسرته يغادرون المطعم. أغلقت غطاء حاسوبها وطلبت الفاتورة لكي تسدّد حسابها. ولأنّها لم تعد تملك سيولةً، أعطت بطاقتها الائتمانية، ولكن كان عليها أن تنتظر إلى حين إعادة بطاقتها البلاستيكية المستطيلة إليها.

* * *

خرجت بسرعةٍ إلى ساحة نورث سكوير ووجدت أفراد أسرة شابيرو يتسكّعون ويُضيّعون وقتهم في شارع هانوفر ستريت. سارت في إثرهم إلى أن وصلوا إلى فناءٍ طويل من الخضرة مزيّنة بأشجارٍ ومناهل ونوافير مياهٍ ومصابيح معلّقة.

بعد خمسة عشر عاماً من الأعمال الجبّارة، كانت بوسطن قد أنجزت مأثرة طمر الطريق السيّار الواسع الذي كان يشوّه فيما مضى منظر المدينة. في الوقت الراهن، تجري الطرق الثمانية المخفية تحت الأرض، غير مرئية، في أحشاء المدينة. وبذلك أتاحت مساحات واسعة على السطح ومنحت مساحة جديدة لتعاقب الجزر الصغيرة المخضرّة ولممرات المشاة. واصلت إيما تعقّبها لأثر أسرة شابيرو إلى أن وصلت إلى تقاطع شارع كامبردج ستريت وشارع تامبل ستريت. عند ممرّ المشاة، تبادل ماتيو وكيت قبلة خاطفة قبل أن ينطلقا في اتجاهين متعارضين. كان ذلك مباغتاً لإيما، فتردّدت لبضع ثوانٍ. أدركت أنّ ماتيو وابنته كانا يعودان نحو بيتهما في حي بيكون هيل وفضّلت أن تتعقّب أثر كيت. سارت المرأة الشابّة أمام الخطوط العمودية لكنيسة أولد ويست شورش التاريخية ومن ثمّ وصلت إلى قرب حي أكثر حداثةً حيث كانت الانعكاسات الباردة للزجاج والفولاذ تحلّ محلّ سحر القرميد الأحمر. رفعت إيما رأسها باتجاه لوحة إعلانية مضاءة: كانت توجد على عتبة المدخل الرئيس لمستشفى ماساتشوستس العامّ (MGH)، أحد أكبر وأقدم مستشفيات البلاد.

كان المكان عبارة عن منطقة ذات استطالات وزوائد تتكدّس فيها المباني فوق بعضها من دون تناسق ولا منطقٍ جمالي. كان يخال للمرء بأنّ المستشفى قد توسّع بمرّ السنين على نمط مدينة تشهد

تفجّراً سكانياً. كان قد أُضيف إلى المبنى القديم، الذي بني في بداية تأسيس المستشفى، كتلةً من المباني الجديدة الأكثر سعةً والأكثر ارتفاعاً. كانت أعمال التوسعة مستمرّة في المجمّع الطبي: كانت كتلة ضخمة من الإسمنت تخرج من الأرض وترتفع وسط الرافعات الشاهقة والشاحنات القلّابة والجرّافات والأكواخ الخشبية الخاصّة بورشات العمل.

غاصت كيت بمرح في هذا الديكور البارد لكي تدخل إلى مكعّبٍ ضخمٍ من الزجاج الفيروزي اللون: المبنى الذي كان يضمّ مركز جراحة القلب. صعدت الطبيبة الجرّاحة بخطواتٍ رياضية السلالم التي كانت تسمح بالوصول إلى الأبواب الأوتوماتيكية وتوارت عن الأنظار في المبنى. فخمّنت إيما حينذاك بأنّ كيت تقوم بمناوبتها في قسم الأمراض القلبية في مستشفى ماساتشوستس العام (MGH).

تردّدت إيما. كان من المستحيل أن تلحق بكيت إلى داخل المستشفى. كانت ستكشف سريعاً أمرها وستُطرد من المستشفى. من جهة أخرى، أيّ مصلحة لها في فعل ذلك؟ كانت إيما على وشك أن تقلع عن تلك الفكرة، ولكنّ الفضول كان قويّاً وضاغطاً. كان الفضول ينهشها. سيما وأنّها أحسّت بأنّ الأدرينالين يسري في عروقها ويسبّب لها هيجاناً يردعها عن ضبط نفسها ويجعلها جريئة وملحاحة. أدارت رأسها نحو فكرة ألحّت عليها. كان اليوم هو الأحد، وكان المرآب يزدحم بشاحنات الحمولة المركونة في صفٍّ مزدوج. حينما كانت الأبواب الضخمة تُفتَح، كانت الشاحنات تُفرِغُ حمولتها من البضائع بفوضوية تامّة: أغذية، أدوية، أدوات منزلية، وبياضات عائدة من ورشة للغسيل والكوي.

اقتربت من تلك العربة الأخيرة وأدخلت سريعاً رأسها إلى داخلها. كانت الحمولة مكوّنة من سلال ضخمة تحتوي على شراشف وأغطية والقمصان التي يرتديها المرضى وبلوزات الأطباء. جالت ببصرها بحثاً عن السائق. لا شكّ أنّه قد انضمّ إلى المجموعة الصغيرة من السائقين الذين كانوا يأخذون قسطاً من الراحة بالقرب من الماكينات الموزّعة للمشروبات. كان الرجال منهمكين ومشغولين بأحاديثهم فلم يتنبّهوا لها. تسارعت دقّات قلبها وهي تمدّ يدها لكي تنتزع بزّة من تلك البزّات المخصّصة لطواقم المستشفى. كانت البلوزة المفصّلة للرجال بضعف مقاسها، ولكنّ إيما اكتفت بها فشمّرت أكمامها واندسّت إلى داخل مركز جراحة القلب.

* * *

كان بهو المدخل، المُضاء والمُشرق، يتعارض مع هيجان الخارج. في كلّ مكانٍ منه، كانت عناصر طبيعية - شُجيرات خيزران، نباتات السحلبية، نباتات استوائية، وشلال ماء كان يسيل على طول جدارٍ من حجر الأردواز - تتزيّن لكي تخلق جوّاً مريحاً.

وجدت إيما كيت في ردهة المستشفى وهي منهمكة في حديثٍ مع زميلةٍ لها، ولكن حديثهما لم يدم طويلاً وصعدت الطبيبة الجرّاحة سلالم أخرى، وهي تقدّم بطاقتها التعريفية إلى حارسٍ يحرس مدخل الصالات المخصّصة للكوادر الطبية المعالِجة.

ولأنّها لم تكن تملك المفتاح السحري الثمين، التقطت إيما كراسةً من على جهازٍ للعرض. وعلى غرار دروس المسرح التي كانت تتلقاها في سنّ مراهقتها، حاولت أن تركّب لنفسها شخصية جديرة بالتصديق عبر القيام بحركات إيمائية. بحقيبتها الظهرية وبلوزتها ومظهرها الحازم، لم تكن مختلفة كثيراً عن الطلبة المعاونين

في المستشفى والأطباء الذين كانوا يملؤون الأمكنة. أسبلت عينيها وركّزت على كرّاستها كما لو أنّها كانت تدرس ملفّاً طبيّاً قبل عملية جراحية.

لم يكلّف الحارس نفسه حتى عناء النظر إليها وهو يسمح لها بذلك أن تتبع كيت حتى وصلت إلى الكافيتريا الخاصّة بالعاملين في المستشفى. انضمت الطبيبة الجراحة في الكافيتريا إلى طالبين مساعدين: فتاةٌ خلاسية جميلة ذات وجهٍ رقيق وفتى وسيم مفتول العضلات نتخيّله يرتدي ألبسة كرة قدم بدل سماعة الطبيب حول رقبته.

جلست إيما إلى الطاولة التي بجانبهم لكي تسترق السمع إلى الحديث. دون أيّ ابتسامةٍ، ألقت كيت التحية على طالبيها اللذين بدا واضحاً أنّها كانت تشرف على تقييمهما الطبي، ورفضت القهوة التي عرضاها عليها، وبلهجةٍ جافّة، شرعت بتوجيه سلسلة من اللوم والتوبيخ، محدّدةً من دون رحمة مكامن تقصيرهما. كانت أوصافها لهما قاسية للغاية: «غير كفؤين»، «متعطّلان» «انفعاليان»، «ليسا بالمستوى المطلوب»، «خاملان»، «عديمان»، «خطيران على المرضى». بوجهٍ متشنّج، عبّر الطالبان المساعدان عن بعض الخلافات، ولكنّ خطّهما الدفاعي لم يصمد أمام حدّة هجمات كيت. وقد نهضت هذه الأخيرة من مكانها سريعاً لكي تضع حدّاً للحديث ليس من دون توجيه تهديدٍ حقيقيٍّ بادئ ذي بدء:

- إذا لم تغيّرا جذرياً عقليتكما، إذا لم تدركا بأنّه يجب حقّاً البدء بالعمل، يمكنكما القول وداعاً لأحلامكما في التخصّص في الجراحة. في كلّ الأحوال، سوف أعترض دون تردّد على تصديق رئاستكما لأقسامٍ في المستشفى.

حدّقت مباشرةً في عينيهما لتتأكّد من أنّ الصاروخ قد أصاب هدفه ومن ثمّ دارت على أعقابها لكي تتّجه نحو المصاعد.

هذه المرّة، كفّت عن ملاحقتها وظلّت جالسة إلى الطاولة، وهي تُصيخ السمع إلى الطالبين المساعدين وهما يُطلقان العنان لمرارتهما:

- هذه المومس مثيرة للشبق بقدر ما هي كريهة!

- هذه لباقة منك، يا تيم. ربّما كان عليك أن تخبرها ذلك حينما كانت هنا.

- تبّاً، يا ميليسا، نحن نعمل أربع وعشرين ساعة في الأسبوع وهي تعتبرنا خاملين!

- صحيحٌ أنّها صارمة. صارمة مع الآخرين مثلما هي مع نفسها. ومع ذلك فهي رئيسة القسم الوحيدة التي تفرض على نفسها مناوبات.

- ولكن هذا ليس سبباً لكي تتحدّث معنا كما لو أننا كلاب! مَنْ تعتبر نفسها، تبّاً لها!

- تعتبر نفسها ما هي عليه فعلاً: من دون شكّ أفضل جرّاح في هذه المستشفى. هل تعلم أنّها نالت 3200 نقطة في اختبار MCAT[1]؟ هذه أعلى درجة منذ وضع الاختبار ولم يتجاوزها أحدٌ قط حتى يومنا هذا.

- هل ترينها استثنائية لهذه الدرجة، فعلاً؟

---

(1) MCA (Medical College Admission Test): فحص القبول في الكليات الطبية وهو فحص قبول معياري يخضع له الطلبة الراغبون في الانضمام إلى كليات الطب في أميركا الشمالية.

وافقت ميليسا على مضض:

- إنّها ألمعية، هذا مؤكّد. أتساءل كيف لديها الوقت لتفعل كلّ شيء: هي تعمل هنا، في مركز جراحة القلب، وتدير قسماً لجراحة الأطفال قامت بتأسيسه في حي جامايكا بلين، وتشارك في مؤتمرات، وتكتب مقالات في المجلات الطبية الأكثر اعتباراً، وهي دائماً في قمّة الإبداع في تقنياتها الجراحية.

- إذاً، أنتِ معجبة بها؟

- بكل تأكيد. وعلاوة على ذلك، إنّها امرأة.

- لا أرى ما يغيّره هذا الأمر.

- هذا يغيّر كلّ شيء. ألم تسمع قطّ حديثاً عن «الدوام المضاعف»؟ عليها أن تهتمّ بأسرتها، بزوجها، بابنتها، ببيتها.

تمطّى تيم على كرسيه. وتثاءب تثاؤباً طويلاً

- بالنسبة إلي، هذه المرأة عبارة عن روبوكوب(*)

نظرت ميليسا إلى ساعة يدها وشربت جرعةً أخيرة من قهوتها.

قالت بوضوح وهي تنهض من كرسيها:

- لسنا في مستواها وعلى الأرجح لن نصبح في مستواها أبداً. ولكن هذا هو بالضبط ما ألومها عليه: عدم فهمها بأنّه لا يمتلك جميع الناس ما تملكه هي من قدرات.

أطلق الطالبان المساعدان تنهيدة طويلة للتعبير عن إرهاقهما. وهما يجرجران أقدامهما، توجّها نحو المصاعد غير متحمّسين كثيراً باحتمال استئناف العمل.

(*) روبوكوب: فيلم للمخرج الأميركي بول فرموهن. روبوكوب شرطي يُقتل بوحشية من قبل المجرمين، إلا أنهم حولوه بعد العملية الجراحية إلى رجل آلي (المترجم).

حينما بقيت لوحدها، ألقت إيما نظرة شكّ وارتياب من خلف كتفها. لقد عرفت عن الموضوع ما يكفي.

من الأفضل عدم الإفراط في التأخير هنا تحت طائلة خطر افتضاح أمرها.

التقطت حقيبة ظهرها، ولكن في اللحظة الأخيرة، استسلمت للرغبة في الاطّلاع على بريدها الإلكتروني.

كانت لديها رسالة جديدة من ماتيو.

11

نوعٌ من الحرب

الحبّ هو نوعٌ من الحرب.

أوفيد

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

أنا لا أفهم غضبكِ، يا إيما، بل وأجده غريباً وفي غير محلّه. كيف يمكنكِ أن ترفضي تقديم المساعدة إليّ؟

مات

من: إيما

إلى: ماتيو شابيرو

أنا لم أقل بأنني سوف لن أساعدك.

إيما

بعد عشر ثوان.

ولكنّكِ لم تقولي العكس كذلك!

إذا رفضتِ منع وقوع حادث كيت، ستكونين شريكة في قتلها!

بعد عشر ثوان.

توقّف عن التحدّث معي بهذه اللهجة! وكفّ عن تهديدي أو جعلي أشعر بالذنب!

ولكنّ الأمر يتعلّق بحياة زوجتي، يا مجنونة!

كفّ عن اعتباري مجنونة!

إذاً، افعلي ما أقوله لكي، هل فهمتِ؟

وإلّا، ماذا ستفعل؟ هل ستتّصل بالشرطة لكي تقوم بتوقيفي؟ هل ستأتي إلى بيتي في عام 2011؟

سيكون ذلك صعباً جدّاً عليّ.

لماذا؟

بعد دقيقتين.

لماذا؟

بعد دقيقة واحدة.

لأنّه في عام 2011 ستموتين، يا إيما.

لماذا تقول هذا الكلام؟

لأنّه هذه هي الحقيقة. لسوء الحظّ.

أنت تكذب.

بعد دقيقة واحدة.

أنت تكذب!

حائرة ومرتبكة، انتظرت لخمس دقائق أخرى إلى أن ظهرت رسالة إلكترونية جديدة على شاشة حاسوبها. كانت بالطبع واردة من ماتيو ولكنّها لم تكن تحتوي سوى على ملف واحد مرفق بصيغة PDF. فتحت إيما الملفّ بخيفة وتوجّس. كان محتوى الملف عبارة عن مقالة من صحيفة **وايت بلينس ديلي فويس**، وهي صحيفة محلية لمدينة من ضواحي نيويورك.

مأساة في وايت بلينس:
امرأة شابّة تلقي بنفسها تحت قطار

انتحرت امرأة شابّة تبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً بعد ظهيرة أمس، بعد الساعة الثالثة عصراً بقليل، وذلك بإلقاء نفسها تحت قطارٍ في وايت بلينس. كان مترو نورث ريلرود

السائر باتجاه بلدة ويزايك – نيويورك، قد غادر لتوّه المحطّة وسار لكيلومترٍ واحد ووصل إلى مخرج منعطفٍ، حينما ألقت امرأةٌ بنفسها تحت قاطرة القطار. تفاجأ سائق القطار بالمرأة وأعمل المكابح ولكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً لمنع وقوع المأساة.

وصل رجال الشرطة والمسعفون إلى المكان في الوقت نفسه ولكنّهم لم يستطيعوا أن يفعلوا سوى تحرير ضبطٍ مروّعٍ عن الحادثة: كانت الجثّة الممزّقة للمرأة الشابة ملقية على خطوط السكك الحديد للمترو.

تمّ التعرّف على هويّة الضحية، إيما.ل، بسرعة بفضل الأوراق الثبوتية التي تمّ العثور عليها معها وكذلك بفضل رسالة مكتوبة بخطّ يدها وجِدَت في محفظتها، والتي شرحت فيها الأسباب التي دفعتها إلى هذا التصرّف اليائس. كانت المرأة الشابة، الهشّة نفسياً، تخضع منذ سنواتٍ عديدة للعلاج والمتابعة من قبل معالجٍ نفساني.

بعد المأساة، قُطِعَت حركة السير على الخطوط الحديد في الاتجاهين لأكثر من ساعتين، وهو الوقت المطلوب لإتمام الإجراءات القضائية ولإجلاء الجثّة من المكان.

ولم تُستأنف حركة السير بشكلٍ طبيعي على خطوط هارليم لاين، إلا بعد مضي أكثر من سبع عشرة ساعة.

صحيفة وايت بلينس ديلي فويس – 16 أغسطس 2011.

* * *

أحسّت إيما أنّ حلقها قد جفّ وانسدّ. سرت رعشةٌ في جسدها وشلّتها لبضع ثوانٍ. أُصيبَت بالذهول، فأغلقت شاشة حاسوبها

وخرجت من المستشفى على عجلٍ. في كراج السيارات، أخذت تجري مسرعةً وكأنّ الموت يلاحقها. اغرورقت عيناها بالدموع وذبلت. تسكّعت، تائهةً ومذعورة، في الشوارع كيفما كان، خفيضة الرأس، مجتاحةً بالخوف. امتزج انعكاس أشعة الشمس على الثلج بدموعها ومنحها رؤية مشوّشة للبيئة المحيطة بها. خلال جريها، اندفعت في ممرّات خاصّة بالمشاة وعبرت شارعاً رئيساً عريضاً وسط حركة المرور، مثيرةً جوقةً من أبواق السيارات وسَيْلاً من الشتائم. بعد أن انقطعت أنفاسها، اندسّت في أوّل مقهى صادفته.

جلست في عمق الصالة وظلّت للحظةٍ منهكةً خائرة القوى على كرسيها. حينما اقتربت النادلة من طاولتها، مسحت عينيها ونزعت معطفها وطلبت كأساً من فودكا تونيك. حتى قبل أن تقدّم لها النادلة مشروبها، نبشت في حقيبتها باضطرابٍ وعصبية بحثاً عن أدويتها. لحسن الحظ، كانت تحمل دائماً معها «درج صيدليتها» الخاصّة. كانت تعرف الأدوية المطلوبة والجرعات المناسبة منها: حبّتان من البنزوديازيبين وبضع قطرات من الكلوربرومازين.

ابتلعت مزيجها من مضادات القلق ومهدئات الأعصاب واستعادت، بفضل سحر الكيمياء، ما يشبه نوعاً من الاستقرار الهشّ ولكن الكافي في كلّ الأحوال لكي تُخرِجَ حاسوبها من حقيبته وتُعيد مرّة أخرى قراءة المقالة التي كانت تُعلنُ عن انتحارها.

كان إحساساً غريباً: أن تعرف خبر موتها في صحيفة ما بعد الظهيرة.

إحساسٌ غريب ولكنّه ليس مفاجئاً جدّاً. إذاً بهذه الطريقة، انتقلت من جديد إلى الفعل، وهذه المرّة، لم تتخلّف عنه.

فكّرت بتهكّم: **هذا أمرٌ جيّد، يا ابنتي، على الأقلّ، يمكن**

القول بأنّكِ تتعلّمين من أخطائكِ. صحيحٌ أنّ القطار أكثر فاعلية من أقراص الأدوية أو من قطع الشرايين...

نظرت إلى تاريخ صدور الصحيفة: كانت قد انتحرت يوم 15 أغسطس من السنة التالية، في عزّ فصل الصيف. أكثر لحظة كانت تخشاها في نيويورك: اللحظة التي كانت فيها الحرارة الرطبة والخانقة تسبّب لها صداعاً شديداً يُعكّر لها مزاجها. ولكن لا أهمية تُذكَر للتاريخ، فلطالما كانت تعيش مع هذه الفكرة في وضع نهاية لحياتها وأيامها ولا بدّ لهذا الأمر أن يحصل ذات يوم. فكّرت بأوّل أزمة انتحار خضعت لها في حياتها. كانت تلك الحالة قد انحفرت في داخلها إلى الأبد. كان عذاباً نفسياً لا يُطاق لم تُحسن وضع حدٍّ له. شعورٌ من اليأس والإحباط غمرها بالكامل. عزلةٌ مفرطة وقاسية، اضطرابٌ وقلق، وانغمارٌ تامّ لوجودها بالرعب والذعر. عملية استيهامٍ لوعيها من خلال أفكار مرضية لم تكن تستطيع أن تسيطر عليها وتضبطها.

لم يكن انتقالها إلى الفعل عقلانياً في شيء. في قفزة متطرفة، تخلّت عن الكفاح واختارت هذه الحرية الأخيرة التي لم تكن في الحقيقة حريّة. أغلقت شاشة الحاسوب وتمخّطت في منديلٍ ورقي وطلبت كأساً جديدة من الكوكتيل الكحولي.

في هذه اللحظة، كانت الأدوية تمارس مفعولها على أكمل وجه. كانت كلّ هذه الجزيئات التي تلتهمها منذ سنوات تمتلك جدارة أن تجعلها تتصرّف بسرعة وأن تعرض عليها في كلّ لحظة دعامةً وسنداً يمنعها من الوقوع في حبائل الحزن واليأس. حاولت أن تنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة. وإذا ما كان لهذا السقوط بعداً منقذاً؟ في نهاية المطاف، يمكن تحليل إعلان انتحارها على إنّها فرصة ثانية

تمنحها لها الحياة. سوف تذهب أيضاً لتناول الغداء في المستقبل. لم تكن لديها الرغبة في الانتحار، ولا الرغبة في أن ينتهي بها الأمر بأن يتمزّق جسدها تحت فكّي قطارٍ. سوف تُصارع عفاريتها. سوف تصارع عفريتها الخاصّ. منذ زمنٍ طويل، كانت تعرف كعب أخيل خاصّتها، نقطة ضعفها، منبع كلّ آلامها وأحزانها: هذا الإحساس بالعزلة وبالهجران الذي كان يُنهكها ويُضنيها. تذكّرت هذه الجملة للشاعرة إيميلي ديكنسون والتي كانت قد دوّنتها في مفكّرتها حينما كانت طالبة في المدرسة الثانوية: «لكي يعاشر المرء، لا حاجة إلى غرفة، لا حاجة إلى بيت، فالدماغ يكتظّ بممراتٍ أكثر تعرّجاً من بعضها البعض». كانت إيما مسكونة بالعزلة وبالشعور بعدم الأمان العاطفي. في كلّ مساء، كانت أكثر إنهاكاً من جرّاء احتمال أن تعود إلى بيتها من دون أن تلتقي بأحد. كانت تحتاج إلى حياة منظّمة. تحتاج إلى رجلٍ قوي، إلى طفل، إلى بيت. منذ سنّ مراهقتها، كانت تترقّب وتنتظر ذاك الرجل الذي يكون قادراً على أن يفهمها. ولكنّه لم يأتِ. وكان اليقين بأنّه سوف لن يأتِ أبداً يُضنيها ويدمّرها. في هذا اليوم، كانت وحيدة. وسوف تكون وحيدة غداً وكذلك بعد غد. سوف تموت وحيدةً. ومع ذلك، بعد ظهيرة هذا اليوم، كان شيءٌ ما يحثّها على ألّا تستسلم وبدا لها فجأةً مستقبلها المثالي واضحاً وشفّافاً مثل الكريستال: كانت تُريد نمط حياة كيت شابيرو نفسه.

على نحوٍ أدقّ، كانت تريد **حياة** كيت شابيرو. كانت تريد أن تحلّ مكانها.

كانت الفكرة تنمو في ذهنها بهدوءٍ في خليطٍ من الخوف والانبهار. فكّرت من جديد في الطريقة التي بدأت بها كلّ هذه القصّة. من خلال محادثة عن بُعد كانت خلالها على بلاغة وفصاحة

بما يكفي لأن تثير إعجاب ماتيو. كانت قد أغرته من خلال بقائها على ما هي عليه في الحقيقة. كانت قد أثارت إعجابه إلى درجة أنّه دعاها إلى المطعم في اليوم التالي مباشرةً. ولم يتردّد في أن يستقلّ طائرةً إلى نيويورك بكلّ بساطة لكي يتناول العشاء معها. في هذه اللحظة، هي متأكّدة من ذلك: لو أنّهما استطاعا أن يلتقيا كما كان مقرّراً، لوقعا في حبّ بعضهما البعض. ولكانت قد حلّت محلّ كيت في قلبه. وأصبحت أمّاً مثالية لإيميلي. وغدت امرأة يعشقها ماتيو.

إلا إذا كانت كيت على قيد الحياة

ولكن لزمنٍ طويل.

رفضت كلّ شعورٍ بالذنب. لم تكن هي من قرّرت هذا الموت. إنّه القدر، الصدفة، الحياة. ربّما الله فيما لو كان موجوداً.

شربت جرعةً من الكحول وهي تواصل في الوقت ذاته تفكيرها. حينما كانت على هذه الحالة من الهيجان والانفعال، كانت الأفكار تتوارد في البداية من كلّ حدبٍ وصوب قبل أن تأخذ مكانها المناسب بهدوء مثل قطع لعبة البازل لكي تشكّل نسقاً متماسكاً ومنسجماً. في هذه المرّة، كان الأمر يتعلّق بخطّة معركة لا يمكن وقفها. كانت تنطلق من نتيجة بسيطة: ليس لدى «ماتيو 2011» أي سلطة عليها بما أنّها ستكون ميّتة في هذا التاريخ. هذا هو الجانب الإيجابي في الموت: إنّه يجعلك غير قابلٍ للمسّ. وبالتالي كان ماتيو أعزلاً، ليست لديه الوسائل لكي يمارس عليها الضغط لإرغامها على إنقاذ كيت.

وسوف لن تفعل ذلك.

سوف تدع الحادث يقع. سوف تتجاهل رسائله الإلكترونية،

وسوف تعود إلى نيويورك وتستأنف عملها وتدع الزمن يمضي. كما أنّها سوف لن تنتحر في شهر أغسطس المقبل. لأنّه من الآن فصاعداً، لديها سببٌ وجيهٌ جدّاً لكي تبقى على قيد الحياة.

الآن، أدركت لماذا امتلك ماتيو حاسوبها وفي حال لن تُقدِم على الانتحار، سوف لن يرث شقيقها أغراضها، وبالتالي سوف لن يستطيع أن يبيع ثانية حاسوبها ولن يتمكّن ماتيو من شرائه. الأمر الذي يعني بأنّه سوف لن يستطيع قط أن يتواصل معها عبر الرسائل الإلكترونية في شهر ديسمبر من عام 2011.

هل سيجد هذا السيناريو طريقه إلى النجاح؟ كان الوضع الذي تعيش فيه اليوم يتحدّى كلّ منطق. في الأفلام أو في الروايات الخيالية، لم تكن قد فهمت على الإطلاق شيئاً من الحلقات المفرغة للمفارقات الزمنية.

ولكنّ شقيقها الذي يدرّس الفيزياء في الجامعة كان قد حدّثها عن هذه العلوم التي تسلّم بوجود عالمٍ موازٍ لعالمنا، بل بوجود عوالم متعددة تتحقّق فيها كلّ مجموعة الاحتمالات على خطوط زمنية مختلفة. من المحتمل أن يكون هناك «خطٌّ زمني» يمكنها أن تلتقي من خلاله مع ماتيو أرمل ليست لديه أي ذكرى عن الأحاديث السابقة. ماتيو يمكنها أن تكون محبوبة من قبله. ماتيو تكون لديه ابنة يمكنها أن تعتني بها. راضية عن الفكرة، قرّرت أن تسير في هذه الخطّة. سدّدت حسابها وعادت إلى الفندق. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد ولكنها رفعت الستائر. كان رأسها يدور وتوجّست من أن تدبّ فوضى جديدة في ذهنها، فالتهمت قرصين جديدين من مضادات القلق وخلدت مباشرة إلى سريرها.

* * *

عام 2011

- بابا، هل يمكنني مشاهدة فيلم **غوستباسترز**(*)؟

رفع ماتيو عينيه عن شاشة حاسوبه. مستلقية على أريكة أمام التلفزيون، كانت إيميلي قد التهمت علبتين من حلوى «إم آند إمز» بدل وجبة الغداء.

- لقد سبق للكِ وشاهدتِ هذا الفيلم لعشر مرّات.

ردّت ضاحكةً:

- نعم. ولكنني أحبّ أن أشاهده حينما تكون في البيت! حينما تكون معي، لا أخاف!

استسلم لطلبها:

- حسناً.

من بعيد، نظر إليها وهي تدرج الأسطوانة في قارئة الأسطوانات وتُشغّل الفيديو «مثل شخصٍ كبير».

كان أوّل يومٍ من العطلة المدرسية وكانت الفتاة الصغيرة قد استيقظت متأخرةً. وإذا كان قد قرّر أن يُطلق العنان لها اليوم - بار مفتوح بشأن السكاكر ومشاهدة التلفزيون حسب رغبتها - فكان ذلك بدافعِ الحرص على راحته أكثر منه بدافع الاقتناع. كانت كلّ طاقته قد امتُصَّت في الواقع من قبل إيما لوفنشتاين.

حقد ماتيو على نفسه كثيراً. لقد أدرك بعد فوات الأوان كم أخطأ حينما أغضب الشخص الوحيد القادر على أن يعيد إليه زوجته.

كيف استطاع أن يُطلق العنان لغضبه وهو يعلم أنّ إيما كانت

(*) Ghostbusters (غوستباسترز): فيلم كوميدي تم إنتاجه في الولايات المتحدة وصدر في سنة 1984 وهو من كتابة دان أيكرويد (المترجم).

هشّة نفسياً؟ كان قد أرسل إليها رسالتَي اعتذار، ولكنّه لم يتلقّ ردّاً. الآن، كان في مواجهة امرأة غير مستقرّة في وضعٍ قد تصبح معه متعذّرة على السيطرة. لا سيما وأنّها كانت تحظى بأفضلية حازمة عليه. في حين كانت المرأة الشابّة تحظى بكامل حرية التصرّف لكي تعدّل المستقبل، لم يكن بوسعه هو أن يتصرّف في أيّ شيء. كان من الآن فصاعداً محكوماً بانتظار أن تقبل الآنسة لوفنشتاين على أن تعيد ربط الاتصال معه. كان هذا الوضع غير المتماثل لا يُحتَمَل. كان في يوم 22 ديسمبر، ولم يكن قد بقي لديه سوى يومين لكي يتجنّب الحادث الذي بسببه كان قد فقد كيت. أغمض عينيه وأمسك برأسه بين يديه لكي يركّز أكثر في التفكير. من المؤكّد أنّ إيما قد ماتت ولكن ربّما كان لا يزال هناك أناسٌ يهمّها أمرهم ويمكنها أن تُمارس عليهم ضغطاً. ولكن مَنْ؟ شقيقها دانييل؟ رهانٌ خاسر. حسبما فهمه، لم يكن الأخ والأخت يحبّان بعضهما البعض كثيراً. والداها؟ كان دانييل قد أخبره بأنّ والدتهما متوفية وأنّ والدهما يعاني من حالة الزهايمر متقدمة جدّاً. أصدقاء؟ من الواضح أنّها لم يكن لديها أصدقاء.

هذا هو الوحيد الذي لم يخنّي أبداً. . .

فرضت الجملة هذه نفسها عليه كما لو أنّ إيما كانت تهمس بها في أذنه.

كلبها! كلوفيس الشهير!

كان لا يزال على قيد الحياة!

رفع هذا الاستدراك من معنوياته. لقد عثر لتوّه على وسيلة مضمونة لكي يبتزّ بها إيما!

نهض من على كرسيه وأطفأ التلفزيون بوساطة جهاز التحكّم.

- هيّا البسي ثيابكِ بسرعة، يا عزيزتي، سوف نخرج في مشوارٍ!
- ولكن فيلمي.
- سوف تشاهدينه هذا المساء، يا صغيرتي.
- كلا، أريد أن أشاهده الآن!
- وإذا قلتُ لكِ بأننا سوف نذهب لكي نجلب كلباً صغيراً لكي نحتفظ به خلال العطلة؟
قفزت الفتاة الصغيرة من الفرح:
- هذا صحيح، يا بابا؟ سوف نذهب لنقتني كلباً؟ منذ زمنٍ طويل أرغب في أن يكون لديّ كلب! شكراً! شكراً!

* * *

- تريد أن أساعدكَ في اختطاف كلب؟
أكّد ماتيو:
- نعم، يا آبريل. سوف تكون مساعدتكِ محلّ ترحابٍ في هذه العملية الدقيقة.
سألت المرأة الشابّة وهي تنهض من خلف مكتبها:
- ولأيّ سبب تريد أن تقدم على هذا الأمر؟
أكّد لها ماتيو:
- سوف أشرح لكِ كلّ شيء في السيارة.
- وهل هذا يعني أننا سوف نأخذ سيارتي، علاوة على ذلك؟
- أجازف بأن أتعرّض للأذى فيما لو وضعتُ كلباً على حمالة البضائع في دراجتي الهوائية.
كان واقفاً أمامها، ممسكاً بيد ابنته، وقد وضع أمام قدميه علبة معدنية للعدّة.

- هل تعلم بأنّه يمكن أن نذهب إلى السجن بسبب هذا الأمر، يا مات؟

- سوف نكون خبثاء بما فيه الكفاية لكي لا يُلقى القبض علينا. ولهذا أحتاج إلى دماغكِ المثير.

- إذا كنتَ تعتقد بأنّك بهذا النوع من المجاملات سوف.

- هيّا بنا الآن، من فضلكِ. هذا الأمر مهم للغاية بالنسبة إليّ.

- كلبٌ، هذا يعضّ، هل تعلم بذلك؟

- إنّه كلبٌ صغير جداً.

- وما معنى ذلك؟

- ربّما تتذكّرينه: إنّه كلب شقيق إيما لوفنشتاين. لقد رأيتِه خلال سوق خردة التصفية على المرج.

- من طراز شار-بيه! تقول لي بأنني أتذكّره! هذا ليس كلباً صغيراً، يا مات. هذا الكلب المولوسي يزن على الأقلّ أربعين كيلو غراماً وهو عبارة عن كتلة من العضلات!

تركت إيميلي يد والدها لتهرع إلى آبريل وتطوّقها من خصرها.

- أتوسّل إليكِ، يا آبريل، ساعدينا! ساعدينا! أنا أرغب في الحصول على كلبٍ صغير منذ زمنٍ طويل. من فضلكِ! من فضلكِ!

حدّقت صاحبة المعرض في ماتيو بهيئة عتب.

قالت وهي تلتقط معطفها:

- ليس لك الحقّ أن تستخدم هذه الطفلة أداةً في خطّتك!

* * *

جلس ماتيو خلف مقود سيارة الكامارو. غادرت السيارة مركز مدينة بوسطن وسلكت الطريق باتّجاه بيلمونت.

سألته آبريل:

- حسناً، هلّا شرحت لي؟

انتظر إلى أن وصل إلى إشارة ضوئية؛ عندها، استدار نحو إيميلي وقدّم لها جهاز تسجيل.

- هل تريدين أن تستمعي إلى الموسيقى، يا عزيزتي؟

بالتأكيد كانت تريد فعل ذلك!

انتظر إلى أن وضعت ابنته السمّاعة الرأسية على أذنيها لكي يُخبِر آبريل بنواياه. تركته يُكمل سرد حججه قبل أن توجز الكلام:

- إذاً، أنت تعتقد بأنّ الإقدام على خطف هذا الكلب المسكين سوف يعيد إليك زوجتك؟

- نعم، بطريقة غير مباشرة، مثلما شرحت لكِ.

- لم أؤمن للحظة واحدة بكلّ قصة الحاسوب هذه التي تسمح بالتواصل عبر الزمن.

- وكيف تفسّرين فيلم المراقبة لفيتوريو، مقالة الصحيفة حول الكازينو، الذين.

فقاطعته قائلةً:

- لم أفسّر شيئاً. وأريد فعلاً أن أساعدك لأنّك صديقي، ولكنني أعتقد أنّ لا أحد أبداً أعاد الموتى إلى الحياة وأنّ لا أحد سوف يفعل ذلك. لقد ماتت كيت. لن تراها مرّة أخرى، يا مات، وصدّق تماماً أنني أتأسّف لذلك. لقد دمّرك غيابها، ولكن في لحظة معيّنة، يجب أن ندع الناس يرحلون. لا تتشبّث بهذه الفكرة السخيفة، أرجوك. لقد بدأت تتحسّن في الفترة الأخيرة، لكنّ شراء هذا الحاسوب تسبّب بانتكاسةٍ؛ إذا واصلت السير في هذا الطريق، سوف تُلحِقُ بنفسك المزيد من الأذى وسوف تُلحق الأذى على نحوٍ خاصّ بابنتكَ.

ألقى ماتيو نظرة كابية على صديقته ولم يعد يتحدّث معها إلى أن وصلوا إلى بيلمونت. وكما في الأمس، ركن السيارة أمام البيت الريفي ذي الواقية الخشبية في الحيّ السكني الصغير. ولحسن الحظّ، كانت إيميلي قد نامت على المقعد الخلفي في السيارة. خرج ماتيو وآبريل لكي يعاينا المكان. كانت الساعة الرابعة من بعد منتصف الظهيرة. وكان الشارع مقفراً. تقدّم ماتيو حتى وصل إلى البوابة وقرع الجرس لكي يتأكّد من أنّ المنزل كان فارغاً. لم يكن هناك أيّ ردّ عدا نباح الكلب من نوع شار-بيه والذي، ككلب حراسةٍ جيّد، هرع إلى السور لكي يردّ الزائرين عن الاقتراب كثيراً من المنزل.

قال ماتيو:

- مرحباً، يا كلوفيس.

- ليس فقط كلباً صغيراً، بل علاوة على ذلك، إنّه يحرّض الآن كلّ الحي ويثيره. حسناً، هل لديك خطّة على الأقلّ؟

أجاب وهو يُخرج من جيب معطفه كيساً بلاستيكياً:

- طبعاً، بكل تأكيد.

- ما هذا الشيء؟ تفوح منه رائحة نتنة!

- هاتان شريحتان مدقوقتان من اللحم أزلتُ تجميدهما بوساطة المايكروويف ولففتهما على شكل لفافات لحم.

خمّنت آبريل:

- ممزوجة مع أقراص منوّمة. خطّة مبتكرة جدّاً.

- لقد وصفها لي طبيبي حينما توفيّت كيت. بقي لديّ منها بضعة أقراص.

أعلنت:

- هذه الخطّة سوف لن تنجح أبداً. ما هي خطّتك البديلة؟
- بالطبع سوف تنجح هذه الخطّة.
هزّت رأسها بالنفي.
- على فرض أنّ الكلب سوف لن يتقيّأ أقراصك المنوّمة وأنّك ستقدّم له جرعة كافية، فسوف يستغرق ثلاث ساعات قبل أن ينام، وكذلك سيكون منهوكاً تماماً. ومن الآن إلى تلك اللحظة، سيكون صاحبه قد أتى أو أن أحد الجيران قد استدعى رجال الشرطة.

قال ماتيو وهو يقذف باللفافتين الضخمتين من اللحم إلى الجانب الآخر من سور المنزل:
- لا تكوني متشائمة وانهزامية. سوف أجرّب المحاولة.

شمّ كلوفيس المرتاب قطعتي اللحم مطوّلاً ازدراهما على نحوٍ غامض، فالتهم على مضض نصف قطعةٍ منها، ولكنّه لم يستسغ طعمها، فعافها في الحال وأخذ في النباح مضاعفاً من حدّة نباحه.
- ماذا قلتُ لكَ؟

اقترح ماتيو:
- فلننتظر لبضع دقائق في السيارة.

انتظرا، في صمت، لثلاثة أرباع الساعة دون أي نتيجة. بدا أنّ الكلب يحتقرهما، سربيروس(*) الوفي وهو يحمي باب الجحيم. كان المساء قد بدأ يحلّ رويداً رويداً. كانوا هم أنفسهم قد بدأوا بالغفو، حينما جعل رنين هاتف آبريل المهلوس الجميع يقفزون في مكانهم. رفضت صاحبة المعرض استقبال الاتصال، ولكنّ إيميلي استيقظت مرتعشةً.

(*) سربيروس: حيوان أسطوري ذو ثلاثة رؤوس يحرس باب الجحيم (المترجم).

سألت وهي تفرك عينيها:

- هل وصلنا، يا بابا؟ هل أصبحنا عند الكلب الصغير؟

- نعم، يا عزيزتي، ولكنني. لستُ متأكّداً من أنّه سوف يوافق على المجيء معنا.

قالت قبل أن تجهش في البكاء:

- لقد وعدتني.

تنهّد ماتيو ومسّد صدغيه.

قالت له آبريل بنبرةٍ مليئة بالعتاب:

- هذا ما سعيت إليه. هذا سوف يعلّمك.

فجأةً، قطعت حديثها لبرهة قصيرة قبل أن تصرخ:

- هيه، يا مات، إلى أين ذهب الكلب؟

ألقى نظرةً من خلال زجاج السيارة. لقد كفاهما أن يرخيا من رقابتهما لبرهةٍ قصيرة لكي يختفي كلوفيس فجأةً.

- لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولكنني سوف أذهب لأرى.

خرج من السيارة وفتح باب الصندوق الخلفي لكي يُخرج منه صندوق العدّة الذي كان قد جلبه معه. تسلّح بكمّاشة ضخمة قادرة على قصّ أسلاك السور.

أخبر آبريل:

- سوف أترك الصندوق الخلفي مفتوحاً. أديري المحرّك إن حدث أي طارئ.

اقترب من البوابة التي كانت تغوص في حباكٍ خشبي وسورٍ من الشبك. بوساطة الكمّاشة، قطع الأسلاك المعدنية للشبكة واحداً تلوى الآخر ومن ثمّ سار على المرج الأخضر.

- كلوفيس؟

تقدّم بحذر حتى وصل إلى درج المدخل.

- كلوفيس؟ أيّها الكلب الظريف.

لا أحد.

جال حول البيت واكتشف جسم الحيوان، الجاحد، نائماً بالقرب من حُجرَةٍ كبيرة من الخشب المصبوغ.

تبّاً، أتمنى ألا يكون قد مات...

جثى على ركبتيه وأخذ الكلب بين ذراعيه.

اللعنة، إنّه يزين ثلاثة أطنان!

بعد بضع خطوات، شعر بأنّ الكلب قد بدأ يقاوم برخاوة. كانت آبريل على حق: لقد جعلته الأقراص المنوّمة كسولاً ولكن كان لعابه يسيل بغزارة، إلا أنّه لحسن الحظ لم يكن يقوى على العضّ.

أخذ ماتيو يركض باتجاه مخرج البيت. انسلّ مع «حمولته» عبر فتحة السور.

دون الكثير من الحرص والدقّة، وضع الكلب في صندوق السيارة واتّخذ مكانه إلى جانب آبريل في السيارة.

صرخ بشريكته في الإيجار:

- امسكي المقود، هيّا بنا!

احتفلت إيميلي وصفّقت بينما كانت سيارة الكامارو تُقلِع مصدرةً صريراً بعجلاتها.

* * *

الساعة التاسعة مساءً

في طريق العودة إلى البيت، توقّفوا في متجرٍ خاصّ بالحيوانات الأليفة لكي يشتروا طوقاً وبعض الأطعمة للكلب وإناءً خاصّاً به.

حينما استعاد الكلب وعيه في البيت، كان ماتيو قد توقّع الأسوأ وتحسّب له: توقّع صيحات ونباحاً عدوانياً، بل وهجوماً. على العكس من ذلك، فتح كلوفيس إحدى عينيه وأصدر همهمةً وقام بلفّةٍ على أرضية البيت قبل أن يستقر عرضاً على الأريكة كما لو أنّه عاش دائماً في هذا البيت.

بعد أن استعاد وعيه تماماً، قام بجولة في أرجاء البيت وكانت عيناه متّقدتين وردود فعله إيجابية.

أمضت كلّ العائلة السهرة باللعب معه ومداعبته. كانت إيميلي في سعادةٍ غامرة وكافح ماتيو لكي يُخلدها إلى سريرها. ولكي تقتنع بالصعود إلى غرفتها، كان على ماتيو أن يَعِدها لأكثر من عشر مرّات بأن كلوفيس سيكون موجوداً في اليوم التالي.

ما أن بقي ماتيو وحيداً في الصالون، جلس أمام شاشة حاسوبه وانتقل إلى المرحلة الثانية من خطّته.

جرّ الكلب بوساطة كرة من الطعام:

- تعال، يا كلوفيس، تعال يا كلبي الجميل!

تسلّق الحيوان على الكرسي الذي كان ماتيو قد أضاف فوقه بضع وسائد لكي يكون على الارتفاع المناسب.

- انظر إلى الشاشة! سوف ترى شخصاً لم تعد تراه منذ زمنٍ طويل! ابتسم له ابتسامةً جميلة.

شغّل تطبيق التحادث عبر الفيديو على الحاسوب. ومثلما طلب منه البرنامج، أدرج كلمة المرور الخاصّة به. حينما بدأت كاميرا الحاسوب بالتسجيل، ظهرت صورته وصورة الكلب على الشاشة. ولكي يرسل طلب الفيديو، أدخل البريد الإلكتروني الخاصّ بإيما، ونقر على زرّ لوحة المفاتيح وانتظر لبضع ثوانٍ.

رنينٌ لمرّة واحدة.

رنينٌ لمرّتين.

رنينٌ لثلاث مرّات.

* * *

عام 2010

استيقظت إيما بصعوبة من نومها العميق بفعل الأدوية المنوّمة. ألقت نظرةً على هاتفها المحمول. ولكن لم يكن الهاتف هو الذي يرنّ. وإنّما كان حاسوبها المحمول الذي كانت قد تركته شغّالاً

نظرت إلى الساعة، ورفعت أغطيتها وسارت لبضع خطوات غير واثقة لكي تصل إلى المكتب.

على شاشة الحاسوب، كانت الأيقونة الصغيرة «Face Time» تومض، وهي تشير إلى طلبٍ صادرٍ عن ماتيو شابيرو. لم تكن قد استخدمت قطّ هذا التطبيق، ولكنّها نقرت على الزرّ لكي تتلقّى الاتصال.

بينما لم تكن تتوقّع ذلك، ظهرت صورة كلبها! كان كلوفيس، بخطمه المكمّم وبرأسه الشبيه برأس فرس النهر وبعيونه الصغيرة الغائرة وجسمه المعضّل المغطّى بالثنايا التي جعلته أشبه بدمية دبّ.

- كلوفيس!

ولكن ماذا كان يفعل كلبها في عام 2011 في منزل ماتيو شابيرو؟

فجأةً، انتقل إطار الكاميرا نحو اليسار لتُظهر وجه وجذع ماتيو.

- مساء الخير، يا إيما. كيف حالك؟ هل استعدتِ هدوءكِ؟

- بماذا تتسلّى، باسم الربّ؟

- كما ترين، لقد تعرّفتُ على كلبك الوفي. ماذا كانت عبارتكِ، فيما مضى؟ آه، نعم:

«الشخص الوحيد في العالم الذي لم يخني أبداً». أنتِ متعلقة به، أليس كذلك؟

- أيّها.

- هيا، فلنتجنّب كيل الشتائم والإهانات. أما أنا، فأنا متعلّقٌ بزوجتي، وأعتقد أنّكِ أخطأتِ تقدير عزيمتي في استرجاعها.

مدّ ماتيو يده لكي يلتقط شيئاً من على طاولة المطبخ. استلّ من حمّالة السكاكين نصلاً طويلاً يبلغ حوالي ثلاثين سنتيمتراً ولوّح به أمام الكاميرا.

- هذه سكين لتقطيع اللحم، يا إيما. لقد رأيتِ نصلها: إنّه صلبٌ وبتّار. إنّها قطعة جميلة، من نوعية ألمانية. كما أنني أملك هذه الأداة الأخرى: إنّه يُدعى الساطور الصيني. وهو مثالي لإعداد لحمة الأضلاع.

- إذا مسست شعرةً من كلبي، سوف أجعلك.

- ماذا ستفعلين، يا إيما؟

ظلّت صامتة لا تنبس ببنت شفة، فهاجم ماتيو.

- كما ترين، أنا منزعج جدّاً، يا إيما: أنا أحبّ الحيوانات كثيراً. كلبكِ كلوفيس لديه فعلاً سحنة حسنة وقد أعجب كثيراً ابنتي الصغيرة، ولكن إن لم تقطعي لي وعداً بأنّكِ سوف تفعلين كلّ ما يلزم لمنع وقوع حادث كيت، سوف لن أتردّد للحظة واحدة. سوف أشقّ بطن كلبكِ. سوف أفرغ أحشاءه لكي أعرّض أمعاءه للهواء. وسوف أقوم بذلك أمام هذه الشاشة لكي لا تفوتكِ ولا جزيئة من

المشهد. سوف يكون المشهد طويلاً. سوف يكون طويلاً ومؤلماً. سوف لن أفعل ذلك بمتعة وابتهاج، يا إيما، ولكن إن لم تتركي لي الخيار.

- أيّها الوغد النذل!

- فكّري، ولكن فكّري بسرعة، يا إيما.

كانت ستصبّ جام غضبها عليه حينما قطع ماتيو الاتّصال واختفت الصورة.

اليوم الخامس

12

المرأة الأخرى

الأموات ينتمون، من بين الأحياء، إلى
أولئك الذين يحتاجون إليهم بالطريقة
الأكثر استحواذيةً.

جيمس إيلروي

في اليوم التالي
23 ديسمبر 2010
الساعة التاسعة صباحاً

ذاب الثلج. كان الهواء جافّاً وبارداً، ولكن شمساً بهية كانت تزدهي في السماء الزرقاء المشرقة لمدينة بوسطن.

نفخت إيما في يديها لكي تتدفّأ. خرج بخارٌ ساطع من فمها وتصاعد أمام عينيها قبل أن يتبدّد ويتلاشى في الهواء.

منذ عشر دقائق، كانت تخطو أمام مدخل مركز جراحة القلب جيئةً وذهاباً، وهي تترقّب انتهاء مناوبة كيت. أطلقت تثاؤباً. كان الليل قد أصبح مؤرقاً، ولكن، رغم انعدام النوم، كانت أفكارها واضحة وجلية. البارحة، وتحت تأثير صدمة قراءة مقال الصحيفة الذي كان يُعلن انتحارها، كانت قد فقدت رشدها وتأرجحت وسط هذيانٍ كاد يكون إجرامياً. إنّها تشعر اليوم بالخجل من ذلك، ولكنّ

الأمر كان هكذا: كان العبء الثقيل لوحدتها يجعلها أحياناً أن تُخرِج أسوأ ما في داخلها. إحساسٌ مرير بالغبن والظلم، غيرةٌ كانت تُنهكها وتجرّها نحو الأفكار الأكثر حلكةً. ولكنّها لم تكن قاتلة، إنّها مجرّد بلهاء تفتقر إلى الحبّ وأرادت أن تتشبّث لوقتٍ طويلٍ إلى حدّ ما بحكاية محكومة سلفاً. كان تدخّل ماتيو والإخراج الذي قام به مع الكلب كلوفيس بمثابة تنبيه لها لكي تعود إلى الواقع والحقيقة، وهذا الصباح، كانت مستعدة تماماً لكي تُصغي إلى صوت العقل. وربّما ستجد حلاً لكي تتجنّب الحادث المشؤوم لكيت في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر. أمضت الليل وهي تفكّر في طريقة ناجعة لمنع تصادم الشاحنة بسيارة كيت. إلى تلك اللحظة، لم تفرض أيّ فكرة بسيطة نفسها، ولكن كان لا يزال لديها متّسعٌ من الوقت.

خدّر البرد أعضاء جسمها. هرولت في مكانها لبعض الوقت لكي تتدفّأ. كانت شاحنة كبيرة للتبرّع بالدم، مزيّنة بشعار منظمة الصليب الأحمر الدولية، متوقّفة في وسط المرآب. وكانت عربة معدنية متجوّلة تقف أبعد بقليل وتعرض مشروبات ساخنة وقطع من كعك برتزل المملّح والجافّ. جرت إيما خلفها لكي تطلب كأساً من الشاي حينما لمحت كيت التي كانت تعبر الأبواب الأتوماتيكية لكي تغادر المبنى.

كانت الطبيبة الجرّاحة، وهي تتحدّث عبر هاتفها المحمول، تحتفظ بزيّها الرسمي الموحّد الخاصّ بالمستشفى وكانت قطعٌ من النسيج الأزرق الشاحب تتجاوز معطفها القصير الداكن اللون.

في حين كانت إيما تتعقّب خطواتها، نزلت كيت سلالم درج المدخل، وعبرت المرآب بخطوات سريعة وغادرت سور المستشفى. لحقت بها إيما حتى محطّة هوبواي في شارع كامبردج ستريت والذي

كان يُعرض فيه نظامٌ للدراجات الهوائية بطريقة الخدمة الذاتية. بدا واضحاً أن كيت كانت معتادة على استخدام هذا النوع من المواصلات. أخرجت بطاقة اشتراكها وامتطت درّاجة هوائية.

في الوقت الذي كانت كيت ترتدي فيه قفازاتها وتعتمر خوذتها الواقية وتعقد وشاحها، دفعت إيما للموزّع الآلي الدولات الستّة لكي تحصل على Casual membership card (بطاقة عضوية عارضة)، والتي تتيح لها أن تستعير بدورها درّاجة هوائية. انتظرت لكي تُقلِع كيت بدرّاجتها حتى تسير في إثرها، محتفظةً بمسافةٍ معقولة لكي لا تغيب عن أنظارها مع تجنّب لفت انتباهها إليها.

قُطِعت الأمتار الخمسمائة الأولى باتجاهٍ معاكس للطريق الذي كانت قد سلكته ليلة أمس. وهي تمسك بإحدى يديها بمقود الدراجة، رفعت إيما جوربيها على حوافّ بنطلونها لكي لا يتسرّب الهواء الجليدي حتى يبلغ ربلتي ساقيها. عند تقاطع شارع هانوفر ستريت، لم تسلك الطبيبة الجرّاحة الطريق الذي ينطلق نحو الحيّ الإيطالي، وإنّما سارت بمحاذاة سيتي هال وكوينسي ماركيت. بقيادة رياضية للدراجة وببعض المخالفات، نجحت في الخروج بسرعة من تلك المنطقة السياحية. عند حديقة كولومبوس بارك، سلكت اتجاهاً طويلاً وحيداً، متجنّبةً بذكاء ازدحام السيارات، ومن ثمّ سارت بنشاطٍ ومرح على الأرصفة لكي تندفع نحو الميناء والواجهة البحرية للمدينة. كانت الساعة بالكاد قد بلغت التاسعة وعشرين دقيقة صباحاً حينما ركنت درّاجتها في نهاية رصيف لونغ وارف البحري، مقابل الواجهة السوداء للبار الشبيه بمقهى إيرلندي.

أوقفت إيما درّاجتها قبل الوصول إلى نهاية رصيف المرفأ بخمسين متراً. هل كان بوسعها أن تخاطر بمتابعة كيت إلى داخل

البار؟ أسندت الدراجة إلى عمودٍ لمصباحٍ معلّق، وأمسكت بالكابل الفولاذي الرابط لكي تطوّق به العمود وتربط الدرّاجة إليه قبل أن تثبّته في قفله. قطعت مشياً على قدميها الأمتار القليلة التي كانت تفصلها عن الواجهة البحرية.

في سنواته السعيدة، كان رصيف لونغ وارف الممتدّ داخل البحر هو الرصيف الرئيس لأحد الموانئ التجارية الأكثر ازدحاماً في العالم. اليوم، تم تحويل المرسى إلى مجمّعٍ بحري أنيق ذات شوارعٍ مبلّطة تصطفّ على جانبيه مطاعم ومقاهي. كان على نحو خاص نقطة انطلاق المراكب التي كانت تخدم الجزر العديدة للخلجان الصغيرة لمدينة بوسطن ومدينتي ساليم وبروفانستاون.

حينما وصلت إلى نهاية الممشى الخشبي، وضعت إيما يدها كواقية فوق عينيها كي لا تُبهرهما الشمس. كانت الشمس قد أشرقت منذ ساعتين وبدأت ترتفع في السماء، ناشرةً وابلاً من النجوم التي تُبهر الأبصار على صفحة مياه المحيط. كان المنظر يقطع الأنفاس: النوارس، الريح، السفن القديمة المندفعة على الأمواج، ثمالة الأفق اللانهائي. وهواء عرض البحر الذي أنعش المرأة الشابّة ومنحها الشجاعة لكي تدخل إلى البار.

* * *

كان ديكور بار غيتواي بالجسور الموجودة في سقفه وجدرانه المكسوّة وواجهاته الزجاجية وألعاب الرشق بالسهام وضوئه الخافت نموذجياً وحنوناً. في المساء، كان لا بدّ أن يضجّ المكان بصوت الموسيقى التقليدية وبمكاييل من مشروب غينيس تُطرقُ ببعضها، ولكن في الصباح، كان عبارة عن مقهى هادئ يتشارك الناس فيه الطعام وكان يقدّم وجبات فطورٍ لعمال المرفأ. قطّبت إيما عينيها،

واستغرقت بعض الوقت لكي تتبيّن كيت، الجالسة لوحدها في قمرة في قاع المقهى أمام فنجانٍ من القهوة. كانت لافتة معلّقة تشير إلى أنّه على الزبون أن يسجّل طلبه قبل الجلوس إلى الطاولة. انتظرت إيما خلف رجلٍ ضخمٍ جدّاً كان يرتدي قميص حطّابٍ وطاقية بحّارٍ والذي غادر بعد بضع ثوانٍ مع صينية مليئة بالسمك والبطاطا المقلية والنقانق والبيض المقلي.

اكتفت إيما بكأسٍ من الشاي وقطعٍ من الخبز المقمّر وراحت تجلس على مقعد أحد المقصورات بجانب طاولة كيت. ماذا تفعل الطبيبة الجرّاحة في هذا المكان بعد أن عملت طيلة الليل؟ لماذا لم تعد إلى بيتها مباشرةً بعد انتهاء مناوبتها؟

من موقعها المراقب، خمّنت إيما بأنّها متعبَة، وعلى وجهها علامات القلق. كانت كيت تجول بنظرها وتلقي نظرات متواصلة تارةً على شاشة هاتفها وتارةً على باب مدخل الحانة. كان من الواضح أنّها تنتظر شخصاً ما وأنّ هذا الموعد لم يكن موعداً تافهاً. اندهشت إيما من هذا التغيّر. تحوّلت ربّة العائلة الجذّابة والمشرقة التي كانت قد تابعتها ليلة أمس إلى امرأة ينهشها القلق وتبدو عليها علامات التوتّر والعصبية بوضوح.

أرغمت نفسها على أن تدير رأسها لكي لا تكون نظرتها ملحاحة جدّاً وبفضل انعكاس صورتها على المرآة الجدارية، لم تترك أدنى حركة من حركات الطبيبة الجرّاحة تغيب عن بصرها. أخرجت كيت من حقيبتها قطعة من النسيج الأبيض وكذلك علبة مسحوق. مسحت وجهها ونظّفته بقطعة النسيج، ووضعت المكياج على وجهها من جديد بعصبية وتوتّر، ورتّبت بعض الخصلات من شعرها كانت قد تحرّرت تحت تأثير قيادتها للدراجة الهوائية من كعكة شعرها

الملفوف في مؤّخر رأسها. ثمّ نهضت وتوارت عن الأنظار باتّجاه المغاسل.

أدركت إيما بأنّ عليها أن تتصرّف. كانت كيت قد أخذت معها إلى المغاسل حقيبة يدها وهاتفها المحمول، ولكنّها تركت معطفها الصغير على المقعد. تنفّست إيما بعمق قبل أن تنطلق. نهضت بهدوء من مقعدها وسارت لبضع خطواتٍ كما لو أنّها ستتّجه بدورها نحو المغاسل، ولكنّها في اللحظة الأخيرة، توقّفت أمام طاولة كيت. متضرّعة إلى الله بأن لا ينظر إليها أحد في تلك اللحظة، نبشت في جيوب المعطف. انغلقت يدها على شيءٍ باردٍ ومعدني. جرزة من المفاتيح. عبرت شحنةٌ من الأدرينالين جسدها. تأكّدت من أنّ مفاتيح السيارة كانت بين جرزة المفاتيح وأطلقت صيحة تعجّبٍ مكتومة: **ها هي فكرتي!**

لكي تتجنّب وقوع الحادث، كانت ستُخفي بكلّ بساطة مفاتيح عربة مازدا الشهيرة التي كان على كيت أن تقودها مساء وقوع المأساة. ومن ثمّ سوف تقود السيارة وتتركها على بعد ثلاثمائة كيلومتر من هنا، وتوقِد النيران فيها أو تُلقي بها في وادٍ سحيق.

لن تعود هناك سيارة، ولن يعود هناك حادث!

استولت على المفاتيح وعبرت الحانة لكي تغادر المنشأة قبل عودة كيت. أسرعت الخُطى وخفضت رأسها لكي لا تُصادف أي نظرة، ولكن في هروبها المتعجّل، ارتطمت بزبونٍ كان قد أخذ مشروباً من طاولة تقديم الطلبات. تلقّى الصدمة ولكنّه قلب نصف ما في فنجانه من القهوة في الصينية.

غالت إيما في الاعتذار.

– عفواً، أنا آسفة، أنا.

كان رجلاً طويلاً ونحيلاً ذا شعرٍ كاشفٍ قصير، يرتدي بنطلون جينز أسود اللون، وحذاء رياضياً ذا رباط وبلوزة مقوّرة الياقة وسترة جلدية بقبّة مضاعفة من فرو الخروف. كان وجهه بيضوياً ونحيلاً جدّاً تكسوه لحية خفيفة وتحيط به نظّارة شمسية ذات إطارٍ ذهبيّ اللون.

أكّد الرجل حتى من دون أن ينظر إليها:

- لا تبالي!

مستعجلةً التواري عن الأنظار، ارتاحت إيما لكونها خرجت من المأزق بلا خسائر. قبل أن تدفع الباب، لم تستطع الامتناع عن الالتفات لكي تُلقي نظرة أخيرة.

في قاع الصالة، التقى الرجل مع كيت.

ضمّها الرجل.

قبّلها الرجل.

* * *

هذا غير ممكن.

توقّفت عن الحركة وجمدت في مكانها، غير قادرة على أن تؤتي بأدنى حركة. لم يكن من الممكن أن يكون لكيت عشيق. قطّبت إيما عينيها. لا بدّ أنّها مخطئة وتسيء تفسير بعض الحركات. ربما هذا الرجل ليس إلا فرداً من عائلتها، شقيقها أو.

- هل يمكنني أن أساعدكِ، يا سيّدتي العزيزة؟

خلف طاولته، كان المعلّم يراقبها بهيئة ارتيابية.

- عليكِ أن تقرّري. إما أن تدخلي أو تخرجي. سوف ينتهي بكِ الأمر إلى أن يرتطم الباب بوجهكِ.

- أنا.   أنا أبحث عن المناديل الورقية.

- كان عليكِ أن تطلبيها فقط. تفضّلي.

التقطت حزمة المناديل التي قدّمها صاحب الحانة لها وعادت لتجلس إلى طاولتها جاهدةً لأن تكون رزينة بأكثر ما يمكن. فكّرت في أن تُخرِج هاتفها المحمول وأن تضبطه على وضعية الكاميرا وتضعه على الطاولة لكي يصوّر المشهد.

كان قلبها يدقّ بقوة في صدرها. فكّرت في ماتيو الذي كان ينظر إلى زوجته على أنّها مثالية. من خلال المشهد الذي شاهدته البارحة: ذاك التفاهم العائلي والودود الذي كان ينبع من حياتهما الزوجية. كيف يمكن تصنّع المشاعر إلى هذه الدرجة؟

كلا، هناك خللٌ ما. نظراً إلى الإخلاص الذي يثابر ماتيو على أن يكنّه لزوجته بعد موتها، يبدو احتمالاً نادراً أن تكون هذه الأخيرة عشيقة رجلٍ آخر. لم يكن شابيرو رجلاً غبيّاً، كان لا بدّ له أن يُلاحظ ذلك، هذا أمرٌ مؤكّد. ولكن أليس أسوأ أعمى هو الذي لا يريد أن يرى؟

باسم الله!

لم تعد تجيد غير التفكير. حاولت أن تقنع نفسها بأنّ كيت والرجل الغامض لم يكونا عاشقين، ولكنّ تصرّفاتهما كانت مع ذلك واضحة لا لبس فيها: عناق، أصابع متشابكة، نظرات متعلقة بعضهما ببعض، بل ذهبت كيت إلى حدّ مداعبة وجه الرجل وشعره.

تأكّدت إيما من أنّ هاتفها لا يزال يصوّر المشهد. كان المشهد الذي تشاهده يبدو سريالياً إلى درجة أنّه كان عليها أن تحتفظ بأثره.

كان الرجل في الأربعينيات من عمره وكان على وسامة قد تكون مصطنعة بعض الشيء وهشّة. بنية جسدية لم تكن غريبة تماماً بالنسبة إلى إيما.

لم تتمكن من سماع ما كانا يقولانه، ولكن لم يكن هناك أدنى شكّ بأنّ كليهما كانا مشغولين. مشغولان بماذا؟ تُرى هل كان الرجل متزوّجاً من جهته؟

هل يحاولان إقناع بعضهما بترك ارتباطاتهما الخاصة والمتبادلة؟ أحالت هذه الافتراضات إيما إلى حكايتها الخاصّة وإلى ذكريات أليمة عن علاقتها مع فرانسوا.

طردت هذه الأفكار من ذهنها وأحسّت فجأة بالخطر. فرغت الحانة تقريباً. وكان الأمر سينتهي بافتضاح حيلتها. أطفأت هاتفها المحمول وعادت إلى الوراء بهدوء. جعلها الهواء البارد أحسن حالاً استنشقت منه جرعات عديدة لكي تستعيد أنفاسها. تخلّت عن استرداد دراجتها العادية وتقدّمت نحو إحدى سيارات الأجرة من رتل السيارات التي كانت تنتظر أمام مدخل فندق ماريوت.

يا للأسف على كفالة الدراجة الهوائية!

في اللحظة التي صعدت فيها إلى السيارة، تحقّقت من أنّ جرزة مفاتيح كيت سوف تضمّ من دون شكّ مفتاح منزل العائلة. وبالتالي كانت لديها فرصة الدخول إلى منزل شابيرو وقد أعطت هذا العنوان لسائق السيارة. لدى وصولها إلى ساحة لويسبورغ سكوير، جالت حول المبنى، متسائلة عمّا إذا كان ماتيو وابنته موجودين في الداخل. تساءلت حول فرصة دقّ الباب لكي تتأكّد من ذلك ولكنها أقلعت عن الفكرة.

من العبث أن يكون «ماتيو 2010» على علمٍ بوجودي. . .

كما انتبهت إلى وجود لصاقة ملصقة على النافذة تحذر من وجود نظام إنذار.

اللعنة. . .

لم ينفعها وجود المفاتيح معها في شيء طالما أنّ صفارة إنذارٍ ستدوّي بعد بضع ثوانٍ من دفعها لباب المنزل.

حفظت في ذهنها اسم شركة المراقبة قبل أن تعود وتسلك الطريق لكي لا تثير انتباه أحد. رغبت في أن تفكّر بهدوءٍ وتأنٍّ، فلجأت إلى حانوتٍ للكعك في شارع تشارلز ستريت. مكانٌ هجين ذو طرازٍ قديم كان يقدّم لزبائنه إمكانية تذوّق حلويات مفروشة على طاولة من الخشب الطبيعي. جلست إيما على مقعدٍ لا ظهر له ولا مسندين وأخرجت حاسوبها. وبدافع الأصول، طلبت فنجاناً من القهوة وقطعةً من فطيرة الجبن قبل أن تتصّل بمفكّرة هواتف على الإنترنت لكي تجد رقم هاتف آل شابيرو. اتّصلت بالرقم ولكنّها وقعت على المجيب الآلي. كان الردّ عبارة عن رسالة عائلية ساهمت فيها حتى الطفلة الصغيرة إيميلي. أغلقت السمّاعة وعادت أدراجها إلى المكان لتتأكّد من أنّ المنزل كان فارغاً. ومن ثمّ اتصّلت بمطعم إمبراتور وطلبت التحدّث إلى رومالد لوبلان.

- أحتاج إليك، أيها النابغة!

- كنتُ سأتّصل بكِ الآن، يا آنسة لوفنشتاين.

- هل اكتشفتَ شيئاً جديداً حول حكايتي؟

- لقد أرسلتُ بعض رسائلكِ الإلكترونية إلى جارود. إنّه أحد أصدقائي المختصّين بالمعلوماتية. إنّه الشخص الأكثر موهبة في هذا المجال من بين الذين أعرفهم. وقد أخبرني بأنّه في بداية العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين، وفي منتديات عديدة، ترك بعض مستخدمي الإنترنت بعض الرسائل يدّعون بأنّهم قادمون من المستقبل وبأنّهم مسافرون في الزمن. بالطبع كانت عبارة عن نكات سيئة،

ولكن في حالتكِ، الأمر مختلف: القفز في الزمن الموسوم بربط لحظة زمنية بحادثٍ يتعلّق بمستخدمين للإنترنت هو أمرٌ شديد التعقيد يعجز صديقي عن تفسيره. أنا آسف.

- لقد بذلت أفضل ما لديك، أنا أشكرك. في الواقع، أنا أتصّل بك لأمرٍ آخر. إذا أعطيتكَ عنوان أحد سكان بوسطن وكذلك اسم شركة المراقبة التي ركّبت نظام الإنذار، هل سيكون بمقدورك أن تُبطل مفعول نظام الإنذار؟

ردّد المهووس بالمعلوماتية بطريقة ميكانيكية:

- أن «أبطِل مفعوله»؟ ماذا تقصدين بهذا الأمر؟

- أنت تسخر منّي أم ماذا؟ هل ستجيد تحييد نظامٍ للإنذار عن بُعد؟

- كلا، هذا مستحيل. كيف تريدينني أن أتصرّف؟

- كنتُ أعتقد بأنّه لا شيء مستحيل مع حواسيبك.

دافع عن نفسه:

- لم أقل هذا أبداً.

استفزّته:

-حسناً، لقد فهمت. أنت مجرّد ثرثار جيّد، ولكن حينما يتعلّق الأمر بالانتقال إلى الفعل، لا يوجد هناك أحد.

دافع عن نفسه:

- هيه! بفضل مَنْ حصلتِ على موعدكِ عند المزيّن؟

- أنا لا أحدّثك عن موعدٍ عند مزيّن للشعر، هنا! أنا أحدّثك عن أمرٍ أكثر خطورةً بكثير.

ردّ رومالد بلهجةٍ أقرب إلى الاعتذار:

- ولكنني لستُ ساحراً.

- سوف أعطيك العنوان، هل لديك ما تكتب عليه؟
- ولكنني قلتُ لكِ بأنني.
ألحّت عليه:
- هل لديك ما تكتب عليه؟
تنهّد قائلاً:
- هيّا.
- إنّه منزل ماتيو وكيت شابيرو. يعيشان في بوسطن، عند تقاطع شارع مونت فيرنون ستريت وشارع ويلو ستريت. الشركة التي ركّبت نظام الإنذار في منزلهما تُدعى شركة ذي بلو واتشر. يقع مقرّها في بلدة نيدهام في ولاية ماساتشوستس.
- وماذا تريدينني أن أفعل بهذا؟
- ما تريده، ولكن أسرع في الأمر. بعد ربع ساعة سوف أدخل إلى هذا الكوخ السيئ. وإذا لم تجد لي حلاً، سوف يأتي رجال الشرطة ويلتقطوني وسوف تكون مسؤولاً عن توقيفي.
أغلقت سماعة الهاتف دون أن تمنحه الوقت لكي يردّ عليها. كانت تدرك جيّداً بأنّها توكِل إلى الصبي المراهق مهمّة صعبة، ولكنّها كانت على ثقةٍ بذكائه.
شربت جرعةً من القهوة وتناولت لقمةً من الحلوى. كانت تعتقد بأنّها ليست جائعة ولكنّها تناولت قطعة الحلوى بشهيّة مفتوحة. في الوقت الذي كانت تتناول فيه فطيرة الجبن، شاهدت الفيلم الذي كانت قد صوّرته بوساطة كاميرا هاتفها المحمول. كان الصوت غير مفهومٍ تماماً وبالتالي لم يكن من الممكن الاستفادة منه، وكانت الصورة قاتمة بعض الشيء ومهتزّة، كان التصوير قد تمّ من بعيد

جدّاً، ولكن الصور لم تكن تترك أدنى شكّ حول طبيعة العلاقة بين كيت والرجل المجهول الملغز الجالس معها إلى الطاولة.

من كان ذاك الرجل يا تُرى؟ أهو زميلٌ جرّاح؟ أهو صديقٌ للعائلة؟ لماذا كانت إيما تشعر باستمرار بذلك الإحساس الغامض بأنّ شكل هذا الرجل ليس مجهولاً تماماً بالنسبة إليها؟

كانت المرأة الشابّة متردّدة حيال التصرف الذي تُقدِم عليه، ولكنّها حوّلت الفيلم المسجّل على هاتفها إلى حاسوبها قبل أن تفتح بريدها الإلكتروني. كانت الأسئلة تجتاح ذهنها، فبدأت بكتابة رسالة إلى ماتيو ثمّ توقّفت عن ذلك. تحت ذريعة إحقاق الحقيقة، هل من حقّها أن تحرّك الماضي؟ أن تحشر نفسها في الحياة الخاصّة لعائلةٍ لا تعرفها؟ وأن تُحيي آلام رجلٍ لم يستطع أن يتجاوز حداده على زوجته؟

سوى أنّ هذه المرأة لم تكن من دون شكّ الأيقونة التي كان هائماً بها...

بينما كان إصبعها على اللوحة اللمسية للحاسوب، أعادت قراءة رسالتها، وتردّدت لبضع ثوانٍ إضافية وضغطت في النهاية على زرّ الإرسال.

* * *

عام 2011

قالت إيميلي بصوتٍ مرتفع وهي تتدحرج في المطبخ والكلب شار-بيه يسير في إثرها:

- أنا أعشق هذا الكلب الصغير!

كانت رائحة شوكولا ساخنة زكية تفوح في الجو. في الوقت نفسه الذي كانت تتصفّح فيه الصحيفة على لوحتها اللمسية، كانت

آبريل تراقب بعينٍ الطنجرة الموجودة على الموقد الذي يعمل بالحقل المغناطيسي. خلف شاشة حاسوبه، كان ماتيو يترقّب، بعينٍ ناعسة، منذ ساعات ردّ إيما على إنذاره الذي وجّهه إليها أمس.

تسلّقت الطفلة الصغيرة المقعد لكي تجلس إلى جانب والدها.

- وعاء طعام كلوفيس فارغ. هل يمكنني أن أملأه ببعض كُبيبات اللحم؟

أطلق ماتيو همهمة بالموافقة.

وعدت آبريل وهي تسكب الحليب في الكوب:

- سوف نقوم بذلك نحن الاثنين معاً. ولكن إلى ذلك الحين، اشربي الشوكولا الساخنة خاصّتكِ.

وضعت الكوب بجانب الفتاة الصغيرة.

- احذري، إنّها ساخنة جدّاً!

- لقد وضعتِ لي فيها قطعاً صغيرة من المارشملو! ميام! شكراً لكِ، يا آبريل.

رفع ماتيو أحد حاجبيه في حركة عتاب نحو شريكته في الإيجار.

- سوف نخفف من السكريات، اتّفقنا؟ هذه الصبية سوف تنتهي إلى أن تشبه السيّد ميشلان!

صرخت الفتاة الصغيرة:

- إنّه عيد الميلاد، يا بابا!

- الاستثناء.

الرنين الذي أشار إلى وصول رسالة إلكترونية جعله يقطع جملته. توجّه نظره نحو شاشة حاسوبه. تفحّص رسالة إيما الإلكترونية ذات العنوان الاستفزازي.

من: إيما لوفنشتاين
إلى: ماتيو شابيرو
موضوع: هل تعرف حقيقةً زوجتك؟

عزيزي ماتيو،

أنا مبتهجة بمعرفة أنّ ابنتك الصغيرة تحبّ كثيراً كلبي كلوفيس. إنّه كلبٌ وفي ومحبّ. ربّما هذا سيفاجئك، ولكنني سعيدة جدّاً بأنني عرفت بأنّه في بيتك. لا أتصوّر للحظة واحدة بأنّك سوف تُلحق به الأذى. أنت رجل طيّب، يا ماتيو، ولا أرى أنّك سوف تعذّب هذا الحيوان المسكين البريء. لقد تردّدتُ كثيراً قبل أن أرسل إليك هذا الفيلم القصير المرفق مع الرسالة. أتمنى ألا يصدمك كثيراً. تفضّل بقبول اعتذاري على هذا التدخّل في حياتكم الحميمية، ولكن هل تعرف مَنْ هو الرجل الموجود بصحبة زوجتك؟

إيما

تساءَل وهو ينسخ الملفّ على سطح مكتب حاسوبه، **عن ماذا تتحدّث؟** ثمّ ضغط على زرّ تشغيل الفيلم. بعد بضع ثوانٍ، ظهرت صورة مغبّشة بعض الشيء على الشاشة.

سألت إيميلي وهي تنحني نحو الشاشة:

- ماذا تشاهد، يا بابا؟

حذرتها آبريل:

- احذري، يا صغيرتي، سوف.
لقد فات الأوان.

انسكب كوب الشوكولا الساخنة، المليء حتى حوافه، على الحاسوب، ناثراً على لوحة المفاتيح ما يقارب 400 ميليمتر من السائل الساخن واللزج.

تجمّدت الصورة ومن ثمّ أصبحت الشاشة سوداء.

حملق ماتيو، منزعجاً، في ابنته بعينين جاحظتين. اعتصر قلبه في صدره، وتوقّف تنفّسه وفاضت دموع الحنق في عينيه: لقد فقد لتوّه الوسيلة الوحيدة للتواصل مع إيما.

الوسيلة الوحيدة لإنقاذ زوجته.

13

عبور المرآة

تحتاج الحياة إلى أوهام، الحقائق هي
أوهام نسي الناس أنّها كذلك.

فريدريك نيتشه

بوسطن، عام 2010

بيب، بيب، بيب...

حينما دخلت إيما إلى المنزل، أثارت إشارة تصفيرٍ خفيف يشبه رنيناً.

أغلقت الباب والتفتت نحو علبة جهاز الإنذار. كان من المستحيل إدخال الرمز السري لتعطيل النظام: لم تكن تعرفه.

بيب، بيب، بيب...

كم من الوقت يلزم قبل أن يترك الصخب الكتوم للكاشف محلّه لإشارةٍ أكثر رعباً؟ حاولت أن تبتلع ريقها ولكنّها لم تنجح في ذلك. جفّ حلقها وغطّى العرق جبينها. ظلّت جامدة في مكانها لبضع ثوانٍ، كما لو أنّها محكومة بالإعدام وتنتظر الجلاد لتنفيذه. أخيراً، انقطع صوت رنّات التحذير وهزّ الدويّ المصمّ للآذان لصفارة الإنذارِ الجدران.

وي وي وي وي! وي وي وي وي! وي وي وي وي!

كانت قد استعدّت عبثاً لهذا الدويّ المتدفّق، فقد أثار عنف الرنين قلقاً في أوردتها. أحسّت ببداية رعب وهلع. ارتعشت. وتدفّق الدم إلى صدغيها ونبض فيهما بقوّة متزايدة. في هذه اللحظة، رنّ هاتفها في جيبها. فتحت السمّاعة وتحدّثت بأعلى ما استطاعت لكي تُغطّي على صخب الرنين الصادر من جهاز الإنذار.

- آلو.

- السيّدة كيت شابيرو؟

- هي بذاتها.

- شركة بلو واتشر للمراقبة، لقد.

- جهاز الإنذار خاصّتي، نعم، أنا آسفة. لا بدّ أن زوجي قد غيّر الرمز السري من دون أن يُخبرني بذلك. هل يمكنكم إيقاف الرنين؟

- ليس قبل المباشرة بالتحقيقات المرعية.

وي وي وي وي! وي وي وي وي! وي وي وي وي!

إذا كان لم يستطع رومالد أن يعطّل نظام الإنذار عن بعد، فقد نجح من جهة أخرى في الدخول إلى خادوم المنشأة. وقد عدّل بحذقٍ ودقّة رقم الهاتف المطلوب الاتصال به في حالة إطلاق صفارة الإنذار، مستبدلاً رقمي هاتفي كيت وماتيو المحمولين بالرقم الوحيد لهاتف إيما المحمول. كما أنجز نسخة من شاشة الملفّ التي تكشف الأجوبة عن الأسئلة السرّية الثلاث الضرورية للتحقّق من شخصية المتّصل به وقطع صفارة الإنذار.

سأل الموظّف:

- في أيّ مدينة التقى والداكِ؟

أخفضت إيما عينيها لكي تقرأ الأجوبة التي كان رومالد قد أرسلها إليها والتي كانت قد كتبتها بالقلم على معصمها.

- في سان بطرسبورغ.
- ماذا كان فيلمكِ المفضّل حينما كنتِ طفلة؟
- فيلم **المنقذون** (مغامرات برنار وبيانكا).
- ما هو اسم صديقتكِ المقرّبة حينما كنتِ طالبة؟

أجابت إيما من دون تردّد:

- ويلكينسون.

توقّفت صفارة الإنذار عن العويل في الحال.

- أشكركِ يا سيّدة شابيرو، في المرّات القادمة، اطلبي من زوجكِ أن يُخبركِ في حال قام بتغيير الرقم السرّي.

أغلقت إيما سمّاعة الهاتف ومسحت قطرات العرق من على جبينها. تقدّمت نحو النافذة، مع بقائها محتجبة خلف الستارة. لم تكن هناك أيّ حركة تربك حديقة لويسبورغ بارك، ولكن كان ثمّة خطر ألا يدوم هذا الهدوء.

ماذا كانت لتقول لو أنّ شرطيّاً دقّ عليها الباب؟ أو لو أنّ كيت أو ماتيو عادا إلى بيتهما فجأةً؟ طردت هذه الفكرة وقررت أن تبدأ بتحرياتها. كان غضبها حيال كيت يحفزها وكان بمثابة أوّل مكسب لها يُخرجها من حالتها المحبطة من خلال منحها الرغبة في الكفاح من أجلها هي، من أجل مستقبلها، من أجل ماتيو.

لم تكن إيما تعرف تماماً عن ماذا تبحث. هل كانت تبحث عن إثباتٍ على خيانة كيت وعدم وفائها؟ هل كانت تبحث عن دليلٍ قد يضعها على أثرٍ لهويّة الرجل المجهول الملغز؟ في كلّ الأحوال،

كان عليها أن تذهب إلى ما وراء المظاهر. إلى النبش في العقل الباطن للبيت: الخزانات، الرفوف، الأدراج، الحواسيب، القبو.

كان القبو قد رُتّب على هيئة عُليّة مع صالونٍ فسيح ومطبخٍ مفتوح. كان جهاز التدفئة يبثّ حرارة لطيفة. كانت الحجرة مريحة، منشرحة وعائلية. بالقرب من الأريكة، كانت هناك شجرة عيد الميلاد المزيّنة بالأضواء المنيرة، وعلى طاولة المطبخ، كان هناك فتات للخبز ومرطبانٌ للمربّى نُسيَ إغلاق غطائه، ورسمة أطفالٍ جرى تلوين نصفها، وصحيفة **نيويورك تايمز** لليوم نفسه مفتوحة على قسم **الثقافة**.

على الجدران وفي الإطارات الموضوعة على الرفوف، كان يمكن مشاهدة العديد من صور أفراد العائلة والتي كان من بينها صور بالأسود والأبيض والتي تعود بكل تأكيد إلى الطفلة كيت: فتاة صغيرة جميلة شقراء وأمّها حول آلة بيانو أو تمشيان يداً بيد في شوارع مدينةٍ روسية - من دون شكّ هذه مدينة سان بطرسبورغ. ثمّ صور ذات ألوانٍ باهتة: مراهقة ضعيفة تقف أمام سبيس نيدل (الإبرة الفضائية) في سياتل وفيما بعد طالبة شابّة ترتدي بنطلون جينز وتحمل حقيبة ظهرية على المروج الممتدة أمام البرج الصغير لجامعة بيركلي. قفزة في الزمن جعلت الانتقال من طالبةٍ خجولة إلى امرأة شابّة مليئة بالثقة. كانت كيت اليوم، كيت التي رأتها، الطبيبة الجرّاحة الواثقة من نفسها ذات الجسم اللائق، المتصنّعة مع ابنتها وزوجها. أثارت هذه الصور العديد من الأسئلة، ولكن إيما احتفظت بتحليلها إلى وقتٍ لاحق. أخرجت هاتفها المحمول وخصّصت ثلاث دقائق للتركيز على تصوير جميع الصور المعروضة في الحجرة. في

المطبخ، احتفظت بأثرٍ لمستخدم الوقت الأسبوعي لكيت ملصقٍ على لوحٍ من الفلين.

تاركةً على نحوٍ مؤقت القبو الذي اعتُبِر مكشوفاً ومنشرحاً للغاية، صعدت إلى الطابق الأوّل. كان يتكوّن من جناحٍ فاخرٍ وشاسع ذي ديكورٍ بسيط، فيه صالتان للاستحمام وحجرة للثياب وغرفة أطفال وحجرة شبه خالية كانت تُستخدم كمكتب.

كانت غرفة النوم محتّلة بكتبٍ مرمية حتى على الأرض على جانبي السرير. إلى اليسار، أبحاث فلسفية (**حياة القديس أوغسطينوس**، **قراءات نيتشه**...)، إلى اليمين، منشورات علمية (**العمليات الجراحية لقصور القلب**، **أمراض القلب الخلقية**، **الدم الاصطناعي والخلايا الجذعية**...). لم يكن من الصعب العثور على مكان كلّ.

أضرمت رؤية السرير الزوجي جمرات الغيرة في داخل إيما. توتّرت وغدت عصبية، ففتّشت الرفوف ونبشت في أدراج الخزانة. في أحد تلك الأدراج، عثرت على جوازات سفر الزوجين. فتحت الجواز الأوّل: ماتيو شابيرو، تولّد 3 يونيو 1968 في بانغور (ولاية مين)، ثمّ فتحت الجواز الثاني: إيكاترينا لودميلا سفاتكوفسكي، تولّد 6 مايو 1975 في سان بطرسبورغ (روسيا).

كيت روسية...

كان هذا يفسّر شقرتها وعينيها الكاشفتين وهذا الجمال البارد والجافّ.

صعد صوت محرّك سيارة في الشارع. خشية من عودة الزوجين، ألقت نظرةً من خلال النافذة لتتبيّن الأمر - إنذار كاذب - قبل أن تتابع تحرياتها.

لم تضيّع وقتاً في صالة استحمام ماتيو، ولكنّها تأخّرت في صالة استحمام «السيّدة». فتحت الأبواب والأدراج وكلّ خانات الأثاث. كان العنصر الرئيس - وهو عبارة عن رفّ معلّق - يزخر بمواد التجميل: مراهم، غسولات، مساحيق. في العمود الخشبي المدهون، والذي كان يُستخدم كدرج صيدلية، عثرت على أنابيب بلاستيكية استعرضت لصاقاتها (أسبرين، باراسيتامول، إيبوبروفين)، وعبوات كحول بنسبة 70 درجة، مُصل فيزيولوجي، مياه ممزوجة بالأكسجين.

خلف علب الضمادات اللزجة والكمادات، اكتشفت اكتشافاً أكثر مفاجأةً. جزيئات ذات أسماء مركّبة ولكنّها مألوفة، والتي كانت عبارة عن أسماء لمضادات الإحباط، مضادات القلق ومنوّمات. لم تصدّق إيما عينيها: كانت كيت وهي تصادقان «الأصدقاء» الكبريتيين نفسهم. خلال بضع ثوانٍ، أحسّت براحةٍ غريبة. على الرغم من المظاهر، لم تكن كيت المرأة المنشرحة والرائقة التي كانت قد تخيّلتها. لا شكّ أنّها كانت **كما هي**: معذّبة، قلقة ومضطربة وربّما هشّة. هل كان زوجها على علمٍ بما كان موجوداً في درج الصيدلية؟ على الأرجح كلا، وإلا لما رتّبت الطبيبة الجرّاحة هذه الأنابيب بهذه الدرجة من الحرص والعناية. ثمّ إنّ ماتيو لم يكن من صنف الرجل الذي يذهب لكي ينبش بين أغراض زوجته.

واصلت عملية التحرّي وهي تدخل إلى غرفة خزانة الثياب.

إنّه حلمي...

كانت خزانة كاملة ومثالية: واسعة، نظيفة، أنيقة وعملية. كانت أبوابٌ جرّارة مصنوعة من الخشب الكاشف اللون تتالى مع ألواحٍ زجاجية وواجهات من المرايا كانت تزيد من سعّة المكان. بفضولٍ

مفترض، فتحت على التوالي كلّ فردةٍ من الخزانة ونبشت في كلّ درجٍ وفتّشت كلّ رفٍّ، رفعت أكداس الثياب وفحصت العشرات من أزواج الأحذية وقطع من البياضات الداخلية. ساعدها سلّم خشبي غامق اللون ومسندٌ كانا، مستندين إلى الجدار، في الوصول إلى الرف الأكثر ارتفاعاً من الخزانة. عثرت على هذا الرفّ على سترة بالية لسائق درّاجة نارية كانت لها ياقة ملفوفة من فرو الخروف. كانت السترة من طراز السترة نفسه التي كان يرتديها «عشيق» كيت ذاك الصباح!

تفحّصت إيما السترة بتمعّن وانتباه. جسّت بأصابعها بطانتها. عثرت في أحد الجيوب المغطاة على صورة باهتة. كانت صورة لكيت عارية النهدين، والتي لا بدّ أنّها كانت تعود إلى ما قبل خمسة عشر عاماً. الوضعية المغرية والمثيرة جنسياً لامرأة شابّة بالكاد تبلغ العشرين من عمرها وهي تحدّق في العدسة بتركيزٍ نادر. قلبت إيما الصورة بحثاً عن إشارة أو دليل، ولكن لم يكن هناك أيّ شيء مكتوب على خلفية الصورة. تضاعفت إثارتها. ومثلما فعلت في مرّاتٍ سابقة، احتفظت بأثرٍ من الصورة على هاتفها المحمول قبل أن تعيدها إلى جيب السترة ومن ثمّ تضع السترة في الخزانة.

يجب الذهاب الآن...

تبرئةً لذمّتها، ذهبت لتلقي نظرة على آخر طابق. هذا الجزء من البيت لم يكن مدفّأً. كان يضم ما يُفترض أنّها غرفة لمنامة الضيوف أو الأصدقاء، وصالة استحمامٍ أخرى وحجرتين كبيرتين كانت الأشغال لا تزال جارية فيها.

عادت ونزلت ثانية إلى الطابق الأرضي وقامت بآخر جولةٍ فيه.

على طاولةٍ خشبية صغيرة ومرصّعة، كان يوجد الحاسوب العائلي. كانت قد لاحظت وجوده في الحال ولكنّها اعتقدت بأنّه محمي برمزٍ سرّي.

لعلّ وعسى. . .

حرّكت فأرة الحاسوب لكي تفعّل شاشة الجهاز. انفتحت الشاشة على مستخدم كيت. لم تكن هناك كلمة مرور. لم تكن هناك حماية.

فكّرت في نفسها، **إذاً ليست هناك معلومات مهمّة.**

ومع ذلك سبرت أغوار الملفّات المختلفة.

يبدو أنّ كيت لم تكن تستخدم هذا الحاسوب سوى لغايات مهنية. كانت ذاكرة الحاسوب تطفح بالمقالات والصور والأفلام المرتبطة بالجراحة والتشوّهات الخلقية القلبية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى تاريخ مستخدم الإنترنت والبريد الإلكتروني. كانت هناك مخالفة وحيدة لهذا العالم الطبي وهي وجود موقع إلكتروني يُدعى «**مِحَن امرأة من بوسطن**»، وهو موقع «مهني» خاص بالعناوين الصحيحة في مدينة بوسطن (مطاعم، مقاهي، متاجر. .) التي كانت الطبيبة الجرّاحة على ما يبدو ترتادها بكثيرٍ أو قليلٍ من المثابرة. كتبت إيما عنوان الموقع على ساعدها وحاولت أن تفتح مُستَخدِم ماتيو. لم يكن هذا المستخدم أيضاً محمياً بكلمة مرور تماماً كما كان الحال بالنسبة إلى مستخدم زوجته. بدا أنّ الثقة كانت سائدة بين الزوجين، على الأقل في هذه المسألة. انكبّت إيما على التحليل نفسه ولم تعثر على أيّ شيء ذي دلالة. ومع ذلك، كان هناك عدّة مئات من الصور التي تمّ تجميعها على نحوٍ فوضوي في ملفّ. بدأت باستعراض تلك

الصور ولكنّها لم تكن تملك الوقت الكافي لكي تراها كلّها. نبشت في جيب معطفها لكي تأخذ جرزة مفاتيحها. كانت حمّالة مفاتيحها عبارة عن قارورة صغيرة معدنية على هيئة قارورة خمر بينو المصنوع من العنب الأسود الكاليفورني. وهي عبارة عن نموذج دعائي كان قد أُعطي لها خلال زيارة لها إلى منطقة لزراعة الكروم. بإزاحة الجزء العلوي من القارورة، ظهر وصلة مفتاح الذاكرة المحمولة (USB). أوصلتها إيما بالحاسوب لكي تنسخ الصور، مانحةً نفسها فرصة إمكانية مشاهدتها في وقت لاحق براحتها. كانت عملية النسخ جارية حينما سمعت صخب درّاجة نارية. سحبت وصلة الذاكرة المحمولة (USB) دون انتظار واقتربت من النافذة.

اللعنة. . .

هذه المرّة، كان بالفعل ماتيو وكيت يركنان الدرّاجة أمام باب المدخل تماماً.

كان قد فات الأوان على أن تعود على أعقابها!

كان هناك حلٌّ وحيد ألا وهو التراجع والتسليم.

كانت تسلك السلالم المؤدية إلى الغرف في اللحظة التي انفتح فيها باب المدخل.

من الطابق العلوي، كانت تسمع على نحوٍ واضح أصوات ماتيو وكيت. استبدّ بها الخوف ولجأت إلى غرفة نوم الزوجين. وهي تحاول أن تُصدر أقلّ قدرٍ ممكن من الضجيج، رفعت النافذة المقصلية. وهي تلقي آخر نظرة على الحجرة، لمحت من بعيد، في خزانة الثياب، شيئاً ما لم تعثر عليه في المرّة الأولى، ولكنّه كان يُدهشها الآن. لماذا كان هناك سلّم خشبي مسندٌ إلى الجدار؟ كان

المسند الذي استخدمته يكفي تماماً لكي تصل إلى أعلى الرفوف.
أوقفت حركتها وعادت بلا ضجّة إلى صالة خزانة الثياب.

ولماذا السلّم من الخشب الغامق اللون في حين أنّ كلّ أثاث الطابق من الخشب الفاتح اللون؟

رفعت إيما عينيها نحو سقف الغرفة وعلى الرغم من أصوات الزوجين المتصاعدة من الصالون، نصبت السلّم وتسلّقت الدرجات الأولى منه.

السلّم هنا ليس للوصول إلى رفوف خزانة الثياب وإنّما للوصول إلى... السقف.

حينما وصلت إلى الدرجات الأخيرة، دفعت إيما لوح الجبس للسقف المستعار. وهي تمدّ يدها، أحسّت بشيءٍ ما. قطعة جلد مستطيلة، حقيبة، بالأحرى. سحبتها ووقعت حقيبة نسيجية كبيرة. وبردّ فعلٍ يائس، تمكّنت من الإمساك بها. كانت حقيبة كتف مصنوعة من نسيجٍ أحمر مع شعار أبيض اللون يرمز إلى «علامة» ماركة رياضية شهيرة. كانت الحقيبة ثقيلة ومحشوّة بالكامل. وهي تتأرجح على السلّم فتحتها في حركة خفيفة ونشيطة، ونظرت إلى داخلها، وتحت صدمة المفاجأة كادت أن تقع.

تسارع إيقاع نبضات قلبها. كانت تسمع وقع خطوات تصعد السلالم. أعادت الحقيبة إلى مخبئها وأعادت لوح الجبس إلى السقف المستعار ونزلت من السلّم وعبرت الغرفة كالإعصار. ظلّت نافذة الغرفة مفتوحة. قفزت من الإطار وسلكت سلّم النجاة المصنوع من معدن الفونط وأطلقت ساقيها للريح.

* * *

بوسطن، عام 2011
الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً

كانت لوحة مفاتيح الحاسوب تغرق في الشوكولا الساخنة.

توسّلت إيميلي وقد أدركت فداحة الكارثة:

- عفواً، بابا، أنا آسفة! عفواً! عفواً!

نهض ماتيو من كرسيه بسرعة وفصل الجهاز وأداره بشكلٍ عامودي لكي يسيل منه السائل الساخن.

اعتذرت الفتاة الصغيرة وهي تلجأ إلى حضن آبريل:

- لم أفعل ذلك عمداً!

حاولت أن تهدّئها وتطمئنها:

- بالتأكيد، يا عزيزتي.

مسح ماتيو، في صمت، الحاسوب بقطعة نسيج.

ما العمل؟

كان قلبه يخفق بعنف. كان عليه أن يتصرّف. وبسرعة.

أخرجت آبريل من حقيبة يدها العديد من أقراص إزالة المكياج القطنية وأعطتها لماتيو لكي يُنهي عملية تنظيف لوحة مفاتيح الحاسوب.

- هل تعتقد بأنّ الدارات قد أُصيبَت؟

- أخشى ذلك.

حاولت أن تخفف عنه:

- ولكن هذا ليس مؤكّداً. في السنة الماضية، سقط منّي هاتفي المحمول في المغاسل وهو شغّال. حينما قمت بتنشيفه وسحبت منه الشريحة، نجحتُ في إعادة تشغيله وهو لا يزال يعمل إلى اليوم!

فكّر ماتيو. من العبث أن يحاول تفكيك جهاز الحاسوب. لم

يكن يعرف كثيراً في المعلوماتية. كان يميل إلى أن يحاول إعادة تشغيل الحاسوب ولكنّه عدل عن هذه الفكرة.

هذه أفضل طريقة للتسبّب في ضرب الدارات وفي إحراق الأجهزة. . .

قرّر وهو ينظر إلى ساعة يده:

- سوف أحمله إلى معالجٍ للحواسيب. هل يمكنكِ أن تحرسي إيميلي لساعةٍ إضافية؟

طلب سيارة أجرة وانتقل إلى الحمام واستحمّ سريعاً، وارتدى بنطلون جينز وبلوزة ومعطفاً ضخماً وخرج إلى الشارع مع الحاسوب الموضوع في حقيبة جلدية صغيرة. كان الذهاب إلى وكالةٍ لشركة آبل ستون قبل يومين من عيد الميلاد ضرباً من عدم الإدراك. وفي كلّ الأحوال لم يعد جهاز ماك بوك خاضعاً للكفالة. فطلب من السائق أن يأخذه إلى بائعٍ صغير في شارعٍ خلف ساحة هارفارد سكوير. وهو متجرٌ كان يرتاده البعض من طلبته. كان الحانوت بالكاد قد فتح أبوابه وكان من الواضح أن ماتيو هو أوّل زبون يصل إليه. خلف طاولة العمل، كان هيبيٌّ سابق ذو شبحٍ ثخين يُنهي فطوره.

كان الرجل الستيني يتباهى بشعرٍ غزيزٍ كستنائي ويرتدي صدرية جلدية مفتوحة على قميصٍ رياضيّ مشطوبٍ بالعلم الكوبي. كان كرشه يتهدّل على بنطلون جينزٍ ناحل اللون مزيّنٍ بنطاقٍ جلديٍّ ضخم.

- هل يمكنني مساعدتك، يا ريّس؟

سأله الرجل وهو يمسح شذرات السكّر لفطيرته المحلّاة التي كانت قد علقت بلحيته الشعثاء.

أخرج ماتيو الحاسوب من حقيبته الجلدية ووضعه على طاولة العمل وشرح للرجل الحادثة المشؤومة.

صرخ البائع:

- أيّ فكرة في ترك مشروبٍ ساخنٍ بجانب حاسوب!

- إنّها ابنتي. تبلغ من العمر أربع سنوات ونصف و.

بوقارٍ مصطنع، لم يدعه الرجل العجوز يُكمل جملته.

- أعتقد أنّ الشوكولا الساخنة هي أسوأ سائل يُسكَب على المعدّات المعلوماتية.

تنهّد ماتيو. لم يأتِ إلى هنا لكي يُلقى عليه الدرس.

- حسناً، هل يمكنك أن تساعدني أم لا؟

- يجب أن أرى. إذا كانت اللوحة الأمّ ليست تالفة، سيكون علينا أن نغيّر علبة الغلاف. ولكن نظراً لما سيكلّفك هذا الأمر، أتساءل إن كان هذا مجدياً. جهازك ليس حديثاً كثيراً.

كانت عيناه تختفي جزئياً خلف نظّارة دائرية ذات إطارٍ معدني.

- ولكن له قيمة معنوية كبيرة. هل يمكنك أن تفتحه؟

- هذا ما سأفعله. هل أحدّد لك موعداً في الأسبوع القادم؟

- الأسبوع القادم. مستحيل! أحتاج إلى هذا الحاسوب اليوم.

- آه، هذا سيكون صعباً، يا ريّس.

- كم؟

- . ؟

- كم تطلب لكي تباشر بتصليحه في الحال؟

- هل تعتقد بأن المال يستطيع شراء كلّ شيء، يا ريّس؟ هل تعتقد بأنّ دراهمك تمنحك كلّ الحقوق؟

- كفّ عن اعتبار نفسك تشي غيفارا، وتوقّف عن مناداتي «ريّس».

فكّر البائع للحظة ثمّ انتهى إلى الاقتراح عليه:

- إذا كنت مستعداً لأن تدفع خمس **أوراق نقدية بنيامينية**(*)، يمكننا البدء بالحديث. هذه مشكلتك، في نهاية المطاف.

- ممتاز. سوف أعطيك هذا المال، ولكن باشر العمل على تصليح الحاسوب. الآن.

متسلّحاً بمفكّ للبراغي، سحب الرجل العجوز الغطاء الألمنيومي وشرع في تنظيف الدارات بمحلولٍ كحولي إيزوبروبانولي وأزال بحذرٍ وعناية كلّ أثرٍ للحليب بالشوكولا، حريصاً على عدم إتلاف الملحقات الإلكترونية.

شرح وهو يغمغم من بين لحيته:

- يجب بأيّ ثمن أن نتجنّب أثناء إعادة تشغيل الحاسوب أن تتحوّل الحرارة إلى كراميل وسكّر.

ما أن انتهت هذه العملية، أوصل ما يُشبه مصباحاً إشعاعياً قديماً مزوّداً بعاكسٍ نحاسيّ.

- لتجفيف مكوّنات الجهاز، ليس هناك ما هو أفضل من هذه الأداة.

سأله ماتيو بنفاد صبر:

- كم من الوقت علينا أن ننتظر؟

- الصبر مفتاح الفرج، يا ريّس. اذهب واجلب نقودي وعُد إلى هنا بعد ثلاثة أرباع الساعة. يبدو أنّ القرص الصلب سليم. لقاء

(*) أوراق نقدية من فئة 100 دولار (المترجم).

200 دولار إضافية، يمكنني أن أجهّز لك نسخة منه لكي تتمكّن من استرداد معلوماتك ومعطياتك على الأقلّ.

كان الرجل يستغلّ الوضع بطريقة مخزية ولكنّ ماتيو لم يكن يحاول حتى أن يساوم وهو حزينٌ جداً لكون حياة زوجته كانت تتعلّق من الآن فصاعداً بمناورات هذا التاجر المضارب عديم الذمّة.

- حسناً، إلى اللقاء القريب.

خرج إلى الشارع، توقّف عند أوّل حاسب آلي لكي يسحب منه مبلغاً مقداره 700 دولار وخطا بضع خطوات لكي يدخل إلى أحد المقاهي العديدة في ساحة هارفارد سكوير. ترك نفسه يتهاوى في كرسيٍّ وهو محبطٌ ويائسٌ.

ماذا سيحصل الآن؟ حتى وإذا تمّ إصلاح الحاسوب وعَمِلَ من جديد، لا شيء يضمن لماتيو بأنّه سيستطيع معاودة الاتصال مع إيما. فحوارهما عبر الزمن لا يتعلّق سوى بخيطٍ رفيع، هشّ، غير عقلاني، يكاد يكون سحرياً. ولكنّه المعرّض لأن يذوب في الشوكولا الساخنة! فكّر من جديد في آخر رسالة إلكترونية وردت إليه من إيما. كانت الجمل الأخيرة منها قد انحفرت في ذاكرته:

> لقد تردّدتُ كثيراً قبل أن أرسل إليك هذا الفيلم القصير المرفق مع الرسالة. أتمنى ألا يصدمك كثيراً. تفضّل بقبول اعتذاري على هذا التدخّل في حياتكم الحميمية، ولكن هل تعرف مَنْ هو الرجل الموجود بصحبة زوجتك؟

لم ترق له هذه اللهجة. ماذا كانت تقصد؟ هل تقصد بأنّ كيت

كانت تخونه؟ هل تقصد أنّ الفيلم المقصود يلوّث شرفه؟ كلا، هذا مستحيل. لم يكن يشكّ قط في حبّ زوجته له ولا شيء سيصدع هذه الثقة، لا قبل ولا بعد موتها.

شرب ماتيو جرعةً من القهوة وحاول أن يجعل من نفسه محامي الشيطان.

ربّما كانت حياتهما الجنسية أكثر رتابةً من الفترات الأولى من علاقتهما. لقد عانت من الالتهابات في فترةٍ ما ومن ثمّ حدثت ولادة إيميلي سريعاً، لكن الأمور سرعان ما عادت إلى نصابها. ربّما قلّ اهتمامه بها عن بداية حياتهما، ولكن أليس هذا أمراً مشتركاً لأغلبية الأزواج؟

استمرّ في تعذيب نفسه. وماذا لو كان لدى كيت عشيق؟ هزّ رأسه مستبعداً ذلك. أتكون قد رغبت في اتّخاذ عشيقٍ ولم تجد الوقت لذلك؟ كانت كيت تعمل ليلَ نهار، كانت تعمل دائماً. كانت تقضي أوقاتاً جهنمية في المستشفى في قراءة وكتابة مقالات وأعمال طبية. والوقت القليل الذي كان يتوفّر لها فيه فراغٌ كانت تقضيه إلى جانبه وإلى جانب إيميلي.

أطرق في التفكير وهو يفرك ذقنه. بعد موت زوجته، كان قد تخلّص من كلّ ثيابها. وكانت شاحنة تابعة لجيش الخلاص(*) قد حملت كلّ أغراضها دون أن يقوم بأيّ فرزٍ لها لكي لا يُعاقب نفسه بألمٍ إضافي. وبحكم الضرورة، رتّب أوراق كيت بعد وفاتها. من الناحية المالية، كان لديهما حساب مشترك ولم يُلاحظ أيّ صرفٍ

(*) جيش الخلاص: جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلّة عن الكنائس تقوم بأعمال خيرية لمساعدة الفقراء (المترجم).

غير طبيعي. وكذلك لم يكن هناك أيّ شيء مثير للشبهة في ملفّات حاسوبها.

الأمر الوحيد الذي أثار دهشته هو عثوره على مضادات الإحباط في صالة الاستحمام خاصّتها.

لماذا لم تحدّثه كيت عن ذلك؟ وقد عزا ذلك إلى ضغط العمل. ربّما كان عليه أن يتعمّق أكثر في الموضوع.

* * *

- هل جلبت مستحقاتي، يا ريّس؟

مدّ ماتيو الورقات السبع من فئة مائة دولار نحو العجوز الهيبي الذي دسّها في جيب بنطلونه الجينز.

سأل وهو يشير إلى مكوّنات الجهاز وهي تواصل التنشيف تحت عاكس المصباح:

- هل الأمور تسير على ما يُرام؟

قال وهو يُدمج الحركة بالكلام:

- نعم، سوف نتمكّن من إعادة تشغيل كلّ هذا.

استمرت العملية لربع ساعة إضافية بعدها اتّخذ البائع نبرة احتفالية:

- هذه لحظة تشابك الأصابع، يا ريّس.

ضغط على زرّ التشغيل وحصلت المعجزة. أقلع الحاسوب وهمهم ومن ثمّ طلب إدخال كلمة مرور المستخدَم.

هلّلويا!

كانت لوحة المفاتيح اللمسية تعمل بطريقة ممتازة. ارتاح ماتيو وأدخل الرمز الذي تقبّله النظام.

قال الهيبي بإعجاب:

- يمكننا القول بأنّ لديك حظّاً خارقاً.

تجاهل ماتيو الملاحظة. فتح ملفّاً ومن ثمّ فتح تطبيقاً. كان على وشك الاتصال بشبكة الإنترنت حينما تجمّدت الشاشة بقسوة قبل أن تصبح سوداء اللون.

لم يعد هناك أي شيء.

حاول أن يعيد تشغيله.

ليس هناك ما يمكن فعله.

أكّد البائع:

- لقد احترق. ظننتُ أنني أنقذته ولكن الحقيقة ليست كذلك.

- ولكن لا بدّ أنّ هناك ما يمكن فعله من أجل إصلاحه. تبديل قطعه أو.

- هذا سيكون من دوني، يا ريّس. جهازك ميّت. إنهّا الحياة.

أعطاه قرصاً صلباً خارجياً.

- لقد انتزعتُ من جهازك كل ما يمكن استخدامه من جديد والاستفادة منه. هذا هو الأمر الجوهري، أليس كذلك؟

كلا.

كلّا ليس هذا هو الأمر الجوهري.

14

إيكاترينا سفاتكوفسكي

لا تشتهِ امرأة قريبك.

سفر الخروج، 20: 17

بوسطن، عام 2010

الساعة الحادية عشرة صباحاً

تغطّت السماء بالغيوم بسرعة مذهلة. وقد تركت الشمس المشعّة في بداية الصباح مكانها لسحابة صدفية اللون حيث لم تتأخّر أولى ندائف الثلج عن السقوط. الآن، كان ثلجٌ ناعم ومتماسك يدوّم في شوارع ساوث إند.

نفضت إيما الشذرات الثلجية العالقة بشعرها وعصرت كبوشة بلوزتها. كانت تتسكّع منذ ما يقارب عشرين دقيقة في تلك الشوارع. حينما خرجت من منزل آل شابيرو، كانت قد عادت ومرّت على فندقها، ولكنّ غرفتها لم تكن قد جهِّزت بعد. فقرّرت أن تسير لبعض الوقت لكي تفكّر في الهواء الطلق. لسوء الحظّ، كان الطقس شديد البرودة بحيث إنّها أحسّت بأنّ دماغها قد تخدّر. وصلت إلى تقاطع ساحة كوبلي سكوير مع شارع بويلستون ستريت، هناك حيث تنتصب العمارة الاحتفالية للمكتبة العامّة في المدينة. ومن دون أن تتردّد، تسلّقت سلالم المدخل ودخلت إلى القاعة الفخمة المزيّنة بالرسوم

الجدارية والتماثيل. كان المرء يظنّ نفسه في قصرٍ إيطاليّ من عصر النهضة. سارت لبضع خطوات اعتباطية، متجاوزةً مكتب الاستقبال ومكتب قطع تذاكر الدخول - والذي كان يبيع تذاكر معرضٍ مؤقّت - لكي تصل إلى باحة داخلية صغيرة تشبه رواق دير. ومن خلال اتّباعها لتوجيهات حارسٍ، عبرت الأروقة الأمنية وسلكت الدَّرج الرخامي الكبير لكي تصعد إلى قاعة المطالعة.

كانت قاعة بيتز هال عبارة عن قاعة فخمة تمتدّ على طول ما يُقارب سبعين متراً تحت سقفٍ مقبّب فسيح. كان على جانبي الصالة تمتدّ عشرات الطاولات الخشبية الغامقة اللون مجهّزة بمصابيح حليبية اللون وذات كمامٍ متلألئة.

جلست إيما في طرف القاعة لكي تستفيد من الضوء الطبيعي. أخرجت هاتفها وحاسوبها المحمول ومن ثمّ شرعت في العمل، محاولة أن تتفحّص بدقّة كلّ «وثائق الإثبات» التي جمعتها خلال غزوتها الاستكشافية لمنزل آل شابيرو.

أوّل شيءٍ أثار اهتمامها وحيّرها: الأصول الروسية لكيت أو بالأحرى أصول تلك التي حوّلت اسمها الأوّل إلى اسمٍ أميركي، ولكنّها كانت تُدعى في الحقيقة إيكاترينا لودميلا سفاتكوفسكي.

تولّد 6 مايو 1975 في سان بطرسبورغ (روسيا).

نظرت إلى صور طفولة كيت. حينما كانت تبلغ من العمر ست أو سبع سنوات، كانت تُشاهد موجودة بالقرب من عازفة بيانو - والدتها دون أدنى شكّ - في صالات الحفلات الموسيقية أو صالات العروض المسرحية. ثمّ كنّا نجد المرأتين على صورٍ في الخارج كانت تظهر عليها أحياناً أبراج أجراس ذات قباب تتميّز بالعمارة الأرثوذكسية. وفي مراحل لاحقة، أي حينما كانت تبلغ نحو إحدى

عشرة أو اثنتي عشرة سنة، كان الديكور يختلف. كانت تأتي بعد مسحة فينيسيا الشمالية مسحة مدينة الزمرّد. أعادت إيما بناء هذا الخطّ البياني ذهنياً: النفي من سان بطرسبورغ نحو سياتل.

زاغت عيون إيما، داعبت ذقنها وبحثت عن: «سفاتكوفسكي + عازفة البيانو» في محرّك البحث غوغل. كانت لوالدة كيت الحقّ في بطاقتها التعريفية الخاصّة على موقع ويكيبيديا.

استعرضت إيما مضمونها بفضول.

آنا إيرينا سفاتكوفسكي: (12 فبراير 1854 في سان بطرسبورغ – 23 مارس 1990 في سياتل) عازفة بيانو روسية. وقد توفيت من جرّاء مضاعفات مرتبطة بمرض التصلّب اللويحي(*).

كانت طفلة عبقرية في العزف على البيانو، فدرست في كونسرفاتوار ريمسكي – كورساكوف في سان بطرسبورغ، مستفيدةً من تدريس كبار الأساتذة في المنطقة.

بدأت مهنتها في العزف المنفرد في سنّ السادسة عشرة مع أوّل كونشرتو لراشمانينوف برفقة أوركسترا سان بطرسبورغ. ومن ثمّ أصبحت ضيفةً على العديد من المهرجانات وعزفت في الأماكن الأكثر فخامة مثل فيلهارموني في برلين أو كارنيغي هال في نيويورك. سجّلت أوّل عمل لها في دوتش غراموفون: السوناتة في السلّم الموسيقي لفرانز لِيْست. وسوف تبقى الأسطوانة مرجعاً أبدياً للعمل.

(*) هو مرض التهابي يأتي على شكل هجمات يؤثّر على النظام العصبي المركزي ويمكن أن يتسبّب بالعديد من الأعراض (المترجم).

وفي حين سنحت لها مهنة مرموقة، انقلب مصيرها رأساً على عقب في عام 1976: داهمتها نوبة تصلّب لويحي بينما كانت قد أنجبت ابنتها لتوّها. أرغمتها مضاعفات هذا المرض أن تضع حياتها كعازفة منفردة بين قوسين. في بداية أعوام الثمانينيات من القرن العشرين، غادرت إلى الولايات المتحدة الأميركية لكي تتلقّى العلاج من مرضها، ولكنّها توفيت في عام 1990 بعد أن أمضت سنواتها الأخيرة في البؤس والفقر.

تخيّلت إيما طفولة كيت وبداية مرحلة مراهقتها. حياة صعبة في بلدٍ غريب، ناهيك عن الإحساس بالذنب في اعتقادها بأنّها مسؤولة عن مرض والدتها، ومن ثمّ صدمة وفاتها التي لا بدّ أنّها أثّرت على اختيار المهنة الطبية للشابّة كيت. عدّت السنوات مستعينةً بأصابعها. إذا كانت والدتها قد ماتت في عام 1990، فلم تكن كيت قد بلغت حينذاك سوى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها. من ساعدها في تربيتها منذ تلك الفترة؟ أهو والدها؟ ولكن لا الكتابات المدوّنة ولا الصور كانت تشير إلى وجوده.

الصور التالية كانت أكثر مرحاً وابتهاجاً. كانت كيت تظهر فيها في جامعة بيركلي الفخمة وغالباً برفقة المرأة الشابّة نفسها، وهي طالبة من أصولٍ هندية. أهي ويلكنيسون الشهيرة؟ تساءلت إيما وهي تفكّر من جديد في آخر «سؤالٍ سرّي» لشركة المراقبة. كان أمرٌ آخر يدغدغ ذهنها: في هذه الصور، كان واضحاً أن كيت كانت بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرها، ولكن ملامح وجهها لم تكن هي نفسها اليوم.

حوّلت إيما الصوّر إلى حاسوبها لكي تقارنها على الشاشة

الكبيرة مع صورٍ أكثر حداثةً. كان التحوّل واضحاً ولكنّه لم يكن حادّاً: كانت وجنتاها أكثر ارتفاعاً، ووجهها أكثر تناسقاً. لا بدّ أنّ المرأة الشابّة كانت قد مرّت تحت يدي طبيبٍ في الجراحة التجميلية. ولكن لأيّ سبب؟ لماذا تريدين أن تصبحي «فائقة الجمال» حينما تكونين أصلاً بهذا القدر من الجمال؟

هل يمكن أن يكون قد وقع لها حادثٌ الأمر الذي تطلّب منها جراحةً ترميمية؟

تركت السؤال يحوم دون أن تتمكّن من إيجاد جوابٍ له، ومن ثمّ اهتمّت بالصورة الإغرائية التي كانت قد نقلتها هي الأخرى إلى شاشة الحاسوب. كانت كيت، وهي بالكاد أكبر سنّاً مما في الصور السابقة، تحدّق في العدسة بنظرة تحدٍّ. كانت يداها المتصالبتين على صدرها تدعنا نتخيّل شكل نهديها ولا تخفي لا بطنها ولا أصل أنوثتها. كانت الصورة تتضوّع شبقيةً مثيرةً ومهيّجة.

ما الذي يجعلها قادرةً على الحصول على أيّ رجلٍ كان بإشارةٍ من إصبع؟ تساءلت إيما كما لو أنّها توجّه هذا السؤال إلى كيت. **هل الحياة أكثر سهولةً؟ هل يعرف المرء فيها أحزان الحب نفسها، وعذابات معشر الناس؟**

من دون شكّ، إذا ما حكم المرء على ذلك من خلال الأدوية التي وجدتها في درج الصيدلية المنزلية.

عبست وقرّبت وجهها من شاشة الحاسوب وهي تجري في الوقت نفسه عملية تكبير حجم الصورة على الشاشة. في تلك الفترة، كانت كيت تحمل وشماً على أعلى ساعدها الأيسر. وهي علامة لم تكن موجودة على أيّ من الصور الأخرى. هل كان وشماً مؤقّتاً أم أنّها أزالته لاحقاً؟

من المستحيل الجزم في ذلك. بالمقابل، ربّما كان بمقدور إيما أن تخمّن الحافز وراء هذا الوشم. بمساعدة اللوحة اللمسية للحاسوب، عزلت منطقة الرسمة لكي تؤطّرها وتكبّر حجمها أكثر. ارتسمت على الشاشة صورة حصانٍ مزوّدٍ بقرنٍ حلزوني.

إنّه قارن... (*)

طبعت نسخة من الرمز دون أن تدري إن كان هذا العنصر يتعلّق بنكتة أم أنّ له أهمية حقيقية. ثمّ رفعت عينيها عن الشاشة وفركت جفونها. من خلال نافذة المكتبة، نظرت إلى الثلج الساقط في ندائف تتزايد كثافةً. جعلها هذا المنظر ترتعش. هنا، يبقى الجوّ مع ذلك لطيفاً. كان جهاز التدفئة يهمهم. كان المكان، الملائم للتفكير، باعثاً على الأمان ويكاد يكون دافئاً وحميمياً، على الرغم من وسع مساحته، كما لو أنّ نادياً إنكليزياً قديماً قد أقام أقسامه في كاتدرائية. تعلّقت إيما بالعناصر التي كانت تبثّ فيها الأمان والاطمئنان: أفضل الكتب المجلّدة بفخامة على الرفوف، حفيف الصفحات التي كانت تُقلَب، انزلاق الأقلام على الورق، أزرار الحاسوب التي كانت تُمسُّ مسّاً خفيفاً.

استبدّت بها فجأة الحاجة إلى أن تشعر بأنّها محمية وآمنة. فباكتشافها الحقيبة الرياضية الحمراء اللون المخفية في السقف المستعار لبيت آل شابيرو، أدركت بأنّها قد رأت شيئاً ما كان عليها أن تراه. شيءٌ ما من المحتمل أن يكون خطيراً جدّاً.

أغمضت عينيها وأعادت المشهد في ذهنها. حينما فتحت

(*) قارن: حيوان أسطوري بجسم حصان كان الأقدمون يفترضون له قرناً وسط الجبين (المترجم).

السحّاب، وقعت على عشرات الرزم من الأوراق النقدية من فئة مائة دولار. أجرت عملية حسابية سريعة. كانت الحقيبة الرياضية تزن على الأقلّ خمسة كيلوغرامات. كم تبلغ وزن ورقة نقدية من فئة مائة دولار؟ بالكاد تبلغ غراماً واحداً؟ إذاً كانت الحقيبة تحتوي على ما لا يقلّ عن خمسمائة ألف دولار.

نصف مليون دولار...

أيّ نوعٍ من الأشخاص يملك نصف مليون دولار مخفية في سقف غرفة ملابسه؟ تساءلت إيما وهي تنظر إلى صورة كيت التي كانت عيناها تبدو وكأنّها تخترقها.

من تكونين في الحقيقة، يا كيت شابيرو؟

من تكونين في الحقيقة، يا إيكاترينا لودميلا سفاتكوفسكي؟

* * *

لملمت إيما أغراضها. كانت تتهيّأ لوضع حاسوبها في حقيبته حينما تذكّرت بأنّها لم تشاهد بعد صور ماتيو المحوّلة من الحاسوب العائلي. أوصلت وصلة الذاكرة المتنقّلة USB خاصّتها. كان التحويل قد انقطع من جرّاء وصول ماتيو وزوجته، ولكنّ مع ذلك كانت عدّة مئات من الصور قد نُسِخَت. شاهدت الصور على عجلٍ معتمدةً ترتيباً مخالفاً للتسلسل الزمني: مشاهد من الحياة اليومية، ترسم لوحة حياةٍ عائلية سعيدة تدور حول الطفلة إيميلي. سرَّعت إيما من عملية عرض الصور لكي تصعد أبعد في الزمن: قبل ولادة الفتاة الصغيرة، بل وحتى قبل زواج ماتيو وكيت. وأذهلها ما اكتشفته: كان ماتيو قد تزوّج قبل أن يلتقي مع كيت! في العشرات من الصور، كانت تظهر امرأة قصيرة القامة سمراء، نحيلة، ذات شعرٍ طويل

كانت تجدله غالباً في ضفيرة. حتى في الصور، كانت نادراً ما تبتسم. كان وجهها ناعماً، جامدةً غالباً في وضعية صارمة كانت تذكّر إيما بامرأة مثقّفة، أو مديرة مدرسة من الطراز القديم أو أمينة مكتبة محرَجة.

استمرت في عرض الصور إلى أن وصلت إلى صور زواجهما. لم تكن الصور حديثة. كما أنّها لم تكن صوراً رقمية، وإنّما صور منسوخة. على إحدى الصور، كنا نشاهد قالب الحلوى العملاق الذي تمّ إعداده بمناسبة هذا الحدث: قالب كاتو من عدّة طوابق، باللونين الوردي والأبيض، مغطّساً بالقشدة. وكانت عبارة مكتوبة على مربّعٍ من عجينة اللوز تقول:

سارة + مات

20 مارس 1996

أتاح البحث في الإنترنت لإيما العثور على أثرٍ لامرأة تُدعى «سارة شابيرو» في حسابٍ إلكتروني لرحلة مدرسية قام بها تلاميذ قسم الحاسوب في مدرسة ابتدائية في حي روكسبوري في مدينة بوسطن. كانت الوثيقة قديمة تعود إلى ستّ سنوات، ولكنّ إيما حاولت بطريقة تبدو مصادفة أن تتّصل بالمؤسسة. مع أنّها كانت فترة العطلة المدرسية، ردّت سكرتارية المدرسة على مكالمتها. كانت سارة شابيرو قد درّست فعلاً في هذه المدرسة. وكانت قد استعادت بعد طلاقها لقبها نفسه عندما كانت فتاة عازبة - هيغنز - وطلبت أن تنتقل إلى مدرسة أخرى. وقد أخبروا إيما باسم مدرسة ابتدائية في حي واتابان. أجرت إيما مكالمة جديدة. وردّت عليها السكرتارية. لم تكن سارة تدرّس فعلاً في هذه المدرسة فحسب، بل أيضاً كانت المدرسة الابتدائية تستمر في استقبال الأطفال المحرومين خلال

عطلة عيد الميلاد. في تلك اللحظة بالذات، كانت سارة تنظّم رحلة مدرسية إلى حلبة التزلّج البلدية في واتابان.

* * *

بوسطن، عام 2011
الساعة الحادية عشرة والربع صباحاً

عاد ماتيو إلى بيته، قلقاً ومنهكاً فتح الباب واكتشف كلمة مكتوبة ومشكوكة بدبّوس على الطاولة الفلينية:

لقد خرجنا في جولةٍ إلى سوق عيد الميلاد في شارع مارلبوروغ ستريت. إذا كنتَ هادئاً، سوف نجلب لك قارورة من خمر التفاح!

قبلاتنا لك.

إيميلي + آبريل.

جاء الكلب كلوفيس، الشار-بيه، يتمسّح بساقه. كان الكلب قد قلب إناءه الخاصّ بالماء؛ فملأه من جديد وهو مطرقٌ في التفكير. كان الحاسوب المحمول قد أصبح خارج الخدمة بشكلٍ نهائي، ولكنّ كان لا يزال بوسعه أن يستخدم الحاسوب المنزلي لكي يقرأ محتويات القرص الصلب. فجلس إلى الطاولة الصغيرة المنقّطة التي كان الحاسوب العائلي موضوعاً عليها. أوصل القرص الخارجي الذي كان العجوز الهيبي قد زوّده به وبدأ باستكشافاته. ولكون ذاكرة القرص كانت شبه فارغة، لم يستغرق وقتاً طويلاً لكي يضع يده على مقطع الفيديو (IMG_5662.MOV) الذي كان يبحث عنه.

شغّل الفيلم الذي كان من الواضح بأنّه قد صوّر بوساطة كاميرا هاتفٍ محمول وظلّ متجمّداً في مكانه خلال الدقائق الثلاث التي استغرقها التسجيل. لم يُصدّق عينيه! كانت كيت تشدّ نفسها إلى رجلٍ لم يكن يعرفه. كانا يتعانقان ويتداعبان ويتبادلان نظرات غرامية على طريقة المراهقين.

- كلا!

أمسك بأوّل شيء وقع تحت يديه - كوب خزفي كان مليئاً بأقلام رصاص - وضربه بالجدار فتحول إلى شظايا متناثرة. أرعب صوت تكسُّر الكوب كلوفيس الذي اختبأ تحت الطاولة الصغيرة. أغمض ماتيو عينيه وأمسك بوجهه بين يديه وظلّ خائراً منهك القوى لوقتٍ طويل. كان واهناً ومنهكاً.

هذا غير ممكن...

رفع رأسه من جديد. لا بدّ أن يكون لذلك تفسيرٌ ما. حتى الصور الأكثر وضوحاً قد تكون لها أحياناً معنى خفي. قبل كلّ شيء، إلى متى يعود هذا الفيلم؟ في رسالتها، كانت إيما تشير إلى أنّها قد صوّرته للتوّ. إذاً، إنّه يعود إلى صباح يوم 23 ديسمبر من عام 2010، أي قبل حادثة موت كيت بوقتٍ قليل. ومن ثمّ المكان. كان الديكور والأثاث الخشبي يوحي له بمحلّي غريل 23 أو ماكنتي اللذين كانا يرتادانهما أحياناً، ولكن لدى إمعان النظر فيه عن قربٍ أكثر، كانت المرآة والساعة الجدارية لا تتناسبان مع هذين المحلّين. الرجل: طويل القامة، شعره أشقر وقصير، ويرتدي معطفاً جلدياً أسود اللون. هل كان يعرفه؟ ربّما، ولكنّه لم يكن قادراً على أن يضع اسماً على وجهه. وأخيراً، تصرّفهما، كان أكثر ما لا يمكنه تحمّله. كانت كيت تحبّ هذا الرجل، كان ذلك واضحاً للعيان.

كان تفاهمهما واضحاً وأنفاسهما تتمازج والرعشة نفسها تسري في قلبيهما. منذ متى كانت هذه العلاقة مستمرّة بينهما؟ كيف استطاعت أن تخفي هذه العلاقة ولم تدع مجالاً للشكّ فيها؟

شدّ على قبضته، وقد اجتاح الغضب كيانه واستبدّ به إحباطٌ شديد. كانت كيت، حبّ حياته، تخونه ولم يعلم بذلك إلّا الآن، بعد عامٍ من موتها! حلّ الشعور بالتقزّز محل الإحساس بالخيانة. وهو لا يزال تحت تأثير الصدمة، جرجر قدميه حتى بلغ الشرفة وفتح البوابة الزجاجية. كان يحتاج إلى هواءٍ منعش، مثل غطّاسٍ ظلّ لوقتٍ طويلٍ تحت الماء. لهث وانقطعت أنفاسه، ارتعشت ساقاه تحته فترك نفسه يتهاوى في أحد كراسي الحديقة. كان جسمه يهتزّ بالنحيب وسالت دموعٌ على وجهه دون أن يتمكّن من إيقافها. شعر بطعم الحموضة يتصاعد إلى فمه. فجأةً، انبعثت صرخةٌ من الصالون.

صرخت إيميلي وهي تجري في الشرفة:

- بابا، بابا، لقد اشترينا لك خمر التفاح وعرائس الخبز بالتوابل!

ارتمت بين ذراعيه وغطّ الوجه الجميل لابنته الصغيرة في تجويف عنقه وهو يمسح دموعه بكمّ قميصه.

لاحظت آبريل حزنه واستفسرت منه عن السبب بنظرة منها.

أماء لها بحركاتٍ من شفتيه في صمت لكي تستطيع أن تقرأ على شفتيه:

- سوف - أخبر - كِ - لا - حقاً.

- هل استطعت أن تُصلِح الحاسوب، يا بابا؟

هزّ رأسه نافياً.

- كلا، يا صغيرتي، ولكن هذا ليس أمراً خطيراً.
قالت وهي تخفض عينيها بحزن:
- أنا آسفة.
- هذه أمورٌ يمكنها أن تحدث، يا قلبي. الجميع يرتكب أخطاءً، سيكون هذا درساً مفيداً لكِ في المرّة القادمة.
أجابت وهي ترفع وجهها الجميل نحو الشمس:
- هذا أمرٌ مؤكّد!
مثلما كان يحدث لها غالباً، منحها فيض النور الرغبة في أن تعطس.
- بالصحة، يا طفلتي.
- لم أعد طفلةً!
هذا العطاس...
قطّب ماتيو عينيه، ثمّ تحجّر في مكانه مسمّراً على كرسيه بذكرى مكبوتة انفجرت في وجهه مثل قنبلة يدوية.

* * *

قبل ستّة أشهر من هذا التاريخ، يوم 4 يوليو من عام 2011، يوم العيد الوطني، كان قد قبل دعوةً من راشيل سميث، إحدى زميلاته في جامعة هارفارد، والتي كانت تنظّم حفلة شوي اللحم في دارها الثانوية الخاصّة بقضاء العطلة في كاب كود: وهو عبارة عن منارة قديمة تقع على شعبة بحرية صخرية، حيث يمتدّ المحيط على مدى النظر. بينما كان الرجال ينشغلون بشَوْي اللحم، كانت النساء يثرثرن بالقرب من المياه وكان الأطفال يلعبون داخل المنارة تحت رقابة مربيّة أطفال.

صرخ في الجمع دافيد سميث، وهو رجلٌ أنيق، يحتفظ بمزاجٍ معتدل، ويعمل كطبيبٍ عامّ في تشارلز تاون:

- من يريد لحم الدجاج؟ من يريد هوت - دوغ؟

مباشرةً، خرجت الصبايا الأربع جرياً من مخبأهنّ لكي يهرعن نحو الطعام.

كان يوماً صيفياً رائعاً. كانت الشمس تسطع بقوّة. حينما أصبحت إيميلي وسط النور الساطع، وضعت يدها أمام فمها وعطست لمرّتين.

شرح ماتيو:

- يحصل لها هذا كلّما تنتقل من الظلّ إلى النور. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟

قال له دافيد:

- لا تقلق. هذه ظاهرة معروفة: الضوء يجعل شخصاً من أصل كلّ أربعة أشخاص يعطس. هذه خاصيّة وراثية سليمة. في الطبّ نسمي هذا المنعكس الضوئي العطاس.

- كيف تفسّر ذلك؟

حرّك الطبيب شوكته الطويلة المشكوكة في شريحة لحم في الهواء كما لو أنّه موجود أمام سبّورة.

- حسناً، هل ترى الأعصاب البصرية؟ إنّها تقع بالقرب من العصب القحفي الكبير: عصب مُثلّث التوائم والذي يتحكّم بحساسية كلّ الوجه. فعلى سبيل المثال، هو الذي يتيح إنتاج الدموع واللعاب وكذلك تعابير الوجه. وهذا العصب هو الذي يحفّز عمليات العطس.

وافق ماتيو على ذلك:

- اتّفقنا.

واصل دافيد الشرح وهو يشير إلى الشمس:

- أثناء فيضٍ قوي من الشمس، هناك عند بعض الأشخاص نوعٌ من التداخل والتشابك بين هذين العصبين: الإشراق يثير العصب البصري الذي «يُنبّه» العصب مثلّث التوائم ويسبّب العطاس.

سأل ماتيو:

- مثل سلكين كهربائيين؟

- لقد فهمتَ كلّ شيء، يا صديقي.

- وهل أنت متأكّد من أنّ هذا ليس خطيراً؟

- على الإطلاق! إنّه مجرّد تشوّه خلقي بسيط على مستوى العصب القحفي. من جهة أخرى، لا بدّ أنّك أنت بنفسك تعاني من هذه المشكلة، أليس كذلك؟

- كلا على الإطلاق، لم أشعر قط بهذا الأمر.

- إذاً لا بدّ أن كيت لديها هذه المشكلة، هذا مؤكّد.

- لماذا؟

- هذا ما يُدعى سمة منقولة بالوراثة الصبغية الجسدية السائدة.

- والذي يعني؟

- يعني أنّ كل شخص مصاب بهذا التشوّه الخلقي، يكون أحد والديه على الأقلّ مصابٌ به. وبالتالي، إن لم تكن أنت المصاب، فهي كيت بالضرورة. تفضّل، خذ شريحتك من اللحم قبل أن تحترق.

هزّ ماتيو رأسه وابتعد عن المكان لبضع ثوانٍ. أطرق في التفكير. خلال أربعة أعوام، لم يكن قد رأى ولا مرّة كيت وهي تعطس في الضوء.

صرخت إيميلي وهي ترتمي بين ذراعيه:

- بابا، انظر إلى قطعتي الكبيرة من الهوت - دوغ!

نثرت في اندفاعها دفقة من الكاتشب على قميص والدها:

- أوه.

- ليس أمراً جسيماً، ولكن انتبهي، يا عزيزتي، أنتِ تقومين بحركات خاطفة جداً.

مسح بقعة صلصة الطماطم من على سترته وهو يفكّر في الوقت ذاته بما كان الطبيب قد رواه له منذ قليل. ومن ثمّ اختار ألا يقلق ويرتبك بشأن هذا الأمر ودفع هذه الواقعة بعيداً جداً في ذاكرته.

* * *

الآن، عاد هذا المشهد إلى ذهنه بقوة.

العودة إلى الحاضر. العودة إلى الغضب. العودة إلى الانصعاق. إلى الضيق خاصّة. كان شكّاً فظيعاً يستقرّ في داخله. وماذا لو أنّ إيميلي ليست ابنته؟ استعاد الفيلم بطريقة معاكسة. كان قد التقى كيت في أكتوبر من عام 2006. وحسب ما جعلته يفهم، كانت قد حبلت بإيميلي في 29 أكتوبر. وقد ولِدَت بعد ثمانية أشهر من ذلك، في 21 يونيو، في يومٍ صيفي. طفلة خديجة ولِدَت قبل موعدها بشهرٍ كامل، هذا أمرٌ شائع. سوى أنّ إيميلي لم تكن على أيّ شيءٍ يدلّ على أنّها خديجة سابقة لأوان ولادتها: كان وزنها 3,4 كيلوغرامات عند الولادة، وطولها 52 سنتيمتراً ولم تبقَ لوقتٍ طويل في حاضنة المستشفى. ولكن هنا أيضاً، لشدّة فرحته بكونه أصبح أباً، لم ينشغل بهذه «التفاصيل».

- هل أنت بخير، يا بابا؟ هل تريد أن تتذوّق خبزك المتبّل؟

لم يُخرجه سؤال إيميلي تماماً من أفكاره.

همهم:

- فيما بعد، يا عزيزتي.

التفت نحو آبريل، ومن دون أن يعطيها أي تفسير، أعلن:

- يجب أن أخرج لشراء حاجةٍ ضرورية.

* * *

بوسطن، عام 2010

الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً

تركت سيارة الأجرة إيما في شارع سوميرسيت ستريت، في قلب حي واتابان. لم يكن واتابان، الذي يقع في الطرف الجنوبي من مدينة بوسطن، من نوع الحيّ الذي تخصّص له كراريس التدليل السياحي صفحات عديدة من الشرح. بسبب الثلج، كانت الشوارع شبه خاوية. لم تشعر إيما بأنّها في خطرٍ في هذا الحي، ولكن الديكور لم يكن باذخاً: كانت هناك عمارات صغيرة من القرميد تنتظر الترميم، ومستودعات، وبيوت ذات سقوفٍ من الصفيح، وجدران مشبعة برسومات وحظائر من قصب تحيط بأراضٍ بورٍ.

وهي تصعد الجادة بحثاً عن حلبة التزلّج على الجليد، صادفت مجموعةً من المتسكّعين الذين كانوا يحتلون الرصيف حول مَجمرٍ بحثاً عن الدفء، وهم يشربون من علب بيرة مخفية في أكياس ورقية. تصاعدت شتائم مشبعة بالكحول عند مرورها، ولكنّها لم تكن كافية لترهيبها أو جعلها ترجع عن طريقها.

أخيراً، وصلت أمام مبنى حلبة التزلّج البلدية. وكان عبارة عن مهجع معدني عملاق ذي واجهة حوّلت إلى «لوحة» تحمل صور مشاركات دهاة الحي في التزلّج.

دلفت إيما إلى داخل المبنى. اشترت بطاقة لكي تستطيع

الدخول إلى الصالة، ولكنّها نزلت مباشرةً إلى المدرجات من دون أن تمرّ على غرف تغيير الملابس.

كانت صرخات الأطفال تتردّد أصداءها بصخبٍ على سور الحلبة. على الجليد، كان ما يقارب نصف الحلبة قد خُصِّص لمجموعة مدرسية تتراوح أعمارهم بين ستّ وسبع سنوات وكانوا يتبعون درساً أوّلياً في الهوكي على الجليد يشرف عليه معلّمٌ شاب. كانت معلّمتان ترافقان حصّة التدريب وهما تساعدان الأطفال الذين يسقطون على الوقوف من جديد وتثبّتان مزاليجهم وتعدلان قبّعاتهم أو واقيات سيقانهم.

اقتربت إيما من حافة السطح الجليدي الصقيل. من بين المعلّمتين، تعرّفت مباشرةً إلى سارة هيغنز. كانت قد قصّت شعرها قصيراً جدّاً كما فقدت بضعة كيلوغرامات من وزنها. كانت ترتدي بنطلوناً وسترة جينز وبلوزة خشنة، وقد أصبحت بالطبع أكبر سنّاً مما كانت عليه في الصور.

- سيّدة شابيرو؟

التفتت فجأةً كما لو أنّها تحت تأثير صدمة كهربائية وحدّقت في إيما، مصعوقةً.

منذ متى لم يعد أحدٌ يناديها بهذا اللقب؟

سألت المعلّمة وهي تتزلّج لكي تقترب من الحافّة:

- منْ أنتِ؟

- أنا صديقة ماتيو. أعتقد أنّ لديه متاعب وأودّ أن أساعده.

- هذا لا يعنيني.

- هل لديك خمس دقائق تمنحيني إياها من وقتك؟

- ليس الآن. أنتِ ترينَ جيداً بأنني أعمل.

ألحّت عليها إيما بالطلب:

- هذا أمرٌ بالفعل مهمّ.

أطلقت سارة تنهيدة استسلام.

- هناك ما يشبه حانة، في الطابق العلوي. اذهبي وانتظريني هناك. سوف أنضمّ إليكِ بعد ربع ساعة.

* * *

بعد عشرين دقيقة من ذلك

بدأت سارة بالحديث قبل أن تتناول جرعةً من الشاي:

- لقد تزوّجت من ماتيو منذ ما يقارب عشر سنوات، ولكنني أعرفه منذ زمنٍ أطول من ذلك بكثير.

كانت إيما، وهي تجلس قبالة سارة، تُصغي إليها بانتباه وهي تسحق بعصبية المصّاصة البلاستيكية التي كانت تعوم في كأسها من الكوكا.

- التقينا في عام 1992 على مقاعد جامعة ماساتشوستس. كان مات يدرس الفلسفة وكنتُ أدرس علوم التربية.

- كان حبّاً من أوّل نظرة؟

- لنقل إنّه كان أكثر من ذلك فهو عبارة عن انجذاب فكري. كنا قد قرأنا الكتب نفسها، وكنّا نتقاسم الأفكار نفسها، والخيارات السياسية نفسها. وقد عانقنا بعضنا لأوّل مرّة مساء انتخاب بيل كلينتون في ولايته الرئاسية الأولى. كنّا نحن الاثنين متطوّعين في لجنة دعم حملته.

أدارت سارة رأسها وأغمضت عينيها لبرهةٍ قصيرة.

يبدو كلّ ذلك بعيداً جداً اليوم.

أرهقتها إيما بإلحاحها:

- وقد انفصلتما عن بعضكما منذ أربعة أعوام، أهذا صحيح؟

- أكثر بقليل. في الحقيقة، كان كلّ ذلك قاسياً جدّاً. ولم يكن متوقعاً على الإطلاق.

- وهل مرّت حياتكما الزوجية بظروفٍ سيئة؟

- لا أبداً. كنّا نعيش حياةً هادئة، وكنّا سعداء معاً. على الأقلّ أنا، كنتُ كذلك.

- رحل ماتيو بين ليلةٍ وضحاها؟

بدرت من سارة ضحكة عصبية.

- في الحقيقة، هذه هي العبارة المناسبة. ذات مساء، عاد إلى البيت، واعترف لي بأنّه قد التقى امرأةً وبأنّه مغرمٌ بها ويريد العيش معها. كان حازماً وواثقاً من نفسه. لم يترك لي الخيار.

- وتلك المرأة، هل كانت كيت؟

- بالطبع! كان قد التقى بها قبل بضعة أيامٍ من ذلك في المستشفى. كان قد جُرِح بمقصّ بستاني حينما كان يعتني بالحديقة المنزلية وهي مَن عالجته في المستشفى. والأكثر إزعاجاً في ذلك هو أنني أنا من ألححت يومذاك على أن أصحبه إلى قسم الطوارئ في المستشفى! كان مات يزعم بأنّ المسألة بسيطة ولم يكن يرغب في الذهاب إلى المستشفى.

لم تستطع إيما أن تمنع نفسها من توبيخها.

- ألم تكافحي من أجل استرداده؟

هزّت سارة كتفيها.

- هل نظرتِ جيّداً إلى هذه المرأة؟ لم تكن لدي أسلحة لكي أقاوم. كانت أكثر شباباً وأكثر جمالاً وأكثر إشراقاً منّي. ومن ثمّ،

وخلال عدّة أعوام، وكنّا قد حاولنا من دون جدوى أن ننجب طفلاً، وبالتالي.

اختنق صوتها ولكنّها تابعت:

- ماتيو شخص رومانسي ومثالي.

حينما التقى كيت، اقتنع بأنّه قد عثر على توأم روحه. وعلى ما يبدو، هي أيضاً كانت تحبّه. وربّما كانت تحبّه أكثر منّي. في كلّ الأحوال، كانت تعرف أكثر منّي أن تُظهر له حبّها.

بدأت الآن الدموع تلمع في عينيها.

- لبعض الوقت، تمنّيت لو أنّ كلّ هذا ليس سوى هوى عابر ونزوة وقتية، ومن ثمّ حينما علمتُ بأنّ كيت حامل، أدركتُ بأنّ كلّ شيء قد انتهى إلى الأبد بين مات وبيني.

على حين غرّة، اجتاحت مجموعة الأطفال الحانة في صخب وضوضاء. نظرت سارة إلى ساعة يدها ونهضت.

- حسناً، عليّ أن أنصرف الآن. لماذا تزعمين بأنّ مات يعاني من مصاعب؟

- أنا. أنا لا أستطيع أن أخبرك بالأمر بعد. هل بقيتِ على اتصالٍ معه؟

هزّت سارة رأسها نافيةً.

- هل تمزحين؟ هذه السنوات الأخيرة كانت كابوسية وبدأتُ بالكاد أتقبّل هذا الطلاق. لم أعد أتكلّم مع مات منذ أربعة أعوام وأنوي حقيقة أن أستمرّ على هذه القطيعة معه.

15

جراح الحقيقة

الحقائق التي لدينا أقلّ رغبة في تعلّمها هي
الحقائق التي لدينا أكثر اهتمامٍ بمعرفتها.
مثلٌ صيني

بوسطن، عام 2010
الساعة الخامسة مساءً

كان الليل قد حلّ وكان الثلج يتراكم في شوارع بوسطن في طبقاتٍ سميكة وصامتة. وكانت ندائفٌ كالزغب تتساقط على الزجاج الأمامي لسيارة الأجرة قبل أن تزيحها الماسحات القوية للسيارة. وصلت سيارة الأجرة إلى شارع بويلستون ستريت وأنزلت إيما في أسفل فندق فور سيزن. ساعدها البوّاب في النزول من سيارة المرسيدس البرلينية وظلّلها بمظلّته حتى أوصلها إلى أبواب الفندق.

غارقةً في أفكارها، عبرت بهو الفندق دون أن تتوقّف. بينما كانت في طريقها نحو المصاعد، قاطعها رئيس قسم الاستقبال في الفندق، منادياً:

- سيّدة لوفنشتاين، لقد وصل شقيقكِ الأصغر منذ ساعة وقد بادرتُ إلى إنزاله في غرفة بجوار جناحكِ.

- شقيقي الأصغر؟ كيف هذا، شقيقي الأصغر؟

صعدت إلى الطابق السابع وذهبت إلى غرفته لكي تكتشف فيها . رومالد لوبلان .

مستلقياً على الأريكة، كان يقرمش رقائق البطاطا المأخوذة من البار الصغير في الغرفة وهو يشرب علبة من مياه الصودا . كان قد أوصل مكبرّات الصوت وشغّل عليها جهاز تسجيل يبثّ مقطوعةً موسيقية لعازف الغيتار جيمي هندريكس .

- هذا أنت يا فيلسوف!

نظرت إيما من حولها . كان الصبي المراهق قد جلب معه كلّ متاعه : حقيبة سفر، حقيبة ظهرية، خُرج . حتى طائرته اللاسلكية المصغّرة كانت موضوعةً على الطاولة المنخفضة في الصالون .

سألت وهي تخفض صوت الموسيقى :

- ماذا جئتَ تفعل هنا؟

ردّ عليها المراهق وفمه مليءٌ بالطعام :

- شئتُ (جئتُ) لكي أساعدكِ .

- تساعدني في ماذا؟

- أعتقدُ أنّكِ تعانين من متاعب : لم تعودي تأتين إلى العمل، وتتلقين رسائل إلكترونية غريبة، وتدخلين خلسةً إلى بيوت الناس . من الواضح أنّكِ تقومين بتحقيقٍ .

- وفي ماذا يعنيك كلّ هذا الأمر؟

- هذا يعنيني لأنّه في كلّ مرّة ينتهي بكِ الأمر إلى طلب المساعدةِ مني .

نظرت إليه إيما وهي تقطّب جبينها . لم يكن على خطأ بالمطلق، ولكنّها كانت ترفض الدخول معه في هذا المنطق .

- اسمع، يا بنيّ، هذا لطفٌ كبير منك، ولكن سوف تسعدني لو أنّك التفت إلى شؤونكَ وانصرفت من هنا، هيّا!

- لماذا؟

- أوّلاً لأنّك ما زلت قاصراً. ومن ثمّ لأنّك على الأراضي الأميركية بطريقة غير مشروعة ولا بدّ أنّ والديك في فرنسا قلقان بشأنك. وأخيراً، لأنّه بالأساس لدي ما يكفيني من المشاكل ولذلك لا أريدك أن تحمّلني عبئاً إضافياً: وهو أنت!

نهض من الأريكة وهو عاقد العزم تماماً بألا يغادر المكان.

- ولكن يمكنني أن أساعدكِ في تحقيقاتك! وإذا كنّا اثنين، سوف نسير في التحقيق على نحو أسرع وسوف نفكّر على نحوٍ أفضل. من جهةٍ أخرى، أغلبية المحققين الكبار يشكّلون ثنائيات: شارلوك هولمز والدكتور واتسون، باتمان وروبين، ستارسكي وهوتش، بريت سنكلير وداني وايلد.

ردّت إيما بعصبية:

- حسناً، لا بأس، لا تذكر لي جميعهم!

واصل رومالد ذكر الأسماء وهو يبالغ في حركات يديه:

- لويس وكلارك، هيت - غيرل وبيغ دادي، ريتشارد كاستل وكيت بيكيت.

صرخت إيما فيه بعنف:

- **هذا يكفي الآن!** قلتُ لك كلا وكلا، يعني كلا!

أخرجت حاسوبها من حقيبته، وضعته على الطاولة ورفعت شاشته.

- لقد ساعدتني، هذا صحيح وأنا أشكرك على ذلك. ولقاء مساعدتك هذه، سوف أقدّم لك بطاقة طائرة للعودة إلى باريس. كما

سأدفع لك أجرة الإقامة في الفندق لليلةٍ واحدة، ولكن في فندق هلتون في المطار وليس هنا.

أصدر المهووس همهمةً للدلالة على غضبه. مرّرت إيما، وهي تدمج الحركة بالكلام، وصلة الإنترنت لكي تتّصل بموقع شركة دلتا إيرلاينز للخطوط الجوية.

طلب منها رومالد التمهّل:

- انتظري!

قاطعت إيما محاولته:

- ماذا هناك أيضاً؟

قال وهو يشير بإصبعه إلى الحاسوب:

- هذه الصورة!

كانت عبارة عن مشهد على خلفية الشاشة مصوّرة في الحانة تجسّد كيت مع «عشيقها».

- ماذا؟ هل تعرف هذه المرأة؟

- المرأة لا أعرفها، ولكنّ الرجل الذي بصحبتها، فأنا أعرفه بالطبع!

أحسّت إيما برعشةٍ في بطنها مثل حقنةٍ مفاجئة من الأدرينالين.

- ها أنا أُصغي إليك.

- هذا الرجل هو نيك فيتش. إنّه أسطورة حقيقية وأحد رجال الأعمال الأكثر غموضاً والأكثر ثراءً في العالم.

* * *

بوسطن، عام 2011

مستلقيةً على وسادةٍ صغيرة رخوةٍ برفقة كلبها الصغير كلوفيس، كانت إيميلي تشاهد أخيراً فيلمها المفضّل: غوستباسترز.

قالت إيميلي مازحة وهي تتكوّر على الكلب شار-بيه:

- هذا الفيلم مخيف، أليس كذلك يا كلوفيس؟

جالساً على أحد المقاعد المحيطة بطاولة المطبخ، كان ماتيو غارقاً في قراءة النشرة المرفقة لمستحضرٍ كان قد اشتراه من مجمّعٍ في شارع تشارلز ستريت. كانت آبريل تنظر إليه بنظرةٍ عاتبة وذاهلة.

لم يكن هناك ما هو أسهل من إجراء اختبار إثبات الأبوّة في الولايات المتحدة الأميركية. لقاء مبلغٍ من ثلاثين دولاراً، يمكنك شراء مستحضر من دون وصفة طبية من إحدى صيدليات البلاد البالغة عددها أكثر من عشرين ألفاً، بل إنّ بعض كبار الوجهاء كانوا يتاجرون بها.

كان إجراء الاختبار في متناول أيّ شخصٍ كان: كان يكفي تجهيز عيّنتين من الخلايا المتقشّرة التي يتمّ رفعها من داخل الخدّ بفضل ما يشبه أعواد تنظيف الأذنين: تؤخَذ العيّنة الأولى من الأب فيما تؤخذ الثانية من الطفل.

أجرى ماتيو عملية أخذ العيّنة الأولى. أدخل العود القطني في فمه وخلال ما يقارب ثلاثين ثانية، حكّ باطن خدّه قبل أن يدسّ العيّنة المأخوذة في المغلّف المخصّص لهذه العملية والذي كان قد ملأ مسبقاً الاستمارة المطبوعة على ظهره. ومن ثمّ أخرج من جيب سترته علبة السكاكر التي كان قد اشتراها من البقالية.

- عزيزتي هل ترغبين في تناول سكاكر؟

صرخت الصغيرة وهي تحملق بعينيها:

- هل اشتريتها لي حقّاً؟

نهضت من على وسادتها لكي تهرع نحوه.

- شكراً، يا بابا!

- ولكن في البداية، هناك تمرينٌ صغير عليكِ القيام به.
- حقّاً؟
- هذا تمرينٌ بسيطٌ للغاية، سوف ترين الآن، افتحي فمكِ.
امتثلت الطفلة الصغيرة للأمر، برقّة ولطف، فأعاد ماتيو العملية لكي يرفع بعض الخلايا الجلدية من فمها.
- سوف أعدّ حتى الثلاثين وسوف تحصلين بعد ذلك على سكاكركِ، هل اتّفقنا؟ واحد، اثنان، ثلاثة.
رمته آبريل بنظرةٍ مليئة بالغضب والازدراء.
غمغمت:
- أنت بائس حقّاً.
- ثمانيةٌ وعشرون، تسعة وعشرون، ثلاثون. أحسنتِ، يا صغيرتي، أنتِ تستحقين سكاكركِ بجدارة.
- هل يمكنني إعطاء بعضها لكلوفيس؟
ردّ ماتيو متساهلاً وهو يدسّ العيّنة المأخوذة من إيميلي في المغلّف الثاني:
- قطعةٌ صغيرة منها فقط لكي يتذوّق طعمها.
ثمّ وضع العيّنتين معاً في مغلّفٍ ثالث مختوم وضمّنه حسابه (159 دولاراً أجور المختبر علاوة على 99 دولاراً كمبلغٍ إضافي لكي يتمّ التحليل في اليوم نفسه). ومن ثمّ أتمّ الإجراءات بتدوين اسم المختبر:

إنفينيت جين
425 شارع أوركيد
ويست كامبردج إم إي 02138

حينما اشترى أداة الاختبار، اختار طواعيةً مختبراً في ماساتشوستس لكي يتمكّن من إجراء التحليل بأسرع ما يمكن ولكي يتمّ إبلاغه بالنتائج في مساء اليوم نفسه، قبل منتصف الليل، وذلك عبر بريده الإلكتروني. ومع ذلك كان هناك مشكلة الوقت: كان ينبغي أن يتلقّى المختبر العيّنتين قبل الساعة الثانية ظهراً.

نظر إلى الساعة الجدارية.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهراً.

كان بالتأكيد الوقت قد تأخّر ومن غير الممكن أن تصل العينتان إلى المخبر عبر إحدى شركتي الشحن **يو بي إس** أو **فيد إكس**، ولكن كان لا يزال بوسعه أن يوصل بنفسه المغلّف إلى المختبر باستخدام السيارة. حتى بوجود ازدحام في حركة السير، سوف يصل إلى المختبر في أقل من نصف ساعة.

– هل يمكنكِ أن تعيرني سيارتك الكامارو، يا آبريل؟

ردّت آبريل بحنق وازدراء:

– هل يمكنك أن تذهب إلى الجحيم، يا ماتيو؟

في الطرف الآخر من الغرفة، تصرّفت إيميلي بسرعة:

– لا ينبغي التلفّظ بألفاظ نابية، يا آبريل!

أنّبتها الطفلة الصغيرة بلهجة ودّية وهي تسدّ أذني الكلب شار-بيه.

ارتدى ماتيو معطفه وأخذ صندوقه الصغير الذي كان يحتوي على حاسوبه المحمول ومغلّف العيّنات.

قال وهو يضع المغلّف الكبير تحت إبطه:

– لا بأس، سوف أستأجر سيارة أجرة في شارع بيكون ستريت.

* * *

حينما بقيت لوحدها، تلقّت آبريل الصدمة. كان عليها من كلّ بد أن تمنع صديقها من ارتكاب حماقةٍ.

اقتربت من الوسادة المنجّدة التي كانت إيميلي تفترشها بصحبة كلبها الصغير كلوفيس.

- أنا مضطرّة لأن أترككِ لوحدكِ لبضع دقائق، يا قلبي، ولذلك سوف تعديني بألا ترتكبي حماقات أثناء غيابي، اتّفقنا؟

شعرت الفتاة الصغيرة بشيءٍ من القلق، فزمّت شفتيها.

- لن أعبث بأعواد الثقاب، أهذا ما تقصدين؟

- ابقِ هادئة وعاقلة أمام فيلم **غوستباسترز** وانتظري وصول شخصية بيبندوم شامالو. إنّه مقطعكِ المفضّل في الفيلم، أليس كذلك؟

وافقت على ذلك بصمت.

ومن ثمّ رفعت آبريل سبابتها في وجه شار-بيه مهدّدةً:

- وأنت، يا فرس النهر، لك مصلحة في أن ترفع من درجة الحراسة!

ارتدت معطفها الواقي من المطر والتقطت مفاتيح سيارتها وخرجت من البيت إلى ساحة لويسبورغ سكوير. كانت سيارة الكامارو مركونة في الجانب الآخر من الحديقة. أدارت مفتاح تشغيل السيارة وانطلقت مباشرةً لكي تصل إلى شارع تشارلز ستريت وتجاوزت باستخفاف الإشارة المرورية عند التقاطع الذي أتاح لها الوصول إلى شارع بيكون ستريت. إذا كان ماتيو قد استأجر سيارة من هذه الجادة، فلا بدّ أنّه لا يزال في هذه الأنحاء. تعرّجت آبريل بين المركبات، وهي تتفحّص الركاب الجالسين في المقعد الخلفي لسيارات الأجرة كلّما صادفت واحدةً منها.

سريعاً وبعد ما يقارب خمسمائة متر، لمحت ماتيو في سيارة «CleanAir Cab» كلين آير كاب وهي إحدى سيارات الأجرة الهجينة التي تزايد وجودها في المدينة منذ سنتين أو ثلاث سنوات. وبزيادة السرعة، وصلت إلى مستوى السيارة وأشارت إلى صديقها لكي تحثّه على أن ينزل من سيارة الأجرة. ولكن ماتيو لم يكن مستعداً للامتثال إلى طلبها. على العكس من ذلك، انحنى على السائق لكي يطلب منه أن يزيد من السرعة.

تنهّدت آبريل وخفضت من سرعة السيارة لكي تسير في أعقاب سيارة التويوتا. تركت سيارة الأجرة تسير على الهيكل الحديد لجسر هارفارد بريدج، ثمّ زادت من سرعتها. على مدى بضعة أمتار، سارت السيارتان جنباً إلى جنب على نحوٍ خطرٍ إلى درجة أنّهما احتكتا ببعضهما. ومن ثمّ استبدّ الخوف بسائق سيارة الأجرة فقرّر أن يصطفّ على الجانب الأيمن من الطريق ويتوقّف.

أمر السائق ماتيو:

- انزل من سيارتي! سوف تجلب لي متاعب.

بدورها، ركنت آبريل سيارتها خلف سيارة الأجرة.

حاول ماتيو أن يُقنع سائق السيارة باستئناف سيره، ولكنّه لم يشأ أن يعرف أيّ شيء وأقلع بسرعة لكي يعود إلى مركز المدينة.

أشعلت آبريل أضواء الإنذار في سيارتها وصفقت باب الكامارو وأطلقت جوقةً من صفّارات الإنذار المدوّية. كان من الخطر وأيضاً من الممنوع بشكلٍ صارم التوقّف في إحدى الطرق الأربعة للجسر.

صرخت آبريل وهي تلحق به على السلّم المخصّص للمشاة والمهرولين:

- هيّا، يا مات، لنعد إلى البيت.

- هذا ليس وارداً البتّة! تبّاً لكِ، لماذا تحشرين نفسكِ في هذا الأمر؟

سألت آبريل وهي ترفع صوتها لكي تغطّي على صخب حركة المرور:

- فيما سينفعك إجراء اختبار الأبوّة هذا؟ هل سوف تحبّ إيميلي على نحوٍ أقلّ فيما لو ثبُت بأنّها ليست ابنتكَ البيولوجية؟

- بالتأكيد لا، ولكنني لا أريد أن أعيش في كذبة.

نصحته وهي تضع يدها على ذراعه:

- فكّر جيّداً، يا مات.

- لقد فكّرتُ جيّداً. لدي الحقّ في معرفة الحقيقة. أريد أن أفهم ما جرى مع كيت. أُريدُ أن أعرف **لماذا** خانتني ومع **مَنْ**.

- كيت ماتت، يا مات. وقد آن الأوان لكي تتقبّل ذلك. لقد أمضيتَ معها سنوات سعيدة ومهما كان ما حدث في الماضي، أنتَ من اخترت لكي تكون والد هذه الطفلة.

أصغى ماتيو إلى حجّة آبريل ولكنّ محنته كانت كبيرة.

- أنتِ لا تفهمين الأمر. لقد خانتني كيت. كنتُ قد وضعتُ كلّ ثقتي فيها. لقد تركتُ زوجتي من أجلها، لقد.

اعترضت كلامه:

- أنت لم تعد تحبّ سارة منذ زمنٍ طويل.

- هذا لا يهمّ. خلال أربعة أعوام، تركتُ غريبةً تدخل حياتي، اعتقدتُ أنني أعرفها. يجب أن أعرف أنّها فعلاً كانت هي. يجب أن أتحقّق منها.

أمسكت آبريل برقبة ماتيو وهزّته بعنف.

- ولكنّها ماتت، تبّاً لك! استيقظ! ما الجدوى من إهدار الوقت في نبش ماضي الناس؟

ردّ وهو يتحرّر من بين براثنها:

- لكي نعرفهم على حقيقتهم.

سألته وهي تغيّر بطريقة غير متوقّعة زاوية النقاش:

- وأنا، هل تعرفني على حقيقتي؟

عبس وهو يقول:

- نعم، أعتقد ذلك. في نهاية المطاف، أنتِ صديقتي الوفيّة

و.

- ماذا تعرف عنّي **حقيقةً**، يا مات؟

- حسناً، لقد ولدتِ بالقرب من سان دييغو. وكان والداكِ يديران حانوتاً للتحف. ودرستِ الفن في جامعة UCLA[1]، أنتِ.

- هذه المعلومات هي ما أخبرتكَ أنا بها، ولكنّها ليست الحقيقة. ربّما تكون أمّي قد نامت مع نصف رجال ولاية نيفادا ولم يكن بوسعها قط أن تخبرني مَنْ هو والدي. لم تكن صاحبة متجرٍ للتحف: كانت سكيرة لم تفعل أبداً شيئاً في حياتها سوى ابتزاز الأموال من الناس وصرفها على السكر والعربدة. الفنّ؟ لم أدرسه في الجامعة وإنّما في مدينة تشاوتشيلا، في أكبر سجنٍ للنساء في كاليفورنيا. أجل، يا مات، ها أنت ترى، لقد دخلتُ السجن.

تشوّش ذهن ماتيو وأصبح يحدّق في عيني شريكته في الإيجار.

---

(1) جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس.

حتى إنّه اعتقد، خلال بضع ثوانٍ، أنّها كانت تمزح، ولكن الحال لم يكن كذلك، وكانت تقول الحقيقة.

تابعت آبريل حديثها:

- سوف لن أرسم لك لوحةً على طريقة ديكنز، ولكن فترة مراهقتي وشبابي كانت معقّدة: عشرة السوء، هروبٌ مبكّر من البيت، وتعاطي المخدرات. الكثير من المخدرات. في مرحلة من المراحل، كنتُ مستعدة لأن أفعل أيّ شيء لكي أحصل عليها. فعلاً كنتُ مستعدة لأن أفعل أيّ شيء.

فجأةً، سالت دمعةٌ على خدّ المرأة الشابّة. طفت في ذهنها صورٌ أليمة ومهينة على السطح وكأنّها نفرت بفعل ضغطٍ قوي ولكنّها أبعدتها عن ذهنها.

- لا شكّ أن نزولي إلى الجحيم قادني إلى السجن. حينما كنتُ في سنّ الثانية والعشرين، ألقى رجال الشرطة القبض عليّ بسبب عملية سطو مصحوبة باستخدام العنف. وحُكِم عليّ بهذه التهمة بثلاث سنوات من السجن أمضيتها في سجن تشاوتشيلا هذه هي حقيقتي.

توقّفت عن الكلام كما لو أنّها تريد التقاط أنفاسها، ورفعت خصلةً من شعرها كانت الرياح قد نثرتها أمام عينيها.

استأنفت حديثها في النهاية وقالت:

- ولكنني لستُ إلا هذه. لكنني أيضاً تلك المرأة التي كافحت لكي تحظى بفرصة ثانية، والتي أعادت ترميم حياتها في الطرف الآخر من البلاد، والتي لم تعُد تلمس الكوكايين منذ عشرة أعوام والتي أدارت بنجاح معرضها الفني.

أكّد لها ماتيو:

- كان يمكنكِ أن تثقي بي. لماذا لم تخبريني بهذا الأمر منذ البداية؟

- لأنّه يجب التقدّم إلى الأمام. لأنّ الماضي هو الماضي. لأنّه يجب ترك الموتى مع الموتى.

أخفض ماتيو رأسه. انتهت آبريل إلى إقناعه.

- أوقف الموضوع عند هذا الحدّ. لا تجازف بتعريض كلّ شيء للتساؤل وبتكبّدك لمزيدٍ من العذاب والمعاناة. غالباً ما تكون المظاهر خادعة وسوف لن تتمكّن كيت أبداً من أن تمنحك روايتها للحقائق والوقائع. اترك لها فائدة الشكّ. بإجرائك لاختبار الأبوّة هذا، وبنبشك في حياة كيت، سوف لم توقِع سوى ضحيّتين: أنت وابنتك الصغيرة. اقلب هذه الصفحة، يا مات، أتوسّل إليك.

وقف ماتيو ذاهلاً وملأت الدموع عينيه، ومن ثمّ سلّم صندوقه إلى آبريل. أخرجت آبريل من الصندوق الحاسوب المحمول والمغلّف المخصّص للمختبر. من أعلى سلّم الجسر، ألقت بهم بكلّ قوة إلى النهر. ومن ثمّ ساعدت ماتيو، المنهار، في الجلوس في مقعد سيارة الكامارو قبل أن تعيده إلى منزله.

* * *

انتقل المغلّف المختوم بقوّة تيار نهر تشارلز ريفر وسرعان ما غرق في مياه المحيط الأطلسي.

أمّا الحاسوب المحمول، فقد غرق في قاع المياه الباردة حيث لن يتمكّن أحدٌ من استرداده أبداً، مانعاً بذلك وإلى الأبد أيّ اتصالٍ جديد بين ماتيو وإيما.

* * *

سوى أنّ الأمور لم تكن على هذه الدرجة من البساطة.

القسم الرابع

امرأة من اللامكان

16

الأمير الأسود

احفظوا السرّ، سوف يحفظكم.

مزامير سليمان، 8

بوسطن، عام 2010

الساعة السادسة والنصف مساءً

كان المطعم الياباني، الراقي والمنير، يشغل فسحةً جميلة من الطابق الأرضي في الفندق. شقّت إيما بصحبة رومالد ممرّاً إلى أن وصلا إلى الحانة المتخصّصة بتقديم وجبات سوشي وجلسا جنباً إلى جنب على مقعدين.

أخرج رومالد لوحته اللمسية من حقيبته الظهرية وقدّمها لإيما لكي تتمكّن من الاطّلاع على الوثائق التي كان قد حمّلها.

بدأ المراهق يشرح:

- نيك فيتش هو شخص يقع بين ستيف جوبز ومارك زوكيربيرغ. حتى وإن لم يكن معروفاً جدّاً من عامّة الناس، إلا أنّه أسطورة حقيقية في عالم المعلوماتية.

في الوقت نفسه الذي كانت تصغي فيه إلى الفتى الفرنسي، بدأت إيما في استعراض السيرة الذاتية لنيك.

نيكولاس باتريك الملقّب باسم نيك فيتش، المولود في 9 مارس من عام 1968 في سان فرانسيسكو، هو متخصّص في المعلوماتية وصاحب مؤسسة أميركي، وهو مؤسّس مؤسسة فيتش إينك «Fitch Inc» والمدير التنفيذي لها

القُرصان

في سنّ السابعة عشرة، ومن جرّاء مراهنة مع صديقه، دخل بمساعدة حاسوبٍ في جامعته إلى خوادم وكالة ناسا، المعروفة بأنّها الأكثر حمايةً في العالم. جال خلال دقائق طويلة على شبكة الوكالة الحكومية دون أن يسرق منها أي ملف. في الأيام التي تلت هذه الحادثة، استجوبته الشركة في حرم جامعة بيركلي. وقد حُكِم عليه بعد ذلك بعدّة أشهر بالدخول غير المشروع إلى نظامٍ معلوماتي. وبسبب صغر سنّه وعدم سرقته لأيّ ملف، استفاد من رأفة المحكمة التي حكمته بشهرين من التوقيف في مركزٍ إصلاحي مع إخضاعه للاختبار.

أبدت إيما ملاحظة:

- لشباب هذا الرجل بعض الشبه مع شبابك.

صرخ رومالد وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

- ما كان بوسعكِ أن تجامليني بأجمل من هذه المجاملة ولا بمديحٍ أجمل من هذا المديح!

افتتن رومالد بهذا المديح، فالتقط قطعةً من طبق السوشي ودسّها في فمه.

كان المطعم يعمل حسب مبدأ كايتن: كانت الأطباق تسير على نقّالة تتعرّج عبر كلّ الصالة، داعية الزبائن إلى خدمة ذاتية وسكب

الطعام لأنفسهم مباشرةً. تحت الأغطية الزجاجية الشفّافة، كانت الأطباق الخاصّة بالمطعم معروضة في صحونٍ صغيرة مختلفة الألوان حسب سعرها.

طلبت إيما كوباً من الشاي وتابعت قراءة البطاقة التعريفية الخاصّة بعشيق كيت.

مخترع ألعاب الفيديو

في أوائل أعوام التسعينيات من القرن العشرين، اشتهر نيك فيتش من خلال اختراعه بروميزد لاند «أرض الميعاد»، وهي لعبة استراتيجية في زمنٍ حقيقي تقع في عالمٍ بطوليّ – خيالي. يجسّد فيها اللاعب دور فارسٍ، الأمير الأسود، المدافع عن مملكة تروا تير، وهو يقاتل من أجل ردّ غزوات المخلوقات المحبّة للحرب ومؤامرات أعداء المملكة. وقد بيعت إجازة اللعبة لقاء مبلغٍ قياسي للناشر ديجيتال سوفت. وقد صدرت منها عدّة طبعات حتى عام 2001.

اختراع نظام التشغيل

بينما كان لا يزال طالباً، طوّر نيك فيتش نظاماً مبتكراً للتشغيل دعاه يونيكورن، والذي قرّر أن ينشر رمزه على الإنترنت، وبالتالي جعله في الواقع حرّاً ومفتوحاً ومجانياً. فبدأت جماعاتٌ من المطوّرين باستخدامه ونسخه وتحسينه. شيئاً فشيئاً، اكتسب البرنامج سمعة استقرارٍ وموثوقية، ولكنّ شعبيته ظلّت محدودة في عالم المعلوماتية الصغير.

تأسيس شركة فيتش إينك.

ولتطوير نظام يونيكورن، أسّس نيك فيتش بنيانه الخاصّ، فيتش إينك، وهي شركة تكفّلت بجعل استخدام نظام التشغيل

أكثر سهولةً وقابليةً للّعب للمستخدمين الجدد. أصبحت شركة فيتش إينك الموزّع الحصري لبرنامج يونيكورن، محوّلة العديد من الخدمات المرتبطة بالبرنامج إلى سلع تجارية، مثل المساعدة التقنية والمشورة وتدريب الموظفين. فأخذ بعض «مستخدمي يونيكورن» الأوائل على فيتش رغبته في تحويل نظامه للتشغيل إلى سلعة بسيطة ونمطية. من جهة أخرى، جنى هذا المنطق الأكثر تجارية ثماره حيث غدا برنامج يونيكورن شيئاً فشيئاً برنامجاً قادراً على منافسة برنامج ويندوز، المنتج الشهير لشركة مايكروسوفت. وإذا بقي استخدامه محدوداً في الحواسيب الشخصية، إلا أنه حاز على حصّة الأسد في الاستخدام على خوادم المؤسسات وأنظمة الملاحة (GPS) وخاصّة في الهواتف الذكيّة.

قال رومالد بإعجاب:

- هذه المرأة قنبلة!

رفعت إيما رأسها لتجد أنّ المراهق قد استولى على حاسوبها المحمول.

- خذ حريّتك، تماماً. انبش في أغراضي!

سأل وهو يدير الشاشة باتجاهه:

- إذن، هذه هي، كيت شابيرو؟ زوجة الرجل الذي يرسل إليكِ رسائل من المستقبَل؟

- نعم، هذه هي.

قال وهو لا يبارح بنظره صورة كيت:

- نحسبها. ملاكاً.

الصورة الأكثر إثارة. الصورة التي تُشاهَد فيها عارية النهدين، متصالبة اليدين على صدرها.

ألقت عليه إيما نظرة سيئة:

- أنتم الرجال. أيّاً كان سنّكم، جميعكم تتشابهون، هذا أمرٌ محزن.

ظلّ رومالد فاغر الفاه، جامداً أمام الجمال الطاغي لكيت. قالت إيما بعصبية:

- كفاك إسالة للعاب أمام هذه الفتاة، أنت مضحك.

ثمّ استعرضت أمامه الصورة الأخرى وقالت:

- علاوة على ذلك، فقد خضعت لعمليات تجميل! انظر!

وافقها رومالد الرأي:

- هذا صحيح، ولكنّها لم تكن أقلّ جمالاً قبل إجراء عمليات التجميل هذه. إنّها على علاقة مع نيك فيتش، أليس كذلك؟

جحظت عينيها:

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟

- بسبب وشم القارن على ذراعها الأيسر. كان هذا الحيوان الأسطوري دائماً رمز فيتش. في البداية كان رمزاً للعبة الفيديو التي اخترعها في سنّ الثامنة عشرة، ومن ثمّ في مرحلة لاحقة لاسم نظامه للتشغيل. كما أنّه اليوم شعار شركته.

غمغمت إيما:

- يونيكورن.

اسم القارن باللغة الإنكليزية... هذا الفاجر الصغير محقٌّ فيما يقول...

فكّرت إيما بالاسم وهي تواصل قراءتها.

نجاح نظام يونيكورن في المؤسسات والإدارات والوكالات الحكومية.

تمّ استخدام نظام يونيكورن على نطاقٍ واسعٍ على خوادم المؤسسات وكذلك تمّ تجهيز الجيش الأميركي بهذا النظام. خلال وقتٍ قصيرٍ جدّاً، أصبحت شركة فيتش إينك شريكاً مفضّلاً لا يمكن الاستغناء عن خدماته لوزارة الدفاع. منذ عام 2008، استقبلت المئات من الهواتف الذكية والحواسيب الشخصية للجنود الأميركيين نسخةً معدّلة من نظام يونيكورن. ففي الواقع، اعتبرت البنتاغون أنّ نظام التشغيل هو الأكثر أماناً لكي تسمح لموظفيها بإرسال وثائق حسّاسة وسريّة من خلال جهازٍ متّصل بشبكة الإنترنت.

كما تمّ تزويد الطائرات من دون طيار القتالية في سلاح الجوّ الأميركي وكذلك نظام إدارة المدمّرات وقاذفات الصواريخ في سلاح البحرية الأميركية بهذا النظام للتشغيل نفسه.

حياته الخاصّة

كان نيك فيتش، الذي لُقِّبَ بالأمير الأسود، بسبب لعبة الفيديو التي اخترعها وبسبب زيّه الثابت الذي لا يتغيّر (بنطلون جينز أسود اللون، بلوزة ذات ياقة ملفوفة داكنة اللون، وسترة جلدية)، كانت شخصية ملغزة وعدوّة للتقاليد. كان صاحب المؤسسة رجلاً سرياً لم يعطِ قط مقابلة للصحافة منذ عام 1999 والذي صان باستمرار حياته الشخصية وحافظ عليها. «له اسمٌ معروف ولكن وجهه غير معروف، هذه العبارة تنطبق عليّ تماماً»، شرح لمجلة وايرد خلال آخر مقابلة له. مولعاً بموسيقى الجاز والموسيقى المعاصرة، عُرِف بامتلاكه لمجموعة كبيرة من الأعمال السوريالية التي جمعها في

معرضٍ دائم في UC Berkeley Art Museum، متحف الفنّ بجامعة كاليفورنيا بيركلي.
حسب مجلة فوربس، تُقدّر ثروته اليوم بأكثر من 17,5 مليار دولار.

رفعت إيما رأسها من اللوحة اللمسية وفركت جفنيها. في ماذا تورّطت؟ عبقري في عالم المعلوماتية أصبح ملياردير اً، إمبراطورية مبنية على التقنيات الحديثة، الجيش الأميركي. كان «تحقيقها» حول كيت يجرّها إلى منعرجات لم تكن قد شكّت فيها.

فجأةً شعرت بالإحباط، فتساءَلت في نفسها: **هل لكلّ هذا من معنى؟ ما هي شرعيتي لكي أجري تحقيقاً حول هذه المرأة؟ ماذا أفعل هنا، عشية سهرة عيد الميلاد، محبوسةً في فندقٍ مع مراهقٍ لحيمٍ بائسٍ وتائهٍ مثلي؟ هذا أمرٌ مثيرٌ للشفقة...**

خلف طاولة التحضير، راقبت للحظة الحركة الدقيقة لمعدّ السوشي الذي كان يمدّ الأرزّ على ورقة اللّف قبل أن يزيّنها بأصابع شرائح السمك وثمرة الأفوكادو والخيار لكي يلفّها بشكلٍ أسطواني ويقطّعها في قطع متساوية. ثمّ وقع نظرها على رومالد. كان المهووس بالمعلوماتية، الجامد أمام شاشة حاسوبه، لا يرفع رأسه إلا لكي يلتقط الصحون الصغيرة التي كانت تمرّ من أمامه: مأكولات يابانية مثل كاراباتشيو دي سان جاك، سوشي ساخن، تيماكي بلحم السقّور، معجنات كينغ كراب.

- أنت تعلم بأنّك لستَ مضطراً لتذوّق كلّ المأكولات الموجودة على قائمة الطعام في المطعم.

مستغرقاً في بحثه، احتاج إلى بضع ثوانٍ لكي يتصرّف.

قال وهو يدير شاشة الحاسوب نحو إيما:

- انظري إلى هذا. إنّه أمرٌ محيّر جدّاً.

كان قد فتح على الشاشة عدداً كبيراً من النوافذ: صورٌ لوجه كيت قبل وبعد إجراء عمليتها الجراحية التجميلية. كان رومالد قد شرَّح الصور وأشار إليها بالعديد من الخطوط والمقاييس المختلفة.

- ما هو الأمر المحيّر؟

- ليس من المحيّر فحسب، بل والغريب أيضاً أن تجري امرأة عملية تجميلية حينما تكون على هذا القدر من الجمال الخارق والشباب، أليس كذلك؟

- نعم، وأنا أيضاً فكّرتُ في هذا الأمر، خاصّة وأن التعديلات طفيفة جدّاً.

- نعم ولا في الواقع، بعد العملية التجميلية، يراعي وجه كيت كلّ قوانين الجمال.

- هل تتحدّث عن الأبعاد والنسب؟

- نعم. لقد كانت هناك دراسات رياضية حول «الجمال الكامل». لقد سعت العلوم إلى معرفة السبب في أنّ بعض الوجوه تُلهم انجذاباً فورياً نحوها. وقد توصّلت إلى البرهان على أنّ الجمال الكامل يتبع حساباً خوارزمياً رياضياً.

- حسابٌ خوارزمي؟

- مجموع القواعد التي تتعلّق بتناسق الوجه وبمراعاة بعض النسب والأبعاد.

- وأنت، كيف تعرف هذه الأمور؟

- أنا درستُ السنة النهائية من الفرع العلمي. وقد جعلنا أحد الأساتذة ندرس مقالةً من مجلة **العلوم والحياة** حول هذا الموضوع

وما زلتُ أحتفظ بتلك المعلومات. ولكن هذه النظريات ليست جديدة: إنّها تستعيد وصايا معروفة منذ عصر ليوناردو دافنشي.

- عدا عن تناسق الوجه، ما هي القواعد الأخرى؟

- إذا لم تخني الذاكرة، في وجهٍ كامل، يجب أن تكون المسافة بين حدقتي العين أدنى بقليل من نصف العرض الكلّي للوجه. والبعد بين العينين والفم يكون أكثر بقليل من ثلث المسافة الفاصلة بين أرومة الشعر والذقن.

- وهل هذا هو الحاصل هنا؟

- نعم. وجه كيت يصل إلى نوعٍ من «النسبة المثلى للكمال». وهذا ما يفسّر جاذبيتها. كانت كيت «شبه كاملة» وقد غدت «كاملةً تماماً».

تلقّت إيما المعلومة.

دائماً هناك الكثير من الأسئلة، دائماً هناك القليل من الأجوبة...

سأل المراهق وهو يخطف عن الصينية طبقاً من المانغا:

- برأيكِ، لماذا أجرت هذه العملية التجميلية؟

- لا أعلم أي شيءٍ عن ذلك: لكي تثير إعجاب رجل، لكي تمتلك المزيد من الثقة بنفسها.

ازدرد قطع الفاكهة بسرعةٍ كبيرة إلى درجة كاد أن يختنق. استشاطت إيما غضباً:

- ولكن ممّا تخاف، تبّاً لك؟ تخاف من أن يأتي أحدهم ويلتهم طعامك؟ تصرّف على نحوٍ جيّد، لم تعد في السادسة من عمرك!

اغتاظ رومالد، فهزّ كتفيه. قال وهو ينزل عن مقعده:

- سوف أذهب إلى المغاسل.

- حسناً، اصرخ بذلك بصوتٍ أعلى لكي يعلم كلّ من في المطعم بالأمر. ألا تريد أن تنشر رسالة على الفيسبوك لكي تخبر أصدقائك بالأمر أيضاً؟

أجاب وهو يخفض رأسه ويبتعد عن المكان:

- ليس لدي أصدقاء.

- سوف تجعلني أبكي، يا كاليميرو. الحق بي في حانة الفندق. أحتاج إلى كوبين أو ثلاثة من الكوكتيل لكي أمنح نفسي القوّة على تحمّلك.

وقّعت على فاتورة الحساب ومن ثمّ نهضت بدورها عن مقعدها ووضعت الحاسوب في حقيبته والتقطت المعطف الرياضي للفتى.

* * *

كان لحانة فندق فور سيزن هيئة نادٍ إنكليزي قديم: مدفأة كبيرة، لوحات إعلانية خشبية مصنوعة من خشب سيكويا أحمر اللون، أرائك ملبّسة بالمخمل، مكتبة كتب، طاولة بلياردو وضوء شاحب. وكما تتطلّب طقوس عيد الميلاد، كانت زبدية ضخمة من شراب إيغنوغ[1] موضوعة بالقرب من طاولة تحضير الطلبات. تهاوت إيما في أريكة من طراز تشيسترفيلد وطلبت كوباً من كوكتيل كيبيروسكا.

على الرغم من أنّ حضور رومالد كان عرضياً، إلا أنّها لم تكن ممتعضة من هذا الحضور غير المتوقّع. كان المهووس بالمعلوماتية كائناً لا أرضياً، حيوياً، ومليئاً بالأفكار. ويمكنه أن يكون عوناً قيّماً لها فيما لو استطاعت أن تستثمر ذكاءه.

---

(1) مشروبٌ قريب من «شراب البيض» يتم اعداده من الحليب والسكّر والبيض والقشدة والروم.

وإذ رأت بأنّه عازمٌ على الانخراط في تحقيقها، نحت أنانيتها جانباً وروت له كلّ التفاصيل، منذ أن خفق قلبها لماتيو عبر تبادلهما الرسائل الإلكترونية وحتى لحظة نبشها وتنقيبها في منزل آل شابيرو هذا الصباح، مروراً بحادثة الملهى وتأكيد خيانات كيت الزوجية. لم تخفِ عنه أي شيء، ولا حتى حادثة «انتحارها»، ولا اكتشاف الحقيبة الرياضية المخفية في السقف المستعار والتي كانت تحتوي على الأقلّ نصف مليون دولار.

استغلّت غياب المراهق لكي تنبش في جيوب معطفه الرياضي. وسط ألواح الشوكولا، عثرت على الكثير من الأشياء المهمّة. أوّلاً، بطاقة قطار ذهاب وإياب من نيويورك إلى سكارسدال، وهي إحدى الضواحي الفاخرة في مانهاتن. كانت التذكرة قد قُطِعت قبل يومٍ واحد. الذهاب في الساعة العاشرة وأربع دقائق صباحاً، والعودة في الساعة الواحدة وأربع عشرة دقيقة ظهراً، أي أن العودة تكاد تكون فورية وعلى عجل. كما عثرت على ورقة لاصقة على اسم وعنوان ميشيل بيركوفيتش، المديرة العامّة لمطعم إمبراتور. كانت قد عاشت لفترة في سكارسدال مع زوجها، أحد ممولي وول ستريت، وطفليها. كانت بيركوفيتش إدارية متجبِّرة وقليلة الحميمية، والتي عُيِّنَت في مطعم إمبراتور بعد رحيل جوناثان لامبيرور. إذاً، ما الذي ذهب رومالد ليفعله ذات يوم أحدٍ عند بيركوفيتش؟

الأمر الآخر الذي كان مثيراً للدهشة هو وجود تذكرة طائرة للعودة إلى باريس عبر مطار شارل ديغول. وكانت الرحلة تحمل تاريخ. اليوم.

أغمضت إيما عينيها لكي تمعن في التفكير. وهذا ما كان يفسّر انتقال المراهق إلى مدينة بوسطن بهذه السرعة مع كامل أغراضه.

كانت أمتعته مطبّقة مسبقاً لأنّه كان يستعدّ للعودة إلى فرنسا، ولكن لا بدّ أنّه قد ألغى رحلته حينما اتّصلت به لكي يبطل مفعول نظام الإنذار في منزل آل شابيرو. لم تعرف كيف تفسّر هذه الحركة وأسرعت في إعادة كلّ الوثائق إلى جيوب المعطف. جلبوا لها كوب الكوكتيل خاصّتها والذي شربته في دفعة واحدة. أحرق مزيج الفودكا والليمون مريئها على نحوٍ لذيذ. كانت على وشك أن تطلب كوباً آخر من الكوكتيل حينما لمحت رومالد وهو يعبر باب الحانة.

أشارت له بيدها، ولكنه لم يلمحها حتى. كان منهمكاً داخل فقاعته وعيونه منخفضة نحو هاتفه المحمول وهو ينقر على لوحة الأرقام.

يا له من جيل... على الدوام خلف شاشة، شاشة الهاتف أو اللوحة اللمسية، التي لا تفارقه كما لو أنّها جزء أو امتداد لجسده... ولكن هل أختلف عنه كثيراً؟

اصطدم رومالد بنادلٍ وغمغم بكلمات اعتذارٍ مبهمة ولمح في النهاية إيما.

سألها وهو يجلس قبالتها:

- هل يمكنني أن أتذوّق كوكتيلكِ؟

- كلا، أنت طفل والأطفال لا يشربون الكحول. اشرب كوباً من عصير الليمون أو من الحليب الساخن.

- أنا طفل؟ بفففف. أنا متأكّدٌ من أنّ الجميع يعتبروننا أنا وأنتِ زوجين.

- هذا صحيح، في أحلامك.

عاد رومالد إلى جدّيته.

قال بنبرة رسمية:

- حسناً، لقد فكّرتُ في الأمر. ما ينقصنا هو مصدرٌ موثوق حول فترة الشباب من عمر كيت. هناك يوجد مفتاح اللغز: لا يمكننا معرفة الناس إلا من خلال معرفة ماضيهم.

تنهّدت إيما:

- يخال لي أنني أسمع طبيبي النفسي. ولكن هيّا، تابع، أريد فعلاً أن أتابعك على هذا الدرب.

عرض رومالد الصورة المثيرة بالأبيض والأسود التي كان قد حوّلها إلى ذاكرة هاتفه الذكي، الصورة التي كانت كيت تحمل فيها وشم القارن، وأكّد قائلاً:

- أنا أراهن أنّ حبّها الساذج مع نيك فيتش لا يعود إلى اليوم، بل أنا متأكّد من أنّه هو بنفسه من التقط لها هذه الصورة.

وافقته إيما الرأي:

- هذا ممكن.

- سيكون علينا أن نعثر على الزميلة السابقة لكيت لكي نسألها عن هذا الموضوع.

- أيّ زميلة سابقة؟

- تذكّري: من بين الأسئلة الثلاثة لإبطال مفعول الإنذار، كان هناك سؤالٌ يتعلّق باسم صديقتها الوفية حينما كانت طالبة في الجامعة.

قالت إيما وهي تشمّر كمّ قميصها لكي تعيد قراءة الأجوبة التي كانت قد كتبتها على ساعدها:

- بالضبط.

- مفكّرتك ظريفة، كانت لدي المفكّرة نفسها حينما كنتُ في الثامنة من عمري.

زمجرت إيما:

- أغلق فمك، يا فَهيم. الفتاة تُدعى ويلكينسون. ولكن الأمر سيستغرق منّا ساعات طويلة حتى نعثر عليها. علاوة على ذلك، بالتأكيد ستكون هذه المرأة قد تزوّجت الآن و.

قاطعها رومالد قائلاً:

- هذا سيستغرق منّا ثلاث دقائق فقط.

اتّصل بالموقع الإلكتروني لجامعة بيركلي، ولكنّ الوصول إلى المعلومات الخاصّة بالطلبة القدامى كان محمياً.

- ألا يمكنك اختراقها؟

- ليس بمجرّد نقرة من الأصابع، ولكنني سأحاول بالطريقة الكلاسيكية.

أدخل المراهق بكل بساطة «ويلكينسون + MD[1]» في محرّكٍ للبحث والذي أعطى تقريباً في اللحظة نفسها المعلومة المطلوبة.

- هناك جويس ويلكينسون، أستاذة لعلوم الأعصاب، حائزة على شهادة الدكتوراه ممنوحة من قبل جامعة ستانفورد. درست في كلية الطب في جامعة بيركلي من عام 1993 حتى عام 1998.

- هذه هي، هذا مؤكّد.

تابع وهو يستعرض المعلومات المنشورة في الصفحة:

- إنّها مختصّة في مرض الزهايمر.

التفصيل الأخير المتعلّق بها: تعمل في معهد الدماغ والذاكرة (Brain and Memory Institute)، وهي منظمة مرتبطة بمعهد

---

(1) Doctor of Medicine: دكتور في الطبّ.

ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) المتخصّص في أبحاث الأمراض الدماغية.

عضت إيما على شفتها من الانفعال. سيكون الأمر رائعاً إذا ما كان صحيحاً: كانت مقرّات معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا تقع في كامبردج، على بعد بضع عشرات الكيلومترات فقط من مدينة بوسطن.

- كانت جويس في الكلية مع كيت، وكانت أقرب صديقاتها، وربّما كانت جارتها في الغرفة. يجب أن تذهبي لكي تسأليها.

- أرغب في ذلك كثيراً، ولكن لماذا سوف تُجيب عن أسئلتي؟ ليست لدي الوسائل لكي أرغمها على أن تُجيب عن أسئلتي.

- يجب إخافتها. الناس تتحدّث إلى الشرطة.

- في حال لم تكن قد لاحظت ذلك، أودّ أن أخبرك بأنّني ساقية نبيذٍ ولستُ شرطية.

- هذا مجرّد تفصيل. يمكنني أن أجهّز لكِ بطاقة شرطة أكثر صحّة من البطاقة الأصلية.

هزّت إيما رأسها رافضة الفكرة.

- نحن في يوم 23 ديسمبر. بالتأكيد ستكون جويس في عطلة اليوم.

جزم رومالد:

- ليس لدينا سوى وسيلة واحدة لمعرفة ذلك.

اتّصل بموقع معهد الدماغ وأدرج في هاتفه رقم المقسم. قال وهو يعطي جهاز الهاتف لإيما:

- حان دوركِ الآن.

سألتها عاملة المقسم:

- هنا معهد الدماغ والذاكرة، بماذا يمكنني أن أخدمكِ؟

تنحنحت إيما:

- صباح الخير، هل يمكنني التحدّث مع مكتب الدكتورة ويلكينسون؟

- من يودّ التحدّث إليها؟

أجابت وقد بوغِتت بالسؤال:

- أوه. والدتها.

- ابقِ على الخطّ سوف أوصلكِ بها.

أغلقت إيما السماعة في عجالةٍ. قالت وهي ترفع يدها لكي تطلب حسابها في الحانة:

- على الأقلّ، نعرف الآن بأنّها موجودة على رأس عملها.

ثمّ طلبت من رومالد:

- هل كنت جادّاً فيما يخصّ بطاقة الشرطة هذه؟

هزّ رأسه بالإيجاب.

- هناك طابعات ملوّنة ذات جودة عالية في مركز الأعمال داخل الفندق «بزنس سنتر». انضمي إليّ هناك، بعد خمس دقائق.

بينما كان يتوارى عن الأنظار، راجعت إيما علبة بريدها الإلكتروني. لم يكن هناك بعد أيّ ردّ من قبل ماتيو على بريدها الذي أرسلته هذا الصباح. كان ذلك أمراً غريباً. بانتظار حساب المطعم، فكّرت ثانيةً في كلّ الأحداث التي خلخلت حياتها خلال الأيام الأخيرة.

كيف استطعت أن أدع نفسي أنجرّ إلى هذه العاصفة؟

وقّعت على الإيصال الذي قدّمه إليها النادل ومن ثمّ انضمّت إلى رومالد.

* * *

كان مركز الأعمال، الواقع إلى جانب مكاتب الاستقبال في الفندق، عبارة عن مركز واسع مفروشٍ بأرائك وفيه مقصورات مفصولة عن بعضها بحواجز ومجهّزة بحواسيب وآلات طابعة وأجهزة فاكس. عثرت إيما على رومالد الذي كان يعمل في إحدى تلك المقصورات.

سلّط عليها عدسة كاميرا هاتفه المحمول وطلب منها:

- ابتسمي! أحتاج إلى صورتكِ الشخصية. هل تفضّلين بطاقة هوّية خاصّة بجهاز الشرطة الاتحادية (FBI) أم خاصّة بقسم شرطة بوسطن (BPD)[1]؟

- قسم شرطة بوسطن (BPD)، هذا أكثر قابليةً للتصديق.

- في كلّ الأحوال، سيكون علينا التفكير في تغيير ثيابك. أنتِ، بهذه الألبسة، لا تشبهين كثيراً شرطية.

- هل تعرف ما تخبرك به ألبستي؟

جلست إلى جانبه، وفي الوقت نفسه الذي كانت تنظر إليه وهو يعمل، شاركته شكوكه:

- ربّما أنّنا نسير في الطريق الخاطئ تماماً. ربّما ليس هناك أيّ شيء تُعاتَب كيت عليه.

- هل تمزحين؟ إنّ امرأة تُخفي نصف مليون دولار من الأوراق النقدية في سقفٍ مستعار لا بدّ أن يكون هناك ما تُعاتَب عليه. لا بدّ

(1) Boston Police Department: قسم شرطة بوسطن.

من معرفة مصدر هذه الأموال وخاصّة ماذا تنوي أن تفعل بها.

- ماذا تقترح علينا أن نفعل؟

- لديّ فكرة صغيرة، ولكنني أحتاج إلى مواد لتنفيذها.

قررت أن تضع ثقتها في الصبي المهووس بالمعلوماتية فمدّت إليه إحدى بطاقاتها الائتمانية.

- حسناً، اشترِ ما تريده. اسحب سيولة نقدية إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

ومن ثمّ شمّرت من جديد عن كمّ قميصها لكي تقرأ ما كانت قد كتبته على ساعدها.

- آه نعم، هناك أمرٌ أريدك أن تستعلم عنه. تدير كيت موقعاً إلكترونياً يُدعى «محن امرأة من بوسطن». يحتوي هذا الموقع على العناوين الصحيحة للمطاعم أو المتاجر. القِ نظرةً عليه. هناك شيءٌ ما يبدو لي غريباً في لهجته أو في تقديمه.

دوّن الصبي عنوان الموقع ووعدها:

- حسناً، سوف أراه.

ومن ثمّ طبع بطاقة الهويّة المزوّرة الخاصّة بالشرطة على الورق المقوّى وقصّ أطرافها بعناية ودقّة.

قال بلهجة افتخار وهو يقدّم لها البطاقة الثمينة:

- تفضّلي، أيّتها النقيب.

هزّت رأسها راضيةً وهي تتفحّص إتقان عمل المراهق ومن ثمّ دسّت البطاقة في محفظتها.

- سوف نبقى على اتّصال، اتّفقنا؟ لا ترتكب حماقات واتّصل بي إذا ما صادفتك مشكلة.

ردّ رومالد وهو يغمز لها بعينه ويعبث بهاتفه:

- مفهوم!

* * *

في شارع بويلستون ستريت، كان الثلج لا يزال يتساقط في إيقاعٍ ثابت، الأمر الذي أدى إلى إبطاء حركة المرور في الشارع. ولكن سكان بوسطن لم يقرّروا الاستسلام أمام الظروف المناخية. كان الحرّاس المسلّحون بالمجارف يزيلون الثلوج من أمام مداخل العمارات في حين كان موظّفو البلدية يذرون الملح على الشوارع المعبّدة وينظّمون حركة المرور.

كان هناك مركزٌ تجاري بالقرب من فندق فور سيزن. قامت إيما بتسوّقٍ سريعٍ فيه: بنطلون جينز، أحذية طويلة الساق، بلوزة ذات قبّة ملفوفة من الكشمير، سترة جلدية.

في حجرة القياس، نظرت إلى التحوّل الذي جرى في هيئتها، متسائلةً عمّا إذا كانت قابلة للتصديق بأنّها ضابطة في الشرطة.

قالت وهي تقدّم بطاقتها نحو المرآة:

- النقيب إيما لوفنشتاين، من قسم شرطة بوسطن!

17

الصبي صاحب الشاشات

تقوم حريتنا على ما يجهله الآخرون عن أسرار حياتنا.

ألكسندر سولجنستين

بوسطن، عام 2010
الساعة السابعة والربع مساءً

تراكمت ندائف الثلج على عدسات نظّارة رومالد. نزع نظّارته ومسح عدستيها بكمّ بلوزته. ثمّ عاد ووضع النظّارة لكي يتبيّن له بأنّه يرى الآن على نحو أوضحٍ بقليل. باستخدام النظّارة أو من دونها، كان العالم يبدو له دائماً مغشيّاً ومعتماً ومعقّداً.

قصّة حياتي...

لمرّة واحدة في حياته، حاول أن يتصرّف بنظام. قادماً من المطار، اكتشف مبنى عليه لوحة كبيرة لمتجر خاصّ بالأجهزة الإلكترونية، كان المتجر عبارة عن مكعّبٍ عملاق شفّاف يقع في شارع بويلستون ستريت. كان عليه أن يذهب إلى هذا المكان.

كان الرصيف معرّضاً لخطر أن يتحوّل إلى مزالق. انزلق عدّة مرّات ولكي يحافظ على توازنه، تمسّك أوّلاً بعمودٍ للإنارة ومن ثمّ بلوحةٍ للإشارات المرورية. أخيراً، وصل إلى أمام الواجهة الزجاجية

الضخمة التي كانت تنصب على مستوى ثلاثة طوابق. قبل يومين من موعد حلول عيد الميلاد، كان المخزن يفتح أبوابه حتى منتصف الليل. كان أشبه بعشٍّ للنمل. كادت الجموع العجولة والحاشدة أن تنفِّر الصبي المهووس بالمعلوماتية. وككلّ مرّة يجد نفسه فيها في هكذا حالة، عانى من ارتفاعٍ مفاجئ في منسوب الضيق والقلق. تقافز قلبه في صدره وجمّد تيارٌ من العرق خاصرتيه. استبدّت به بدايةُ غثيانٍ، فحاول أن ينسحب من هذا المستنقع البشري بواسطة السلّم المتحرّك، وهي النقطة الساخنة التي تربط الطوابق الثلاثة ببعضها.

بعد أن وصل إلى الطابق العلوي، تنفّس على نحوٍ أفضل بقليل ونجح تدريجياً في تهدئة قلقه. وقف في طابور الانتظار وانتظر لدقائق طويلة قبل أن يهتمّ بائعٌ بطلباته. ما أن تمّ الاتصال مع البائع، أجاد المراهق في أن يُظهر قدرته على الإقناع: لم يكن فقط يعرف ما يريد، بل واستفاد من بطاقة ائتمانية تكاد تكون غير محدودة. فاختار الحاسوب الأكثر قدرةً واشترى عدّة شاشات وكذلك عدداً من الأجهزة والكابلات والملحقات الخاصّة بالأجهزة. اشترى كلّ ما كان يحلم به على الدوام. بعد التثبّت من صلاحية بطاقة الدفع خاصّته، وافقت إدارة المتجر - نظراً إلى حجم طلبيته وقرب الفندق من المتجر - على أن تسلّم إليه كلّ مشترياته في الوقت المحدّد.

فخوراً بإنجازه الناجح للقسم الأوّل من مهمّته، عاد رومالد مشياً على القدمين إلى فندق فور سيزن. حينما وصل إلى جناحه، اتّصل بغرفة تقديم خدمات الطعام وطلب شطيرة بيرغر روسيني بالكمأة وقطعةً من حلوى «فوريه نوار» وقارورةً من الكوكا الخالية من السكّر لكي يُريح ضميره.

ما أن تلقّى المعدات الإلكترونية، أوصل جهاز التسجيل خاصّته

بمكبرّات الصوت، ومن ثمّ برمج قائمة تشغيل ملائمة لأغاني الروك أند رول (ليد زيب، بلو أويستر كولت، ويزر. .) وأمضى كلّ السهرة في تركيب وتوصيل أجهزته.

هناك، وسط حرارة الغرفة، المحمية بهدير الآلات، كان في عالمه الخاصّ. كان يحبّ الحواسيب والأدوات والأكل والاستغراق منعزلاً لساعات طويلة في كتب الخيال العلمي أو الفانتازيا. بالتأكيد، كان يشعر غالباً بالعزلة. كان يشعر بالعزلة الشديدة. كان حزنه يتصاعد فجأةً مثل موجةٍ قادمة من بعيد، ممسكاً بحنجرته مؤدياً به إلى حافة البكاء.

كان مزاجه يتعكّر في كلّ مكان وأيّ مكان، لم يشعر قطّ بأنّه في المكان المناسب له، وكان عاجزاً عن الظهور بمظهر المرتاح والمسترخي. كان والداه وكذلك الطبيبة النفسانية التي تتابع حالته يكرّرون غالباً على مسامعه بأنّ عليه أن «يتقرّب من الآخرين» وأن «يمارس رياضةً» وأن «يتّخذ أصدقاء وصديقات». أحياناً، ولكي يسعدهم، كان يبذل بعض الجهود التي لم تكن تثمر على الإطلاق. كان شديد الارتياب في الناس، في نظرتهم، في رأيهم، وفي الضربات التي كانوا قادرين على تسديدها إليه. فكان يتوّقع دائماً أن يتلقّى منهم بعض السهام، عندها كان يعود ويحتمي خلف ذاك الدرع الذي كان قد صنعه منذ طفولته.

أنهى تركيب معداته وهو ينهي قارورته من الكوكا. كان يشعر بالانفعال والضياع في آنٍ واحد من جرّاء الوضع الذي وجد نفسه فيه. ماذا كان يفعل هنا، في بوسطن، على بعد ستّة آلاف كيلومتر من بلده، في جناحٍ فارهٍ لفندقٍ فخم، مع امرأة بالكاد يعرفها والتي تؤكّد بأنّها تتلقى رسائل من المستقبل؟

كان قد ترك نفسه ينقاد بكلّ بساطة بغريزته. لقد عرف في إيما ما يشبه شقيقة كبرى قد تكون بائسة ووحيدة مثله. كان يتصوّر بأنّها تملك وراء كلامها الجارح قلباً طيّباً. خاصّة وأنّه كان يشعر بأنّها في مأزق وكان للمرّة الأولى في حياته يشعر بأنّه يستطيع أن يكون مفيداً لشخصٍ ما. حتى وإن كان الوحيد الذي يعلم بذلك، كان يشعر بأنّ لديه قدرة وذكاء لا يحتاجان سوى إلى التعبير عنهما.

الآن، كانت أصابعه تجري على لوحة المفاتيح مثل جنود مشاةٍ يقتحمون قلعة معادية.

في نيويورك، كان قد شاهد صديقه جارود يدخل خفيةً إلى المستوى الأوّل من نظام خاصّ للمراقبة (Domain Awareness System)، نظام المراقبة الشاملة للمدينة والذي كان يستثمر حينذاك كاميرات برج مانهاتن. وقد تعلّم منه بعض المناورات. المناورات الكافية لكي يهاجم هدفه الخاصّ: نظام المعلوماتية الخاصّ بمستشفى ماساتشوستس العامّ.

كانت المعركة طويلة، ولكن بقوّة العناد والإصرار، نجح في فرض السيطرة على الإنترنت وعلى كلّ كاميرات المراقبة في المركز الاستشفائي. واصل قرصنته من خلال حصوله على ما يمكّنه من الوصول إلى المعطيات الطبية للمرضى وكذلك إلى الملفّ المهني ودوام كلّ أفراد طاقم الموظّفين.

تحقّق بطريقة آلية من ملفّ كيت. كانت الطبيبة الجرّاحة قد أنهت دوامها ولم تستأنف خدمتها إلّا في اليوم التالي صباحاً في تمام الساعة الثامنة: في الفترة الصباحية في المبنى الرئيس لمركز جراحة القلب، وفي فترة ما بعد الظهيرة والفترة المسائية في مستشفى جمايكا بلين للأطفال في الضاحية الجنوبية الغربية لمدينة بوسطن.

بذل رومالد جهداً لكي يتذكّر ما كانت إيما قد روته له: لا بدّ أنّ كيت قد صُدِمت من قبل شاحنة تسليم الطحين حينما كانت تخرج من مرآب مستشفى الأطفال. من خلال متابعة «النمط العملياتي» نفسه، لم يكن يلزمه سوى ربع ساعة لكي يخترق النظام المعلوماتي الخاصّ بقسم الطوارئ في المؤسسة الطبية. استغرق ساعةً كاملة وهو ينتقل من كاميرا إلى أخرى لكي «يُقيم» في الأمكنة المختلفة من المستشفى، ومن ثمّ تذكّر الموقع الإلكتروني الخاصّ بالطبيبة الجرّاحة كيت والذي طلبت منه إيما أن يدخل إليه ويستعرض محتوياته.

فاتّصل بموقع «محن امرأة من بوسطن». كان الأمر يتعلّق بموقع هواة، عبارة عن دليل للعناوين الصحيحة المقترَحَة من قبل الطبيبة الجرّاحة. وكان يوجد فيه على نحوٍ خاصّ توصيات بمطاعم أو مقاهي أو متاجر، وقد تمّ توضيح كلّ مقالة فيه بصورة أو بعدّة صور من المكان. استغرق رومالد نصف ساعة في استعراض البطاقات التعريفية حسب تسلسل نشرها. أثناء قراءته، أذهله شيءٌ ما: تنافر وتباين لهجة البطاقات التعريفية. البعض منها كانت مكتوبة بلغة متقنة، وبعضها الآخر مكتوبة بأسلوب أكثر ركاكة وضعفاً ومليئة بالأخطاء الإملائية.

وكان من الصعب الاعتقاد بأنّ كلّ هذه النصوص مكتوبة من قبل الشخص نفسه. من جهة أخرى، كيف لامرأة مثل كيت - والتي لا تعيش إلا من أجل عملها - أن تجد الوقت الكافي لكي تقوم بهذه المغامرات؟

من خلال التعمّق أكثر في أبحاثه، اكتشف المراهق أنّ نصوص الموقع لم تكن في الحقيقة سوى نصوص «نسخ/ لصق» من مواقع

أخرى. كان من الواضح أنّ كيت قد اكتفت بنسخ مقالات كتّاب آخرين.

ولكن ما الغاية من ذلك؟

هذه المرّة عجز عن الإجابة عن هذا السؤال. خصّص بضع دقائق إضافية لقراءة التعليقات الواردة في الموقع. لم يكن الموقع كثير الارتياد، حتى وإن كان شخصٌ يُدعى «جوناس 21»، وهو زائرٌ مواظب للموقع، قد ترك تعليقاً مقتضباً على كلّ مقالة: «هامّ، نريد معرفة المزيد عنه»، «لقد سبق وعرفنا هذا المكان»، «مطعمٌ مملّ»، «لقد عملنا بنصيحتكِ، بوركتِ على هذه النصائح القيّمة!».

أفرج رومالد عن تثاؤبٍ. أصبح كلّ هذا غامضاً بالنسبة إليه. وبمحض الصدفة، أرسل إلى جارود، صديقه الخبير في المعلوماتية، رابط الموقع مصحوباً بملاحظة موجزة تطلب منه التحقّق من الموقع وإذا ما كان يجد ما هو غريبٌ فيه. شرح له بأنّ الأمر هامٌّ وعاجل ووعده بأن يدفع له ألف دولار لقاء عمله هذا.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة فجراً حينما نام أمام شاشاته.

18

النقيب لوفنشتاين

إن المرأة تشبه كيس الشاي، لا يمكنك
معرفة مقدار قوتها حتى تصبح في الماء
المغلي.

إليانور روزفلت

بوسطن، 2010

بهيكله الحلزوني المزدوج والذي كان يلمع في الليل، كان مبنى معهد الدماغ والذاكرة يبدو على هيئة جزيء عملاق للحمض الريبوزي النووي (DNA).

فُتحت الأبواب الزجاجية للمبنى في هبّة قوية. تقدّمت إيما نحو مكتب الاستقبال بخطواتٍ واثقة.

قالت وهي تُبرزُ بطاقتها الشخصية:

- النقيب لوفنشتاين من شرطة بوسطن.

- ماذا يمكنني أن أقدّم لكِ من مساعدة، أيتّها النقيب؟

طلبت إيما أن تتحدّث إلى جويس ويلكينسون.

أجابت موظفة الاستقبال وهي تفتح سماعة هاتفها:

- سوف أخبر البروفيسورة بالأمر. سوف أترككِ تنتظرين.

بشيءٍ من العصبية والتوتّر، فتحت إيما سحّاب بلوزتها وسارت

لبضع خطواتٍ في البهو الذي كانت جدرانه اللمّاعة والحليبية اللون تعطي الانطباع بأنّها تسير في مركبةٍ فضائية. من كل جانبٍ للجدران، كانت لوحات إعلانية ضوئية تبثّ القصة الحديثة للمعهد المكرّس بأكمله لدراسة العضو الأكثر غموضاً وسحراً.

الدماغ البشري...

كان مشروع مؤسسة أبحاث الجهاز العصبي واضحاً: جمع بعض كبار باحثي العالم لتطوير معارف أمراض الجهاز العصبي (مرض الزهايمر، الانفصام في الشخصية، مرض باركنسون. .).

- لو تتبعيني من فضلكِ، أيّها النقيب.

ثارت إيما في إثر موظفة الاستقبال.

قادهما مصعدٌ صامت على شكل كبسولة زجاجية حتى آخر طابقٍ في البرج. في نهاية ممرّ زجاجي، كانت توجد حجرة شفّافة بالكامل: مكان عمل جويس ويلكينسون. رفعت العالمة عينيها عن حاسوبها المحمول حينما عبرت إيما باب مكتبها. قالت وهي تشير بيدها إلى الكرسي الموجود أمامها:

- ادخلي إذاً، أيّها النقيب. تفضّلي بالجلوس من فضلكِ.

ومثلما جعلتها الصور تعتقد، كانت جويس ويلكينسون من أصولٍ هندية. كانت بشرتها الكامدة وشعرها الأسود القصير يتضادان مع نظرتها الصافية والمرحة التي تلمع خلف نظّارة رفيعة ذات إطارٍ نصفُ شفّاف.

أظهرت لها إيما بطاقتها من دون أن يرفّ لها جفن.

- أشكركِ على منحي بضع دقائق من وقتكِ، يا بروفيسورة.

هزّت جويس رأسها. تحت بلوزتها المفتوحة، كانت ترتدي ببساطة بنطلون من الكتان الكاكي وبلوزة خشنة كانت تمنحها هيئة

صبيانية لفتاةٍ مسترجلة. كان وجهها المربّع والفتيّ يجذب التعاطف.

قبل أن تجلس، ألقت إيما نظرة دائرية على الحجرة. كانت الجدران مفروشة بشاشات مسطّحة تُعرَض عليها العشرات من مقاطع الأدمغة البشرية.

أبدت إيما ملاحظة وهي تشير إلى الألوان الفاقعة لمؤشرات النشاط الدماغي التي كانت تجعل الصور «الحيّة» شبه زاهية.

- وكأنّنا أمام لوحات آندي وارهول.

شرحت جويس:

- الأمر يتعلّق بدراسة طبية أُنجِزَت في أميركا الجنوبية حول عدّة آلاف من الأشخاص من عائلة واسعة كان لدى أفرادها ميلٌ وراثي للإصابة بمرض الزهايمر.

- وما هي نتائج هذه الدراسة؟

- لقد أظهرت بأنّ العلامات المبكّرة للمرض تظهر قبل أكثر من عشرين سنة من الأعراض الأولى له.

اقتربت إيما كثيراً من إحدى الصور. راودتها فكرة بشأن والدها، الذي كان في الطور الأخير من المرض ويتلقى العلاج في مصحٍّ في نيوهامبشير.

وكأنّها في صدى لأفكارها، أكّدت لها جويس:

- أُصيب والدي بالتبنّي بصيغة مبكّرة من المرض. وقد أفسد هذا الأمر طفولتي، ولكنّه أيضاً حدّد موهبتي.

تابعت «الشرطية» النقاش. قالت وهي تشير إلى جمجمتها:

- الدماغ. كلّ شيء يحدث هنا في داخله، أليس كذلك؟ إشارات كهربائية واتصالات بين مجموعات الخلايا العصبية.

أجابت جويس وهي تبتسم:

- نعم. الدماغ يتحكّم بقراراتنا ويحدد سلوكياتنا وأحكامنا. إنّه يكوّن وعينا بمحيطنا وبذواتنا ويذهب إلى حدّ تنظيم طريقة وقوعنا في الحبّ!

كان صوتها دافئاً فيه بحّة خفيفة. كانت على سحرٍ شديد هزّت الطبيبة رأسها وهي تتبختر في أريكتها.

- هذا موضوعٌ مشوّق، ولكن ليس من أجل الحديث في هذا الموضوع أتيتِ لمقابلتي، أليس كذلك أيّها النقيب؟

- في الحقيقة، أنا هنا لأنّ شرطة بوسطن تُجري تحقيقاً ظهر اسم كيت شابيرو فيه.

أبدت جويس دهشة حقيقية.

- كيت؟ ما الذي تأخذون عليها؟

أكّدت إيما:

- لا شكّ أن ليس هناك شيءٌ خطير. كيت ليست الشخصية الرئيسة المستهدَفَة من تحقيقنا. لا أستطيع أن أخبركِ المزيد عن هذا الأمر في الوقت الراهن، ولكنني أشكركِ على تعاونكِ.

- كيف يمكنني أن أساعدكِ؟

- من خلال إجابتكِ عن بعض الأسئلة. متى التقيتِ مع كيت للمرّة الأولى؟

أكّدت وهي تحسب السنوات على أصابعها:

- حسناً، كان ذلك في عام. في عام 1993. كنا نحن الاثنتين طالبتين في السنة الأولى في برنامج JMP.

- برنامج JMP؟

- برنامج Joint Medical Program في جامعة بيركلي.

هي عبارة عن مجموعة دراسات جامعية طبيّة من خمس سنوات

من بين الدراسات الأكثر نخبوية في البلاد. ثلاث سنوات من الدراسة العلمية داخل الحرم الجامعي ومن ثمّ تتبعها سنتان من التدريب العملي في مختلف مستشفيات كاليفورنيا.

- في الجامعة، كنتِ صديقتها الوفية والمقرّبة، أليس كذلك؟

قطّبت جويس عينيها في صمت، تاركة الذكريات تعود ببطء من الماضي.

- نعم، هذا مؤكّد. لقد تقاسمنا الغرفة نفسها لمدّة ثلاثة أعوام في بيركلي قبل أن نستأجر شقّة صغيرةً في سان فرانسيسكو لمدّة عامين. ومن ثمّ انتقلنا إلى بالتيمور لكي نبدأ فيها فترة اختصاصنا.

- كيف كانت كيت في تلك الفترة؟

هزّت الطبيبة المختصة بالأمراض العصبية كتفيها.

- أتصوّر أنها كانت كما هي اليوم: جميلة، طموحة، ذكيّة، موهوبة بإرادة حديدية. إنّها حقّاً موهوبة. لم أجد قط شخصاً قادراً على العمل بهذا القدر من السرعة وهذا القدر من الساعات الطويلة. أتذكّر أنّها كانت تنام قليلاً جدّاً وأنّها تمتلك قدرة خيالية على التركيز. لا شكّ أنّها كانت أفضل طالبة في دفعتنا.

- من أين جاءت؟

- من ثانوية كاثوليكية صغيرة من مين نسيتُ اسمها. قبل كيت، لم يسبق أن قُبِل أيّ شخص من تلك المدرسة في برنامج JMP. أتذكّر أنّ معدّلها في اختبار الدخول إلى المدرسة كان الأعلى منذ إجراء الامتحان. وأنا مستعدة لأن أراهن بأنْ لا أحد قد حطّم هذا الرقم في الوقت الحالي.

- كيف أصبحتما صديقتين؟

باعدت جويس بين يديها.

- أعتقد أنّ مرض والدينا جعلنا نقترب من بعضنا. كانت كيت قد فقدت والدتها من جرّاء تصلّبٍ لويحي. وقد عقدنا العزم نحن الاثنتين على أنّ نكرّس حياتنا في الكفاح ضدّ أمراض الانحلالات العصبية.

عبست إيما.

- لقد أحسنتِ صنعاً فيما فعلتِ، ولكن ليست كيت. لقد أصبحت طبيبة مختصة في الجراحة القلبية.

- نعم، لقد غيّرت طريقها تماماً في عام 1999، وذلك في منتصف سنتنا الدراسية الثانية في بالتيمور.

- هل تريدين القول بأنّها قد أوقفت اختصاصها في الأمراض العصبية في السنة الثانية لكي تتّجه نحو الجراحة؟

- هذا صحيح: لكونها كانت طالبة متفوقة، وافقت إدارة مستشفى جون - هوبكينز[1] على نقلها خلال السنة الدراسية لكي تنضمّ إلى اختصاص الجراحة.

- ما كان سبب هذا التحوّل؟

- حتى يومنا هذا، سوف لن يكون بمقدوري أن أقول لكِ هذا. وبدءاً من ذلك التاريخ، بدأ طريقانا يسلكان اتّجاهين مختلفين وانقطعت علاقاتنا.

ألحّت عليها إيما بالسؤال:

- إذا فكّرتِ في الأمر، ألا ترين حقّاً ما الذي استطاع أن يجعلها تتّخذ هذا القرار؟

- لقد انقضى على ذلك أكثر من عشرة أعوام. لم نكن آنذاك

(1) المستشفى الجامعي في ميريلاند.

سوى في الرابعة والعشرين من عمرنا. ثمّ أنّ، في دراسة الطبّ، ليس أمراً نادراً أن يغيّر الطلبة اتّجاههم في منتصف الطريق.

- ومع ذلك، الأمر يتعلّق هنا بالتزام حياة. لقد قلتِ بأنّ كيت كانت عازمة على أن تختصّ في الأمراض العصبية.

قالت جويس:

- أعرف ذلك جيّداً. يبدو أنّ أمراً هامّاً قد حدث في حياتها في تلك السنة، ولكن لا أستطيع أن أخبركِ به.

أمسكت إيما قلماً كان موجوداً على طاولة المكتب ودوّنت التاريخ «1999» على ساعدها ومن ثمّ سألت:

- أيّ حدثٍ وقع في حياة كيت؟

- هل تريدين ورقةً، أيّها النقيب؟

تجاهلت إيما العرض وتابعت «استجوابها»:

- هل كانت كيت تخرج مع الرجال، في تلك الفترة؟

- كانت تحظى بنوعٍ من الجمال المغناطيسي الذي يجعلها مرغوبةً للغاية. بطريقة أكثر ابتذالاً: كان لعاب جميع الرجال يسيل أمامها وكانوا يحلمون بأن يضعوها في سريرهم.

ألحّت إيما عليها بالسؤال:

- لم تجيبي عن سؤالي. مَنْ كانت تعاشر؟

تضايقت جويس وحاولت على نحوٍ ظاهر أن تحمي أسرار الحياة الحميمية لصديقتها القديمة.

- هذا شأنٌ يخصّ حياتها الخاصّة، أليس كذلك؟

لكي تزيل وساوسها وحيرتها، جعلت إيما سؤالها واضحاً ودقيقاً:

- كانت تخرج مع نيك فيتش، هل هذا صحيح؟

أطلقت جويس تنهيدة ارتياح. راضية من عدم خيانتها لسرّ كيت، أجازت لنفسها الاعتراف:

- هذا صحيح، كان نيك الحبّ الأكبر لكيت.

سألت إيما لكي تستفيد من الثغرة:

- منذ متى كانا يخرجان معاً؟

- منذ سنّ التاسعة عشرة. كنّا في السنة الثانية في جامعة بيركلي حينما جاء فيتش وألقى محاضرةً في الحرم الجامعي. كانت كيت قد سبق لها وأن التقت به. فذهبت وتحدّثت إليه بعد المحاضرة وبدآ بالتردّد على بعضهما. بدأت قصّة حبّهما في عام 1994. كان فيتش أسطورة منذ تلك الفترة. كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين أو ستّة وعشرين عاماً وكان قد كسب الكثير من الأموال في مجال صناعة ألعاب الفيديو. في تلك الفترة، في وسط البرامج المجانية، كان يونيكورن على كلّ لسان.

- من كان على علم بعلاقتهما؟

- القليل جدّاً من الناس، بل ربّما لا أحد برأيي سوى والدة نيك وأنا. كان فيتش دائماً محتشماً وحريصاً على أسرار حياته الشخصية. كان ذهانياً حقيقياً. لن تعثري على أي صورة أو أي فيلم يظهران فيها معاً. كان نيك يحرص على ذلك.

- من أين كانت تأتي هذه النزعة الذهانية؟

- ليست لدي أدنى فكرة عن ذلك. في كلّ الأحوال، كانت هذه نزعة راسخة جدّاً في داخله.

توقّفت إيما في استراحةٍ قصيرة. كانت هذه الذهانية لا تتوافق أبداً مع الفيلم الذي كانت قد أنجزته في الصباح نفسه بوساطة هاتفها

المحمول. لماذا التقى نيك وكيت في حانة يمكن لأيّ كان أن يراهما فيها؟

- كم من الوقت استمرّت علاقتهما؟

- لسنواتٍ عديدة، ولكنّها كانت علاقة متقطعة. «اتبعني، أهجرك؛ اهجرني، أتبعك». هل رأيتِ نوع العلاقة؟

تنهّدت إيما:

- ممتاز، لسوء الحظ.

ابتسمت جويس ومن ثمّ واصلت حديثها:

- حسبما أسرّت إليّ، كانت كيت تعاني كثيراً من تقلّبات نيك وتحوّلاته. كانت تأخذ عليه افتقاره إلى الالتزام. كان يمكنه في يوم ما أن يظهر بمظهر الرجل العاشق الولهان، ولكن يعود ويصبح جافاً في اليوم التالي. انفصلا عن بعضهما عدّة مرّات، ولكن في كلّ مرّة كانا ينتهيان إلى التصالح والعودة إلى بعضهما. كانت بالفعل مدمنة عليه وكان يمكنها أن تفعل أيّ شيء من أجله، بما في ذلك تلك العملية الجراحية التجميلية الغبية.

شعرت إيما بتنمّلٍ ووخزٍ في بطنها. لقد رأت تماماً.

- كان ذلك في أيّ سنة؟

من جديد، حسبت جويس على أصابعها.

- خلال صيف عام 1998، في نهاية سنتنا الأولى من الاختصاص، أي قبل بضعة أشهر من تغيير كيت لاختصاصها.

- حسب رأيكِ، هي أجرت هذه العملية التجميلية لكي تثير إعجاب فيتش؟

- نعم، هذا يبدو لي مؤكّداً. في تلك الفترة، لم تكن كيت

تدرك لماذا كان نيك يجافيها. لم تعد تثق بنفسها. هذه العملية الجراحية التجميلية كانت حركة يائسة منها.

غيّرت إيما الموضوع.

- إلى متى ظلّ نيك وكيت على علاقتهما؟

- لا أعرف أيّ شيء عن ذلك على الإطلاق. كما أخبرتكِ بذلك، لم نعد نلتقِ منذ أن غيّرت كيت وجهتها. كنا نتبادل رسائل إلكترونية من وقتٍ لآخر، ولكن انتهى الحديث عن أسرار الحياة الشخصية بيننا. بعد بالتيمور، عادت إلى سان فرانسيسكو لكي تكمل اختصاصها، ومن ثمّ، اتّبعت تدريباً وتأهيلاً في الجراحة القلبية في نيويورك. وقبل خمسة أعوام، ختمت اختصاصها برئاسة مستشفى مختصّ بعمليات زرع القلب في بوسطن، ووسط اندفاعها، نجحت في نيل منصب في مستشفى ماساتشوستس العامّ.

انتهزت إيما الفرصة.

- إذاً كنتما معاً في المدينة نفسها في الوقت نفسه؟

- يمكنك قول ذلك، لقد انضممت إلى معهد برين قبل ثلاثة أعوام ونصف.

- أتصوّر أنّكِ لدى وصولكِ إلى هنا، سعيت إلى اللقاء من جديد مع صديقتكِ.

تعكّر مزاج جويس قليلاً وانتظرت لبضع ثوانٍ قبل أن تجيب عن السؤال.

- نعم، لقد اتّصلتُ بها وشربنا معاً كأساً في أحد مقاهي باك باي. وكان ذلك بعد بضعة أشهر من وضعها لمولودها. أخبرتني بأنّها سعيدة للغاية وراضية جدّاً بحياتها العائلية وأنّ زوجها يحبّها كثيراً، وهو أستاذ للفلسفة في جامعة هارفارد.

- وهل صدّقتي كلامها؟
- لم يكن لدي أدنى سبب لكي لا أصدّقها.
- هل عاودتما الحديث عن نيك؟
- كلا، لم يكن الوقت مناسباً لذلك. كانت قد تزوّجت وأنجبت طفلاً. لم أكن لأثير قصص الماضي معها.
- وهل التقيتما بعد ذلك لمرّات أخرى؟
- لقد عرضت عليها ذلك، ولكنّها لم تردّ أبداً على رسائلي الإلكترونية ولا على مكالماتي الهاتفية. وبعد فترة من ذلك، أقلعتُ عن محاولات الاتصال بها.

أطلقت جويس تنهيدة وساد الصمت في الحجرة. أدارت إيما رأسها نحو النافذة. مقطّبة عينيها، لمحت النهر، الأسود والمعتم، الذي كان يجري أسفل المبنى.

قالت وهي تنهض من الأريكة:

- ممتاز. أشكركِ جزيلَ الشكر على تعاونكِ.

نهضت جويس بدورها من كرسيها.

- سوف أرافقكِ، أيّها النقيب.

سارت إيما في إثر العالمة في الممرّ ومن ثمّ انضمّت إليها في المصعد.

ضغطت جويس على زرّ المصعد لكي تنزلا إلى الطابق الأرضي وألحّت على إيما بالسؤال:

- ألا يمكنكِ حقّاً أن تخبريني عمّا تأخذونه على كيت؟
- لا يزال من السابق لأوانه أن أخبركِ بذلك كما أنني أطلب منكِ ألا تتحدّثي مع أحد عن لقائنا والمحادثة التي تمّت بيننا.
- كما تشائين. أتمنى من كلّ قلبي ألا يكون قد حدث أمرٌ

خطير، ولكن مهما كان الفعل الذي قامت به كيت هناك أمرٌ ينبغي عليكم أن تفهموه جيّداً: حينما تنوي أن تقوم بأمرٍ ما، تنفّذ ذلك بذكاءٍ وعزمٍ شديدين. وتذهب فيه حتى النهاية. وليس لديها سوى نقطة ضعفٍ وحيدة.

- أهو الحبّ؟

- دون أدنى شكّ. كانت كيت نفسها تقول حينما كانت عاشقة، كانت تشعر بأنّ روحها الروسية تستيقظ فيها وأنّها تصبح قابلة لأن تبالغ لأقصى الدرجات. صدّقيني هذه ليست مزحة.

أعطتها جويس بطاقة الزيارة خاصّتها حينما وصلتا إلى بهو المعهد.

- إذا احتجتِ إلى معلومات أخرى، لا تتردّدي، أيّها النقيب.

- شكراً لكِ. ثمّة سؤالٌ أخير: هل من الممكن أن تكون كيت قابلة للقيام بأمرٍ ما للانتقام من نيك؟

فتحت جويس يديها في إشارة إلى عجزها عن الإجابة عن هذا السؤال. استمرّت السيّدتان في تبادل الحديث لأكثر من نصف ساعة تحت الضوء الحليبي لمعهد برين.

أخيراً، خرجت إيما إلى عتمة الليل. كان الوقت متأخّراً وكان الثلج قد توقّف عن التساقط، ولكنّ برداً قطبياً كان يجمّد الحرم الجامعي. لم يكن هناك أثرٌ لأيّ سيارة أجرة في الأفق. سارت حتى وصلت إلى محطة كيندال للميترو السريع (Kendall/ MIT) وعادت بالميترو إلى بوسطن.

حينما دفعت باب غرفتها في الفندق، اكتشفت رومالد نائماً أمام جدار من الشاشات، وقد وضع رأسه على يديه المتصالبتين.

نظرت، حائرةً ومشغولة البال، إلى أجهزة المعلوماتية المنصوبة

في غرفتها وهي تحملق بعينين واسعتين. كان الفتى المراهق قد حوّل الجناح إلى مقر قيادة أمنية مثيرٍ للإعجاب.

غادرت الغرفة من دون أن تثير ضجيجاً وعادت إلى حانة الفندق. في تلك الساعة من الليل، لم يكن يوجد في المكان سوى نفرٍ قليلٍ من الزبائن.

طلبت كوباً جديداً من كوكتيل كيبيروسكا وشرعت تشربه بهدوء وهي تفكّر من جديد في كلّ ما روته لها جويس ويلكينسون قبل أن تفترقا عن بعضهما.

اللقاء الأوّل بين كيت ونيك.

19

البيروفيَّة الخالدة

كلمات الحبّ تشبه سهاماً مرمية من قبل صيّاد. يستمر الأيل الذي يتلقّاها في الركض ولا نعرف في الحال أنّ الجرح مميت.

موريس ماغر

قبل تسعة عشر عاماً
شهر شباط من عام 1991

كانت كيت في السادسة عشرة من عمرها - كان نيك في الثالثة والعشرين من العمر

مطعمٌ لمحطّة خدمة، بالقرب من بلدة سانت هيلنز في ولاية أوريغون. الثلج يتساقط. الصالة شبه خالية. كان زبونٌ وحيد ينهي طبقه من «بيض بينيدكت» وهو يلعب مباراة على قطعة شطرنج إلكترونية. خلف طاولة التحضير، كانت النادلة الشابّة والصغيرة جدّاً في العمر تستمع إلى ألبوم «نيفرمايند» المُدْرَج في قارئة الأسطوانات المدمجة. كان كتابٌ في العلوم الطبيعية مفتوحاً أمام عينيها، وقد بدت مستغرقة تماماً في قراءته حتى وإن كان جسدها يهتزّ باحتشام على إيقاع الأغاني.

- يا آنستي! هل يمكنكِ أن تقدّمي لي فنجاناً آخر من القهوة، من فضلكِ؟

رفعت كيت رأسها عن كتابها المدرسي، وحملت ركوة القهوة التي كانت تُسخن فوق قاعدتها وتقدّمت نحو الزبون. قدّمت له القهوة وهي تتحاشى أن يلتقي نظرها بنظره. انصبّ نظرها على مباراة الشطرنج التي كان يبارز فيها. خشية من أن تندم على ما ستقوله، تردّدت في أن تبدي له ملاحظةً وأن تخرج عن المبدأ الذي طالما التزمت به: الحرص قدر المستطاع أن تبقى بعيدة عن الرجال. في النهاية، حينما رأته يأخذ قطعةً على رقعة الشطرنج، اتّخذت الخطوة وأمرت:

- حرّك قلعتكَ وانسَ تبييت الملك[1]

سأل نيك:

- عفواً؟

كان صوتها رخيماً وشجيّاً ومتهلّلاً. للمرّة الأولى، نظرت إليه بالفعل. كان يرتدي ثياباً سوداء بأكملها، لكنّ وجهه كان مليحاً وجذّاباً وشعره لامعاً كما لو أنّه من العسل.

شرحت وهي واثقة من نفسها:

- عند هذه الحركة، ليست فكرة حسنة أن تقوم بتبييت الملك.

بدل ذلك حرّك الحصان في الخانة إي 7.

- ولماذا هذه الحركة؟

- أنت وصلت إلى الحركة العاشرة، أليس كذلك؟

---

(1) في لعبة الشطرنج، التبييت هي حركة تتيح، بنقلةٍ واحدة، تغيير موقع القلعة والملك لتأمين الحماية لهذا الأخير.

نظر نيك إلى رقعة الشطرنج وأكّد كلامها:

- نعم، بالضبط.

- إذاً، هذا الشكل من اللعب يتبع نموذج مباراة شهيرة: البيروفيَّة الخالدة.

- لم أسمع قط بهذه المباراة.

أوضحت كيت بنبرةٍ فيها نوعٌ من التباهي والعجرفة:

- هذه مباراة معروفة جدّاً في كلّ أنحاء العالم.

سخر من جرأة هذه الفتاة.

- حدّثيني عنها.

- لُعِبَت هذه المباراة في عام 1934 في بودابست من قبل اللاعب البيروفي العظيم إيستيبان كانال. وقد كسب المباراة في أربع عشرة نقلة بعد أن ضحّى بوزيره وقلعتيه.

دعاها إلى الجلوس بحركةٍ من يده.

- اشرحي لي هذه اللعبة.

تردّدت، ولكنها انتهت إلى اتّخاذ مكانها أمامه وبدأت بتحريك قطعة ومن ثمّ قطعة أخرى، معلّقةً على نقلاتها بكلّ سرعة:

- حسناً، إذا بَيَّت الملك، سوف يقضي بيدق خصمك على بيدقك في الخانة بي 4، ثمّ سيقضي وزيرك على قلعته في الخانة إي 1، اتّفقنا؟ ومن ثمّ، سوف يزيح ملكه في الخانة دي 2 وهنا، لن يبقى لديك من خيار: سيكون على وزيرك أن يقضي على قلعته في الخانة إتش 1. وسيقضي وزيره على أحد بيادقك في الخانة سي 6، وسيرغمك بذلك على أن تقضي على وزيره وسوف تنتهي المباراة بنقلة كش ومات الملك حينما يتحرّك الفيل في الخانة إي 6.

ظلّ نيك مذهولاً نهضت كيت وأنهت شرحها بالتوضيح:
- هذا ما يُدعى مات بودين.
اغتاظ نيك بعض الشيء ونظر إلى رقعة الشطرنج، وهو يلعب من جديد اللعبة في ذهنه.
- كلا، انتظري! لماذا على وزيري أن يقضي على قلعته؟
هزّت كتفيها.
- إذا كانت اللعبة قد سارت سريعاً جدّاً بالنسبة إليك، أعد لعب المباراة بهدوء. وسوف ترى بأنّ هذا هو الحلّ الوحيد المتاح.
متغلباً على الشعور بالإهانة الذي خضع له، اقترح عليها أن تلعب مباراة معه، ولكنّها ألقت نظرةً على ساعة يدها ورفضت عرضه.
نظر إليها وهي تعود إلى خلف طاولة تحضير الطلبات في حين ظهر صاحب المطعم في المحلّ.
قال لها الرجل وهو يُعطيها أربع أوراق نقدية من فئة 10 دولارات:
- هذا جيّد، يا كيت، يمكنكِ الانصراف.
دسّت الفتاة الشابّة النقود في جيبها وأحلّت صدريتها ووضعت كتابها في حقيبتها وعبرت الصالة لكي تخرج من المطعم.
ناداها نيك. ألحّ عليها أن تلعب معه وهو يضع ورقة نقدية على الطاولة:
- هيّا، مباراة قصيرة بعشرة دولارات!
نظرت كيت إلى الورقة النقدية، تردّدت لجزءٍ من الثانية ثمّ جلست ونقلت بيدقاً إلى الأمام.

ابتسم نيك. النقلات الأولى لُعِبَت في وقتٍ قصير. أدركت كيت سريعاً بأنّها سوف تربح المباراة، بل ويمكنها أن تنجح في ذلك بسرعة كبيرة، ولكنّ شيئاً ما في داخلها نهاها عن ذلك. وبطريقة تكاد تكون لاشعورية، أهملت في بعض التنقلات لكي تُطيل مدّة اللعب. خلال بضع دقائق، أرغمت نفسها على عدم النظر من خلال النافذة لكي لا ترى ندائف الثلج التي كانت تدوّم في السماء.

في الخارج، كانت تعرف بأنّ هناك لسعات الريح ولدغات البرد والخوف والريبة. كانت تعلم بأنّه عاجلاً أم آجلاً، سوف يكون عليها أن تجد الجرأة والشجاعة على مواجهة كلّ ذلك، ولكنّها الآن تنسجم مع هذا الفارس الأسود ذي الشعر الذهبي، الذي يتعلّل بالموسيقى، وسط الحرارة الدبقة بعض الشيء للمطعم.

قال نيك وهو ينهض:

- سوف أعود.

شاهدته يتوجّه نحو المغاسل. عاد بعد دقيقتين وقدّم لنفسه فنجاناً من القهوة كما لو كان في بيته قبل أن يعود ويجلس إلى الطاولة. لعبا نقلاتهما ببطء متزايد. أطالت المتعة لخمس دقائق إضافية قبل أن تسرّع في اتخاذ القرار. في ثلاث نقلات، وجد نيك نفسه وقد أمسكت كيت بخوانيقه.

كش ومات.

قالت بنبرة قاسية وهي تدسّ الورقة النقدية في جيبها:

- لقد انتهى الأمر.

بدورها، قامت والتقطت حقيبتها.

طالبها نيك:

- انتظري! امنحيني فرصة التعويض.

- كلا، لقد انتهى الأمر.

غادرت وهي تغلق الباب من ورائها. تابعها بنظره من خلال الواجهة الزجاجية. رنّت أصداء كلماتها الأخيرة في رأسه.

لقد انتهى الأمر...

سأل وهو يتقدّم نحو طاولة الحساب:

- تبّاً، من تكون هذه الفتاة؟

ردّ صاحب المطعم:

- لا أعرف أيّ شيءٍ عنها. أعتقد أنّها فتاةٌ روسية. لقد وظّفتها للعمل في المطعم هذا الصباح.

- ما اسمها؟

- لم أعد أتذكّر. شيءٌ معقّد. اسمٌ روسي، لا أعرف ما هو. المهمّ أنّها تسمي نفسها «كيت».

ردّد نيك الاسم في همهمة كما لو أنّه يردّده لنفسه:

- كيت.

رفع حاجبيه، أخرج محفظته من جيب بنطلونه الجينز وترك ورقة نقدية لكي يسدّد الحساب. ثمّ ارتدى سترته وعقد وشاحه وبحث عن مفاتيح سيارته في جيب بنطلونه أوّلاً ومن ثمّ في جيب بلوزته.

- اللعنة!

سأل صاحب المطعم:

- ماذا هناك؟

- لقد سرقت منّي مفاتيح سيارتي!

* * *

في اليوم نفسه
بعد خمس ساعات

أيقظت الطرقات على الباب نيك من نومه. فتح عينيه ونظر من حوله. احتاج إلى بضع ثوانٍ لكي يعرف أين هو (في الغرفة الصغيرة لنزلٍ كئيبٍ بعض الشيء في مدينة أوريغون) ولماذا هو في هذا المكان (لأنّه كان مغفّلاً بما فيه الكفاية لكي يسمح لمراهقةٍ أن تنشل سيارته في حين كان لديه اجتماع مهمّ وحاسم في سان فرانسيسكو بعد بضع ساعات. .).

سأل وهو يهمّ بفتح الباب:

- مَنْ بالباب؟

- السيّد فيتش؟ أنا غابرييل آلافيز، معاون مدير شرطة مقاطعة كولومبيا. لقد عثرنا على سيارتكَ والفتاة التي سرقتها.

- حقّاً؟ هل يمكنني استردادها سريعاً؟ أنا جد مستعجل على.

- هيا، سوف أصحبك إلى هناك.

* * *

مرّت سيارة معاون مدير الشرطة الرباعية الدفع وسط العتمة بمشقّة. توقّف الثلج عن التساقط ولكنّ الطريق ظلّ زالقاً جدّاً.

سأل غابرييل آلافيز بصوتٍ أجشّ:

- ماذا جئت تفعل في بلدتنا؟

- لقد جئتُ لكي أحضر التوقيع على اتفاقية لألعاب الفيديو في سياتل. وكنتُ في طريق عودتي إلى سان فرانسيسكو حينما بدأت الثلوج تتساقط و.

- ألعاب الفيديو، حقّاً؟ ابني يقضي ساعات طويلة أمام هذه الألعاب. هذا يعدنا بجيلٍ كاملٍ من البلهاء.

أجاب نيك بحذر:

- هذا أمرٌ يمكن النقاش فيه. وسيارتي أين عثرتم عليها؟

- كانت مخبّأة في غابة بين الأشجار على بعد عشرين فرسخاً من هنا. كانت الفتاة نائمة في داخلها.

- ما اسم الفتاة؟

- إيكاترينا سفاتكوفسكي. إنها في الثالثة عشرة من عمرها. وحسب ما أخبرتنا به، كانت تسكن مع والدتها في بيتٍ مسبق الصنع في بيلفيو. وقد توفيت والدتها قبل شهرين. ورفضت الفتاة أن تودع عند عائلةٍ تستقبلها في منزلها وقد هربت من البيت الذي كان قد تمّ تعيينه لها. ومنذ ذلك الحين، ظلّت من غير مأوى وأصبحت تذهب يميناً وشمالاً لتؤمّن لنفسها أمكنة تنام فيها.

- وما الذي سوف يحصل لها؟

- سوف لن يحصل لها خيرٌ وهذا ما أخشاه. لقد اتّصلنا بالخدمات الاجتماعية ولكن هذا سوف لن يحلّ المشكلة.

- قد يترتّب عليّ أن أسحب شكواي؟

- افعل ما تشاء.

- هل يمكنني التحدّث معها؟

- إذا طاب لك ذلك. ولكنني أحذّرك: لقد وضعناها في زنزانة منفردة وهذا الأمر سيكون قد جعلها عنيفة بعض الشيء.

* * *

دفع نيك باب الزنزانة.

- مرحباً يا كيتلين(*) برررررر. البرد يجمّد الأرداف هنا.

(*) كيتلين: مفردة إيرلندية تُطلق على الأنثى وتعني «الطاهرة» وهي مقتبسة من اسم القديسة كاترين الإسكندرانية.

- انصرف من هنا!

- اهدئي! ما هي مشكلتكِ؟

- لقد ماتت أمّي وتخلّى والدي عني وليس لدي مال ولا مكان أنام فيه، هل هذا يناسبك؟

جلس إلى جانبها على المقعد الخشبي المثبّت على جدار الزنزانة.

- لماذا رفضتِ الذهاب للانضمام إلى عائلة أو السكن في منزلٍ؟

صرخت في وجهه ووجّهت ضربةً إلى كتفه:

- دعني وشأني!

لكي يدافع عن نفسه، أمسك بمعصميها وثبّتهما.

- اهدئي، تبّاً لكِ!

تحدّته بنظرها ودفعته إلى أقصى المقعد.

سألها نيك بعصبية:

- ولكن ما الذي تنوين فعله بوضوح ودقّة، في هذا البرد؟ أن تهيمي على وجهكِ إلى ما لا نهاية في هذه المنطقة النتنة؟

- دعني وشأني، تبّاً لك.

- أطلعني الشرطي على حقيبتكِ. وقد رأيتُ كتبكِ المدرسية في علم الأحياء. سوف تصبحين طبيبة، هل هذا صحيح؟

- نعم صحيح وسوف أنجح في ذلك.

- كلا. لن تنجحي في ذلك إذا انقطعتِ عن دروسكِ.

أدارت رأسها لكي لا يرى نيك الدموع التي ملأت عينيها. كانت تعلم بأنّه على حق. شعرت بالخجل.

طلب منها:

- دعيني أساعدكِ.

- أن تساعدني؟ ولماذا سوف تساعدني؟ نحن حتى لا نعرف بعضنا!

أقرّ بذلك:

- هذا صحيح. ولكن ما الذي يغيّره هذا في الأمر؟ الأشخاص الذين أعرفهم على نحوٍ أفضل هم الذين أكرههم أكثر.

ظلّت صارمة في موقفها:

- لقد قلتُ لك كلا الناس لا تساعد أبداً من دون مقابل. لا أريد أن أدين لك بشيء.

- سوف لن تدينين لي بشيء.

- دائماً يُقال هذا الكلام في البداية.

أخرج رقعة الشطرنج من حقيبته وغيّر موضوع الحديث.

- هل ستمنحيني فرصة الأخذ بثأري منكِ؟

تنهّدت وقالت:

- أمّا أنت، أنت رجلٌ لا تستسلم ولا تتراجع عن موقفك أبداً!

- أعتقد أنّ هذه ميزة أنتِ تمتلكينها أيضاً، يا كيتلين.

- كفّ عن مناداتي بهذا اللقب! ما الذي تنوي أن تقوله هذه المرّة؟

عرض عليها:

- إذا فزتِ في المباراة عليّ، سوف أنصرف من هنا.

- وإذا فزتَ أنتَ عليّ؟

- سوف تدعيني أقدّم لكِ المساعدة التي أعرضها عليكِ.

نخرت. مدّ نحوها منديلاً ورقياً.

اتّخذت القرار:

- حسناً، اتّفقنا. في نهاية المطاف، إذا كنتَ ترغب في تلقي ضربة ثانية. خذ الأحجار البيضاء.

ابتسم نيك، ورتّب البيادق على رقعة الشطرنج وحرّك أوّل حجر. قامت هي بالشيء نفسه.

قالت وهي ترتعش برداً:

- فعلاً يتجمّد المرء هنا.

عرض عليها:

- خذي بلوزتي والبسيها.

هزّت كتفيها رافضةً عرضه:

- لا داعي لذلك.

نهض ووضع سترته الجلدية على كتفيها.

تكوّرت داخل السترة واستسلمت لدفئها:

- هذه السترة تزن طنّاً ولكنّها دافئة جدّاً.

استأنفا مباراتهما. بينما كانا يلعبان في صمت، أحسّت أنّ الخشية والارتياب أخذا بالتراجع والانحسار. مع ذلك، كانت رائحة الخوف محفورةً في داخلها منذ كانت طفلةً صغيرة: الخوف من أن تموت والدتها، الخوف من أن تفقدا مسكنهما، وكذلك الخوف من أن تجد نفسها وحيدة في الدنيا.

أغمضت عينيها واتّخذت قراراً خفف عنها حمولةً ثقيلة: سوف تخسر المباراة. سوف تدع هذا الفارس القادم من اللامكان أن يقدّم لها يد العون. لم تكن تعرفه بعد ولكنّها كانت في طريقها إلى أن تعيش لحظة حاسمة في حياتها.

في السنوات القادمة، سوف تعيد لآلاف المرات مشاهدة فيلم لقائها الأوّل مع نيك فيتش. أوّل رجل سوف تحبّه في حياتها.

الرجل الوحيد الذي سوف تحبّه. في كلّ مرّة سوف تحتاج فيها إلى الشجاعة أو سوف تشعر فيها بوهن عزيمتها، سوف تجد المصدر في التفكير بهذه اللحظة الساحرة وغير المتوقّعة التي دخل فيها نيك إلى حياتها. ذاك اليوم الذي قرّرت فيه بأنّها سوف تمنحه كلّ شيء إلى الأبد، «في السرّاء كما في الضرّاء، في الثراء كما في الفقر، في الصحّة والعافية كما في المرض، في الفرح والمسرّة كما في الشقاء والمعاناة. إلى أن يفصل الموت بينهما».

قال وهو يحرّك وزيره على رقعة الشطرنج:

- كش ومات.

- حسناً، الجولة الثانية كانت لصالحك.

راضياً ومبتهجاً بالنتيجة، وضع يده على كتفها.

- حسناً، اصغِ إليّ جيّداً يا كيتلين: سوف أسحب شكواي وأتّصل بمحامي الخاصّ. ومن الآن وحتى تلك اللحظة، أطلب منكِ أن تبقي هادئة، اتّفقنا؟

- محاميك الخاصّ؟

- سوف يُخرجكِ من هنا وسوف يجنّبك الذهاب إلى الأُسَر ومنازل الاستقبال. وسوف يرتّب الأمر بحيث يكون لكِ الحقّ في متابعة دراستكِ المدرسية في مدرسة سان جوزيف كوليدج.

- وما هذه المدرسة؟

- مدرسة ثانوية صغيرة كاثوليكية خاصّة تُدار من قبل راهبات. أنا درستُ فيها. إنّه المكان المثالي لكِ إن كنتِ فعلاً تريدين أن تدرسي.

- ولكن ما الذي سأفعله لكي.

قاطعها:

- سوف يكون من حقّكِ أن تدرسي فيها لثلاث سنوات مدفوعة المصاريف بالكامل. سوف تقيمين في المدرسة وتأكلين وتشربين فيها. وسوف لن يكون هناك ما تنشغلين به سوى دراستكِ. إذا كنتِ جدّية، سوف يوصلكِ هذا الأمر إلى كليّة الطبّ. بعد ذلك، سوف تكون هناك منح دراسية وسيكون عليكِ أنتِ أن تتدبّري أموركِ. هل اتّفقنا؟

استغرقت في الصمت ومن ثمّ سألت:

- وسوف لن أدين لك بأيّ شيء؟

هزّ رأسه نافياً.

- ليس فقط سوف لن تديني لي بأيّ شيء، بل وسوف لن تعودي تسمعي عنّي أبداً.

- لماذا تفعل هذا معي؟

أجاب كما لو أنّه ينطق بأمرٍ بديهي:

- حتى لا تستطيعي أن تقولي بأنّكِ لم تُمنحي فرصتكِ.

وضع رقعة الشطرنج في حقيبته، ثمّ نهض لكي يغادر الزنزانة وهو ينظر إلى ساعة يده.

- لقد تأخّرت، يا كيتلين، هناك من ينتظرني في سان فرانسيسكو. أنا سعيدٌ لأنني صادفتُ طريقكِ. اعتنِ بنفسكِ جيّداً.

غادر وقد ترك لها سترته. سواء كان نسياناً متعمداً أو عملاً خائباً، سوف تحتفظ بهذه السترة طيلة سنوات حياتها.

القسم الخامس

اختيار الشرّ

اليوم السادس

20

الذاكرة الحيّة

الرجال يفضّلون النساء الشقراوات،
لأنّ النسّاء الشقراوات يعرفن ما الذي
يفضّله الرجال.

مارلين مونرو

بوسطن
24 ديسمبر من عام 2010

الساعة السابعة وستّ وأربعين دقيقة صباحاً

كانت الشمس قد أشرقت على مدينة بوسطن، ناشرةً أشعتها في غرفة الفندق ومنعكسة على السطح المعدني للرفوف. منبهراً بأشعة الشمس المنعكسة، وضع رومالد يده أمام عينيه واستدار بعنف لكي يتحاشى النور المبهر.

احتاج إلى وقتٍ كثير حتى استفاق. كان حلقه جافّاً وأنفه مسدوداً وذراعاه منمّلتين. حينما انتصب واقفاً، تبيّن له أنّ كلّ أعضاء جسده كانت مخدّرة. سار لبضع خطوات لكي يلتقط قارورة المياه المعدنية الموضوعة على الطاولة المنخفضة، ولكنّه تعثّر بقسوة بحقيبة سفره وسقط مرمياً بطوله على الأرض. اغتاظ رومالد فنهض من جديد وبحث عن نظّارته وهو يتلمّسها بيديه.

بعد أن وضع نظّارته على أنفه تبيّن له أنّ إيما لم تكن في الغرفة. نظر إلى ساعة يده واستنفر. لم يكن يودّ أن يتخلّف عن وصول كيت إلى المستشفى. بضغطٍ على زرّ من أزرار لوحة المفاتيح، فعّل شاشاته وكتب بضعة أسطر مشفّرة لكي يُظهِر صور كاميرات المراقبة في المرآب الخارجي.

ثمّ اتّصل بإيما.

سألت لاهثةً:

- هل نمتَ جيّداً، يا مَلِك التكنولوجيا؟

- أين أنتِ؟

- أنا في الطابق الأخير، في الصالة الرياضية. أنت أيضاً، سوف تحسن صنعاً لو تتحرّك قليلاً لكي تُحرق شحومك.

تملّص من الموضوع قائلاً:

- ليس لدي الوقت لذلك. إذا كان لا يزال تحقيقكِ يهمّكِ سوف تحسنين صنعاً فيما لو عدتِ إلى هنا في الحال.

- حسناً، أنا قادمة.

حكّ المراهق رأسه وهو يستعرض الصور ويتفحّصها.

في بضع مناورات من يديه، أحكم سيطرته على الكاميرات. من الآن فصاعداً، سوف لن يتمكّن من التقاط المشاهد فحسب، بل وسوف يتمكّن أيضاً من تسليط ومَرْكَزَة العدسات وتوجيهها وفق رغبته وإرادته. وبذلك جال بالكاميرات على كلّ مساحة المنطقة المخصّصة لركن السيارات في الهواء الطلق: لم تكن سيارة كيت قد وصلت بعد.

دخلت إيما إلى الغرفة وهي تمسك في يدها قارورة مياه معدنية وتلفّ منديلاً حول رقبتها.

سألت وهي تدفع الباب:
- هل من جديد؟
- ليس بعد، ولكن قريباً سيحين الوقت لذلك. ومن جانبكِ، هل هناك من جديد؟
مسحت إيما العرق عن وجهها قبل أن تروي للصبي المراهق تفاصيل التحقيقات التي أجرتها عشية ذاك النهار. أصغى رومالد إلى المرأة الشابّة بانتباهٍ واهتمام، وهو يُبقي في الوقت ذاته عيناً على شاشات أجهزته. فجأةً، قاطع حديثها.
قال وهو يشير إلى رجلٍ يركن درّاجته النارية:
- هذا الرجل هو زوج كيت، أليس كذلك؟
اقتربت إيما من الشاشة. كان المهووس بالمعلوماتية على حقّ في ملاحظته. كان ماتيو يهمّ بوضع حبل الإقفال حول دراجة نارية قديمة من طراز تريونف.
- ماذا يفعل هناك، بمفرده؟
خمّنت إيما:
- سوف لن تتأخّر زوجته.
بالفعل، لم يمضِ سوى أقلّ من دقيقة من الوقت حتى جاءت السيارة القديمة من طراز مازدا وعبرت حاجز المرآب لكي تأتي وتركن سيارتها إلى جانب الدراجة النارية لزوجها.
- هل يمكنك أن تركّز العدسة وتقرّب الصورة أكثر؟
نفذ رومالد الإجراء وملأت صورة الدرّاجة النارية الحمراء اللون كامل سطح الشاشة. كانت للمركبة، بهيكلها ذي الأشكال المكوّرة ومقاعدها الشبيهة بالدلاء ومصابيحها القابلة للإخفاء ومقابضها الملبّسة بالكروم، هيئة يمكن التعرّف عليها من بين ألف مركبة. قليلاً

ما تُشاهد في الوقت الحالي، ولكن إيما تتذكّر من أعوام التسعينيات من القرن العشرين مئات الآلاف من هذا الطراز كانت تغزو طرقات العالم أجمع.

فتحت كيت باب السيارة ونزلت منها وتوجّهت نحو زوجها.

قالت إيما وهي تشير إلى الشاشة:

- تبّاً! انظر إلى هذا!

نزع رومالد نظّارته الخاصّة بقصر النظر وألصق وجهه على بعد بضعة سنتيمترات بشاشة الحاسوب.

مرتدية معطفاً واقياً من المطر مقوّساً، تقدّمت الطبيبة الجرّاحة من ماتيو.

كانت تحمل في يدها اليسرى حقيبة رياضية حمراء وبيضاء اللون ثقيلة الوزن.

* * *

كان المرآب الذي تعصف به الرياح يتلألأ تحت أشعّة الشمس. كانت سيارة شاحنة ضخمة مخصّصة لنقل الدم مزيّنة برمز منظمة الصليب الأحمر مركونة وسط الإسفلت تعلوها راية مكتوب عليها:

يستطيع التبرّع أن يُنقِذَ حياةً

نفخ ماتيو في يديه لكي يتدفّأ. نفخ باتجاه زوجته:

- هل حقّاً تريدين أن تأخذي مني جرعةً من الدم منذ الصباح الباكر؟

أكّدت كيت:

- بكل تأكيد. لقد فعلتُ ذلك البارحة. اليوم، حان دورك.

- ولكنكِ تعلمين بأنني لطالما أخاف من الإبر!

- كفّ عن أفلامك هذه، يا عزيزي! يمكنك حقّاً أن تفعل هذا

من أجلي مرّة واحدة في كلّ ستّة أشهر! أنت تعلم جيّداً أن قسمي هو الذي ينظّم هذه العملية بالتعاون مع الصليب الأحمر. هذا أقلّ الأمور التي يمكننا من خلالها أن نقدّم نموذجاً لكي نحثّ ونشجّع بقية أفراد طاقم الموظفين في المستشفى.

- ولكنني لا أعمل هنا في المستشفى!

- هيّا، يا مات، دعنا نستعجل ومن ثمّ، سنتناول معاً فطوراً في الكافيتريا. وسوف تعطيني رأيك بفطائر بان كيك خاصّتهم المعدّة بشراب الإسفندان.

ابتسم لها قائلاً:

- في هذه الحالة، من الصعب أن أرفض.

صعدا يداً بيد سلالم وحدة نقل الدم المتنقلّة.

كانت الشاحنة مفروشة ومرتبّة من الداخل على نحوٍ مريح. كان السائق يتحرّك بانتظام وكان الراديو يبثّ أغاني أعياد الميلاد من محطّة محلية.

ألقت كيت التحية على السكرتيرة الجالسة خلف المكتب الصغير لحجرة الاستقبال:

- مرحباً يا ماري.

ردّت السكرتيرة:

- صباح الخير، دكتورة شابيرو.

منذ سنوات عديدة، كان ماتيو وكيت يتبرّعان بدمهما لمنظمة الصليب الأحمر. لم يكن على الموظّفة سوى إدخال اسميهما إلى الحاسوب لكي تُظهر ملفّهما. وبالتالي استطاع الزوجان أن يصلا سريعاً إلى غرفة أخذ الدم التي كانت تضمّ أربعة مقاعد خاصّة بالمتبرعين.

سألت كيت وهي تلقي التحية على زميلها:

- كيف حالك، يا فوغن. أنت تعرف زوجي، أليس كذلك؟

أجاب الطبيب المسؤول عن وحدة نقل الدم بالإيجاب بإشارة من رأسه وهو يحيِّي الزوجين.

مازحته كيت:

- ماتيو يجدك قاسياً جدّاً. إذا أردت الحقيقة، هو يفضّل أن أغرز أنا الإبر في جلده. حتى أننا تعرّفنا على بعضنا بهذه الطريقة!

اقترح عليهما فوغن دون أن يدري حقّاً كيف عليه أن يأخذ الأمور:

- حسناً، سوف أدعكما لوحدكما، أيّها العاشقان الفتيّان. سوف أذهب لأشرب فنجاناً من القهوة. حينما تنتهيان من الأمر، أخبراني بذلك.

بينما كان الطبيب يتوارى عن الأنظار، نزع ماتيو معطفه وتهاوى في إحدى الأرائك القابلة للطي.

قال ممازحاً وهو يرفع كمّ قميصه:

- لم أكن أعرف بأنّ لدينا هذا النوع من الألعاب.

قالت وهي ترتدي قفازين طبّيين:

- لا تقل لي بأنّ هذا لا يُثيرك بعض الشيء.

عقّمت كيت ساعد زوجها بوساطة قطعةٍ من القطن المشبع بالكحول. ومن ثمّ وضعت حبلاً بلاستيكياً حول عضده لكي يبرز وريدٌ في جوف كوعه.

- اضغط على قبضتك.

أذعن ماتيو للأمر وأدار عينيه لكي لا يرى الإبرة وهي تنغرز في وريد ساعده.

سأل وهو يشير بذقنه إلى بُقجةٍ حمراء:

- ما هذه الحقيبة؟ لم يسبق لي أن شاهدتها.

أجابت كيت وهي تعدل الكيس البلاستيكي الذي بدأ يمتلئ بالدم:

- بلوزتي وحذائي الرياضي.

- هل ستمارسين الرياضة؟

- نعم، ربّما سوف أذهب إلى صالة المستشفى بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ظهراً. عليّ فعلاً أن أعود إلى ممارسة تمارين الرشاقة، هل شاهدت ردفيّ؟

- أنا أحبّ ردفيكِ!

* * *

كانت إيما تقضم أظافرها.

- اللعنة، لماذا تخاطر بالتجوال ومعها حقيبة تحتوي على خمسمائة ألف دولار؟

- هل تعتقدين بأنّ زوجها على علمٍ بالأمر؟

هزّت إيما رأسها بالنفي:

- لا أعتقد ذلك.

جال رومالد، خافضاً وجهه نحو الأرض، في الغرفة بعصبية وتوتّر.

- إذا كانت قد خرجت مع المال، فهذا بالتأكيد ليس لكي تودِعَه في حساب مصرفي.

عاد وجلس إلى جانب إيما وتابعا الشاشة بصمت إلى أن لمحا الزوجين وهما يخرجان من السيارة الشاحنة.

بفضل نظام كاميرات المراقبة، تابعا الزوجين شابيرو في بهو وممرّات المستشفى إلى أن وصلا إلى الكافيتريا.

أبدت إيما ملاحظة وهي تتحسّر:

- يا للخسارة، لا نستطيع أن نسمع ما يقولانه.

غمغم رومالد وقد اعتبر أنّ هذه الملاحظة هي معاتبة له:

- أنتِ لا ترضين أبداً!

قالت إيما وهي تشير إلى الحقيبة الرياضية التي وضعتها الطبيبة الجرّاحة على كرسيٍّ إلى جانبها:

- في كلّ الأحوال، لا تزال الأموال بحوزة كيت.

خلال ما يقارب ربع ساعة، ظلّت عيونهما معلّقة إلى الشاشة. ولكنّهما لم يريا أيّ شيء سوى زوجين يتناولان فطورهما معاً.

قال الفتى المراهق بحسرةٍ كما لو أنّه لم يتناول الطعام منذ ثلاثة أيام:

- لقد جعلاني أحسّ بالجوع مع فطائر بان كيك هذه.

قالت إيما بحنق:

- هل تعلم بأنّ هناك مراكز اهتمام أخرى في الحياة غير التهام الطعام والحواسيب؟

ندم رومالد على ما قاله ثمّ غيّر وجهة الحديث نحو موضوعٍ آخر.

- نشعر فعلاً بأنّهما عاشقان. من الصعب أن نصدّق بأنّ لديها عشيق، أليس كذلك؟

أقرّت إيما:

- هذا صحيح، إنّها تجيد التظاهر.

بعد ما يقارب ربع ساعة، نهض الزوجان. تعانق كيت وزوجها وقبّلا بعضهما بحبّ وغادرا الكافيتريا، كلٌّ من جهته.

أخذ ماتيو درّاجته النارية من المرآب، في حين مرّت كيت على غرفة ملابس الجرّاحين - حيث كانت قد وضعت الحقيبة الرياضية في صندوق أماناتها - قبل أن تصعد إلى جناح العمليات.

راجع رومالد دوام الطبيبة الجرّاحة الذي كان قد حمّله على الخادوم.

- تبدأ نهارها بعملية تبديل صمّام في القلب ومن ثمّ ستعمل على ورمٍ وعائيٍّ في الشريان الأبهر الصدري. هل تريدين البقاء لتشاهدي؟

- كلا، شكراً لك. سوف لن يحصل أيّ شيء جديد حتى الظهيرة ولقد سبق لي وأن شاهدت كلّ حلقات مسلسلي «إي آر» و«غرايز أناتومي» الطبيّين.

كرّر رومالد ببراءة:

- أمّا أنا، فقد جعلتني فطائر بان كيك هذه أحسّ بالجوع.

ابتسمت إيما قائلةً:

- هل هذه رسالة مبطّنة لكي أدعوك إلى تناول فطورٍ؟

ردّ المهووس وهو يهزّ كتفيه راضياً عن افتضاح أمره:

- ربّما.

- حسناً، لقد ربحتَ الرهان، لأنني أيضاً أحسّ بالجوع ولدي كلمتان لأقولهما لك.

* * *

جلب النادل، الذي كان يرتدي سترة ذات مربعات ولديه لحية شبيهة بلحية هواة الجاز، كوبين من الكابوتشينو ووضعهما على

الطاولة وقد شكّلت رغوتهما صورة قلبٍ ملوّنٍ بلون القشدة وهو يعوم على سطح السائل الساخن.

كان رومالد وإيما قد جلسا في مقهى صغير يقع في شارع بويلستون ستريت، قريبٍ من فندقهما.

كان المكان بنبتاته الخضراء وطاولاته ذات الطراز القديم ومقاعده المصنوعة من الخشب الطبيعي، يوحي للوهلة الأولى بجوٍّ شبه رعوي.

مزجت إيما خليط الحبوب المعالجة «بيرشر ميوزلي» مع كوبٍ من اللبن الرائب وهي تنظر، بنظرةٍ فيها بعض الحنان، إلى رومالد الذي سكب بنزاهة ودقّة نصف كمية شراب «الإسفندان» على فطائر بان كيك خاصّته.

- يجب أن تشرح لي أمراً، يا رومالد.

وعد رومالد وفمه مليءٌ بالطعام:

- كل ما تريدينه.

- ماذا جئت تفعل في الولايات المتّحدة الأميركية؟

التهم قطعة من فطيرة بان كيك التي ابتلعها مع جرعة كبيرة من الكابوتشينو.

- لقد سبق وقلت لك: لقد لحقتُ بصديقتي الصغيرة التي جاءت لكي تعمل في مدينة نيويورك كمربية أطفال مقابل حصولها على السكن والطعام.

- والتي أهملتك وتخلّت عنك بعد وصولكِ إلى هنا، نعم، لقد قلت لي هذا الكلام. ولكننا نحن الاثنان نعلم أنّ هذا الكلام ليس صحيحاً، أليس كذلك؟

رفض اتّهامها:

- بالطبع هذا الكلام صحيح!

قالت إيما:

- فلنقبل بهذا الكلام، ولكن لماذا لا تعطي أخبارك لوالديك؟

ردّ الصبي وهو يحدّق في طبق طعامه:

- أنا أرسل أخباري إلى والدي.

- كلا، هذا غير صحيح. لقد اتّصلتُ بهما هذه الليلة. إنّهما في غاية القلق بشأنّك وعلى أحرّ من الجمر لكي يعرفا أخبارك. لم تعد تتّصل بهما منذ ثلاثة أسابيع.

- ولكن. كيف حصلتِ على رقم هاتفهما؟

- أوه، لا بأس، إذاً؟ ربّما تعتقد بأنّ ليس هناك سواك مَن يجيد استخدام حاسوب!

عاتبها على تصرفها:

- لم يكن لكِ الحقّ في ذلك.

- على الأقل، طمأنتهما. وطالما نحن نتحدّث عن هذا الموضوع، أخبرني أمراً: لماذا بقيتَ في نيويورك، إذا كانت هذه الفتاة قد أهملتك حقّاً وتخلّت عنك؟ لماذا لم تعد إلى فرنسا لكي تستأنف دراستك في المدرسة الثانوية؟

- لأنني لم أعد أطيق منطقة بون، لم أعد أطيق والدَيّ، ألا تستطيعين أن تفهمي هذا الأمر؟

- أجل، ممتاز، ولكن بما أنّك قد أصبحت في الولايات المتحدة الأميركية، يمكنك أن تسافر، أن ترى البلد، أن تجد عملاً أكثر متعةً وأعلى دخلاً. هذا في متناول يدك، لأنك ماهر. ولكنك بدلاً من ذلك، أمضيت خمسة عشر يوماً في البقاء بلا فاعلية في دورة تدريبية في مطعم إمبراتور وأنت تمارس عملاً لا تحبّه. لماذا؟

- دعيني وشأني وكفّي عن توجيه أسئلتكِ. أنتِ لستِ شرطية لكي تحقّقي معي.

- أجل، أنا شرطية إلى حدٍّ ما منذ أن حصلتُ على هذه البطاقة الجميلة التي استخرجتها لي. ومثل أيّ شرطيٍّ يحترمِ نفسه، ما زال لديّ سؤالٌ يجب أن أطرحه عليك: من أجل ماذا ذهبت يوم الأحد الماضي إلى سكارسدال عند ميشيل بيركوفيتش، المديرة العامّة لمطعم إمبراتور؟

هزّ رأسه نافياً:

- لم تطأ قدماي هناك على الإطلاق.

هدّدته إيما وهي تلقي على الطاولة بطاقة القطار التي كانت قد عثرت عليها في جيبه:

- كفّ عن اعتباري مغفّلة.

- هل نبشتِ في جيوبي؟ ليس لكِ الحقّ في ذلك!

- آه حسناً، وأنت، ماذا تفعل غير ذلك، مختفياً خلف شاشاتك وكاميراتك؟ أنت تمضي أيامك في النبش في حياة الناس. في مراقبتهم، في انتهاك حياتهم الخاصّة.

دافع الصبي عن نفسه:

- كلا على الإطلاق، أنا أقوم بهذا الأمر لكي أقدّم لكِ المساعدة.

- وأنا أيضاً أريد أن أقدّم لك المساعدة، لماذا ذهبت إلى ميشيل بيركوفيتش؟

- لأنّها والدتي.

رفعت عينيها نحو السماء واستشاطت غضباً عليه. أكّدت وهي تقرأ الملاحظات التي كانت قد دوّنتها على ساعدها:

- ماذا ستُخرج لي أيضاً من حماقة وبلاهة؟ لقد تحدّثت إلى والدتك هذه الليلة! اسمها ماري - نويل لوبلان. إنها تعمل في. منظمة الصندوق الأوّلي للتأمين الصحّي في منطقة بون.

أدار رومالد نظرته الفارغة نحو النافذة المزجّجة واستغرق في صمتٍ غريب.

هزّته إيما من كتفه:

- هيه، يا سابق عصرك! هلّا شرحت لي؟

أطلق تنهيدة طويلة وفرك عينيه. لا بدّ أنّه قد فضّل أن يكون في مكانٍ آخر، حتى وإن كان جزءٌ منه قد رغب في أن يتخفّف من حمولة سرّه.

بدأ رومالد بالحديث:

- قبل ثلاثة أعوام، من خلال النبش بين أغراض والدتي، اكتشفتُ بأنني ابنٌ بالتبنّي منذ لحظة ولادتي.

أبدت إيما حركة اندهاش.

- لم يخبرك والداك بذلك أبداً؟

- كلّا، ولكنني خمّنتُ ذلك.

- كيف؟

- من خلال أمور صغيرة، من خلال لحظات التفكّر، من خلال بعض الملاحظات، من خلال حالات من الصمت كانت تُقلقني للغاية.

حدّث إيما قلبُها بما تلا ذلك.

- هل حاولت العثور على والديك البيولوجيين؟

- لقد استغرق منّي ذلك عامين. تدبّرتُ أمري في البداية لكي أسرق الملف من دار التوليد في أوكسير، ولكن مثلما كنتُ أخشى،

لم يكن الملفّ يذكر اسم أمّي. ومن ثمّ اخترقت حساب مديرية المعونة الاجتماعية للطفولة للمجلس العامّ في كوت دور. هناك أيضاً، لم أعثر على أيّ شيء. وجدت الحالة طريقها إلى الحل حينما استطعتُ التسلّل إلى نظام المجلس الوطني وذلك للوصول إلى الأصول الشخصية. وقد احتجزت رسائل علمتُ من خلالها بأنّ والدتي البيولوجية قد وضعت مولودها باسم مجهول في عام 1993. في تلك الفترة، كانت تُدعى ميشيل روسيل. من فرط التحقيقات، وجدتُ أثراً لها. لقد أعادت تنظيم حياتها في الولايات المتحدة الأميركية. لقد تزوّجت من مصرفيّ وأخذت لقبه، بيركوفيتش. ولها منه ولدان. حينما علمتُ بأنّها تدير الخدمات الإدارية في مطعم إمبراتور، قرّرت الذهاب إلى نيويورك على أمل أن أتواصل معها. كنتُ بحاجة إلى اللقاء بها والتحدّث إليها. هذه الرغبة كانت أقوى من كلّ شيء وكانت تستحوذ على ذهني. كان يجب أن أعرف من أين أتيت.

- حسناً، وماذا حدث؟

- لا شيء، بالضبط. نجحتُ في توظيف نفسي. كنتُ أصادفها كلّ صباح في المكتب، ولكنّها لم تكن ترفع رأسها نحوي أبداً.

- هذا أمرٌ طبيعي. كيف تريد أن.

- بعد خمسة عشر يوماً، قررتُ أن أعترف لها بالحقيقة. استطعتُ الحصول على عنوانها من خلال الوصول إلى بطاقات الدفع الخاصّة بالمطعم. انتظرت لغاية عطلة نهاية الأسبوع واشتريتُ تذكرة قطار إلى سكارسدال. وصلت إلى هناك بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً بقليل. وكان عليَّ أن أمشي لما يقارب نصف ساعة كاملة من المحطّة إلى حيّهم. كان الطقس بارداً، كان المطر يهطل وكنتُ

مبتلّاً. كانت ساقاي ترتعشان واضطرب قلبي تأثّراً. في النهاية، طرقتُ الباب وهي مَنْ فتحت لي الباب. بدرت منها حركة تراجعٍ إلى الوراء، كما لو أنّها اشمأزت. أعتقد أنّها اعتبرتني أحد المشرّدين الذين لا مأوى ثابت لهم بسبب ثيابي المبلّلة وقيافتي المضحكة.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، قلتُ لها.

* * *

- صباح الخير، سيّدة بيركوفيتش.

- صبا. صباح الخير، مَنْ أنت؟

- أنا رومالد لوبلان. أنا أعمل في قسم البريد والاتصال في مطعم إمبراتور. وأنتِ من وظّفتِني.

- آه نعم، لقد تذكّرت، المتدرّب الفرنسي. ماذا تريد؟

تركت الباب مفتوحاً. من خلال الباب الموارب، لمحتُ صالوناً مريحاً وشجرة تنّوب لعيد الميلاد. سمعتُ صوت موسيقى، وصيحات فرحٍ لأطفال. شممتُ رائحة طبقٍ شهيٍّ كان على وشك الاستواء.

خلال ما يقارب دقيقة واحدة، لم أكفّ عن النظر إلى عينيها. حتى اللحظة الأخيرة، كنتُ مقتنعاً بأنّها سوف تتعرّف إليّ. وبأنّها سوف تكتشف تشابهاً في قسمات وجهي أو في صوتي. ولكن لا شيء البتّة. كانت أمام شخصٍ غريب. أمام شخصٍ مزعجٍ وغير مناسب.

استشاطت ميشيل بيركوفيتش غضباً وصاحت في وجهي:

- حسناً، هذا يكفي الآن. لا تبق مزروعاً هنا بهيئتك البلهاء. اذهب، وإلّا سأطلب من زوجي أن يستدعي الشرطة.

هززتُ رأسي. تردّدت وقلتُ لها:

- أنا ابنكِ.

في البداية، تجمّدت ملامحها، ثمّ تشنّج وجهها. ذُعِرَت:

- ماذا تقول؟

أغلقت الباب من ورائها، ثمّ سارت لبضع خطوات لكي تحثّني على اللحاق بها إلى الحديقة.

- اسمع، لا أعرف من روى لك هذه الترّهات، ولكن هذا الكلام ليس صحيحاً.

نبشتُ في جيبي وأعطيتها الوثائق التي عانيت كثيراً من أجل الحصول عليها، والتي يذكر ملف التبّني العائد لمعونة الطفولة اسمها.

اطّلعت على محتويات الورقة ورأيتُ الذعر يظهر في عينيها. لم تكفّ عن الالتفات خشية أن يأتي زوجها أو أحد أطفالها ويبحث عنها. كنتُ قادماً أبحث عن الحبّ، ولكنّها لم تمنحني سوى الخوف. أعادت إليّ الوثيقة ورافقتني حتى الشارع. شرحت لي بأنّ هذه الولادة لم تكن سوى «طيش شباب». لم تكن تبلغ من العمر سوى ثمانية عشر عاماً ولم يتبيّن لها في الحال بأنّها كانت حامل. كانت على ما يبدو قد اتّخذت احتياطاتها، ولكن.

* * *

- أعتقد أنّكَ سألتها من يكون والدك؟

- هي بنفسها لم تكن تعرفه. زعمت بأنّه كان «رجل ليلةٍ واحدة»، رجلٌ عسكري التقته في حانةٍ في بيزانسون. في تلك الفترة، كانت لوحدها، ولكنّها كانت ذات طموح: كانت تريد بأيّ

ثمن أن تغادر شرق فرنسا وتسافر لكي تدرس في الولايات المتحدة الأميركية. وكان من المستبعد أن ترتبك بطفلٍ.

- هل طرحت عليك أسئلة بشأنك؟

- على الإطلاق. لقد أدركتُ جيّداً بأنّها لم تكن ترغب في معرفة المزيد عنّي. لقد شرحت لي بأنّ لا زوجها ولا أطفالها لهم علمٌ واطلاعٌ على تلك الفترة من حياتها وكان من المهمّ جدّاً بالنسبة إليها بأن لا يعلموا شيئاً على الإطلاق عن تلك الفترة، فالرجل المكتَشَف هو الذي يستطيع أن يحطّم أسرةً. ثمّ توارت لوقت قصير. حينما عادت، كانت تحمل في يديها دفتراً للشيكات. طلبت مني أن لا أعود للعمل في المطعم صباح النهار التالي وحرّرت لي شيكاً بمبلغ خمسة آلاف دولار. أعطتني المبلغ كما لو أنها تقول لقد تعادلنا ومن ثمّ أمرتني بأن لا أعود مرّة أخرى وألتقي بها. عادت إلى البيت وأغلقت الباب. أمّا أنا، فقد بقيتُ هناك، دائخاً، وحيداً تحت وابل المطر. ثمّ مشيتُ حتى وصلت إلى محطّة القطار، رميتُ الشيك في حاوية عامّة وقررتُ العودة إلى فرنسا. وقد اتّصلتِ بي في الوقت الذي كنتُ أحزم فيه حقائبي وأمتعتي.

- أنا متأسفة على أن تسير الأمور بهذه الطريقة، يا رومالد. ولكن عليك أن تحاول العثور على نقاطٍ إيجابية في هذا الأمر. إنّ والديك الحقيقيين، هما أولئك اللذين ربّياك، وأنت تعرف هذا جيّداً. وعلى الأقل، الآن، أنت تعرف من يكون والداك البيولوجيان. يمكنك أن تتقدّم أكثر إلى الأمام وأن.

قاطع رنين الهاتف المحمول للمراهق إيما في حديثها.

نظر رومالد إلى الشاشة وقرّر أن يردّ على المكالمة.

إنّه جارود.

فتح السماعة، تبادل بضع كلمات مع المختصّ بالمعلومات وحملق بعينيه.

قال وهو يرتدي معطفه الرياضي:

- يجب أن نعود إلى الفندق بأسرع وقتٍ ممكن.

- ما الذي يحدث؟

- أنا أعلم كيف حصلت كيت على الخمسمائة ألف دولار.

21

مطارَدة

يحوّل المرء يده حينما يضعها في
يدٍ أخرى.

بول إيلوار

بوسطن
24 ديسمبر من عام 2010
الساعة التاسعة وثلاث وأربعين دقيقة صباحاً

- لا تلمسي هذا الحاسوب!

حينما عادا إلى غرفة الفندق، كانت المرأة المسؤولة عن ترتيب الغرفة منهمكة في حديثٍ مع المسؤولة عنها والتي كانت قد دلّتها على الأجهزة المعلوماتية التي نصبها رومالد بطريقة غريبة.

متوجّهة بكلامها إلى إيما، قالت مشرفة الطابق وهي تشير إلى تشابك الأسلاك والوصلات الكهربائية:

- سيّدتي، أنا آسفة من كلّ قلبي، ولكن المآخذ الكهربائية للفندق ليست مصمّمة لكي تتحمّل كلّ هذه الأجهزة. سوف أكون مضطرّة لأن أطلب منكِ.

وعدت إيما وهي تُخرج السيّدتين من الغرفة:

- سوف نفصل كلّ هذه الأجهزة.

أغلقت الباب وضغطت على زر القاطع لكي تفعّل إشارة «ممنوع الإزعاج».

عادت إلى الصبي المراهق الجاثم خلف جداره من الشاشات وسألته:

- حسناً، هلّا شرحت لي؟ كيف استطاعت كيت أن تحصل على هذا المبلغ الكبير من المال؟

اتّصل رومالد بشبكة الإنترنت لكي يُظهر صندوق بريده على الشاشة الكبيرة.

- هل تتذكّرين موقع كيت الإلكتروني: **محن امرأة من بوسطن؟**

- بالطبع أتذكّره.

- مثلما طلبتِ منّي، قمتُ بالتدقيق في الموقع، ولكنني لم أعثر على أي شيء مُقنِع. وبمحض الصدفة، أرسلتُ رابط الموقع إلى جارود وطلبتُ منه أن يعكف على المشكلة.

- زميلك المختصّ في المعلوماتية؟

- نعم. وقد وعدته بأنّكِ سوف تمنحيه ألف دولار إذا ما استطاع أن يتوصّل إلى شيءٍ ما.

قالت بخبث:

- أنت سخيٌّ من أموال الآخرين. ولكنك أحسنت صنعاً.

- لاحظ قبل كلّ شيء أن الصور تبدو ثقيلةً بالنسبة إلى هكذا موقع.

- وبعد ذلك؟

- هذا الأمر حثّه على أن يمرّر الصور على مختلف البرامج التي تقوم بحلّ الطلاسم وبفكّ الرموز.

سألت إيما وهي تجلس على حرف النافذة:

- لكي يحلّ طلاسم ماذا؟

أدار رومالد كرسيّه نحوها وسألها:

- هل سبق لكِ وسمعتِ عن الستيغانوغرافي؟

- ستيغانوغرافي؟

- ستيغانوغرافي. هذه تقنية تسمح بإخفاء صورة داخل صورة أخرى رقمية لا أهمية لها.

قطّبت إيما عينيها.

- انتظر، هذا يذكّرني على نحوٍ غامض بشيءٍ ما. لقد تحدّثت الأخبار عن هذا الأمر مؤخّراً، أليس كذلك؟

- نعم. إنّها التقنية التي تمّ استخدامها من قبل الجواسيس الروس العشرة الذين تم إلقاء القبض عليهم في الولايات المتحدة الأميركية، في الصيف الماضي. بفضل الإنترنت، كانوا يرسلون وثائق سريّة إلى موسكو من خلال إخفائها خلف صور ترفيهية. كما تمّ الحديث عن الستيغانوغرافي غداة هجمات الحادي عشر من سبتمبر. كان مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) يتحدّث باستمرار عن أنّ رجال أسامة بن لادن قد نسّقوا هجماتهم من خلال تبادل الصور المخفية على منتديات للمحادثة بدت في ظاهرها لا قيمة ولا أهمية لها.

- وهل حقّاً كل هذا لا يُرى بالعين المجرّدة؟

- لا يمكن اكتشافها أبداً.

- ولكن كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن إدراج صورة داخل صورة أخرى؟

- الأمر ليس معقّداً جدّاً. هناك العديد من البرامج التي تسمح

بإجراء هذه العملية. إجمالاً، تقوم هذه التقنية على تعديل قيمة كل بيكسل في الصورة بشكلٍ خفي.

سحبت إيما كرسيّاً وجلست إلى جانب الصبيّ المراهق.

- لم أفهم أيّ شيء. كن أكثر وضوحاً.

- حسناً، هل تعرفين ما هو البيكسل؟

- المربّعات الصغيرة التي تتألف منها الصور؟

وافق بإشارة من رأسه ثمّ تابع شرحه التوضيحي.

- كل بيكسل يتألّف من ثلاث ثمانيات: ثمانية للعنصر الأحمر، ثمانية للعنصر الأخضر، ثمانية للون الأزرق. في كلّ لونٍ من هذه الألوان الثلاثة 256 تلوينة. الأمر الذي يعطينا في نهاية المطاف عدداً إجمالياً من 256 × 256 × 256، أي أكثر من ثلاثة عشر مليوناً من الألوان، هل ما زلتِ تتابعينني؟

كانت ساهية بعض الشيء، ولكنّها حاولت ألا تُظهر ذلك.

واصل رومالد شرحه التوضيحي:

- الثُمانية الواحدة تتألّف من ثمانية بايتات. وبالتالي تقوم الخدعة على استخدام بايتٍ واحد في كلّ ثمانية تشكّل كل بيكسل من الصورة. على هذا المستوى، ومن خلال بايت واحد، يتم تحوير الصورة على نحو طفيفٍ للغاية بحيث لا يكون ذلك مرئياً بالعين المجرّدة.

أمسكت إيما برأس خيط الشرح والتفسير.

- وتُستخدَم المساحة الحرّة لتخزين معطيات أخرى.

أطلق الصبي المراهق صفارة إعجاب. قال وهو يُنير وجهه اللطيف بابتسامة إعجاب ورضا:

- لا بأس في هذا، بالنسبة إلى امرأةٍ تستخدم ساعدها كمفكرّة لتدوين الملاحظات!

ضربت على كتفه وتابعت أسئلتها:

- ولكن ما علاقة هذا الأمر مع كيت؟

- كانت كيت تستخدم موقعها الإلكتروني كصندوق ميت[1] كلّ الصور التي كانت تنشرها على موقعها الإلكتروني كانت مخفية.

- ولكن لكي تخفي ماذا؟

- سوف ترين الآن. إنّه أمرٌ مذهل.

عرض رومالد أوّل صورة.

- هل ترين هذه الصورة؟ لقد نشرتها كيت كصورة توضيحية لمقالةٍ حول محلٍّ للحلوى في نورث إند.

تذكّرت إيما هذه الصورة التي كانت تمثّل واجهة محلّ مليئة بقوالب كاتو متعددة الألوان.

ضغط رومالد على زرٍّ من لوحة المفاتيح وانفتحت نافذة جديدة على شاشة الحاسوب.

- ها هو ما حصل ما أن تمّ استخراج الصورة المخفية.

لم تظهر على الشاشة حينذاك صورة جرى الحديث عنها بالتحديد، وإنّما ما يشبه مخططاً مزخرفاً لمرمزات رياضية ولخطوط رمز معلوماتي.

كشّرت إيما.

- ما هذا؟

---

(1) في لغة التجسّس، الصندوق الميت هو موقع يُستخدَم للتبادل السرّي للوثائق دون أن يكون متبادلو الرسائل مضطّرين للقاء وجهاً لوجه.

- بالنسبة إليّ، هذا عبارة عن النموذج الأصلي. إنّه مخطّط لاختراعٍ قبل صنعه، إذا أحببتِ أن تقولي ذلك. ربّما مخطّط لمجسّ حركة. ولكن الأهم هو هذا.

ركّز على الصورة وكبّر حجمها ومن ثمّ زاد في درجة تباين الألوان لكي يُظهِر شعاراً يجسّد الحيوان الأسطوري قارن منمنم.

صرخت إيما:

- هذه الوثيقة تخصّ شركة فيتش إينك! هل تعتقد أنّ كيت تمارس التجسّس الصناعي؟

بمساعدة جارود، أمضيا ما تبقى من فترة الصباح في فكّ رموز صور الموقع الإلكتروني. كانت الصور الأقدم تتعلّق بمشاريع ومخططات مهندسي شركة فيتش إينك. الذين امتُحِنوا على مجسّ ثوري للحركة قادرٍ على التفاعل مع شاشة الحاسوب بحركةٍ بسيطة من الأصابع.

قال رومالد ضاحكاً:

- مثل توم كروز في فيلم **تقرير الأقلية**.

كانت صورٌ أخرى تخصّ نسخة مقلّدة من برنامج قابل لأن يترجم فورياً كلّ نوع من وثيقة صوتية، لكنّ المادّة الأكثر حساسية كانت مخفية في الصور الأكثر حداثةً. كان الأمر يتعلّق بكلّ بساطة بمعطيات مجزّأة ترتبط بنظام التحكّم بالطائرات، من دون طيار، المقاتلة الأميركية من طراز MQ1 (إم كيو ون بريداتور) وMQ9 (إم كيو ناين ريبر): الأسلحة الأكثر تطوّراً وتعقيداً للجيش الأميركي. تلك التي تُستخدَم الآن في توجيه الضربات في أفغانستان.

أسرار تكنولوجية وعسكرية...

شعرت إيما ببطنها يتعقّد ويتشنّج.

من الواضح أنّ كيت قد استفادت من قربها من نيك فيتش لكي تختلس منه أسراراً صناعية لا بدّ أنها كانت تبيعها بأسعارٍ ذهبية إلى شركة منافسة أو إلى دولة راغبة في معرفة بعض الأسرار العسكرية للولايات المتحدة الأميركية.

خمّن رومالد كما لو كان يقرأ في أفكارها:

- وكانت التعليقات المتروكة على الموقع تُستخدَم في هذا الأمر! «مطعمٌ مملّ»، «هامّ، نريد معرفة المزيد عنه». كان الأمر يتعلّق بتوجيه الطبيبة الجرّاحة في تحريّاتها. بإخبارها أيّ المعلومات مفيدة وأيّها غير مفيدة. بحثّها على التنقيب في بعض الميادين من خلال تقديم وثائق أخرى.

تبادلت إيما نظرة قلقة مع الصبيّ المراهق. شعر الاثنان بأن الأدرينالين يرتفع في الوقت نفسه الذي يتعاظم فيه الخطر. وكما لو أنّهما بطلا فيلمٍ من أفلام الترقّب القلق. لقد مدّ «تحقيقهما» تشعباته إلى حقولٍ غير متوقّعة. إلى أراضٍ ربّما ما كان عليهما أن يغامرا فوقها أبداً.

اللعنة...

غزاها الخوف، فأغمضت عينيها وضمّت يديها على شكل زاوية تحت ذقنها.

كيف وصل بها الأمر إلى هذه المرحلة؟ قبل خمسة أيام، ردّت بكلّ بساطة على رسالة إلكترونية من أستاذٍ للفلسفة وقعت تحت تأثير سحره. كلّ ما كانت تتمنّاه هو أن تجد لنفسها رجلاً! وقد قادها هذا الأمر إلى أن تضع إصبعها بين مسنناتٍ مدمّرة تتجاوز تماماً قدرتها على التحمّل. خلف مظاهر حياة ماتيو وكيت المرتبّة جيّداً، اكتشفت حقيقة مصنوعة من الأكاذيب والأسرار الخطيرة. حتى الآن، كان

الحظّ يقف إلى جانبها، ولكن كلّما كانت تتقدّم في التحقيقات أكثر، كانت تشعر بأنّ الخطر يترصّدها ويقترب منها أكثر.

أبدى رومالد ملاحظة:

- كلّ هذا لا يجعلنا نتقدّم فعلاً. لا بدّ أن كيت قد عرّضت نفسها لمخاطر جسيمة لكي تحصل على هذه الوثائق. والحال أنّ كل ما نعرف عنها يشير إلى أنّها ليست امرأة خسيسة تُباع وتُشترى. المال ليس محرّكها ولا دافعها، إنّه مجرد وسيلة للحصول على شيءٍ آخر.

همهمت إيما:

- شيءٌ ما يُكلِّف نصف مليون دولار. ما علينا أن نكتشفه هو أن نعرف ماذا ستفعل كيت بهذا المبلغ من المال.

ما كادت إيما أن تنهي جملتها حتى التقط رومالد نظّارته. قال بصوتٍ عالٍ وهو يشير إلى إحدى الشاشات:

- أعتقد أننا سوف نعرف ذلك في الحال.

كانت الساعة تقارب الواحدة من بعد منتصف الظهيرة. وكانت كيت قد أنهت عمليتيها الجراحيتين.

كانت عيونهما تنتقل من شاشة إلى أخرى لكي يتابعا حركة الطبيبة الجرّاحة وهي تنتقل من قاعة العمليات إلى ممرّات المستشفى. وقد شاهداها وهي تقف أمام خزانتها وتأخذ منها الحقيبة الرياضية.

صرخت إيما وهي ترتدي بلوزتها:

- سوف أذهب إلى هناك!

- ولكن.

التقطت حقيبتها الظهرية وهاتفها المحمول ووثبت خارج الغرفة.

أمرت رومالد قبل أن تصفق الباب من ورائها :

- لا تدعها تغيب عن أنظارك أبداً.

* * *

هيا أسرع!

ركضت إيما بخطوات واسعة لكي تصل إلى المستشفى سيراً على قدميها. حينما خرجت من الفندق، التزمت اليمين لكي تسلك شارع تشارلز ستريت، أحد أكبر شوارع المدينة، والذي كان يفصل بين حديقة كومون والحديقة العامّة، الفسحتين الخضراوين في المدينة. استبدّ بها البرد منذ اللحظات الأولى. كانت تتقدّم في مواجهة الرياح التي كانت تلسع وجهها. عند كلّ تنفّسٍ، كانت تشعر بأنّ منخريها وقصباتها الرئوية تمتلئ بالجليد.

واصلت جريها لأكثر من مائتي متر وهي تزيد من سرعتها. وعلى أمل أن تكسب شيئاً من الوقت، انعطفت إلى اليمين واندسّت داخل الحديقة لكي تتّجه بانحراف نحو الشرق. كانت قلقة. وكانت كلّ عضلاتها تؤلمها، وكانت رئتاها تطلب أكسجيناً لم يعد بمقدورها أن تقدّمه لهما. ولكي لا يتم أيّ شيء على ما يُرام، كان نعلا حذائها الطويل ينزلقان وكان بنطلونها الجينز المجسّم والضيّق يعيق جريها. خاصّة وأن حقيبتها الظهرية كانت ثقيلة هي الأخرى وعند كلّ حركةٍ، كان هيكل الحاسوب يصدم أسفل كليتيها.

هيّا أسرع!

حينما وصلت إلى شارع جوي ستريت، كان يلزمها بضع ثوانٍ لكي تحدّد مكانها. أرادت أن تُقلع من جديد، ولكنّها كانت تلهث من التعب. كان رأسها يدور والبرد يلسع عينيها وصدرها يشتعل بالنار. ترنّحت وتعثّرت بحرف الرصيف.

لا تتوقّفي! ليس الآن. . .

على حافة الانهيار، وعلى الرغم من الألم الحادّ الذي كان ينتشر في قفصها الصدري، نجحت في استئناف جريها. كانت تعلم لو أنها توقّفت هنا، سوف لن تجد كيت في الوقت المناسب.

كانت الأمتار الثلاثمائة التي تفصلها عن مدخل المستشفى هي الأكثر صعوبةً. حينما وصلت إلى شارع كامبردج ستريت، أخرجت هاتفها المحمول من جيبها، كانت ترغب في أن تتقيّأ. وقد شوّشت دوخةٌ نظرها.

صرخت وهي تُلصق الهاتف الخليوي على أذنها:

- أين هي، يا رومالد؟

كانت تسعل. ربّما أرادت أن تستلقي على الرصيف.

قال الصبي المراهق بلهجة فيها نوعٌ من التأسّف:

- لقد أضعتها. غادرت كيت سور المستشفى. لم تعد ضمن حقل مراقبة الكاميرات!

- اللعنة! من أين خرجت؟

- عبر شارع بلوسوم ستريت، بجانب فندق هوليداي إن، بالكاد قبل دقيقتين من الآن.

ألقت إيما نظرة دائرية. كانت ترى بداية الشارع، على بعد نحو مائة متر. كانت كيت قريبة جدّاً كانت تشعر بذلك.

- ماذا ترتدي؟

- لقد احتفظت بصدريتها وأخذت معطفها الواقي من المطر.

ضاق نفس إيما، وضعت يديها على ركبتيها، والتقطت أنفاسها، في حين كانت نفثات البخار تصدر عن شفتيها.

صدريةٌ ومعطفٌ واق من المطر. . .

حاولت أن تتبيّن هذه الألبسة بين المشاة الذين كانوا يتدافعون على الرصيف، ولكن، في تلك الساعة من النهار، كان جمعٌ من الأطباء والممرضات والمساعدين يأخذون استراحتهم للغداء في المطاعم ومطاعم الوجبات السريعة في تلك الأنحاء.

صدريات بيضاء، «بيجامات» مخضرّة، وزيّ موحد برتقالي اللون. . .

مسحت قطرات العرق التي تراكمت أمام عينيها. فجأةً، وفي لمحة بصر، لمحت بقعةً حمراء على بعد خمسين متراً أمامها، وسط جمهرة الناس الذين كانوا يتّجهون نحو متجر وول فودز ماركيت.

الحقيبة الرياضية. . .

أخمد الهيجان مؤقّتاً التعب واستجمعت آخر ما تبقى لديها من قوى لكي تذهب إلى المتجر الكبير.

- ابقَ على الخطّ، أيها السمين! لقد عثرتُ على كيت!

* * *

اقتحمت إيما الفضاء الفسيح وتوجّهت نحو الطبيبة الجرّاحة بخطوات واسعة. كانت لوحدها ولا تزال تحمل الحقيبة الرياضية على كتفها. مع الاحتفاظ بكيت في نطاق حقل رؤيتها، لم تلقَ إيما أيّ صعوبة في الاندساس بين حشود الناس في المتجر. من خلال التشكيلة الواسعة لمنتوجاته البيولوجية، كان متجر وول فودز يتوجّه على نحوٍ خاص نحو الزبائن الميسورين والبيئيين. قبل بضع ساعات من موعد احتفال ليلة عيد الميلاد، كانت أغاني الميلاد تصدح وكان المكان يغصّ بالزبائن. في مدخل المتجر، كان قد تمّ تخصيص منطقة واسعة على شكل كافيتريا تتيح للزبائن أن يتناولوا مرطّباً أو

يتناولوا الغداء مباشرة من أخذ الطعام من مآدب وبسطات تعرض أطباقاً ساخنة ووجبات سوشي اليابانية ومعجّنات الباجل.

حينما وصلت إلى بعد بضعة أمتار من الطبيبة الجرّاحة، سارت إيما في إثر كيت. ووقفت في رتل الزبائن المصطفين أمام بار السَلَطات وأخذت زورقاً وملأته بتشكيلةٍ من الخضار النيّئة والبذور النابتة واختارت قارورة من شراب الكومبوتشا ودفعت فاتورة طعامها عند أحد الصناديق المخصّصة.

ومن ثمّ تعقّبت كيت في الصالة الطويلة للطعام السريع التي يمكن للزبائن أن يتناولوا فيها طعامهم وهم في الوقت نفسه يشاهدون الحركة والحيوية في الشارع من خلال واجهة زجاجية واسعة.

كانت الصالة تضجّ بالناس. كان الزبائن يتدافعون ويتزاحمون لكي يجدوا مكاناً للجلوس إلى إحدى الطاولات الجماعية المحاطة بمقاعد خشبية.

كان الجوّ في الصالة شبيهاً بجوّ مطعمٍ ذاتيّ الخدمة لمأكولات غالية من النوع نفسه. كان الزبائن ينهضون ويذهبون بأنفسهم لكي يسخّنوا طعامهم في أحد الميكروويفات الموضوعة تحت تصرّفهم بنوعٍ من التشاركية المبالغ فيها.

من جهة أخرى، كان الوقت في هذا المكان نفيساً. كان الزبائن يأكلون بسرعة: وجبة غداء معدّة لوقت الحاجة يتناولها الزبون على عجلٍ قبل أن يعود إلى عمله في المستشفى أو في مكاتب ويست إند. كان المكان المثالي لكي يمرّ الشخص دون أن يلمحه أحد.

حينما نظرت إيما إلى كيت وهي تجول بين الطاولات، أدركت بأنّها كانت على موعدٍ مع أحدهم. جلست الطبيبة الجرّاحة إلى طرف طاولةٍ، على كرسيٍّ حجزه رجلٌ بوضع معطفه عليه. حاولت

إيما أن تقترب منها، ولكنّ أقرب مكانٍ شاغرٍ وجدته إيما كان يقع على بعدٍ حوالي ستّة أمتار من طاولة كيت. كانت طاولتان طويلتان تفصلهما عن بعضهما، وكان الضجيج المتصاعد في المكان يقضي على أيّ أملٍ في سماع حديثهما.

يا لسوء الحظّ!

جلست وقطّبت عينيها لكي تمعن على نحوٍ أفضل النظر في القادم الجديد. كان رجلاً في حوالي الخمسين من العمر، شعره قصير وقد غزاه بعض الشيب، ويرتدي بزّة غامقة اللون ومقلّمة بخطوط. كانت عيناه زرقاوين مائلتين إلى الرمادي ذات نظرة باردة ونصف شفّافة تتناسب تماماً مع وجهه الجامد وكأنّه منحوتٌ من الرخام.

- هل تسمعني، يا رومالد؟

من خلال بضع جمل، وضعت إيما الصبي رومالد في صورة ما يجري.

- تبّاً لك! سوف تعطي حقيبة النقود له! يجب من كلّ بدٍّ أن أسمع ما يقولانه!

أجاب رومالد من الطرف الآخر للخطّ:

- ليس لديكِ من طريقة سوى أن تقتربي منهما.

استشاطت إيما غضباً وقالت بعصبية:

- فعلاً أنت متخلّف عقلياً! لقد شرحت لك بأنني لا **أستطيع!** ثمّ إنّ كيت سبق لها وأن صادفتني يوم الأحد وكذلك البارحة صباحاً. سوف تكشف أمري في النهاية.

ردّ الصبي المراهق ممتعضاً:

- حسناً، لا تغضبي.

- رومالد، هذا ليس وقت اللعب والحرد مثل المراهقين، يجب عليك أن تساعدني! إنّهما يتحدّثان عن أمورٍ كثيرة هناك على الطاولة. إذا كانت لديك فكرة مفيدة، هذا هو أوانها المناسب!

صمت الصبي المراهق لثلاث ثوانٍ، ثمّ صرخ:

- هاتفكِ المحمول! ضعيه على الأرضية وادفعيه باتجاههما. وسوف أسجّل هنا صوتهما.

هزّت رأسها. نفخت من بين أسنانها:

- فعلاً أنت أبله! كيف تريد لهذا أن يتمّ؟

قلقةً ومتوتّرةً، قضمت إيما أظافرها. ولكن يائسةً من الوضع، اتّبعت نصيحة المهووس بالمعلوماتية. وضعت هاتفها المحمول على الأرضية الخشبية الشهباء، متظاهرةً بأنّها تربط أشرطة حذائها، ودفعته على طريقة قرص لعبة الهوكي.

تزحلق الهاتف الخليوي على الألواح الخشبية الصقيلة ومرّ من تحت المقاعد والسيقان المدلّاة ومن ثمّ توقّف تحت الطاولة الكبيرة التي كانت كيت تتناول عليها الغداء مع الرجل المجهول.

إنّه حظّ المبتدئين الأغرار...

متوتّرة وجالسة بعصبية على كرسيها، أنهت إيما قارورتها من الشاي المخمّر موجّهةً صلاةً صامتة لكي لا يلاحظ أحدٌ الهاتف المحمول. انتهى دعاؤها سريعاً في حين أنّه، وبعد ذلك بثلاث دقائق، نهض كيت والرجل المجهول في حركة واحدة.

نهضت إيما بدورها، واستردّت خلسةً جهازها تحت الأنظار المصعوقة للزبائن الآخرين الجالسين على الطاولة، وخرجت في أثرهما.

* * *

خرجت إيما من المتجر الكبير كالإعصار.

- هل فهمت ما كانا يقولانه، يا رومالد؟

ردّ الصبي المراهق بنبرة اعتذار:

- كلا، ليس تماماً. لقد ضاع حديثهما وسط ضوضاء الحشود. يجب أن أنظّف التسجيل الصوتي.

أمرته وهي تغلق سماعة الهاتف في وجهه:

- أسرع في العملية، إذاً!

بينما كانت الطبيبة الجرّاحة تعود من جديد إلى المستشفى، سلك الرجل المجهول الطريق المعاكس. فضّلت إيما أن تقتفي أثر الرجل الذي كان قد حصل على الحقيبة الحمراء التي تحتوي على خمسمائة ألف دولار. كانت قد راقبتهما، هو وكيت، طيلة فترة لقائهما، وكانت متأكّدة من أنّه لم تحصل أي مقايضة بينهما: كان الرجل قد أخذ النقود، دون أن يعطي أي شيء مقابل ذلك.

من يكون هذا الرجل؟ ما الذي وعد به كيت مقابل كلّ هذا المال؟

سار الرجل في شارع كامبردج ستريت على طول عدّة مئات من الأمتار. رافقته إيما كظلّه، تاركةً في الوقت ذاته مسافة معقولة بينه وبينها. كان حشد الناس كثيفاً. كانت بوسطن تهتزّ على وقع أعياد الميلاد. وكانت الجادة الواسعة مزيّنة بالمئات من الحبال الضوئية. لم تكن هناك شجرة واحدة أو عمود إنارة واحد من دون أشرطة زينة وزخارف، ولم تكن هناك واجهة بيتٍ واحدة لم تكن مزخرفة بتاجٍ من شجر البهشية أو بكرة من نبات الهدال. كان الكثير من المارّة، المحمّلة أياديهم بالأغراض، يتباهون بوجوهٍ مرحةٍ ويتفاعلون مع حركة العيد. حتى الرياح الجليدية، وهي تعبق بروائح أشجار التنّوب

والصنوبر وكذلك روائح الكستناء المشوية، تشارك بطريقتها في هذا الجوّ البهيج.

عندما وصل إلى محطّة بودوان، اعتقدت إيما أنّ الرجل سوف يستقلّ المترو، ولكن، بدلاً عن ذلك، عبر الشارع وصعد إلى الحافلة رقم 18. نجحت إيما بدورها على آخر رمق في الصعود إلى الحافلة، مستخدمةً بطاقة النقل خاصّتها «لينك باس»، التي كانت قد اشترتها عشية اليوم السابق لدى عودتها من موعدها مع جويس ويلكينسون.

بينما كانت الحافلة تنطلق، وجدت مكاناً معزولاً، على بعد ثلاثة مقاعد خلف الرجل الذي كانت تتعقّب أثره. ظلّ هادئ الأعصاب طيلة المسافة، وهو ينظر من خلال زجاج النافذة إلى المنظر المديني الذي كان ينساب أمام عينيه.

قامت الحافلة بحركة دائرية كبيرة لكي تنعطف وتصل إلى شارع بارك ستريت. سارت على طول حديقة كومون وكذلك الحديقة العامّة من جهة الشمال، ومن ثمّ انطلقت نحو الغرب إلى جادة كومونويلث أفينيو. سارت لأكثر من كيلومتر في الشارع العريض المزروعة على جانبيه أشجار الدردار والكستناء، حينما نهض الرجل من مكانه واتّجه نحو الباب الخلفي للحافلة.

في موقف شارع غلوسيستر ستريت، شاهدته إيما وهو ينزل فاستغلّت حركة الحشود لكي تغادر بدورها الحافلة دون أن يكشف أحدٌ أمرها. سارت في إثره، وهو يمشي لحوالي مائة متر نحو الجنوب لكي يدخل إلى شارع بويلستون ستريت.

حي باك باي حيث توجد الفنادق الفخمة. . .

دخل الرجل إلى بهو فندق سان فرانسيس، الذي كانت واجهته

المبنية من الزجاج والقرميد تجمع بين البذخ المعاصر وسحر النمط الفيكتوري لأبنية مدينة بوسطن.

كانت إيما تعرف هذا الفندق الساحر الفاتن. وخاصّة مطعمه الذي كان قد اكتسب في السنة الماضية نجمةً إضافية في قائمة تصنيف **ميشلان**. تعقّبت الرجل المجهول حتى وصوله إلى أمام باب المصعد واندسّت في اللحظة الأخيرة معه إلى داخل قمرة المصعد. تركته يدرج بطاقته - لكي يفكّ رمز أمان القمرة الزجاجية - ويضغط على زرّ الطابق الثالث.

ولكي تبرّر موقفها، قالت:

- الطابق نفسه الذي أقيم فيه.

نظر إليها دون أن يردّ عليها، ولكن ممعناً النظر فيها من قمّة رأسها حتى أخمص قدميها.

هذه المرّة، افتضح أمري...

انفتح باب القمرة الزجاجية على ممرّ مفروشٍ باللّبد.

لم يبدِ الرجل حتى مجاملة إفساح المجال لها لكي تمرّ. لم يتأخّر في الخروج من القمرة والانعطاف إلى اليمين. خطت إيما بضع خطوات في الاتجاه المعاكس واستدارت لنصف ثانية قبل أن ينغلق باب الغرفة. حفظت رقم غرفة الرجل واستقلّت المصعد لكي تنزل إلى بهو الفندق.

في اللحظة ذاتها التي انغلقت فيها الأبواب، راودتها فكرة خطّة مُحكمة لاكتشاف هوية «الرجل الغامض».

* * *

كانت صالة مطعم فندق سان فرانسيس تشبه علبة جواهر حقيقية، مفروشة بأثاثٍ من نمطٍ حديثٍ تماماً. كانت كلّ عناصر

الديكور تميل نحو أنساق لونية تتراوح بين اللون السكّري والفضي، بدءاً من الستائر المصنوعة من الأطلس، في الأركان الأربعة للصالة، وحتى التطريز المعدني المدلّى بأطراف الستائر. حتى الثريا الفخمة، المزيّنة بقطع الكريستال المنحوتة، كانت مزخرفة بعروقٍ من العاج.

سأل رئيس النُّدُل في الفندق مرحّباً:

- أهلاً وسهلاً بك، سيّدتي، هل لديكِ حجز باسمكِ؟

- لم آتي لكي أتناول العشاء. لدي رسالة عاجلة ينبغي أن أوجّهها لساقي النبيذ في مطعمكم، ميكائيل بوشار.

- أرجو أن تتفضّلي بالانتظار.

انتظرت إيما لأقلّ من دقيقة قبل أن يأتي الساقي الشاب ويلتقي بها.

سألها زميلها الكيبيكي:

- لوفنشتاين؟ ماذا تفعلين هنا؟

لم يكونا صديقين، ولكنّهما كانا يلتقيان غالباً في حلقات البحث والمؤتمرات الخاصّة بصناعة النبيذ وكذلك في حفلات تذوّق النبيذ أو المسابقات التي كانت تُنظَّم بين أصنافه.

- مرحباً يا ميكائيل. أحتاج إلى مساعدتك.

اقترح عليها زميلها:

- لديّ اليوم دوام كامل، هنا. وأنتِ تعرفين معنى هذا الأمر. ما رأيك أن نشرب كأساً بعد انتهاء دوامي؟

اقتربت منه وألحّت عليه:

- أنا آسفة لأنّني أعطّلك عن عملك، ولكن الأمر فعلاً عاجلٌ ولا يحتمل التأجيل.

- حسناً، هيّا أخبريني بسرعة.

- هل يمكنك أن تستعلم لكي تعرف هوية الزبون الذي يقيم في الغرفة رقم 321؟

- هل أفترض أنّكِ تمزحين؟ ما الذي يعنيكِ من سريّة زبائننا؟ هل هذا ما تفعلونه مع زبائنكم في مطعم إمبراتور؟

- أرجوك يا ميكائيل، هذا أمرٌ في غاية الأهمية. اتّصل بموظّف الاستقبال في الفندق أو البواب الحارس.

- ولكنني سأعرّض بهذا وظيفتي هنا للخطر!

- لا تبالغ في الأمر، أنا أطلب منك فقط معرفة اسمه!

- وماذا سأكسب أنا من هذه القضية؟

- لا أدري. ماذا تريد لقاء ذلك؟ هل تريد أن تنفرد بي سريعاً، هنا، في الحال، خلف باب المطبخ؟

كانت قد رفعت صوتها طواعية، والتفت بعض الزبائن باتجاههما.

أصبح وجه الرجل الكندي شاحباً وأمسك بيد إيما وجرّها إلى بهو الفندق.

- أنتِ تتصرّفين بطريقة مقرفة، يا لوفنشتاين! أنتِ فعلاً مريضة!

- اذهب إلى مكتب الاستقبال واجلب لي اسم الرجل الذي ينزل في الغرفة 321، من فضلك!

رضخ للأمر على مضضٍ. كان الحديث مقتضباً. بعد أقلّ من دقيقتين، عاد إلى إيما وقال:

- هذا الرجل يقيم في الغرفة تحت اسم أوليغ تاراسوف. هل أعجبكِ الأمر؟

أخرجت قلماً من جيب حقيبتها الظهرية.

قالت وهي تكتب الاسم على ساعدها:

- شكراً لك على هذا التعاون، أيّها الزميل العزيز!
ردّ ميكائيل وهو يعود على أعقابه:
- اذهبي إلى الجحيم، يا لوفنشتاين.

* * *

كانت عينا رومالد تلمعان كالجمر المتّقد خلف شاشات حواسيبه. كان قد نقل للتوّ التسجيل الصوتي إلى حاسوبه وكان يتهيّأ لتنظيفه من خلال رفع التشويش عنه.

فعّل نظاماً خاصّاً فتح نافذة ظهرت فيها صورة لوحة المونتاج. استمع إلى التسجيل الصوتي لكي يعزل مقطعاً كان ضجيج الخلفية فيه متواصلاً ومستمراً. أخذ هذه العيّنة من التسجيل الصوتي واستخدمها لكي يكوّن «فكرةً» الضجيج من خلال التحديد الدقيق للتردد الصوتي الخاص به وديسيبلاته(*)

وفي وقتٍ آخر، اختار كامل المقطع الصوتي لكي يقوم بإزالة الضجيج.

أعاد الصبي المراهق الاستماع للمرّة الثانية إلى المقطع الصوتي، ولكنّه لم يقتنع بالنتيجة التي حصل عليها.

الأمر أسهل من هذا في المسلسلات التلفزيونية...

دون أن تحبط عزيمته، تلاعب بالترددات الصوتية خلال ما يقارب ربع ساعة، معدّلاً مداها لكي يتوصّل إلى نتيجة أكثر إرضاءً.

ومن ثمّ شغّل التسجيل الصوتي مرّة أخرى.

وما سمعه من التسجيل أشاع البرد في عموده الفقري.

* * *

(*) ديسيبل: وحدة قياس حدّة الصوت (المترجم).

جلست إيما في حانة فندق سان فرانسيس على مقعدٍ صغيرٍ قرب المدخل والذي أتاح لها أن يبقى نظرها على بهو الفندق في حال قرّر تاراسوف الخروج من الفندق. طلبت كوباً من كوكتيل كيبيروسكا، ومن ثمّ أخرجت حاسوبها المحمول واتّصلت بشبكة الإنترنت الخاصّة بالفندق.

كان ذهنها متيقّظاً وفي حالة تأهّب. الآن، أصبحت غارقة تماماً في تحقيقها. لم تكن قد أحسّت على الإطلاق بهذا الشعور. كان الأدرينالين والانفعال يدفعانها في تحصيناتها، ويمنحانها كلّ الجرأة.

نقرت على أزرار لوحة المفاتيح وكتبت «أوليغ تاراسوف» في خانة محرّك البحث. كان هناك الكثير من النتائج: حسابات فيسبوك، لينكد إند، في كي[1] انتقلت إلى البحث في محرّك «الغوغل» وكانت المفاجأة الإلهية، وقعت في الحال على إحدى صور أوليغ تاراسوف التي كانت تبحث عنها. في الصورة، كان أصغر سنّاً بما يقارب عشر سنوات من عمره الحالي، ولكنّ مع ذلك كان لا يزال له الوجه الجامد نفسه، كما لو أنّه منحوت من المرمر. كانت الصورة تحيل إلى بطاقة مرجع للأفلام الموجودة على الإنترنت: موقع بيانات أفلام الإنترنت (Internet Movie Database). على حدّ قول موقع قاعدة بيانات أفلام الإنترنت، كان أوليغ تاراسوف مسجّلاً على أنّه «مُخاطر بديل في تنفيذ الخدع السينمائية» و«منسّق الخدع السينمائية» في عدد كبير من أفلام الأكشن في أعوام التسعينيات من القرن العشرين. لم تكن معظم تلك الأفلام من التحف الفنية، بعكس ذلك: الأفلام التلفزيونية، نتاجات أفلام الدرجة الثانية منخفضة

---

(1) VKontakte (في كونتاكت): الشبكة الاجتماعية الأكثر شعبية في روسيا.

الميزانية، أفلام مثيرة من دون ميزانية والتي، حتى في تلك الحقبة، لا بدّ أنّها عُرِضَت مباشرة على نظام الفيديو المنزلي «في إتش إس» أو الأقراص الرقمية متعددة الاستخدامات «دي في دي». كان يعمل بشكلٍ شبه دائم مع شقيقه فاسيلي، وقد بدا أن اختصاص الأخوين هو الخدع السينمائية على الدرّاجات. كانت مهنتهما «الفنية» قد بلغت نهايتها قبل ما يقارب عشر سنوات، ولكن في بضع نقراتٍ، تمكّنت إيما من العثور على أثرهما في لوس أنجلس حيث كان قد جرى على ما يبدو إعادة تأهيلهما في الأمن الخاصّ.

حسب الموقع الإلكتروني لوكالتهما، كان الأخوان تاراسوف يعملان الآن في مراقبة وحماية الشخصيات.

كانت ستخرج هاتفها المحمول لكي تخبر رومالد باكتشافها، ولكنّ الصبي المهووس بالمعلوماتية سبقها.

لم تنتظر حتى سماع نهاية الرنين الأوّل لكي تفتح سماعة هاتفها.

- هل عثرتَ على شيءٍ، يا سابق عصرك؟

أجاب الصبي بصوتٍ غير مميّز:

- نعم.

- هل رأيتَ شبحاً أم ماذا؟

بدأ الصبي بالحديث:

- لقد نظّفت أسطوانة التسجيل.

- حسناً، وماذا بعد؟

- سوف أدعكِ تسمعين. إنّه. أمرٌ مرعب

عبست إيما. ألصقت الهاتف المحمول على أذنها الأيمن وسدّت الأذن اليسرى لكي لا تفقد أيّ شيءٍ من الحديث.

كيت: النقود موجودة في الحقيبة. لقد احترمتُ التزاماتي حرفياً: دفعة أخرى من خمسمائة ألف دولار. خمسمائة رزمة متراصّة من الأوراق النقدية من فئة المائة دولار.

أوليغ: وماذا عن بقية المبلغ؟

كيت: سوف تحصل عليه حالما أتأكّد من أنّ العمل قد أُنجِزَ تماماً وفق تعليماتي.

أوليغ: إذاً، هل التنفيذ سيكون في هذا المساء؟

كيت: نعم، ولكن عليك من كلّ بد أن تنتظر اتصالي لكي تدخل العملية حيز التنفيذ. وسوف لن يكون ذلك قبل الساعة التاسعة مساءً. إذا لم أتصل بك، تُصرِف النظر عن العملية، هذا مفهوم؟

أوليغ: وماذا عن المكان؟

كيت: لقد أنشأت لك مفكّرة على هذا المفتاح للذاكرة المحمولة (USB). المكان يُدعى «الكورنيش». إنّه عبارة عن منحدر من الإسمنت، ضيّق، ذو اتّجاهٍ واحد، خلف محطّة ساحة جاكسون سكوير في جاميكا بلين. إنّه يتيح تجنب ازدحام حركة المرور والإشارات الضوئية المرورية، ولكنّ الناس يتردّدون في سلوكه بسبب الهامشيين والمخدّرين بالكوكايين وبسبب منعٍ فرضته البلدية.

أوليغ: هل أنتِ متأكّدة من أنّه سوف لن يكون هناك أحد؟

كيت: لا يكون المرء متأكّداً من أي شيء بالمطلق، ولكن بوجود هذا البرد، سوف يبقى مروّجو المخدّرات والمدمنون

عليها ملتزمين ببيوتهم. ألن أعيد عليك طريقة تنفيذ العملية؟

أوليغ: كلا، لقد فهمت.

كيت: هل سجّلت العنوان؟

أوليغ: نعم، إنّه معي.

كيت: لنكن على اتفاقٍ واضح: إذا لم تلتزم بالضبط بسياق العملية، سوف يُلغى اتفاقنا.

أوليغ: أنا ملتزم بهذا الاتّفاق، لقد أخبرتكِ. هناك نقطة أخيرة: ما هي هوية الشخص الذي عليّ قتله؟

كيت: الأمر يتعلّق بهذا الرجل الموجود في الصورة. إنّه يُدعى ماتيو شابيرو. إنّه زوجي.

22

زمرة هلسنكي

الموت هو دَينٌ لا يدفعه المرء سوى
مرّة واحدة.

وليام شكسبير

وثب قلب إيما في صدرها. خلال أكثر من دقيقة، ظلّت صامتة لا تنبس ببنت شفة، وهي تتلقّى الخبر بذهول، غير قادرة على أن تنطق بجملة واحدة.

كانت كيت قد استأجرت قاتلاً مأجوراً لكي تقضي على ماتيو...

ولكن لأيّ سبب؟ هل لأنّها لم تعد تحبّه ولأنّها تريد أن تعيش مع نيك؟

من المستحيل، لا يقتل المرء الناس لهذا السبب. يكفي أن يتم الطلاق بين الزوجين. هل لكي تحصل على حق الحضانة الحصرية لابنتها؟ هذا الأمر أيضاً لا يستوي مع المنطق. هل المال هو السبب؟ حسبما فهمته، لم تكن لدى ماتيو ثروة وكان نيك أحد أكثر رجال البلاد ثراءً. إذاً، ما هو السبب؟ أيكون انتقاماً؟

حاولت إيما أن تعيد ترتيب وتنظيم أفكارها. ما الأمر الذي كانت متأكّدة منه؟ لم تكف كيت عن حبّها الكبير في شبابها، نيك

فيتش. بعد فترةٍ طويلة من الانفصال، كان من الواضح بأنّها قد أعادت العلاقة معه، ولكنّها أيضاً كانت تستفيد من هذا التشوّش لكي تسرق منه معلومات سريّة والتي كان من الواضح أنّها كانت تبيعها بثمنٍ من ذهب لكي تتمكّن من شراء خدمات قاتلٍ مأجور لكي تقضي على زوجها.

هذه حكاية مجانين...

كانت هناك من دون شكّ علاقة وثيقة بين كلّ هذه الأحداث، ولكنّها في اللحظة الراهنة لا تنجح في التقاطها. أمسكت إيما برأسها بين يديها. كانت رقبتها مصابة بالخَدر وكانت ساقاها تؤلمانها وقفصها الصدري كذلك.

شغل سؤالٌ آخر ذهنها. لماذا، في عام 2011، كان ماتيو لا يزال على قيد الحياة؟ لماذا أخفق «المُخاطر البديل» في نهاية المطاف في قتله؟

- هل ما زلت معي على الخطّ، يا رومالد؟ دعني أُصغي مرّة أخرى إلى التسجيل الصوتي، من فضلك.

رضخ الصبي المراهق للأمر. توقّفت إيما عند هذه الجملة:

«(...) عليك من كلّ بد أن تنتظر اتصالي لكي تدخل العملية حيز التنفيذ. وسوف لن يكون ذلك قبل الساعة التاسعة مساءً. إذا لم أتصل بك، اصرِف النظر عن العملية، هل هذا مفهوم؟»

تذكّرت ما كان ماتيو قد رواه لها. كان سائق الشاحنة التي دهست سيارة زوجته، ليلة موتها الشهيرة، يصرّ على الزعم بأنّها كانت تمسك بهاتفها المحمول في يدها. وكان ماتيو يتصوّر بأن كيت كانت على وشك أن تتّصل به هو لكي تخبره بأنّ سيارتها من طراز مازدا قد نجحت أخيراً في الإقلاع. ولكن في حقيقة الأمر، كانت

كيت تسعى للاتصال بالقاتل المأجور لكي تعطيه الضوء الأخضر للشروع بالجريمة. وهو الاتصال الذي، لحسن الحظّ، وبفضل الحادث، لم يصل قطّ إلى وجهته. لم ينجُ ماتيو ولم يبق على قيد الحياة إلّا لأنّ زوجته قد ماتت قبل أن تتمكّن من تمرير مكالمتها المشؤومة.

حياةٌ لقاء موت. . .

في الوقت الذي كانت تلقي فيه نظرات متواترة نحو بهو الفندق، أشركت رومالد في تفسيرها للأمور، والذي أصغى إليها باهتمام. كانا يمتلكان الآن في حوزتهما الكثير من العناصر والإشارات والدلائل، ولكن كانا يغفلان عن الأمر الأساسي والجوهري: دوافع كيت وراء الرغبة في قتل زوجها. كانت هذه هي الحلقة الناقصة، الحلقة التي سوف توضّح لهما معنى كلّ هذه القضية.

انتهت إيما إلى السؤال:

- وماذا عن كيت؟ ماذا فعلت؟

- كما هو متوّقع، أخذت سيارتها وقد وصلت إلى مستشفى الأطفال في جامايكا بلين.

ليس هناك أيّ شيء آخر؟

بدأ الصبي المراهق بالشرح:

- هناك شيء آخر بالتأكيد، ولكن قد لا يكون ذي أهمية.

- أخبرني به.

- حينما عادت من مطعم وول فودز، أسرعت كيت إلى تفتيش علبة بريدها الإلكتروني المهنية والرسالة الوحيدة التي فتحتها وطبعتها هي الرسالة المتعلّقة بتحاليل دم زوجها.

- التحاليل التي أجراها ماتيو صباح هذا اليوم في شاحنة منظمة الصليب الأحمر؟

- نعم. من الغريب أن يتمّ تبليغها بنتائج هذه التحاليل، أليس كذلك؟

- لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع. لا أعرف شيئاً عن الإجراءات المتّبعة عادةً. هل تمكّنت من الوصول إلى هذه الرسالة؟

قال الصبي بنبرةٍ مليئة بالافتخار والتباهي:

- لقد تمكّنت من الوصول إلى الرسائل الإلكترونية لجميع أفراد الكادر الوظيفي في المستشفى.

- إذن، أرسل الرسالة إليّ من خلال علبة رسائلي الإلكترونية في الحال.

* * *

كانت نتائج تحاليل دم ماتيو مطبوعة على صفحتين. بحماسة واندفاع خبيرة حديثة العهد بشأن هذا الموضوع، عكفت إيما على نتائج التحاليل وهي تحاول أن تستجمع معرفتها المتواضعة لكي تفهم شيئاً وسط الأسماء الغريبة والمركّبة والأرقام المعقّدة الموجودة في بيانات التحليل. في رأس القائمة، كانت المعطيات المتعلّقة بعلم الدم: الكريات الحمراء، خضاب الدم، الهيماتوكريت، الحجم الكروي الوسطي (VGM)، الكريات البيضاء، الخلايا اللمفاوية، الصفيحات الدموية، سرعة التثفّل، الحديد، الفيريتين.

انتقلت المرأة الشابّة من سطرٍ إلى آخر، على أمل أن تعثر على رأس الخيط، وهي تقارن نسب ماتيو مع جدول المقادير الطبيعية المرفقة بكل بحث.

ومن ثمّ تابعت تمحيصها بحصيلة النتائج المتعلّقة بالكيمياء

الحيوية: سكّر الدم، الكرياتينين، حمض البول، الإنزيمات، ناقلة الببتيد غاما غلوتاميل (Gamma GT)، الترانساميناسات، هرمون منبّه الدرقية، الكوليسترول الجيد، الكوليسترول السيئ. الكبد، الغدة الدرقية، الكليتان. بدا كلّ شيء طبيعياً.

أعادت قراءة جميع التحاليل من دون أن تلاحظ أيّ شيءٍ غير طبيعي. باستثناء إطارٍ صغير في الزاوية اليمنى من الوثيقة والذي كان يوضّح:

طبع وراثي هيماتيتي نادر

- زمرة هلسنكي -

وقفت إيما منتصبةً على مقعدها.

زمرة هلسنكي؟ ماذا يعني هذا المصطلح؟

أمعنت النظر في الشاشة، منتظرة صوت نقرةٍ لم تأتِ من الحاسوب. كانت هذه الأيام الأخيرة متعبة وشاقّة ولكنها أيضاً حرّرتها من خوفها وأرغمتها على أن تخرج من شرنقتها لتبدي جرأة وجسارة أكثر. ومع ذلك، كانت تقف الآن عاجزة عن الإجابة عن هذه النقطة. ربّما كانت لتحتاج إلى مساعدة مختصٍّ في علم الأحياء أو طبيبٍ، ولكنها لم تكن تعرف أحداً. أدارت وجهها نحو النافذة وهي تتنهّد بيأس.

كانت شمس ما بعد الظهيرة تتدفّق بأشعتها على الشارع، وهي تعكس على التلال العديدة من الثلج المتراكم على أرصفة المدينة.

ومع أنّ بواكير صداعٍ نصفي كانت تعذّبها، إلا أنّ ذهنها كان متحفّزاً. حينما استعرضت في ذهنها كلّ مفكّرتها الخاصّة بالعناوين، تذكّرت أنّ زوج طبيبتها النفسانية كان يدير مختبراً للتحاليل الطبية في

حي يوبر ويست سايد في مدينة نيويورك. كان مختبره في العمارة نفسها التي تقع فيها عيادة زوجته، ولكنّ إيما لم تكن قد تقرّبت منه إلا حينما جاء الزوجان ذات مساء لتناول العشاء في مطعم إمبراتور. كانت المشكلة هي أنّ مارغريت وود كانت تقضي عطلة في آسبن. كان لدى إيما بالطبع رقم هاتفها المحمول ولكنّ الطبيبة النفسانية لم تكن تردّ على نحوٍ مباشر على مكالمات مرضاها وخاصّة في أوقات استراحتها وعطلتها. وعلى الرغم من كلّ ذلك بذلت محاولاتها ومن دون أن تتفاجأ بذلك، ردّ عليها المجيب الآلي فتركت لها رسالة تترجّاها بأنّ تتّصل بها في أسرع وقتٍ ممكن، وأوضحت: «إنّها مسألة حياة أو موت». لا بدّ أنّ الطبيبة النفسانية قد اعتقدت أنّ إيما على وشك أن ترمي نفسها من أعلى جسر بروكلين بريدج لأنّها اتّصلت بعد دقيقة واحدة من مكالمة إيما. اعتذرت منها إيما وشرحت لها بأنّها بحاجة إلى استشارة طارئة، وحده زوجها هو القادر على أن يقدّمها لها.

- أنا على قمّة جبل آسبن مونتان وفي قدميّ زوجٌ من الزلاجات الخاصّة بالتزلّج على الثلج، ولكنكِ إذا أردتِ الاتصال مع جورج، فقد بقي في أسفل حلبات التزلّج يشرب ويسكي البوربون في مطعم آجاكس تافيرن. سوف أرسل إليكِ رقم هاتفه المحمول.

* * *

- السيّد وود؟

- نعم هو بذاته.

- أنا خجِلة من إزعاجك في مكان عطلتكَ، ولكنني أتّصل بك بناءً على توصيةٍ من زوجتك.

همهم الرجل بنبرةٍ فيها شيءٌ من الامتعاض:

- آها، آها.
- ربّما أنّك تتذكّرني: أنا إيما لوفنشتاين. لقد كنتُ نادلتك لتقديم النبيذ خلال وجبة رأس السنة الماضية في مطعم إمبراتور.

مع تذكيره بتلك السهرة، أصبح صوت جورج أكثر مرحاً ومزاجه أكثر اعتدالاً

- أتذكّر ذلك جيّداً. كانت سهرة ممتعة وظريفة. وكان ذلك في جزءٍ منه بفضل حضورِكِ. وقد نصحتِني بزجاجة من نبيذ بورتو الأسطوري لكي أشربه مع جبنة روكفور خاصّتي.
- نعم، هذا صحيح تماماً.
- كانت زجاجة من نوع كينتا دو نوفال، إن لم أكن مخطئاً.
- نعم، كانت زجاجة من نوع كينتا دو نوفال ناسيونال فانتاج لعام 1987.
- يبدو أن إنتاجهم العائد إلى عام 1964 هو أفضل بكثير.

صحّحت إيما له المعلومة:

- العائد إلى عام 1963 على نحوٍ أدقّ. إنّها دفعة أسطورية، ولكن لم يتبقّ منها سوى بضع زجاجات. إذا كان هذا يسعدك، سوف أسعى إلى أن أؤمّن لك زجاجة منها. السيّد وود، لدي بعض الأسئلة أودّ أن أطرحها عليك، إن لم يكن ذلك يزعجك.
- بالطبع، أيّتها الفتاة الجميلة، يمكنكِ أن تسألي كلّ ما تشائين.

انحنت إيما على شاشة حاسوبها لكي لا ترتكب أي أخطاء في اللفظ.

- ما الذي نسمّيه «طبع وراثي هيماتيتي نادر»؟
- آه، الدم، حتى في هذا المجال أقلّ سحراً، أليس كذلك؟

أيضاً مهنتانا ليستا بعيدتين عن بعضهما: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي. » كما قال صديقنا!

منبهراً بنكتته، انفجر في قهقهةٍ عالية.

كرّرت إيما عليه السؤال وهي تحاول أن تخفي قلقها:

- حسناً، وماذا عن «طبع وراثي هيماتيتي نادر»؟

- هذه بكلّ بساطة لغة خاصّة يستخدمها علماء الأحياء عند الحديث عن زمرة دموية نادرة.

- كيف تكون نادرة؟

تنحنح جورج وود:

- إحم، هل تعرفين مبدأ الزمر الدموية، يا إيما؟

- نعم، مثلي مثل كلّ الناس. أنا أعرف الزمر الأربع الكبيرة: A، B، AB، O. وكذلك مبدأ عامل ريزيسيوس الذي يحدّد الزمر السلبية والزمر الإيجابية.

- هذه مجرّد بداية، ولكن الأمر في الواقع أكثر تعقيداً من هذا بكثير. القليل من الناس يعرفون ذلك، ولكن مع ذلك هناك بعض الناس زمرة دمهم لا تكون لا A ولا B ولا AB ولا O.

- حقّاً؟

- نعم، تُسمى زمرة دمهم «بومباي»، نسبة إلى اسم المدينة الهندية التي ظهرت فيها هذه الخصوصية للعلماء للمرّة الأولى.

هناك أشخاصٌ آخرون لا يكون عامل ريزيسيوس في دمهم لا إيجابياً ولا سلبياً. وبالتالي نتحدث عن طبع وراثي ينعدم فيه عامل ريزيسيوس المسؤول عن تحديد الإيجابية والسلبية في زمر الدم المختلفة. وهنا نتحدث فقط عن مثالين بين مجموعة من الأمثلة الأخرى. ولكي نبسّط الأمر أكثر، تتحدّد زمرة دموية نادرة من خلال

غياب مولِّد مضاد واحد أو عدّة مولّدات التي نجدها في العادة في أنظمة الزمر الأخرى.

استعاد صوت البروفيسور وود حيويته. كان من الواضح أنّه يستمتع بنشر معرفته وإظهارها.

- خصوصية حاملي هذا الطبع الوراثي تقودهم إلى إنتاج نمط معيّن من الأجسام الضديّة التي تخاطر على سبيل المثال بالتسبّب بردود فعل رافضة في حالات نقل الدم أو أثناء عمليات زرع أعضاء. فالأشخاص الذين تكون زمرة دمهم «زمرة بومباي» لا يمكن مثلاً أن يُنقَل إليهم دم إلّا الدم الذي تكون له صفات دمهم نفسها.

وفي النهاية، طرحت المرأة الشابّة السؤال الذي كان يحرق شفتيها:

- وماذا عن «زمرة هلسنكي»، هل هي تعني لك شيئاً ما؟

أصدر البروفيسور المختصّ في علم الأحياء همهمة رضا.

- آه، زمرة هلسنكي، نعم، بكل تأكيد! إنّها أيضاً زمرة أكثر ندرة من قواريرك من نبيذ بورتو المنتَج في عام 1963! يُصنّف تحت هذه اللفظة الأفراد الذين يجمعون عدّة طباع وراثية هيماتيتية نادرة للغاية. على حدّ معرفتي، فقط ما يقارب عشرة أشخاص ينتمون إلى هذه الزمرة تمّ اكتشافهم على الأراضي الأميركية.

وماتيو هو أحد هؤلاء الأشخاص...

أحسّت إيما بأنّ الحماسة تستبدّ بها. زال الصداع النصفي الذي كان يؤرقها. لم تعرف كيف تمّ ذلك بالضبط، ولكنّها كانت متأكّدة بأنّ مفتاح السرّ كان يكمن في هذه الزمرة الدموية النادرة التي كان ماتيو يمتلكها في دمه.

- سؤال أخير، يا بروفيسور، ومن ثمّ سأدعك تستمتع بأوقات

عطلتك: في أيّ ظروف يكتشف المرء بأنّه يحمل طبعاً وراثياً نادراً؟
- حسناً، يمكن لهذا أن يحصل في مناسبات متعددة: متابعة حالة حمل، حالة رفضٍ أثناء عملية زرع أعضاء، طبع وراثي متطوّر بعض الشيء عند مريضٍ متبرّعٍ بالدم. حينما يكتشف مختبرٌ ما زمرة دموية نادرة، يجب الإشارة إليها في لائحة وطنية.
- أشكركَ جزيل الشكر، يا بروفيسور، لقد قدّمت إليّ مساعدة كبيرة.
ذكّرها بنبرةٍ تجمع بين الجدّ والهزل:
- سوف أعتمد عليكِ بشأن زجاجتي من نبيذ بورتو المعتّق.
- سوف لن أخلف وعدي لك بشأنها!

* * *

أحسّت إيما من جديد بأنّ قلبها يحتدم نشاطاً. لقد عثرت على المعلومة التي كانت تبحث عنها منذ البداية! وإذا كانت لم تدرك بعد كلّ المغزى من ذلك، إلّا أنّها أصبحت على يقين من أنّ انتماء ماتيو إلى زمرة هلسنكي كان محور اللغز الذي يحوم حول كيت.

حافظي على هدوءكِ...

لكي ترتّب أفكارها، ركّزت إيما انتباهها على انعكاسات الصدف والأفسنتين التي كانت الشمس تجعلها تتلألأ في قعر كأسها.

قرّرت أن تركّز تفكيرها على ما كانت تعرفه عن كيت وماتيو. بدأت بإعادة بناء مسار لقائهما. استحضرت ذكرياتها، وتذكّرت أقوال سارة، زوجة شابيرو الأولى.

خريف 2006: ذهب مات إلى المستشفى بعد أن جرح بمقصٍّ بستانيّ وهو يعتني بحديقة منزله. في قسم الإسعاف، صادف طريقه

طريق كيت التي كانت مناوبة فيه يومذاك. استلطفا بعضهما، قامت هي بمعالجته، وخاطت له جرحه بعدّة قُطَب.

ومن دون شكّ أخذت عيّنة من الدم أيضاً...

دفعت المرأة الشابّة تفسيرها إلى أمدٍ أبعد: إذا كانت كيت قد أجرت فعلاً اختبارات دموية، فهي قد اكتشفت من خلال النتائج أنّ دم ماتيو ينتمي إلى زمرة دموية نادرة على نحوٍ استثنائي: زمرة هلسنكي. بعد ذلك ببضعة أيام، خرجت معه وبالكاد مرّت بضعة أشهر على لقائهما الأوّل حتى تزوّجت به.

ولكن لماذا؟

رفعت إيما رأسها وقطعت رؤية «المُخاطر البديل» سلسلة أفكارها. كان أوليغ تاراسوف قد سلّم لتوّه بطاقته إلى مكتب الاستقبال في الفندق وتوجّه نحو مخرج الفندق.

تكوّمت على المقعد الصغير على أمل ألّا يلاحظ وجودها في المكان وتابعته بنظرها لأطول وقتٍ ممكن.

وهي تُلصق هاتفها المحمول على أذنها، غادرت البار وخرجت من شارع سان فرانسيس جرياً على قدميها.

- رومالد؟ تاراسوف يتأهّب للذهاب. سوف أحاول أن ألحق به وأتابعه، ابقَ على الخط. لقد اكتشفتُ اكتشافاً لا يُصدّق.

- أنا أيضاً، لدي أمرٌ هام يجب أن أخبركِ به.

- فيما بعد يا رومالد، أنا. تبّاً له!

- ماذا جرى؟

- أعتقد أنّه أصبح داخل سيارة!

رفعت يدها على مستوى حاجبيها لتحمي عينيها من انعكاس أشعة الشمس. على غير ما كان متوقّعاً، قدّم سائق الفندق سيارة بيك

- آب نبيذية اللون ذات هيكلية ضخمة وواجهة مهيبة متصالبة مزيّنة بمطرقة مفضّضة. أعطى مفاتيح الشاحنة الضخمة لتاراسوف الذي جلس خلف المقود مباشرةً.

فوجئت إيما بالموقف، فجالت بعينيها وهي تبحث بيأس عن سيارة أجرة. طلبت من سائق الفندق أن يساعدها في العثور على سيارة أجرة، ولكنّ شاحنة البيك - آب كانت قد ذابت وسط حركة المرور، وهي تختفي تدريجياً عن حقل رؤيتها.

اللعنة!

- لقد أضعته، يا رومالد! لقد انطلق باتّجاه الحديقة.

- إلى شارع بويلستون ستريت؟

- نعم.

- في ماذا يسير؟

- في سيارة بيك - آب ضخمة من طراز دودج نبيذية اللون، ولكن.

- أنا يمكنني أن أتتبع خطاه!

- كلا! ماذا تقول؟ لا ترتكب.

* * *

ارتدى الصبي المراهق معطفه الرياضي الفضفاض ذي الياقة المصنوعة من الفراء ودسّ هاتفه المحمول في جيبه. خرج من الغرفة على عجل، ونزل الدرج سريعاً كما لو أنّ حياته كانت معلّقة بها. وهو يجري في بهو الفندق الفاخر، كاد أن يُسقِطَ على الأرض سيّدة مسنّة كانت تتقدّم بمشقّة، متشبّثة بعجلتها، تعثّر بكلبها المالطي وقَلَب نادلاً من نُدُل الفندق والذي كان يحمل كؤوس الشامبانيا عالية الساق على صينية.

- عفواً، أنا آسف، اعذرني، أنا.

انقضّ على فناء فندق فور سيزن. هناك، وجد بوّاباً، كان محزوماً في لباسٍ عمل موحّد غامق اللون، مزيّن بأزرارٍ مذهّبة، والذي كان يساعد عائلة في نقل حقائبها.

لمرّة واحدة، لا تطرح على نفسك أسئلة...

كان محرّك السيارة لا يزال يدور. في جزءٍ من ثانية، جلس رومالد على كرسيّ الساق وانطلق بسرعة خاطفة. انغلقت البوّابة في حين تركت السيارة الرياضية بعض آثار صرير العجلات على الإسفلت.

23

خطّ القلب في الكفّ(*)

مَنْ عساه لا يرتعد حينما يُفكِّر بالمصائب
التي قد تسبّبها علاقة خطيرة واحدة.

كوديرلو دو لاكلو

حينما وصل رومالد إلى الجادّة، كانت سيارة البيك - آب النبيذية اللون في حقل رؤيته. كان يسمع في جيبه صرير صيحات إيما، التي كانت لا تزال على خطّ الهاتف. رفع الهاتف المحمول إلى أذنه.

صرخت إيما فيه:

- أوقف هذه السيارة وعُد في الحال إلى الفندق!

كانت تمشي بخطوات سريعة، وهي تدفع المارّة من طريقها في شارع بويلستون ستريت لكي تعود إلى الفندق.

- هل فهمت ما أقوله لك؟

- هذا أثرنا الوحيد الملموس!

- أنت تسير في سيارة مسروقة وأنت لا تجيد قيادة السيارة!

(*) خطّ القلب: في علم قراءة الكف، هناك سبعة خطوط في الكفّ يسمّى كلّ خط باسم، ويُطلق على الخطّ الثالث اسم خطّ القلب (المترجم).

- بلى، أنا أجيد قيادة السيارة!

- سوف تتسبّب بحادثٍ وتجد نفسك في السجن!

- ليس من الوارد أن أكفّ عن الاهتمام بالأمر.

هذه المرّة، أغلق رومالد السمّاعة في وجهها.

كانت هذه هي المرّة الأولى، منذ لقائهما، التي أدركت فيها إيما حقّاً المخاطر التي أحدقتها بالصبيّ المراهق. من خلال جرّه دون تفكيرٍ إلى تحقيقها، لم تفكّر إلّا بنفسها فقط. الآن، كانت مرعوبة من جرّاء لاوعيها، لكن بعد فوات الأوان: كانت قد فقدت كلّ سيطرة على الفتى الفرنسي.

دخلت إلى بهو فندق فور سيزن واتّجهت نحو المصاعد. كان عليها أن تهدأ قليلاً كان عليها أن تتمالك نفسها. وأن تستعيد الحوار مع الصبي المراهق.

اتّصلت من جديد برقم هاتفه. فتح السماعة.

- أنت هنا، يا ابن عرس؟ حسناً، اسمعني، اتّفقنا. اتبع هذا الرجل. ولكنني آمرك بأن تقود السيارة بحذر ولا تدع أمرك ينكشف لا له ولا لرجال الشرطة. لا تعرّض نفسك لأي خطر ولا تنزل من السيارة تحت أيّ ذريعة، هل فهمت؟

- نعم، حاضر يا ماما.

- ولا تغلق مرّة أخرى أبداً السمّاعة في وجهي!

أطلق هاتف رومالد المحمول إشارة صوتية صارّة. نظر الصبيّ إلى شاشة الهاتف: كان الرمز الدال على حالة شحن بطارية الهاتف يشير إلى 7% فقط من كمية الطاقة المتبقية في البطارية.

استبدّت به الرغبة في أن يشدّ شعر رأسه. كيف له، وهو الذي

قضى حياته بين الهواتف والحواسيب المحمولة، أن يكون على هذه الدرجة من الإهمال والتسيّب؟

اعتذر منها:

- لم يعد لدي الكثير من الشحن في بطارية هاتفي. سوف أتّصل بكِ ما أن يكون هناك جديد.

* * *

دخلت إيما إلى جناحها في الفندق وهي حانقة على نفسها، يسحقها الشعور بالذنب وبالعجز. عدا عن الصلوات والدعاء، لم يعد بوسعها أن تفعل أيّ شيء لكي تساعد رومالد.

جهدت لئلا تدع نفسها تستسلم لفيض المشاعر والانفعالات. كان الفتى المهووس بالمعلوماتية قد غادر الغرفة في عجلة من أمره، تاركاً شاشات حواسيبه شغّالة وتطبيقاته مفعّلةً. جلست في أريكتها ونظرت أمامها. في لحظة مغادرة الغرفة، كان رومالد منهمكاً في البحث والتنقيب في أرشيف صحيفة **وول ستريت جورنال**. وكان قد فتح في نافذة واحدة من المقالات العديدة التي كانت الصحيفة اليومية قد كرّستها لنيك فيتش. لم تكن المقالة حديثة: كانت المقالة، التي تعود إلى عام 2001، كانت المقالة تماماً بطول برقية من وكالة، ولكنّ مضمونها كان هامّاً جدّاً.

قضية نيك فيتش

في حين يحصد منتجها البارز، نظام يونيكورن، النجاح وراء نجاح، هل لا يزال لدى شركة فيتش إينك ربّانٌ على سفينتها؟ «ما الذي حصل لنيك فيتش؟» هذا السؤال على جميع الشفاه في وادي السيليكون. إنّ الغياب الطويل للمؤسسّ المشترك

والمساهم الأوّل عن مقرّ الشركة بدأ في الواقع يثير الحيرة والاهتمام.
والأسوأ من هذا: منذ شهرين، وكتلميذٍ كسول، «تغيّب» في الواقع فيتش عن المجلس العامّ وكذلك عن تقديم المنتجات الجديدة إلى المطوّرين.
إنّه غيابٌ غير اعتيادي بالنسبة إلى هذا المُجدّ في العمل الذي يثير قلق المستثمرين ويُغرق أسعار الأسهم في البورصة.
ولدى سؤاله حول هذا الموضوع، أكّد الملحق الإعلامي للمجموعة في تصريحٍ مقتَضَب أنّ «كلّ شيء على ما يُرام» في حياة نيك فيتش، وأنّ هذا الأخير قد عانى فقط من التهابٍ حادّ في القصبات وأنّه سوف يعود إلى منصبه قريباً جدّاً.

نقرت إيما على روابط أخرى في الموقع. وعلى ما يبدو، أنّ فيتش كان قد عاد فعلاً إلى منصبه في الأيام التالية. وكانت أسعار أسهم الشركة في البورصة قد استعادت ارتفاعها الكبير وقد ضاعت المعلومة شيئاً فشيئاً بين المذكّرات وحيل الإنترنت.

أعادت إيما قراءة خاتمة المقالة مرّة ثانية.

التهاب قصبات حادّ؟ قُلتَ لي...

هزّت رأسها وأغمضت عينيها لكي تركّز في تفكيرها.

وماذا لو كان نيك فعلاً مريضاً؟

شيئاً فشيئاً، كانت بعض الفراغات تمتلئ والأمور تتوضّح أكثر.

المرض، الدم، الطبّ، الصحّة...

الكثير من العناصر التي كانت، مثل الدُرر، تُضاف من الآن فصاعداً، إلى خيط التسلسل الذي كان يقودها تدريجياً إلى حلّ لغز تحقيقها.

فتحت إيما عينيها ونظرت إلى الشاشات الأخرى.

شبكة الإنترنت الداخلية في المستشفى. . .

اقتربت من لوحة المفاتيح وأمسكت بالفأرة. احتاجت إلى خمس دقائق من الوقت وإلى العديد من المناورات لكي تفهم كيفية الوصول إلى ملفّات المرضى والقيام بالبحث فيها عبر كلمة جوهرية.

نقرت أوّلاً «نيك فيتش».

لم يكن هناك أي جواب.

أنتِ تحلمين، يا ابنتي. . .

فجرّبت حينها طلباً جديداً: «زمرة + هلسنكي».

ظهر ملف أحد المرضى على الشاشة.

شعرت أن نبضات قلبها قد تسارعت. لم تكن قط قريبة من الحقيقة كما كانت الآن.

كان الملفّ يخصُّ شخصاً يُدعى ب. دارك، الذي يُعالج الآن في قسم أمراض القلب في مستشفى طوارئ جامايكا بلين.

نقرت على الزرّ لكي تفتح البطاقة. ما أن قرأت الاسم الأوّل للمريض، أخذت قطع لعبة البازل تأخذ مكانها في ذهنها.

كان الرجل يُدعى برنس دارك.

برنس دارك، دارك برنس: الأمير الأسود. . .

كان هو نفسه نيك فيتش. كان رجل الأعمال يرقدُ حالياً في مستشفى بوسطن في قسم أمراض القلب الذي تعمل كيت فيه!

أذهل هذا الاكتشاف إيما، فاضطربت بقدر ما أُثيرت، وشرعت في استعراض الملفّ الطبيّ بانتباهٍ واهتمام أكثر. أمضت بعض الوقت في ذلك، ولكنّها فهمت الأمر الجوهري فيه.

وقد أذهلها ما استنتجته من الملفّ.

كان فيتش قد وُلِدَ بقلبٍ ذي بُطينٍ وحيد: وهذا تشوّهٌ خُلقيّ خطير في القلب كان يمنع تزويد الدم بالكمية المناسبة من الأكسجين، الأمر الذي جعل منه «طفلاً أزرق اللون»: طفلٌ مُزرَقّ لم يكن من المؤكّد متوقعاً بأنّه سوف يبلغ سنّ الرشد قبل أن يموت.

في سنّ الثامنة، أُخضِع لتدخّلٍ جراحي وقتي لتحسين نسبة الأكسجين الواصل إلى دمه، ومن ثمّ تلت ذلك عمليتان جراحيتان لقلب مفتوح بعد سبع سنوات وعشر سنوات من ذلك.

وإذا كانت لهذه التدخّلات الجراحية الفضل في بقائه على قيد الحياة، فإنّها لم تفعل سوى تأخير انتكاس حالته: عاجلاً أم آجلاً، لكي يستمر في العيش، سوف يحتاج إلى أن تتمّ له عملية زرع قلب جديد. وهي عملية زرع قلب تكاد تكون مستحيلة نظراً إلى زمرة دمه النادرة للغاية، زمرة هلسنكي الشهيرة هذه. وبالتالي حينما أصبح في سنّ الثانية والأربعين، كان نيك فيتش ما يشبه ناجٍ من الموت بمعجزة. خلال سنوات، ووسط سريّة كبيرة، ظلّ تحت رقابة طبية دقيقة. لا شكّ أنّه كان متشبّثاً بالحياة بإرادة من حديد وبفضل جرعة كبيرة من الحظّ. ولكن اليوم، قلبه على وشك أن يتحطّم.

نقرت إيما على لوحة الأزرار اللمسية لكي تستكمل استعراض الوثيقة. كانت الحواشي والتعليقات الأخيرة تشير إلى أن فيتش كان يرقدُ في المستشفى منذ أربع وعشرين ساعة بانتظار عملية زرع قلب.

هذه المرّة، كان رجل الأعمال قد رمى كلّ أوراقه: إمّا عملية زرع أو الموت.

* * *

كان رومالد يركّز ذهنه على قيادته للسيارة. وقد تسبّب لنفسه بذعرٍ شديد حينما توقّفت السيارة الرياضية الرباعية الدفع «خاصّته»

فجأةً على إشارة مرورية حمراء في شارع بيكون ستريت. وقد استغرق بعض الوقت قبل أن يتمكّن من الإقلاع مجدّداً بالسيارة، وللحظةٍ، اعتقد بأنّه قد فقد أثر المُخاطِر البديل. إلا أنّه عاد ووجد سيارة البيك - آب وهي تسير مسرعةً على الطريق السريع الذي يحيط بمركز المدينة من الجهة الشمالية - الغربية.

تباطأت حركة السير لفترة وجيزة بسبب مضيقٍ عند عقدة الطريق المزدوج الذي كان يتيح الوصول إلى الطريق السريع رقم 93. هذه المرة، وفي حين كانت السيارات تسير شبه متلاصقة ببعضها، حرِصَ تماماً على ألا يُخطئ في التعامل مع علبة تغيير السرعة. في فرنسا، حينما كان برفقة والده، كان قد شرع في تدريبٍ على قيادة السيارة برفقته، ولكنّه لم يكن قد فكّر للحظة واحدة بأنّه سيجلس بهذه السرعة بمفرده خلف مقود سيارةٍ ليقودها بنفسه.

سرعان ما أصبحت حركة المرور انسيابية وسريعة. أبقى سيارة البيك - آب النبيذية اللون في مرمى نظره وهو يبذل جهده لكي لا يتم كشف أمره. الآن، كانت سيارة الدودج تسير بانتظامٍ في اتّجاه الشمال. خلال ربع ساعة، عبرا طريق ميدلسيكس فيلز الاحتياطي، المحاط بأشجار السنديان والصنوبر والجوز، ومن ثمّ انعطفت السيارة الشاحنة نحو الشرق لما يقارب عشرة كيلومترات قبل أن تعود وتنطلق نحو الشمال عبر الطرق الفرعية.

حينما صعدت السيارة نحو لويل - وهي مدينة صناعية كانت فيما مضى مزدهرة -، بذل الصبي المراهق جهده لكي يسير على مسافة مناسبة من «هدفه». كان جمال المنظر الطبيعي يقطع الأنفاس ويُبهِر العين. كانت الشمس تحلّق بأشعتها في الأفق، مسلّطة خطوطاً صفراء وبرتقالية اللون كانت تتمازج في حواشٍ محاطةٍ بهالةٍ من

الضوء. على مدّ النظر، كانت مساحاتٌ شاسعة نظيفة ونقية كالحليب يتخللها انعكاس صفحة بحيرة أو فيضٌ فضيّ من مياه جدولٍ.

في اللحظة التي خفّ فيها انتباه رومالد، انعطفت سيارة البيك - آب بحدّة إلى اليمين لكي تغوص في طريقٍ ضيّقٍ لغابة من شجر التنّوب.

ولكن إلى أين يذهب؟

ركن الصبي المراهق السيارة إلى جانب الطريق واتّصل بإيما لكي يشاركها في حالتها التي وصلت إليها.

* * *

في مدينة بوسطن، كانت الشمس قد بدأت تتوارى خلف الغيوم. في عتمة الغرفة، ظلّت إيما لوقتٍ طويل غارقة في صمتٍ مطبق. كان الزمن قد توقّف من حولها. على الرغم من وضوح المعطيات، كان يصعب على عقلها أن يتقبّل الحقيقة المرعبة التي كانت قد اكتشفتها لتوّها: كانت كيت تخطّط لقتل زوجها لكي تُقدِّم قلبه إلى عشيقها.

كان عقلها يشتعل غضباً، ولكن، شيئاً فشيئاً، أصبح كلّ شيء واضحاً على نحوٍ مريع. كانت المعلومات التي تمّ الحصول عليها منذ أسبوع تترابط فيما بينها لكي تشكّل حبكة فخّ مرعب. ارتسمت صورة امرأة في ذهنها. امرأة، متيّمة إلى حدّ الجنون، وضعت ذكاءها في خدمة مخطّطٍ شنيع.

مرّ شريطُ فيلمٍ في ذهن إيما. مرّت صورٌ، مرّت مشاهد لم يسبق لها أن شاهدتها، ولكنّها كانت قادرة على أن تعيدها ليس في تفاصيلها وإنّما في حقيقتها.

في أواسط أعوام التسعينيات من القرن العشرين، كانت كيت

تعيش مع نيك قصّة حبّ عاصفة. لقد خُلق هذان الشخصان لكي يكونا معاً ويحبّا بعضهما. كانا على جمالٍ أخاذٍ، ويضجّان شباباً وعلى ذكاءٍ حادّ. كانا منبهرين ببعضهما.

كانت قصّة حبّهما قويّة وفريدة. وقد ولِدَت أثناء ذاك اللقاء الأوّل الشهير، الذي حدّثتها عنه جويس ويلكينسون، ذات يومٍ كان يتساقط فيه الثلج، في مطعم أحد محطّات الخدمة على طريقٍ سيّار. حكايةٌ كان على كيت أن تضعها في مرتبة تعلو كلّ شيء: اليوم الذي انقلبت فيه حياتها، اليوم الذي تعارفا فيه على بعضهما، اليوم الذي أنقذها فيه نيك.

ولكن كان لدى نيك سرٌّ: مرضٌ كان يعرف أنّه قاتل وقد أخفاه منذ نعومة أظفاره. ربّما لأنّه لم يشأ أن يكون محلّ شفقة، وبالتأكيد لأنّه لم يشأ أن يفقد السيطرة على مشروعه. كان يعلم بأنّه قد يموت في أيّ لحظة ولم يشأ أن يرمي بهذا العبء وهذا الألم على كاهل كيت.

ولذلك أخذ مسافة منها، وجعلها تعيسة لكي يُرغمها على الابتعاد عنه. يَئِسَت كيت وفقدت الأمل. فقدت الثقة بنفسها، ولم تدرك لماذا كان نيك يرفضها ويبتعد عنها وراحت إلى حدّ إجراء عملية جراحية تجميلية لعلّها تستردّ إعجابه بها.

ما الذي حصل، إذن؟ ممّا لا شكّ فيه، أنّ نيك قد أدرك بأنّه يسير في الطريق الخاطئ وبأنّ عليه أن يكشف الحقيقة للفتاة التي يحبّها. وهو كشفٌ سوف تتلقّاه المرأة الشابة بارتياح. لم يكن نيك مغرماً بها بعد فحسب، بل كانت لديها من الآن فصاعداً فرصة إنقاذه بدورها. إنّه الكشف الذي دفعها إلى أن تقطع على نحوٍ صارم اختصاصها في جراحة الأعصاب لكي تنتقل نحو جراحة القلب.

كانت عبارة عن بداية حياة جديدة، مكرّسة بالكامل للعمل، للبحث الطبي ولمتابعة الحالة الصحية لنيك. كانت أعمالها رائعة وتكتشف مواقع عديدة - المعالجات المتعلّقة بالمناعة، التعديل الوراثي للزمر الدموية. -، ولكنّها لم تتوصّل إلى أيّ شيء يمكنه، في وقتٍ قصير، أن يساعد نيك. لأنّها كانت تصطدم باستمرار بالعقبة نفسها: وحدها عملية زرع قلب كانت قادرة على إنقاذ الرجل الذي تحبّه، والحال أنّها كانت تعلم بأنّ الزمرة الدموية الخاصّة لفيتش كانت ستتسبّب برفض تقبّل أي عضو مأخوذ من شخصٍ لا تكون زمرة دمه زمرة هلسنكي.

* * *

إلى أيّ مدى يمكن أن نذهب بدافعٍ من الحبّ؟

بعيداً.

بعيداً جدّاً.

لكن هناك حدودٌ قلّة من الناس لديهم الاستعداد أن يغامروا بتجاوزها والذهاب إلى ما ورائها.

كانت كيت قد تجاوزت تلك الحدود.

كيف انقلبت؟ ماذا كان الفيصل في ذلك؟ هنا أيضاً، وبإيمائية غريبة، كانت إيما تكاد أن تكون قادرة على أن «ترى» المشهد كما لو أنّها أمام شاشة سينما.

في خريف عام 2006، وعند منتصف مدّة مناوبة طويلة، حضر إلى قسم طوارئ المستشفى مريضٌ أكثر لطفاً من الآخرين بقليل. كان الرجل قد جرح نفسه بمقصّ بستانيّ وهو يعتني بحديقة منزله. كان أستاذاً جامعياً شابّاً لمادة الفلسفة. كان حقّاً رجلاً محبوباً، ذكياً وفكهاً. تكفّلت كيت بمعالجته وخاطت له جرحه بعدّة قطَب.

شعرت بأنّها قد أثارت إعجابه، ولكن بدا الرجل مستقيماً. ومع ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه من الدخول في لعبة الإغراء. كان كلّ الرجال يتصرّفون معها بهذه الطريقة. ومع أنّها لم تكن تجني من ذلك أيّ مجدٍ، كانت تعرف بأنّ لديها هذه المزية التي لا تتوفّر عند الأخريات. لم يدغدغها ذلك ولم يُطمئنها. منذ زمنٍ طويل، كانت تخوض معركة أخرى. كانت تخوض حرباً أخرى.

ومع ذلك، بعد ظهيرة ذلك اليوم، ارتخى شيءٌ ما في داخلها. ما الذي حدث فعلاً؟ ربّما كان النهار صعباً وقد لطّفه ماتيو، ربّما كانت حسّاسة لتلك الثقافة، ربّما بالضبط لأنّه لم يسع إلى اصطيادها وأنّها لم تشعر بأنّها في خطر. وبالتالي، وافقت على أن تذهب وتشرب معه كوباً من الكوكا.

كان ذلك في بداية شهر أكتوبر. في عزّ فصل الصيف الهندي. كانت شمسٌ ذات أشعة ذهبية تشرق على مرآب الفندق الذي كانت تتوقّف فيه شاحنة التبرّع بالدم الخاصّة بالصليب الأحمر. كانا موجودين هنا وهما يشربان علبتهما من الصودا. ومثلما كانت قد اعتادت أن تفعل مع جميع الناس، حاولت كيت أن تقنع مريضها بأن يتبرّع بالدم. قامت بمدحه وشرحت له بأنّها هي مَن ستقوم بعملية سحب الدم، وبأنّه سيكون لطفاً منه أن يشارك في حملة التبرع بالدم. أصغى إليها دون أن يُطيعها. نظر إليها وهي تعيد خصلة من الشعر الأشقر إلى خلف أذنها. فكّر في غريس كيلي في أفلام هيتشكوك القديمة. تساءل إن كان هناك رجلٌ لديه الحظّ في أن يستيقظ كلّ صباح وهو إلى جانب هذه المرأة. غار من ذاك الرجل مباشرةً. وقد أصبح يبحث عن كيفية أن يحظى بفرصة رؤيتها مرّة أخرى. وجد أنّه من المزعج أنّ تلحّ عليه كلّ هذا الإلحاح لكي يتبرّع بدمه. ردّ بأنّه لم

يتناول شيئاً. قالت له بأنّ هذا ليس أمراً خطيراً. أجاب بأنّه يخاف من الإبر. اقترحت أن ترافقه. رضخ أخيراً لطلبها ببهجة.

ومن ثمّ استعادت حياة كلّ منهما مجراها. ربّما يكونا قد تبادلا أرقام هاتفيهما، ولكن هذا ليس مؤكّداً. في ذهن كيت، لا تستمر الذكرى لوقتٍ طويلٍ. كانت الذكرى قد بدأت بالتبخّر حينما اكتشفت بعد يومين من ذلك نتائج التحاليل الدموية.

في بداية الأمر، لم تصدّق عينيها وطلبت من القائمين على المخبر أن يُعيدوا إجراء التحليل على عيّنة أخرى من الدم. تمّ تأكيد النتيجة: كان دم ماتيو ينتمي فعلاً إلى زمرة هلسنكي! كان ماتيو قد وُلِد في السنة نفسها التي وُلِد فيها نيك. كان له البنيان نفسه. لقد كان «المتبرّع المثالي».

كيف لا يُرى في ذلك على أنّها إشارة من السماء؟ إنّها فرصةٌ لا تُصدّق سوف لن تتكرّر أبداً. إذاً، ما الذي جرى في ذهن كيت في تلك اللحظة بالذات؟ بماذا شعرت حينما أدركت بأنّ الطريقة الوحيدة لإنقاذ الرجل الذي تحبّه هو أن تصبح قاتلة؟

كيف يعبر المرء الحدود بين الحبّ والجنون؟

* * *

رنّ الهاتف في الفراغ خلال عدّة ثواني قبل أن تخرج إيما من استغراقها في أفكارها.

- نعم، يا رومالد، أين أنت؟

- أنا على بعد نحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب من لويل. لقد دخلت سيارة البيك - آب العائدة للمُخاطِر البديل الآن في طريقٍ ترابية خلال الغابة.

- حسناً. لا بدّ أنّ للرجل كوخاً أو أي نوعٍ من المخابئ في

تلك الأنحاء. الآن وقد عرفنا أين يختبئ، ارجع حالاً وبسرعة إلى الفندق.

تردّد الصبي المراهق. سمعت إيما ضجيج محرّك السيارة الرياضية الرباعية الدفع الذي ظلّ يدور.

- عُد إلى الفندق، يا رومالد. لدي الكثير من الأمور التي يجب أن أرويها لك.

يجب علينا أن نتّخذ قراراً.

ولكنّ الصبي المراهق لم يكن يُصغي إليها.

- رومالد، من فضلك!

مسح الصبي نظارته. لم يكن بوسعه أن يتوقّف الآن، في منتصف الطريق. كان عدم معرفة ما يوجد في نهاية الطريق بالنسبة إليه افتقاراً للشجاعة وفشلاً شخصياً.

وضع نظارته وفعّل غيار انطلاق السيارة نحو الأمام.

قال لإيما:

- سوف أرى. سوف أبقى على اتّصالٍ معكِ.

ألقى نظرةً على بطارية هاتفه المحمول - «3 %» - ومن ثمّ دلف بدوره إلى داخل الغابة. كان الطريق الترابي مكسوّاً بطبقة سميكة من الثلج، ولكن العجلات الضخمة لسيارة الدودج كانت قد نظّفت الممرّ تماماً منه.

كلما كان يغوص في الغابة أكثر، كلما كان الظلام يشتدّ أكثر. كانت الشمس قد احتجبت، مخفية بفعل كثافة أشجار الصنوبريات. تعرّج بهذه الطريقة وسط عتمة الغابة لما يقارب نصف كيلومتر. على الطرف الآخر من الخطّ الهاتفي، كانت إيما على أحرّ من الجمر ودمها يغلي من القلق.

- هل ما زلت تسمعني، يا رومالد؟

- نعم، ولكنني وصلتُ إلى طريقٍ مسدود.

قبض الصبي المراهق بيديه على مقود السيارة. في نهاية الممرّ الضيّق، كانت سيارة الدودج قد استدارت نصف دورة وأصبحت في مواجهته.

- سيارة البيك - آب هنا، ولكن.

قطّب عينيه.

- ولكن ماذا؟

- أعتقد أنّه لم يعد هناك أحدٌ خلف المقود

- رومالد، عُد، تبّاً لك!

وافقها الرأي:

- نعم، هذا أكثر حذراً، من الأفضل أن أعود.

الآن، بدأ يشعر فعلاً بالخوف. خلال بضع ثوانٍ، أصبحت الغابة كثيفة ومعتمة ولا منفذ لها وبدت كما لو أنها تنغلق عليه. حرّك الغيار لكي ينتقل إلى وضعية السير إلى الوراء، ولكنّ الطريق كان ضيّقاً وغاصت السيارة في الثلج.

اللعنة...

غطّت مسحة من العرق جبينه. شبّك فرامل السيارة وخرج إلى البرد. كان غطاءٌ من الصمت المُطبق يغلّف الغابة. كانت بعض ندائف الثلج تتحرّر من أغصان الأشجار وتتطاير مع الهواء في الجوّ.

سأل بصوتٍ مرتجف:

- هل من أحدٍ هناك؟

لم يتلقّ جواباً.

سار لبضع خطوات لكي يقترب من سيارة البيك - آب وينظر عبر زجاج نافذتها.

لا أحد.

لاحظ بأنّ باب السيارة لم يكن مقفلاً. كان يستعدّ لفتحه حينما سمع صرير وقع خطى على الثلج. التفت فجأةً وفي لمح البصر رأى شبحاً أسودَ ينقضّ عليه.

فتح فمه لكي يصرخ، ولكن أخمص سلاحٍ ضرب جمجمته.

وفقد الوعي.

سمعت إيما تَتابُع صخبٍ وضجيجٍ مخنوق وشعرت بالذعر.

سألت وصوتها مليءٌ بالقلق:

- هل تسمعني؟ اشرح لي ما يجري، يا رومالد! أتوسّل إليك!

فاضت عيناها بالدموع ولم تستطع أن تواصل توسّلها إلى الصبي المراهق. وحده الطنين المديد للهاتف كان يُسمَع. لقد انقطع الاتّصال به.

القسم السادس

ما وراء الحدود

24

الأبطال والأشرار

أَشْفِق على الذين يخافون لأنّهم يخلقون
أهوالهم الخاصّة.

ستيفن كينغ

كان الليل قد هبط حينما وصلت سيارة البيك - آب النبيذية اللون إلى أطراف المنطقة الصناعية في نيو هارتلاند، بين مدينتي ناشوا وسالم، على الحدود بين نيو هامبشير وماساتشوستس.

من خلال النظرة الأولى، كان المكان محمياً، بوساطة سياجٍ معدني تارةً، وبوساطة سياجٍ خشبيٍّ تارةً أخرى، ولكن ليس بما يكفي لمنع مَنْ يريد الدخول إلى داخل السور.

مرّت سيارة البيك - آب من طراز دودج أمام المدخل الرئيس، والتفّت حول الجزء الذي كان يحاذي الطريق وصعدت ببطء ممرّاً مفروشاً بالحصى أكثر سريّة لكي يصل إلى أمام بوّابةٍ معدنيّة ثقيلة مقفلة بسلسلة معدنية. دعس المُخاطر البديل على المكابح بعنف، ونزل من السيارة مزوّداً بكلّابة لصوص ومقصّ لقطع الحديد. على ضوء مصابيح السيارة، لم يلزمه سوى بضع ثوانٍ لكي يفتح الباب على مصراعيه. عاد وصعد إلى قمرة قيادة سيارة البيك - آب وواصل السير في طريقه.

كان المكان، المحصور بين النهر وسكّة حديد قديمة، قد أصبح تدريجياً لا وارث له خلال العقد الأخير من القرن العشرين وتُرِكَ شاغراً. عبرت السيارة الشاحنة مشهداً طبيعياً كريهاً كان يمتدّ على مسافة عدّة هكتارات: كانت مهاجع ومستودعات مهجورة، ومعامل ومصانع سدّت نوافذها، وأراضٍ بائرة بلا عناية.

وهو يقود سيارة البيك - آب، دخل أوليغ تاراسوف إلى مهجعٍ طويل كان قد ضمّ فيما مضى مسالخ مقاطعة هيلزبورو. كانت المنشأة هي آخر منشأة في المنطقة الصناعية أغلقت أبوابها وجزءاً من المحلات التي اشتراها أحد المستثمرين والتي كانت لا تزال يتمّ تغذيتها بالكهرباء.

وكانت البلدية قد حاولت أن تُعيد تأهيل الموقع وذلك من خلال حثّ مستثمرين في القطاع الخاص على إقامة مشاريع مقاسم سكنية ومساحات خاصّة بمشاريع ثقافية وترفيهية، ولكن، وبسبب الأزمة الاقتصادية، لم يرَ أيّ شيءٍ من هذا النور. ولذلك ظلّت الأراضي بائرة وبلا عناية وظلّت المحلّات مهجورة وأصبحت العمارات المتهدّمة مرتعاً للشاغلين غير الشرعيين والعصابات والمدمنين على المخدّرات.

قفز تاراسوف من السيارة ورفع قواطع شبكة التغذية الكهربائية. أنار ضوءٌ شاحب المستودع. جرّ تاراسوف كيفما كان جسد رومالد على الأرضية وصفعه بعدّة صفعات لكي يستعيد وعيه.

ولكن دون جدوى، إذ ظلّ رومالد غائباً عن الوعي بلا حراك.

ساور القلق تاراسوف. تفحّص بدقّة وتركيز جواز السفر الذي عثر عليه في أحد جيوب بنطلون الصبي: كان قاصراً وأجنبياً. لماذا

لحق به منذ أن خرج من شارع سان فرانسيس؟ هل لهذا الأمر علاقة بالعقد الذي كان عليه أن يوقّعه هذه الليلة؟ أعاد تمرير أحداث النهار في ذهنه. جفل تاراسوف حينما تذكّر المرأة الشابّة التي استقلّت المصعد معه في الفندق. الآن، حينما فكّر في ذلك، أصبح متأكّداً من الأمر: كان تصرّفها غريباً، هل كانت هي الأخرى تلاحقه؟ ولكن لماذا؟ ومع ذلك، كان قد اتّخذ كلّ تدابير الحيطة والحذر. ومثل غالب الأحيان، كانت الحلقة الأضعف هو الذي يعطي الأوامر. تردّد في الاتصال بكيت شابيرو، ولكنّ الصفقة كانت واضحة وحاسمة: لا مكالمات هاتفية، لا اتّصال، لا أثر يُترَك. التنفيذ المحض والبسيط لما تمّ الاتّفاق عليه. تساءل إن كان المبلغ المتّفق عليه والموعود به يستحقّ عناء مواصلة مهمّته. ولكنّه حسم أمره وانتهى إلى التأكيد على المضي في تلك المهمّة.

كانت المرأة ملتزمة معه وصادقة في تعاملها معه. لقد سبق لها وسلّمته دفعتين من خمسمائة ألف دولار. لم يكن يعلم كيف تحصل على كلّ هذه الأموال ولم يكن ذلك من شأنه، ولكنّها نجحت في الدفع نقداً. الكثير من الأموال نقداً. وأوراق نقدية جديدة خالية العلام. بقي مبلغ مليون دولار ينبغي أن يحصل عليه. وبالتالي، قرّر أن يذهب حتى النهاية في عقده المبرم مع كيت.

بانتظار أن يستطيع استجواب الصبي الراقد على الأرض، والذي كان لا يزال غائباً عن وعيه، أمسك المُخاطِر البديل بكرسيٍّ مصنوعٍ من قضبان حديد ونظّفه من شباك العنكبوت المنسوجة عليه وجلس إلى طاولةٍ معدنية. وضع سيجارة بين شفتيه، وأشعلها ووضع علبة أعواد الثقاب على الطاولة. حينما أطلق النفثة الأولى من دخّان السيجارة، أخرج دفتر ملاحظات من صندوقه الصغير، فتحه وراجع

الملفّ المفصّل الذي كان قد لخّص فيه بصبرٍ وأناة كلّ المعلومات المتعلقة بالرجل الذي كان عليه أن يقتله.

* * *

بدأ رومالد يلمح ضوءً برتقاليّ اللون كان يترجرج أمام عينيه. كان طنينٌ مخنوق يدور في رأسه في الوقت نفسه الذي كان ألمٌ حادٌّ يدوّم في جمجمته. كان راقداً على أرضية صلبةٍ وباردةٍ مثل الجليد. حاول أن يقوم ويجلس ولكنّه اكتشف أن مشدّاً لدناً كان يكبّل يديه.

ولكن أين أنا؟

حينما استعاد وعيه بالكامل، أدرك أنّه موجودٌ في مهجعٍ ذي جدران إسمنتية خشنة ومنارٍ بإضاءةٍ باهتة. حاول بضربة قويّة أن يتحرّر من الأربطة التي كانت توثِق يديه، ولكنّ الحبل المصنوع من النايلون عضّ على لحم يديه وانغرز فيه. غضن وجهه من شدّة الألم وأدرك بأنّه سوف لن ينجح في التحرّر من هذه القيود.

بينما كانت الدموع تفيض في عينيه، لمح رجلاً كان يتقدّم نحوه بخطواتٍ واثقة. بذل جهوداً لكي يجلس، وحاول أن ينهض ويقف على قدميه، ولكن إحدى فردتي الحذاء الطويل لتاراسوف سحقت صدره.

- لا تتحرّك!

ارتعب الصبي المراهق، ولم يعد يجرؤ حتى على رفع عينيه في وجهه.

ضغط تاراسوف بحذائه على جذع الصبي وسأله:

- لماذا كنت تلاحقني؟

أغمض رومالد عينيه وانكمش على نفسه متكوّراً.

صرخ تاراسوف بصوتٍ مرتفعٍ جدّاً بحيث خرّ الصبيّ باكياً:

- لماذا؟

استشاط الروسي غضباً وخرج عن طوره، ووجّه ركلةً إلى أضلاع الصبي. انقطعت أنفاس رومالد، ومن ثمّ، بعد أن تلقّى الصدمة، انطلق في نوبةٍ شديدة من السعال.

بقوّة رهيبة، أمسك به تاراسوف من معطفه الرياضي وجرّه إلى حجرة لا نوافذ فيها، ولها جدران وسقفٌ مغطّاة بالحديد. أفلت المُخاطر البديل رومالد من بين يديه، والذي سقط ثقيلاً على الأرض، وأغلق باب الحجرةِ من خلفه. لم يستغرق الصبي وقتاً طويلاً لكي يدرك أين يمكن أن يكون. كان هواءٌ جليدي يلفح وجهه. رفع عينيه. كان الهواء الطازج يخرج من الأنابيب الحلزونية لمبخرة ضخمة. كان محتَجَزاً في صالة تبريد.

* * *

بوسطن

بقّالة أغذية، زيليغ فود

كان ماتيو يدفع عربته الصغيرة، محاولاً أن يشقّ لنفسه طريقاً لكي يصل إلى الرفّوف الخاصّة بالفاكهة والخضراوات.

قهقهت إيميلي وهي تتشبّث بمقعد العربة الصغيرة:

- أسرع، يا بابا، أسرع!

داعب ماتيو خدّ ابنته وأمسك بباقة بقدونس، وباقة من أوراق الطرخون، وكُرّاث أندلسي، وحبّات بصلٍ صغيرة.

لدى الالتفاف على بسطة لعرض البضائع، رآها أخيراً: حبات البطاطس الناعمة كحبات الفستق والتي تنتجها جزيرة نوارموتيه والتي كانت زوجته مولعة بها. كان قد سبق له أن جال على نصف بائعي الخضار وزارعي البقول في المدينة من دون أن ينجح في وضع يده

على هذه البطاطس العجيبة. في هذا المساء، حرص ماتيو على أن يكون كلّ شيء متميّزاً. فقد أعدّ وجبة للعيد مكوّنة من كلّ الأطباق المفضّلة لدى كيت. على الرغم من سعرها الباهظ، اشترى كميّة جيّدة من البطاطس، وتحقّق من قائمته ليتأكّد بأن لا شيء ينقصه ومن ثمّ سار نحو صناديق المحاسبة.

صرخت إيميلي:

- بابا، لقد نسينا المشروب لبابا نويل!

قال وهو يعود على أعقابه:

- نعم، أنتِ على حقّ.

من على رفّ المشروبات الطازجة، اختارا معاً عبوةً من شراب البيض.

أضاف ماتيو وهو يغمز ابنته:

- سوف نُضيف أيضاً كأساً من نبيذ البوربون. إنّ بابا نويل يحبّ هذا كثيراً، وبهذا المشروب البارد، سوف لن يتسبّب هذا بأيّ أذى له.

قالت بهزل:

- فكرةٌ حسنة.

أعاد إليها ماتيو ابتسامتها، وهو يدوّن ذهنياً بألا ينسى أن يشرب الكأس قبل أن تنزل إيميلي إلى الصالون صباح اليوم التالي.

* * *

جمّد البرد جسد رومالد. تكوّر رومالد على نفسه مثل كرة، وثنى ركبتيه على صدره، وأخفى وجهه في الكبوشة المصنوعة من الفرو لمعطفه الرياضي. نظر إلى ساعة يده. كان قد مرّ عليه أكثر من

عشرين دقيقة وهو في قاعة التبريد. كانت هناك مجاديف خشبية متكسِّرة تتكدّس في زاوية المكان. جال في المكان بسرعة. كانت الجدران مغطّاة بالعفونة وبالصدأ. كان من المستحيل إيقاف تشغيل الثلّاجة الموجودة داخل الصالة. وكان من المستحيل إزالة أقفال الباب وفتحه.

نفخ يائساً في يديه في محاولةٍ منه لتدفئتهما. كان يرتعد برداً وكانت شفتاه ترتجفان وأسنانه تصطكّ. كانت دقّات قلبه تتسارع أكثر مثلما يحدث بعد بذل جهدٍ كبير.

في البداية، كان يترنّح على قدميه ويبادل بينهما في الحركة لكي لا يتجمّد في مكانه، ولكن البرد كان أشدّ من أن يقاومه وكان يخدّر كلّ شيء في جسمه ويخترق ثيابه ويُرهق أعضائه المقشعرّة من البرد والخوف.

فجأةً، بينما لم يعد يثق بذلك، سمع ضجيجاً يدلّ على إيقاف هدير محركّ التبريد في الصالة. انفتح الباب وتقدّم المُخاطر البديل ببطء نحوه، وهو يمسك بمسطرة تعيير بإحدى يديه، وبسكّين باليد الأخرى.

قال وهو ينحني على الصبي المراهق:

- البرد رهيب هنا، أليس كذلك؟ قبل أن يجربّه المرء، لا يمكنه أن يقدّر مستوى التعذيب الذي يمثلّه.

بضربةٍ من نصل السكين، قطع الأربطة البلاستيكية التي كانت ترهق معصمي رومالد. خرج رومالد من الثلّاجة وهو يزحف.

تابعه تاراسوف بنظره. كان يعرف أضرار تبدّلٍ مفاجئ في درجات الحرارة. انقطعت أنفاس رومالد. كان يسعل سعالاً صاخباً، ويدلّك كتفيه وذراعيه ووجهه، ولكن كان لا يزال كلّ شيء

فيه بارداً. وحدها جرعات الهواء الساخن التي كان يستنشقها كانت تريحه بعض الشيء.

لم يترك له تاراسوف فرصةً سوى لبضع ثوانٍ.

حذّره قائلاً:

- سوف لن أطرح عليك السؤال لعشر مرّات. البديل بسيط للغاية: إمّا أن تجيب عن سؤالي مباشرةً، وإما أن تعود إلى الثلّاجة كي لا تخرج منها أبداً.

استمرّ رومالد في اللهاث وهو مغمض العينين. واستمرّ تاراسوف في إطلاق تهديداته:

- أنت تعتقد أنّ ما عشته قبل قليل هو الجحيم، ولكنّك مخطئ. هذه ليست سوى وجبة مشهيات. فكّر جيّداً: أنت في وسط اللامكان. يمكنك أن تصرخ بما تشاء من قوّة، سوف لن يسمعك أحد. إن لم تتكلّم، سوف تنفق هنا وحيداً، ببطء وبطريقة وحشية.

فتح رومالد عينيه، وألقى نظرة سريعة من حوله. لم يكن هناك أي مخرج لكي يأمل في الهروب منه. مثلما لم يكن هناك أيّ مكانٍ ليختبئ فيه.

انتصب الرجل الروسي أمامه.

- أسألك هذا السؤال للمرّة الأخيرة: لماذا كنت تلاحقني؟

استبدّت بالصبي المراهق نوبة سعالٍ جديدة.

نفد صبر الرجل الروسي وأمسك به من شعره.

- هل ستجيب عن سؤالي؟

استجمع رومالد كلّ طاقته وأخفض رأسه فجأةً وسدّد بجمجمته بكلّ ما أوتي من قوّة نطحةً إلى جذع الرجل الذي كان يعتدي عليه.

بوغِت الرجل الروسي بالهجوم وتلقّى الضربة. استغلّ الفتى

المراهق ذلك لكي ينطلق راكضاً ولكنّ الروسي أوقف اندفاعته بركلةٍ من قدمه.

- وإلى أين تنوي الذهاب، بهذه الطريقة؟

تمدّد رومالد ثقيلاً على الطاولة المعدنية التي كان تاراسوف قد وضع عدّته عليها.

في ثانية واحدة، ارتمى القاتل فوقه وأوسعه ضرباً حقيقياً. وهو يوجّه لكمات مباشرةً إلى معدته ويضربه بمرفقيه على أضلاعه: كانت الضربات تنهمر عليه كالمطر دون توقّف. وما أن انطرح رومالد أرضاً، حتى استمرت الضربات بالقدمين ركلاً ودعساً.

حينما هدأت عاصفة الضرب، لم يكن الصبيّ المراهق، الدائخ، يقوى على النهوض. قبض عليه تاراسوف من معطفه الرياضي وجرّه من جديد إلى غرفة التبريد.

صرخ تاراسوف باللغة الروسية وهو يُغلق الباب من ورائه:

- Иди к черту! (*)

تأكّد من أنّ الباب قد أُقفِل جيّداً ومن ثمّ عاد إلى المستودع الرئيس. أوقف الطاولة التي كان الصبي قد قلبها على قوائمها، ولملم حاسوبه، وعلبة سجائره وجرزة مفاتيحه. تأكّد من أنّ الحاسوب المحمول لم ينكسر ووضعه في حقيبته الصغيرة التي وضعها بدورها على المقعد المجاور له في سيارة البيك - آب.

أخرج عقب سيجارة من علبته ونظر إلى ساعة يده.

سأدخّنها لاحقاً، فكّر وهو يُعيد السيجارة إلى العلبة.

توجّه نحو عمق المهجع الذي كان يفضي إلى صفٍّ من

(*) اذهبْ إلى الجحيم!

المقصورات المحمية ببوابات معدنية. فتح المقصورة الأولى التي كانت فيها درّاجة نارية تشبه في هيئتها موديلات أعوام السبعينيات من القرن العشرين: درّاجة من طراز هارلي دافيدسون «فات بوي» بطنها أصفر ناري، ومزيّن بالكْروم.

أخرج الدرّاجة من «الكراج» وقادها إلى تحت الضوء: كانت آلة ذات مخزن وقود ضخم، وعجلات عريضة، ومثبّتات عجلات مثيرة، وحِتارات مثقوبة.

تأكّد من أنّ مسدّسه الألماني من طراز غلوك موجودٌ في قرابه، إلى اليمين من صدره، ومن ثمّ دسّ سلاحاً آخر، أصغر حجماً، في قرابٍ مثبّت عند كعبه. اعتمر خوذةً وارتدى بلوزةً فضفاضةً قبل أن يمتطي جواده الفولاذي.

انطلق تاراسوف بالدرّاجة النارية وفعّل خدمة «جي بي إس» «نظام تحديد المواقع العالمي» على لوحة الدرّاجة لكي يُدخل إليها الإحداثيات الدقيقة لمنزل ماتيو شابيرو. وعلى الفور تقريباً، حسب نظام تحديد المواقع مختلف المسافات لكي يذهب إلى حي بيكون هيل. اختار تاراسوف الطريق الأسرع. ارتدى قفّازات، ونظر مرّة أخرى إلى ساعة يده وتقدّم حتى وصل إلى مدخل المستودع. هناك، فصل قاطع التغذية الكهربائية لكي يُطفئ الأنوار وغادر المسالخ القديمة.

* * *

كانت الدرّاجة النارية تُقلِع على الطرقات المتعرّجة التي تحيط بمدينة ويندهام وتسير على الأوتوستراد رقم 93 باتجاه مدينة بوسطن. كانت الريح تلفح وجه أوليغ تاراسوف وهو يقود الدرّاجة النارية ومقدّمة خوذته مفتوحة ويترجَّح على إيقاع صوت المحرّك

ثنائيّ الأسطوانة. كانت حركة المرور سلسة وسالكة على نحوٍ مدهش. على ذاك الإيقاع من السرعة، كان سيصل إلى داخل المدينة في أقلّ من أربعين دقيقة.

ومع بقائه مركّزاً على مسار طريقه، قام تاراسوف بمراجعة للعقد غير الاعتيادي الذي كان عليه أن يُنفذه. ربّما كان من الأبسط والأسهل لو أنّه أصاب بطلقة رأس ماتيو شابيرو، أو قطع رقبته بضربة من مدية. ولكنّ كيت شابيرو كانت في غاية الوضوح: لم تكن تريد استخدام أيّ سلاح. لأنّ استخدام سلاحٍ ناريّ أو سكينة كان يعني بالضرورة إجراء تحقيقٍ من قبل الشرطة. وكانت كيت تحرص أشدّ الحرص على أن يبقى رجال الشرطة بعيدين عن هذه «القضية».

حتى بعد ظهيرة اليوم، كانت قد كرّرت عليه مرّة أخرى بأنّ دفع ما تبقى من المبلغ مشروطٌ بواقع أن تسير الخطّة تماماً مثلما كانت قد أخبرته بها: يجب أن يموت زوجها في حادثٍ مفاجئ. حادثٌ ينبغي أن يتسبّب له بصدمةٍ في جمجمته ينجم عنها نزيفٌ دماغي.

ابتلع أوليغ تاراسوف ريقه. كانت كيت قد اختارته لهذه المهمّة لأنّه حينما كان أصغر سنّاً، في روسيا، كان قد بدأ بدراسة الطبّ وعمل ممرّضاً. وبالتالي، سوف لن يلاقي أي صعوبة في فهم تعليمات الطبيبة الجرّاحة: القضاء بشكلٍ كامل ونهائي على الجهاز العصبي في جمجمة ماتيو شابيرو، ولكن دون المساس ببقية جسمه. بعبارة أخرى، التظاهر بوقوع حادث لكي يتم إتلاف دماغه، ولكن مع الحفاظ على أعضاء جسمه. في حالة الموت الدماغي، يستطيع القلب أن يواصل النبض لأكثر من أربع وعشرين ساعة، حيث تتيح أجهزة الإنعاش الإبقاء على مدّ الدم بكميات الأكسجين الضرورية.

كان لدى تاراسوف مبدأ ثابت وهو ألّا يسعى إلى معرفة دوافع

زبائنه. كما أنّه لم يكن يسألهم أو يناقشهم في ذلك. دائماً، هناك لكلٍّ شخصٍ أسبابه. ولكن ذلك لم يمنعه: كانت الخطّة الميكافيلية المتخيّلة من قبل هذه المرأة تثير قشعريرة بردٍ في ظهره. كانت قد تابعت التفاصيل إلى درجة أنّها اقترحت عليه بنفسها مكان الحادث. وكانت تلك فكرة حسنة مقدّسة.

كان «الكورنيش» عبارة عن منحدرٍ ضيّق من الإسمنت، وهو يقع ليس في حرف الجُرف الصخري، وإنّما على مرتفعٍ أرضي كان يسمح بالالتفاف على ملتقى طرق. إذا كنتم تعرفون وجوده، كان سيجعلكم تكسبون وقتاً ثميناً من خلال ربط جادة كونولي أفينيو مع شارع روب ستريت، إنّه شارعٌ قصير خلف محطّة جامايكا بلين.

على الرغم من أنّ شكل الطريق لم يكن يسمح بالإفراط في السرعة، إلّا أنّه، خلال السنتين الأخيرتين، لقي ثلاثة درّاجين حتفهم عليه. كانت المسؤولية تقع على عوارض الأمان المعدنية التي كانت تحاذي الطريق والتي كانت جمعيات الدرّاجين تغفل عن الإبلاغ عن خطورتها. كانت المسألة تكمن في المسافة الفاصلة بين السكّة الحديد والأرض: مساحة خالية لما يُقارب خمسين سنتيمتراً والتي يُمكنها أن تتحوّل بسهولة إلى مقصلة إذا ما مرّت الدرّاجة، بعد أن تتزحلق، بسوء مُصادفة تحت السكّة الحديد. وبفاصل بضعة أشهر، شاهد رجلان برعب خوذتهما وقد انحصرت داخل فجوة عارضة الأمان المعدنية، بينما صدم آخرٌ بكلّ قوّة أحد أعمدة سكك الأمان. أدى وفاة هؤلاء الرجال الثلاثة إلى استجواب فريق البلدية. وانطلق آنذاك جدلٌ لمعرفة كيفية تحسين الأمان في هذه القطعة من الطريق. وبانتظار ذلك، كانت البلدية قد أخلت مسؤوليتها وذلك بمنع هذا الطريق على الدرّاجات النارية.

ولكن مَن كان يتقيّد فعلاً بقرار المنع هذا؟
حسب اعتقاد كيت، ليس زوجها.
أنزل أوليغ الواقية الأمامية لخوذته. ألقى نظرةً على المرآة العاكسة لدرّاجته وانحرف لكي يتجاوز رتلاً من الشاحنات. كان تزايد عدد اللوحات الإرشادية تشير إلى قرب الوصول إلى المدينة. ضاعف من انتباهه لكي لا يفوّت المخرج رقم 26 باتجاه ستورو درايف. ومثلما كان يشير له نظامه لتحديد المواقع «جي بي إس»، سلك الطريق السريع المحاذي لنهر تشارلز ريفر إلى أن وصل إلى مُفتَرَق شارع بيكون ستريت. سلك اتّجاه ساحة كوبلي سكوير، ومن ثمّ سار في شارع مونت فيرنون ستريت ووصل إلى ساحة لويسبورغ سكوير. ركن درّاجته النارية تحت أشجار الساحة، نزع خوذته ووضع سيجارةً بين شفتيه. فتّش جيوبه وقلبها رأساً على عقب، ولكنّه لم يستطع العثور على علبة أعواد الثقاب. خاب أمله لكونه لم يستطع أن يشعل سيجارة، نظر بسخط إلى النافذة التي كانت كيت شابيرو قد دلّته عليها في البيت.
من خلال زجاج النافذة، وفي أوقاتٍ متقطعة، كان يلمح ظلّ رجلٍ وفتاةٍ صغيرة في المنزل.
كان ذلك أمراً باعثاً على الغضب بالنسبة إليه، ولكن بعد أقلّ من عشرين دقيقة، سوف يموت هذا الرجل.

* * *

سألت إيميلي وهي تعرض على والدها ثلاث لوحات كرتونية:
– هل رسوماتي جميلة؟
نظر مات إلى الرسومات باهتمام: وسط سيمفونية الألوان الحارّة المتدفّقة من رؤوس أقلام التلوين، كانت تظهر بوضوح صورة

الرنّات اللواتي كنّ يجرُرْنَ عربة بابا نويل، وكذلك صورة أميرة ورجل طيّب من الثلج. الرسومات لم تكن سيئة بالنسبة إلى طفلةٍ تبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف.

ردّ والدها بحماس وهو يداعب شعرها:

- هذا رائع، يا عزيزتي! سوف تُسعد ماما كثيراً حينما ترى أنّكِ قد زيّنتِ بهذا القدر من الجمال وجباتنا. هل سوف تضعينها على المائدة؟

أجابت إيميلي بإيماءةٍ من رأسها وأسرعت إلى غرفة الطعام لكي تتسلّق كرسياً وتضع في كلّ صحنٍ من الصحون الثلاثة وجبة هذه السهرة الخاصّة والمميّزة، المكوّنة من الأطباق المفضّلة لدى والدتها:

كارباتشيو سان جاك المُرطّب بالكافيار.

حساء الأرضي شوكي مع فطيرة الحلوى الصغيرة بالكمأة

ويتر روكفيلر

قِدر كركند مين وبطاطس نوارموتيه الناعمة

تارت بجوز البقان والشوكولا

قال ماتيو وهو يراقبها من بعيد:

- انتبهي لئلا تسقطي!

مسح يديه بصدريته وهو يراجع في الوقت نفسه في ذهنه مقادير الحشوة اللازمة لتزيين طبق ويتر روكفيلر: **ثوم، زبدة، بقدونس، طرخون، كُراث أندلسي، قديد، مسحوق الخبز المحمّص، زيت زيتون، توابل مقاطعة كايين الفرنسية...**

نظر مات إلى الساعة الجدارية. الآن، سوف لن تتأخر كيت أكثر. تأكّد من أنّه قد برّد جيّداً زجاجة الشامبانيا التي كان قد احتفظ بها لهذه المناسبة، وتساءل إن كان عليه أن يبدأ بتسخين الفرن، وراقب طهو البطاطس خاصّته.

قالت إيميلي بنبرة شاكية:

- بابا، أنا جائعة!

رفع عينيه. كانت الفتاة قد عادت تلعب عند أسفل شجرة التنّوب.

أكّد لها:

- بعد بضع دقائق، يا عزيزتي.

كانت الشرائط المزخرفة المتلألئة تعطي تنوّعاً في الألوان الوردية والفضية والزرقاء، مشكّلة هالةً سحرية خلّابة حول ابنته حيث كانت تجعلها تبدو كأميرةٍ.

قال لها:

- سوف ألتقط لكِ صورةً بجانب شجرة الميلاد، وأرسلها إلى أمّكِ لكي أجعلها تعود أسرع.

كان قد أمسك لتوّه بهاتفه المحمول حينما رنّ الهاتف بين يديه. كانت زوجته.

25

في وادي الأشباح

المحنة، مثل ريحٍ عاصفة، تمنعنا من
الذهاب إلى حيث نريد، تعرّينا وتجعلنا
نقف في مواجهة أنفسنا كما نكون فعلاً،
لا كما نريد أن نكون.

آرثر غولدن

24 ديسمبر 2010
جامايكا بلين (ضاحية بوسطن)
الساعة الثامنة وتسع وخمسون دقيقة مساءً

كانت غرفة المستشفى تغرق في ضوءٍ ساطع. بانتظار إجراء عملية زرع قلب، كان نيك فيتش يغطّ في حالة من الغيبوبة. كانت حياة رجل الأعمال تتعلّق من الآن فصاعداً بجهاز التنفس الاصطناعي الموصول بجانب السرير. قطّبت كيت حاجبيها وتحقّقت من تعقّد الحُقَن ومن النسب ومن حسن سير مُخطِّط القلب الكهربائي. ومن ثمّ انحنت وطبعت قبلة سريعة على فم عشيقها.

في الحال، لا تقلق. أنا أتكفّل بكلّ شيء.

أغمضت عينيها لكي تنهل من احتياطاتها من الطاقة، ومن ثمّ تنفسّت بعمق، وخلعت صدريتها البيضاء وخرجت من الغرفة.

المهمّ هو عدم الاستسلام. واتّباع الخطّة.

استقلّت المصعد إلى أن وصلت إلى الطابق الأرضي وألقت التحية على العدد القليل من زملائها الذين صادفتهم في الممرّ المؤدّي إلى قسم الطوارئ في المستشفى.

يجب عدم إضاعة الوقت.

وكما كانت تتوقّع، كان المستشفى هادئاً. باستثناء الجراح الناجمة عن سكين المحار، كان مساء سهرة عيد الميلاد لا يزال أقلّ صخباً من مساء 31 ديسمبر. حتى صالة الاستراحة، على الرغم من زينتها، بدت وكأنّها مصابة بشيءٍ من الفتور.

أخذت كيت من خزانتها الخاصّة في المستشفى معطفها وحقيبتها وهاتفها الخليوي. أجرت أولى مكالماتها مع زوجها. تحدّثت معه وهي تواصل في الوقت ذاته سيرها، وهي تمشي في الممرّ الطويل والمُنار بأضواءٍ شاحبة والذي يؤدّي إلى مرآب السيارات، وهي تمثّل على أكمل وجه دورها كزوجة نموذجية، مستبقةً تماماً كلّ ردّ فعلٍ لزوجها مات.

قالت وهي تكذب عليه:

- مرحباً، يا عزيزي. لقد خرجتُ للتوّ من المستشفى، ولكنّ سيارتي لا تزال معطّلة ومتوقّفة في المرآب! وكما هو الحال دائماً، أنت مَنْ كنتَ على حقّ: يجب عليّ حقّاً أن أتخلّص من هذه العربة القديمة الرديئة.

ردّ ماتيو:

- لقد قلتُ لكِ ذلك ألف مرّة.

- ولكنني متعلّقة كثيراً بهذه العربة القديمة من طراز مازدا! أنت

تعلم أنّ هذه أوّل سيارة استطعتُ أن أدفع ثمنها حينما كنتُ طالبة في الجامعة!

- كان ذلك في أعوام التسعينيات من القرن العشرين، يا قلبي، وحتى في تلك الفترة كانت هذه السيارة «مستعمَلة».

- سوف أحاول أن أستقلّ المترو.

- هل تمزحين؟ في تلك المنطقة وفي هذا الوقت بالتحديد، سيكون الأمر خطراً جدّاً. سوف أستقل دراجتي النارية وسآتي لاصطحابكِ.

- كلا، الجوّ فعلاً باردٌ جدّاً. يتساقط مزيجٌ من المطر والثلج، ليس من الفطنة أن تأتي يا مات!

كانت تعلم جيّداً بأنّه سوف يصرّ على أن يذهب لاصطحابها. دعته يلعب دوره كرجلٍ حامٍ لزوجته قبل أن «تستسلم» لإلحاحه.

قالت وهي تعبر الأبواب الآلية:

- حسناً، ولكن انتبه جيّداً، اذاً! أنا في انتظارك.

أغلقت سمّاعة الهاتف وخرجت إلى المرآب.

عضّ البرد على وجهها، ولكنّها لم تحسّ به.

* * *

الساعة التاسعة وثلاث دقائق مساءً

أدار سامير ناراهيم مفتاح تدوير محرّك شاحنته الصهريج وغادر موقع مطحنة أولويت، في غرب المنطقة الصناعية في جمايكا بلين. كان يقوم بتسليم آخر شُحنة قبل أن يعود إلى زوجته ساجاني. كان النهار طويلاً ومُتعِباً. في الحالة الطبيعية، كان من المفترَض ألا يعمل سامير عشية عيد الميلاد هذه، ولكنّ صاحب عمله كان قد اتّصل به على نحوٍ طارئ لكي يحلّ محلّ سائقٍ تخلّف عن الالتحاق

بعمله. وعلى الرغم من أنّ سامير وزوجته كانا قد نويا أن يقضيا النهار عائلياً، إلا أنّه لم يجرؤ على رفض «اقتراح» صاحب عمله. بسبب الأزمة الاقتصادية وحمل ساجاني، لم يكن الوقت مناسباً للمخاطرة بفقدان عمله.

هذا لا يمنع من أنّ العمل في هذا النهار شاقّ...

نظر إلى ساعة لوحة السيارة.

لا ينبغي أن أنسحب!

كان عليه أن يسلّم شحنته من الطحين في مصنعٍ يقع في بلدة كوينسي، إلى الجنوب من مدينة بوسطن، قبل الساعة العاشرة مساءً.

زاد سامير من سرعة شاحنته بعض الشيء، متلاعباً بحدود السرعة المسموح بها.

لم يكن يتصوّر بأنّه، بعد بضع دقائق سوف يقتل شخصاً بشاحنته.

* * *

الساعة التاسعة وخمس دقائق مساءً

تقدّمت كيت في صفوف المرآب في الهواء الطلق لكي تصل إلى سيارتها. حينما وصلت إلى الموقع رقم 66، اكتشفت باندهاش بأنّ الموقع كان خالياً وسيارتها ليست موجودة فيه.

لقد سُرِقَت سيارتها القديمة!

هذا ليس صحيحاً!

كانت قد ركنت السيارة في مكانها المعتاد، حينما وصلت في بداية ما بعد الظهيرة، وكانت متأكّدة من ذلك!

أحسّت بأنّ الغضب يتملّكها وتردّدت في الخطوة التي ينبغي اتّخاذها. كان عليها أن تتّصل بالقاتل المأجور لكي تعطيه الضوء

الأخضر قبل أن يُغادر مات البيت. ولكنّ نجاح خطّتها كان يتوقّف أيضاً على واقع أن تكون الأولى في مكان «الحادث».

كانت تريد بأيّ ثمنٍ كان أن تُشرف على وصول المسعفين وأن تستفيد بمهارة وحذق من النقص العددي للكادر الوظيفي أثناء عيد الميلاد. للوهلة الأولى، كانت تنوي أن تلعب على وضعيتها المزدوجة كطبيبة وكزوجة للضحية. سوف تُطالب بأن يتم الاحتفاظ بجثّة ماتيو «تحت الرقابة» إلى حين وصولها إلى المستشفى، وسوف تستعجل عملية تصوير الأوعية الدموية التي لا بدّ أنّها سوف تؤكّد موته الدماغي، وسوف تتأكّد بنفسها من أنّ قلبه يُحفَظ اصطناعياً في حالة عمل، وسوف تُسوّي على عجلٍ وبسرعة مشاكل قبول التبرّع بالأعضاء. في هذا الصباح، لم تنسَ أن تتأكّد من أنّ محفظة زوجها كانت تحتوي على بطاقة المتبرّع بالأعضاء والتي كانت قد أقنعته بالحصول عليها قبل ثلاثة أعوام. كانت تعلم بأنّ الكادر الطبي سوف يطرح عليها هي السؤال وسوف يطلب منها أن تتّخذ القرار: كان زوجها يحافظ على علاقات فاترة مع والديه اللذين كانا يعيشان في فلوريدا ولم تكن له عائلة أخرى في بوسطن.

سوف تنجح خطّتها شريطة أن تسير الأمور بسرعة كبيرة. ما أن يتم أخذ العلم بمبدأ اقتطاع عضو، سوف يقوم المخبر بفحصٍ خاصّ بالمصول ويوضّح حالة الأعضاء بفضل مجموعة من صور الأشعّة. الكثير من الاختبارات التي سوف توجّههم نحو متلقين محتَملين ومتلائمين مع الأعضاء المتبرّعة بها. كان اسم نيك موجوداً على قائمة مَن لهم الأولوية، أي «القائمة الأرجوانية» وسوف يتمّ التعرّف عليه مباشرةً. منذ شهرين، كانت تترقّب مخطّطات الفرَق ولأنّها سوف لن تتمكّن من أن تُجري بنفسها العملية الجراحية لنيك، تأكّدت

من أنّ الطبيب المختصّ بالجراحة القلبية والمُناوب في تلك الليلة كان أحد الأطباء الأكفّاء في المستشفى.

كانت قد خطّطت **لكلّ شيء** منذ أيام، منذ شهور، بل ومنذ سنوات. سوى أنّه قد تمّت سرقة سيارتها من هذا المرآب اللعين.

يجب ألا تفقد هدوءها.

لم تتصوّر كيت هكذا نوع من الصعوبة، ولكن كان عليها أن تُحافظ على رباطة جأشها. وكما في لعبة الشطرنج، فكّرت من جديد بهذه الجملة التي كان يردّدها تارتاكوفر أحد أساتذة قواعد اللعبة: التكتيك **يتضمّن معرفة ما ينبغي القيام به عندما يكون هناك ما ينبغي القيام به.** أمّا الاستراتيجية **فتتضمّن معرفة ما ينبغي القيام به عندما لا يكون هناك أيّ شيء ينبغي القيام به.**

هرعت مسرعة الخطى إلى المرصد الذي كان يضمّ الحارس المكلّف بحراسة المرآب وأشارت إلى سرقة سيارتها.

- هذا مستحيل، يا سيّدتي. أنا في الدوام منذ منتصف النهار. أنا أعرف عن ظهر قلب سيارتك ويمكنني أن أؤكّد لكِ بأنها لم تخرج إلى خارج سور المستشفى.

- ومع ذلك أنت ترى بأنّها لم تعد موجودة في المكان!

- إذاً، هذا يعني بأنّكِ قد ركنتِها في مكانٍ آخر! هذا يحدث يوميّاً. في الأسبوع الماضي، اعتقد الدكتور ستيرن أيضاً بأنّ سيارته من طراز بورش قد سُرِقَت في حين كان قد جاء إلى العمل بوساطة سيارة أجرة!

- ولكنني لستُ مجنونة، في نهاية المطاف!

أكّد الحارس وهو يشير إلى شاشات كاميرات المراقبة:

- لم أقل هذا، يا دكتورة! سوف أذهب لكي أُلقي نظرة على الطوابق السفلية.

ليكن كذلك. . .

كانت كيت قد عادت على أعقابها حينما قاطعها صوت الحارس.

ارتسمت على وجهه ابتسامة توحي بالانتصار وكأنّه أراد أن يقول: هؤلاء الأطباء جميعهم مغفّلون. ثمّ أعلن وهو يُشير إلى شاشته:

- إنّها هنا، سيارتكِ القديمة، يا سيّدتي. إنّها مركونة في الطابق - 3 -، الموقع رقم 125!

تخلّت كيت عن المصاعد وأسرعت الخطى في السلالم المؤدية إلى المواقف التي تقع تحت الأرض في المرآب.

كان هذا الأحمق على حقّ. كانت العربة المقفلة من طراز مازدا مركونة في الطابق الأرضي الأخير.

كيف حدث هذا؟ كان لديها موقع باسمها في الطابق السطحي، بل إنّها لم تأتِ **أبداً** إلى هنا في هذا الطابق. لا بدّ أنّ أحداً قد غيّر مكان سيارتها، هذا مؤكّد. ولكن لماذا؟ هل لهذا الأمر علاقة بجرزة المفاتيح التي كانت قد فقدتها في بداية الأسبوع؟ تدافعت الأسئلة في ذهنها، ولكنّها آثرت أن تتجاهلها.

نظرت إلى هاتفها المحمول فوجدت أنّ: «الشبكة غير متوفّرة». هذا أمرٌ طبيعي، فقد كانت في القبو.

فتحت أبواب سيارتها وأدارت المحرّك ومن ثمّ غادرت الطابق تحت الأرضي من المرآب. ما أن أصبحت في الطابق السطحي، أسرعت إلى أن وصلت إلى مخرج المرآب. قبل أن تنطلق على

الطريق، أجرت مكالمة قصيرة مع أوليغ تاراسوف لكي تُعطيه أخيراً ضوءها الأخضر.

حينما انخرطت وسط حركة، لمحت في مرآتها العاكسة شاحنة صهريج ضخمة كانت تلفّ في زاوية الجادة في الاتجاه المعاكس لاتجاهها.

* * *

المنطقة الصناعية القديمة في ويندهام

الساعة التاسعة وثماني دقائق مساءً

كان المكان المبرّد غارقاً في العتمة. أشعل رومالد عودَ ثقابٍ جديد أخرجه من علبة أعواد الثقاب التي كان قد نجح في سرقتها من القاتل المأجور حينما أوسعه هذا الأخير لكماً. اعتقد بسذاجة بأنّ هذه العلبة سوف تكون مفيدة له، ولكن لم يكن هناك أيّ شيء يمكن إشعاله في المستودع الجليدي. كانت المضارب الخشبية الموضوعة في المستودع مبلّلة ورطبة تماماً بحيث لم يكن من الممكن أن تشتعل فيها النيران.

اشتعل العود الخشبي الصغير وأحدث ضوءً خافتاً لم يدم سوى بضع ثوانٍ قبل أن ينطفئ. ومن ثمّ غرقت الحُجرة من جديد في ظلامٍ دامس. كان بردٌ مميت يغلّف الصبي المراهق ويُمسك بخناقه، مجمّداً وجهه ومخدّراً أنفه وأذنيه. كانت نفحة من الهواء الجليدي تُحرق يديه وتنسلّ إلى كلّ مكانٍ من جسده وتدخل إلى عظامه حتى تصل إلى النخاع. كان البرد عدوّاً غير مرئي، لم يكن بوسعه أن يكافح ضدّه.

بعد أن تسارعت دقّات قلبه في البداية، أصبح الآن إيقاع نبض قلبه أضعف بكثير مما كان عليه. كانت الارتعاشات وكذلك الخوف

تتمازج مع تعبٍ وإنهاكٍ فظيعين. بدأ يشعر شيئاً فشيئاً بأن قواه كانت تخور وتغادره. كان منهكاً وخائر القوى. ولكي لا يقع في حالةٍ من التجمّد والسُبات، حدّد لنفسه هدفاً ألا وهو أن يُشعل حوالي كل عشر دقائق عود ثقاب وتمسّك بهذا الطقس. كانت قدماه وساقاه متيبّسة، كما لو أنّها متكزّزة. في دروس علم الأحياء، كان قد تعلّم بأنّ الدم، لكي يقاوم نزول درجة حرارة الجسم إلى ما دون الحرارة الطبيعية، يغادر أطراف الجسم لكي يُحافظ على المحورين الرئيسين ألا وهما القلب والدماغ.

كان ذهنه مشوّشاً، قريباً من فقدانه للوعي. ربّما لم يكن قادراً على فتح فمه أو على الكلام، وكان تفكيره يتباطأ. كانت قصباته الهوائية مسدودة، ولكنّه لم يعد يقوى حتى على أن يسعل. كان بالكاد يتمكّن من التنفّس.

لم يكن قد فكّر، في أيٍّ من كوابيسه، بأنّ البرد يمكنه أن يكون على هذه الدرجة من الشدّة. وكان المُخاطِر البديل مصيباً في رؤيته: إن الأكثر هولاً ورعباً هو أن تُدرك بأنْ لا أحد سوف يأتي لنجدتك. هو أن تعرف بأنّك سوف تموت وحيداً، وسط العتمةِ، يعتريك ألمٌ فظيع.

* * *

بوسطن، بيكون هيل

الساعة التاسعة وتسع دقائق مساءً

بعد أقلّ من دقيقة من إغلاق سمّاعة الهاتف، لمح أوليغ تاراسوف ماتيو شابيرو وهو ينزل دورة سلالم درج المدخل. اعتمر الرجل الروسي خوذته وارتدى قفازيه دون أن يشيح بصره عن الأستاذ الجامعي الشاب.

شاهده وهو يمتطي درّاجته وقد لاحظ بعينه الخبيرة طرازها: درّاجة من طراز «تريونف تايجر كوب» يعود إلى نهاية أعوام الخمسينيات، وقد تمّت صيانته على نحوٍ رائع من خلال أضوائه الدائرية ومقعده المنخفض وقطعه المصنوعة من الكروم اللمّاع.

ترك شابيرو يتقدّم عليه لمسافة قليلة، ومن ثمّ ضاعف من سرعة درّاجته من طراز هارلي وانطلق في إثره.

* * *

الساعة التاسعة وإحدى عشرة دقيقة مساءً

مستعجلاً على لقاء زوجته، اجتاز ماتيو المدينة بأقصى سرعة. كان يسير في حيٍّ يعرفه مثلما يعرف جيبه وفي طريقٍ سار فيه لمئات المرّات. شارع تشارلز ستريت، شارع بيكون ستريت، شارع آرلينغتون ستريت.

على الرغم من المطر الناعم الممزوج بالثلج، كانت درّاجته القديمة تلتصق بالإسفلت وتسلك الطريق على نحوٍ جيّد. سار مسرعاً أيضاً في شارع كولومبوس، الشارع العريض المستقيم الذي كان يربط مركز المدينة بمنطقة ساوث إند وبمنطقة روكسبوري وبشرق جامايكا بلين. كان الوقت لا يزال مبكّراً، ولكنّ المدينة كانت مقفرة. كانت إنارة زينة الشوارع تطغى على إنارة المكاتب والمتاجر. كانت مجسمات ملائكة فضّية تتدلّى من أعمدة المصابيح وكانت أشرطة مزخرفة بنجوم تلتمع بأضواء وبأقراصٍ فوسفورية غريبة تلتفّ على الأشجار وهي تخلق جوّاً احتفالياً.

حينما اقترب من الأحياء المحيطة بمركز المدينة، أصبحت الأضواء أكثر ندرةً. شعر ماتيو أنّ دراجته النارية تتمايل وترتجّ وهي تنعطف بسرعة فائقة في المفرق الدوراني الذي يقع أعلى من محطّة

ساحة جاكسون سكوير. استطاع من دون صعوبة أن يتحكّم بها ويعيد التوازن والاستقرار إليها، ومن ثمّ التفّ على المحطّة واندفع على «الكورنيش»، وعلى المنحدر الإسمنتي بين شارع روب ستريت وجادة كونولي أفينيو، الشارع الذي توجد فيه مستشفى كيت. من الناحية النظرية، كان هذا الطريق المختصر محظوراً على الدرّاجات النارية، ولكنّه لم يشاهد قطّ رجلَ شرطة يحرّر محضر مخالفة في هذا المكان. من جهة أخرى، سار بحذرٍ وتروٍّ بسبب الأرضية غير المستقرة. قبل أن يصل إلى منعطفٍ ذي دبابيس، لاحظ في مرآته العاكسة درّاجاً آخر يقترب منه كثيراً وهو يجثم على درّاجة ضخمة من طراز هارلي مزيّنة.

أعماه الضوء المبهر.

ليست لدي الرغبة في التسابق، قال هذا في نفسه وهو يخفف من سرعة الدرّاجة ويلتزم يمين الطريق لكي يفسح له المجال لكي يتجاوزه. زادت الدرّاجة النارية من سرعتها لكي تتجاوزه، ولكن في اللحظة الأخيرة انحرف بعنف فاصطدمت العجلة الأمامية لدرّاجة هارلي بالعجلة الخلفية لدرّاجة تريونف وأفقدتها توازنها. تفاجأ ماتيو بعنف الصدمة ففقد السيطرة على درّاجته.

في ردّ فعلٍ أخير، أدار مقوده وأوقف العجلة الخلفية لكي يميل درّاجته التي انزلقت على القار الذائب واندمجت بسكك الحواجز المعدنية. انقذف ماتيو من على ظهر درّاجة تريونف وتدحرج على الأرض. اصطدمت خوذته بالأرض لعدّة مرّات واصطدمت إحدى ساقيه جانبياً بالعمود الذي كان يسند عوارض الأمان للطريق قبل أن يتوقّف. احتاج إلى ما يقارب عشر ثوانٍ قبل أن يُدرك ما حصل له. كان لا يزال مطروحاً على الأرض فحاول أن يقف على قدميه،

ولكنّه صرخ عالياً من شدّة الألم. كانت ساقه اليمنى قد تعرّضت للكسر. استند على عارضة الأمان على جانب الطريق ونزع خوذته.

حينما أصبح وجهه في الهواء الطلق، رأى ماتيو سائق الدرّاجة وهو ينقضّ عليه بمضربٍ لكرة البيسبول. كان الرجل قد أطلق العنان لحركته المندفعة، مستعدّاً لتهشيم فقرات رقبته.

* * *

أصاب سلكا المسدّس الصاعق الكهربائي من طراز تازر خلف رقبة الرجل الروسي وهما يُطلقان شحنة كهربائية صعقته. انهار بعنفٍ على الأرض، كما لو أنّه صُعِق بضربة برق.

استفادت إيما، التي كانت ترتدي بنطلوناً ضيّقاً أسود اللون وبلوزة من الجلد، من حالة الشلل التي أصابت القاتل لكي تقوم بتجريده من سلاحه.

هرعت نحو ماتيو وسألته:

- هل أنت بخير؟

رفع بصره نحو هذه المرأة ذات الوجه المغطّى بقلنسوة داكنة كانت تغطي عنقها وأذنيها، والتي ظهرت من اللامكان لكي تُنقِذَ حياته.

- ولكن. ما الذي يحدث؟

صرخت إيما:

- إنّها زوجتك! إنّها تسعى إلى قتلك!

- ماذا؟ ولكنكِ تهذين! من تكونين؟

لم يكن لدى إيما متّسعٌ من الوقت لكي تُجيب عن أسئلته هذه.

شقّ مصباحان دائريان ولمّاعان عتمة الليل. ركنت العربة

المغلقة من طراز مازدا العائدة لكيت إلى جانب الدرّاجة النارية من طراز هارلي دافيدسون. خرجت الطبيبة الجرّاحة من السيارة وعاينت الوضع بنظرةٍ باردة.

لم يجرِ أيّ شيء كما كان مخطّطاً له.

صرخ ماتيو:

- عزيزتي!

لم تكلّف كيت نفسها حتى عناء النظر إليه. كانت تتساءل فقط مَن هي هذه المرأة التي تشبه في هيئتها المرأة القطّة(*) والتي أفشلت لتوّها خطّتها.

يجب تناول المشاكل مشكلة تلوى الأخرى.

انحنت على تاراسوف ورأت سلكي مسدّس تازر الصاعق مغروسين في رقبته. كان القاتل، وقد شُلّ جهازه العصبي، يرقد على القار بلا حراك، وهو يجهد لكي يستعيد أنفاسه. عند النبش في الجيب الداخلي لبلوزة أوليغ، وجدت ما كانت تبحث عنه: مسدّس غلوك عيار 17 ذا مكثّفات ومزوّد بمذخّره. لقّمت كيت المسدّس الآلي وأطلقت النار باتجاه إيما، لكي تُرغمها على التراجع. تقدّمت كيت نحو زوجها وهي ممدودة الذراع ومستقيمة الجسم وأصابعها تقبض على الزناد.

لا يزال بإمكاني أن أنقذ نيك، إن طلقة في رأس ماتيو سوف تقتله ولكنّها سوف تحافظ على قلبه.

(*) Catwoman: المرأة القطّة وهو دور درامي أدته عدة ممثلات في سلسلة أفلام ومسلسلات باتمان الرجل الوطواط وذلك منذ اختراع هذه القصة من قبل بوب كينو بيل فينغر (المترجم).

- كيت، ماذا تفعلين، يا حبيبتي؟ ماذا.

صرخت فيه:

- اسكت! لا تناديني يا حبيبتي! أنت لا تعرفني. أنت لا تعرف أيّ شيءٍ عني. أيّ شيء!

سوف أنهي أيام حياتي في السجن، ولكن نيك سوف يعيش...

تغيّر الوجه الجميل للطبيبة الجرّاحة الحسناء وتحوّل. لقد فقد لطافته وحسنه لكي يغدو مجرّد قناعٍ من البورسلين، الأبيض والبارد. وحدهما عيناها كانتا متّقدتين، تلتمعان بلهيبٍ هائج. واصلت تقدّمها نحو زوجها مثل رجلٍ آلي.

- كان بودّي أن أشرح لك الأمر، يا مات، ولكنك سوف لن تستطيع أن تفهم.

كانت إيما قد تراجعت وانسحبت إلى الطرف الآخر من الطريق. حينما قطّبت عينيها، لمحت المُخاطِر البديل الذي كان يحاول يائساً أن يقف منتصباً على قدميه. وحينذاك لاحظت القراب المطرّز بالأزرار للمسدّس مشدوداً إلى كعب تاراسوف. لمعت فكرةٌ في ذهنها. زحفت حتى وصلت إليه وانتزعت المسدّس من طراز سميث أند ويسون عيار 36 من غمده. شدّت يدها حول المقبض ومدّت ذراعها لكي تصبح كيت في خطّ مرمى نيرانها.

الآن ليس الوقت المناسب لطرح الأسئلة على نفسي.

كانت فوهة سبطانة مسدّس كيت من طراز غلوك مصوّباً إلى جمجمة زوجها. بينما كانت سبطانة مسدّس إيما مصوّبة نحو الطبيبة الجرّاحة. كانت الامرأتان مستعدتين لإطلاق النار.

صلّت إيما لكي لا ترتعش يديها.

كانت هي من ضغطت على الزناد أوّلاً

* * *

أُصيبَت كيت في صدرها، فسقطت إلى الخلف. انقلب جسدها على عارضة الأمان على حافة الطريق وتدحرج على المنحدر الحادّ نحو الوادي.

* * *

ساد صمتٌ طويل في المكان، كاد أن يكون غير واقعيٍّ، في أعقاب إطلاق النار.

انطرحت إيما على الأرض من شدّة الارتداد إلى الخلف، وبقيت لعدّة ثوانٍ ترتجف، مصدومة بما حدث، دون صوت.

استطاع أوليغ تاراسوف أن ينهض بصعوبة شديدة، أدرك بأنّ من مصلحته أن يغادر المكان على الفور. دون أن يعتمر خوذته، ركب درّاجته من طراز هارلي وانطلق مسرعاً وفرّ في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي قدِم منه.

وبعد ما يقارب خمسين متراً، عند تقاطع الطرق، صدمته شاحنة الصهريج الخاصّة بنقل الطحين والتي كان يقودها سامير ناراهيم بقوّة وعنف.

* * *

استعادت إيما أنفاسها وعلى بعد عدّة أمتار منها، شاهدت ماتيو خائراً على الأرض، في حالة صدمة، ولكنّه كان على قيد الحياة.

رومالد!

ركضت حتى وصلت إلى حطام الدرّاجة النارية وانتزعت نظام

تحديد المواقع المثبّت بلاصقٍ والمدعم بمثبّتٍ قوي. ومن ثمّ عادت أدراجها وصعدت إلى سيارة كيت.

* * *

داخل مقصورة القيادة، نزعت قبّعتها التي كانت تغطّي رقبتها وأذنيها ولجأت إلى نظام تحديد المواقع.

وكما كانت تتأمّل، كان الجهاز يحتفظ في ذاكرته بالمسافات الأخيرة التي قطعها القاتل. أدارت محرّك السيارة وغادرت «الكورنيش» بأقصى سرعة وسط صرير العجلات على الإسفلت.

كانت مدينة بوسطن خالية من المارّة. وصلت إلى الأوتوستراد رقم 93 عبر الشمال وسارت على الطريق السيّار ضاربة عرض الحائط كلّ قواعد الأمان أو الحذر. تجاوزت حدود السرعة المسموح بها وتجاهلت الدوريات والخطر المحدق بها. لم تهتمّ بأيّ شيءٍ سوى برومالد.

شريطة ألا يكون قد حدث له أيّ شيء...

سارت بأقصى سرعة ممكنة لما يقارب نصف ساعة من الوقت ومن ثمّ خرجت عن الأوتوستراد عند مفرق ويندهام، على الحدود بين ولايتي ماساتشوستس ونيو هامبشير.

سارت على هدي نظام تحديد المواقع، سالكةً طرقاً فرعية إلى أن وصلت إلى سور منطقة صناعية قديمة.

والآن؟

نظرت إيما إلى شاشة جهاز التحديد: لم يكن المعلم الذي يدلّ على منطقة الوصول بعيداً، ولكن كان من المتعذر الوصول إليه بوساطة السيارة. تركت مصابيح السيارة مُنارةً ونزلت منها. كان هذا الجزء من الطريق غارقاً تماماً وسط العتمة. لم ترَ شيئاً مثيراً

للاهتمام، عدا سياجٍ عالٍ كان يرتفع أمامها. قرّرت أن تتسلّق السور بيديها المجرّدتين. حينما مرّت من الجانب الآخر للأسلاك، انغرز طرف سلك معدني، مسنونٍ مثل نصل سكّين، في أعلى ذراعها ومزّق لحمها بطول خمسة سنتيمترات على الأقلّ.

جعلها الألم تترنّح. أحسّت بالدم وهو يسيل تحت سترتها وبلوزتها، ولكنّها رفضت أن تشفق على مصيرها. تركت نفسها تسقط وتتدحرج على الأرض. ومن ثمّ نهضت من جديد وجرت لكي تتسلّق إلى قمّة منحدرٍ، حين استطاعت أن ترى من هناك شبح المدينة. كانت المصانع القديمة والمستودعات المهجورة تمتدّ على مدى البصر. كان المكان سوريالياً. كان ديكوراً حقيقياً لأحد أفلام الرعب. كانت بضع عربات القطار متراصفة على طول سكّة حديد قديمة. كانت الرياح تهدر وتجعل المنشآت المعدنية تصرّ صريراً حادّاً. كانت أشباحٌ مشوّهة تهدّد بالظهور المباغت خلف كلّ ثكنة من الثكنات المهجورة. كان واد للأشباح يمتدّ على مساحة خمسة أو ستّة هكتارات.

كيف يمكن العثور على رومالد وسط هذه المتاهة من الخردوات والصفائح المعدنية؟

صرخت لعدّة مرّات:

- رومالد! رومالد!

ولكنّ الرياح والثلج أودت بصرخاتها أدراج العدم.

فتّشت بعينها عن أثرٍ أو دليلٍ أو تفصيلٍ قد يساعدها في التوجيه والتدليل على مكان الصبيّ المراهق، ولكنّها لم تعثر على أيّ شيءٍ من هذا القبيل وسط العتمة التي منعتها من الرؤية.

أزالت بيدها ندائف الثلج العالقة بوجهها، واستعانت بهاتفها

المحمول لتستخدمه كمصباح إنارة، وركضت بتلهّف في مواجهة الريح، متوجّهةً نحو شمال شرق المنطقة الصناعية.

لا شكّ أن تاراسوف كان قد بحث عن المكان الأكثر بعداً عن الطريق لكي يَركن سيارته فيه. فجأةً، أوقفها صوت ضجيجٍ. كانت تسير الآن على الطريق المفروش بالحصى. أنارت أرضيةَ الطريق مستعيدة أنفاسها.

كان هناك طريقٌ يؤدّي إلى مستودعٍ ضخم جدّاً. تقدّمت لبضع خطوات لكي تنير لوحةً إعلانية غطّاها الصدأ مكتوبٌ عليها:

المسالخ المحليّة
مقاطعة هيلزبورو

استأنفت جريها حتى وصلت إلى المبنى المركزي. هناك، لاحظت وجود آثار عجلات كانت قد بدأت تُغمَر من جديد بالثلج. وثب قلبها في صدرها. كان هناك من جاء إلى هنا حديثاً.

دفعت بكل ما أوتيت من قوة الباب الجرّار العالي الذي كان يسمح بالوصول إلى المكان ومن ثمّ أغلقته من ورائها لئلا تدع الرياح تندفع إلى الداخل.

- رومالد!

كان المكان غارقاً في الظلام الدامس، ولكن كان هناك صخب هدير محرّك تدفئة أو تبريد يدوّي في الأنحاء.

رفعت إيما قاطعاً للكهرباء فانتشر ضوءٌ شاحبٌ، كاشفاً عن وجود مستودعٍ شبه خاوٍ ذي جدرانٍ من الإسمنت الخشن.

في وسطِ المبنى، تعرّفت على سيارة بيك - آب النبيذية اللون العائدة للمُخاطِر البديل.

اقتربت من السيارة الشاحنة ونظرت داخلها.

لا أحد في داخل السيارة.

ندمت على أنّها لم تجلب معها المسدّس الصغير للمُخاطِر البديل.

- رومالد؟

في نهاية الحُجرة الرئيسة، كان ممرٌّ على شكل كوعٍ يؤدّي إلى سلسلة من الأبواب الحديد. كان الباب الأوّل يُفضي إلى قاعة فارغة. أمّا الأبواب الأخرى فقد كانت مقفلة. أغمضت إيما عينيها، ولكن إحباطها دام لأقلّ من ثانية واحدة.

حينما غادر المكان، كان القاتل قد حرص على إطفاء كلّ شيء.

باستثناء.

تنفّس المولّد!

عادت على أعقابها في محاولةٍ منها لكي تحدّد مصدر الضجيج. كانت الهمهمة تأتي من قاعة مبرّدة. طرقت على الجدار المعدني.

- رومالد؟

كلا، هذا من المستحيل، ليس موجوداً هنا...

- رومالد؟ هذه أنا، إيما، هل تسمعني؟

حاولت أن تفتح الباب، ولكن من دون جدوى. حينما انحنت، لاحظت وجود قطعة فولاذية منظّفة بالفرشاة على شكل مقود طائرة. أدارتها بعنف وانفتح باب الحجرة المبرّدة.

استقبلتها هبّة بردٍ قطبية، اندفعت إلى الداخل.

- رومالد!

على ضوء هاتفها المحمول، وسط العتمة، لمحت الكبوشة المصنوعة من الفراء للمعطف الرياضي للصبيّ المراهق. أسرعت نحوه. كان مطروحاً على الأرض، فاقداً للوعي.

حشدت إيما كلّ قواها، جرّته لكي تسحبه من الثلاجة المميتة وتُعيده إلى الهواء المحيط. وضعت هاتفها المحمول على وضعية الميكروفون واتّصلت بالرقم 911 وطلبت سيارة إسعاف لكي تتكفّل بنقل مريض مصاب بحالة تجمّد.

بانتظار وصول المسعفين، بحثت عن تنفّسٍ لم تعثر عليه، عن نبضٍ كانت في غاية العصبية بحيث لم تستطع أن تلتقطه. كان جلد رومالد ممتقعاً، مزرقّاً، أشبه بجلد جثّة ميّت.

اللعنة!

لم تكن تمتلك أيّ غطاء لكي تدفّئه به. فعادت إلى ذهنها حركات الإنقاذ التي كانت قد تعلّمتها قبل بضعة أشهر، خلال دورة تدريبية كان على جميع موظّفي مطعم إمبراتور أن يخضعوا لها. حركات كانت قد وجدتها آنذاك واهية وبلا جدوى، ولم يخطر ببالها للحظة واحدة بأنّها قد تكون مفيدة ذات يوم.

لحسن الحظّ، كانت الحركات والتدريبات التي أجرتها على مجسّم تعاود ذهنها الآن بحدّة. مدّدت الصبي المراهق على الأرض بشكلٍ مستقيم تماماً، جثت على ركبتيها بجانب جذعه، نزعت بلوزتها ووضعت راحة يدها اليمنى على الجزء السفلي من عظام قفصه الصدري. وضعت يدها الثانية فوق الأولى. مدّت ذراعيها وضغطت بكلّ ثقلها، وهي تغوص بيديها في صدر رومالد، ومن ثمّ عدلت جلستها قبل أن تستأنف ثانية حلقة الضغط والإرخاء لتحريك الدماء في جسد الصبي المراهق.

واحد، اثنان، ثلاثة! واحد، اثنان، ثلاثة!

أحصت ثلاثين حركة ضغط، ومن ثمّ نفخت لمرّتين في فم الصبي المراهق.

لا تمت!

صعد الحنق إلى قلبها، استأنفت من جديد حلقة التدليك القلبي، وهي تحاول أن تحافظ على إيقاعٍ منتظم.

واحد، اثنان، ثلاثة! واحد، اثنان، ثلاثة...

عند كلّ حركة ضغط على القفص الصدري، كانت تخاطر بأن تهشّم له أضلاعه.

واحد، اثنان، ثلاثة! واحد، اثنان، ثلاثة...

كان الزمن قد توقّف. وكانت إيما في مكانٍ آخر. كانت تخوض حرباً. الحرب التي تخوضها الحياة ضدّ الموت.

لا تمت، يا رومالد! لا تمت!

بعد عامٍ...

إعادة الوقائع

إذا كان صحيحاً أننا لا نستطيع أن نعيش
إلّا جزءاً وحيداً ممّا هو كامنٌ في داخلنا،
ماذا يحدث لما تبقّى؟

باسكال ميرسيه

جامعة هارفارد
كامبردج
19 ديسمبر 2011

كان مدرّج المحاضرات مكتظّاً بالطلبة، ولكن كان يسوده صمتٌ مطبق. كانت العقارب البرونزية للساعة الجدارية القديمة تشير إلى الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة من بعد الظهيرة. كان درس الفلسفة الذي يلقيه ماتيو شابيرو يشارف على الانتهاء.

حرّر رنين الجرس الطلبة. لملم ماتيو أغراضه، ارتدى معطفه، عقَد لفحته وخرج إلى فناء الحرم الجامعي. ما أن أصبح في الخارج، لفّ لنفسه لفافة تبغ وعبر حديقة يارد.

كانت الحديقة تغطّ في ضوءٍ خريفيٍّ جميل. منذ عشرة أيام، كانت درجات الحرارة اللطيفة في هذا الفصل وكذلك الشمس الساطعة تمنحان لسكان منطقة نيو إنغلاند (إنكلترا الجديدة) في

شمال شرق الولايات المتحدة الأميركية صيفاً هندياً لطيفاً بقدر ما هو متأخّر.

- سيّد شابيرو! تلقّف هذه!

أدار ماتيو رأسه نحو مصدر الصوت الذي كان يناديه. جاءت كرة قدم أميركية باتجاهه. تلقّفها بإحكامٍ وإتقان وأعاد رميها بضربة كوارترباك نحو الحشد الذي كان قد استنجد به. ومن ثمّ غادر سور الجامعة عبر البوابة العملاقة التي تؤدّي إلى ساحة هارفارد سكوير.

كان على وشك أن يصل إلى الممرّ الخاصّ بالمشاة لكي يصل إلى محطة المترو حينما وصلت سيارة من طراز شيفروليه كامارو قديمة، وهي تطلق العنان لصفارتها، إلى زاوية جادة ماساتشوستس وشارع بيبودي ستريت. قفز الأستاذ الشابّ وتراجع إلى الوراء لئلا يُسحَق تحت سيارة حمراء فاقعة اللون توقّفت عنده وسط صرير عجلاتها.

نزل البلور الأمامي للسيارة لكي يظهر له شعر آبريل فيرغسون الأصهب، زميلته في الغرفة منذ وفاة زوجته.

- مرحباً، أيّها الأسمر الوسيم، هل أوصلك إلى البيت؟

ردّ وهو خائر القوى:

- أفضّل أن أعود بوسائط النقل العامّة. أنتِ تقودين السيارة كما لو أنّكِ تلعبين ألعاب الفيديو!

- هيّا، لا تُظهر خوفك. أنا أقود السيارة بشكلٍ ممتاز وأنت تعرف ذلك!

- لا تلحّي عليّ. لقد سبق أن فقدت ابنتي أمّها. وأنا أريد أن أجنّبها أن تجد نفسها يتيمة الوالدين وهي في سنّ الرابعة والنصف.

- أوه، الأمر على ما يرام! لا تبالغ في مخاوفك! هيّا، أيّها الرعديد، أسرع! لقد عطّلتُ حركة المرور هنا!

تحت وطأة أصوات أبواق السيارات، أطلق ماتيو تنهيدة طويلة دلالة للاستسلام وفتح الباب لكي يندسّ في سيارة الشيفروليه.

ما أن ربط حزام الأمان، حتى ضربت سيارة الكمارو كلّ قواعد الأمان عرض الحائط واستدارت نصف استدارة خطيرة لكي تنطلق كالإعصار نحو الشمال.

احتجّ ماتيو وهو يتشبّث بباب السيارة:

- الطريق إلى بوسطن يقع في الجانب الآخر!

- سأقوم فقط بدورةٍ صغيرة عبر بيلمونت. يستغرق ذلك عشر دقائق فقط. لا تقلق بشأن إيميلي. لقد طلبتُ من مربّيتها أن تبقى معها لساعةٍ إضافية.

- أيّ جرأة مفرطة هذه! أنا أحذرك، أنا.

ضاعفت المرأة الشابة من سرعة السيارة وأقلعت بسرعة جنونية مباغتة بحيث قاطعت حديث ماتيو. حينما بلغت السرعة القصوى، استدارت نحوه ومدّت إليه علبة كرتونية عليها رسومات.

قالت:

- تخيّل بأنني قد أكون أحد زبائن رشمة أتامارو.

كانت سيارة الشيفروليه قد غادرت الحيّ الجامعي. سلكت الطريق السريع الذي يسير بمحاذاة بحيرة فريش بوند - البحيرة الأكبر في كامبردج - على مدى كيلومترات عديدة قبل الوصول إلى بيلمونت، وهي مدينة سكنية صغيرة تقع إلى الغرب من مدينة بوسطن. أدخلت آبريل عنواناً إلى خدمة تحديد المواقع واستسلمت للانقياد إلى حيّ راقٍ وفاخر: كانت مدرسة محاطة بالأشجار تجاور

باحةً للألعاب وحديقةً وملاعب رياضية. وكان يوجد فيه بائع متجوّل للمثلجات أيضاً في غاية الاستقامة كما لو أنّه يتحدّر من أعوام الخمسينيات من القرن العشرين. وعلى الرغم من المنع الرسمي، تجاوزت سيارة الكامارو حافلة مدرسية وركنت في شارعٍ هادئٍ تصطفّ بيوتٌ على جانبيه.

سألته وهي تستردّ منه العلبة الكرتونية:

- هل ستأتي معي؟

هزّ ماتيو رأسه بالنفي:

- أفضّل أن أنتظركِ هنا في السيارة.

وعدته وهي تصفّف شعرها أمام المرآة العاكسة للسيارة وقد تركت خصلةً منه تتدلّى لتغطّي عينها اليمنى على طريقة فيرونيكا لاك:

- سوف أنهي بأسرع ما يمكن.

ثمّ أخرجت من حقيبتها قلم أحمر الشفاه وتبرّجت على عجلٍ قبل أن تكمل هيئتها كامرأة شؤم وهي ترتّب سترتها الجلدية الحمراء والتي كانت تلتصق مثل جلدٍ بقميصها الرياضي المقوّر.

استفزّها قائلاً:

- ألا تخشين من المبالغة في فعل ذلك؟

ردّت بغنج وهي تقلّد جملة وصوت جيسيكا رابيت:

- «أنا لستُ سيئة، أنا فقط مرسومة بهذه الطريقة».

ثم نتفت شعر ساقيها الطويلتين المقولبتين في سروالٍ ضيّقٍ ملتصقٍ بجسدها وخرجت من السيارة.

بعد أن بقي وحيداً، ألقى ماتيو نظرةً على الجانب الآخر من الشارع. كانت أمٌّ وطفلاها الصغيرين يرتّبون في حديقة منزلهم زينة العيد. أدرك أنّ عيد الميلاد سيأتي في أقلّ من أسبوع وأغرقه هذا

الأمر في مزيجٍ من الحزن والهلع. رأى بهلعٍ أنّ شبح الذكرى السنوية الأولى لموت كيت يلوح في الأفق: يوم 24 ديسمبر المشؤوم من عام 2010 الذي هزّ حياته وأغرقها في الألم والكآبة.

منذ مقتل زوجته، لم تعد حياته سوى كابوس. كيف يمكن لك أن تتصرّف حينما تعلم بأنّ المرأة التي تتقاسم معك حياتك منذ أربعة أعوام، وهي والدة طفلتك الصغيرة، لم تتزوّج منك إلا لكي تقتلك؟ أن تقتلك بهدفٍ وحيد وهو أن تنزع قلبك وتنقله لكي تنقذ عشيقها. كيف يمكن لك أن تعيش بعد الآن؟ كيف يمكنك أن تواصل الثقة بالناس؟ كيف يمكنك أن تتخيّل أن تعيش من جديد مع امرأة؟

تنهّد ماتيو بعمق. وحدها ابنته كانت تمنعه من الاستغراق في الجنون أو الانتحار. حينما أصبحت الحادثة معروفة لعامّة الناس، بعد موت نيك فيتش مباشرةً، كان عليه أن يقاوم لكي يحمي إيميلي من فضول الصحافيين. كانت هناك لحظة عصيبة للغاية لم تتركه خلالها وسائل الإعلام بحاله. عرض عليه منتجون مبالغ طائلة لكي يروي حكايته وأرادت هوليود أن تُخرج مأساته في فيلم سينمائي. ولكي يفرّ من هؤلاء المتطفّلين، فكّر آنذاك جدّياً في أن يغادر ماساتشوستس، ولكنّه كان متعلّقاً جدّاً بمدينة بوسطن وببيته وبتلامذته.

منذ بضعة أسابيع، بدأت القضية تخمد إعلامياً. لم يساهم ذلك في إزالة شيءٍ من ضيقه ولكنّه أحسّ على الأقلّ بأنّه قد تحرّر من عبء شهرةٍ موبوءة.

من خلال أمور صغيرة، استعاد نكهة الحياة: نزهة تحت الشمس برفقة إيميلي، لعب مباراة كرة قدم مع طلابه، نكتة متقنة بشكلٍ خاصّ من قبل آبريل.

ولكن هذا الهدوء كان هشّاً وضعيفاً. كان الألم يترصّده، جاهزاً لأن يمسك بخناقه، مجترّاً دائماً الأسئلة نفسها التي لا أجوبة لها. كيف يمكنك القبول بأن لا تكون أجمل سنوات حياتك في الواقع سوى نفاق ورياء؟ كيف يمكن لك أن تستعيد ثقتك بنفسك بعد أن خُدِعتَ بهذه الطريقة؟ كيف ستجد الكلمات لكي تشرح هذا الوضع لإيميلي؟

كان ماتيو ينضح عرقاً. وكان قلبه يدقّ بعنف في صدره. أنزل زجاج نافذة سيارة الكامارو، فتّش في جيب بنطلونه الجينز عن قرصٍ مضاد للقلق ووضعه تحت لسانه. ذاب الدواء بهدوء في فمه ومنحه راحة كيميائية خففت ببطء من ارتفاع حرارة جسمه. ولكي ينعم بالهدوء التامّ، كان يحتاج إلى أن يدخّن سيجارة. خرج من السيارة، وأقفل بابها وسار لبضع خطوات على الرصيف قبل أن يشعل سيجارةً ويسحب منها نفثةً طويلة.

* * *

مغمض العينين، وفاتحاً وجهه أمام النسيم الخريفي، استمتع ماتيو بسيجارته. كان الجوّ لا يزال لطيفاً. ظلّ لبضع ثوانٍ جامداً في مكانه بلا حراك قبل أن يفتح عينيه. في نهاية الشارع، كان حشدٌ من الناس قد تجمّع أمام أحد البيوت. أثار المشهد فضوله، فاقترب منه لكي يصل إلى أمام أحد تلك الأكواخ النموذجية في منطقة نيو إنغلاند: منزلٌ فسيح مزخرف بألواحٍ خشبية، ومزيّن بسقف كاتدرائي فيه نوافذ عديدة. أمام البيت، على المرج، كان قد جرى تنظيم نوعٍ من سوق خردة التصفية. كانت طريقة «خردة التصفية» تميّز هذه البلاد التي ينقل فيها السكان سكنهم لأكثر من خمس عشرة مرّة في حياتهم.

اختلط ماتيو بالأعداد الغفيرة للفضوليين الذين كانوا يسعون إلى الحصول على البضائع الرخيصة على مساحة مائة متر مربّع من الأرض المعشبة. كان على رأس عملية البيع امرأةٌ جميلة، سمراء وذات وجهٍ لطيفٍ وباسم، وإلى جانبها كلبٌ صيني من جنس شار-بيه كان يعمل أسنانه في عظمة مصنوعة من مادة اللاتيكس.

وسط الأغراض المتنوّعة، لمح ماتيو حاسوباً محمولاً: حاسوب من طراز ماك بوك برو، وشاشته من قياس 15 بوصة. لم تكن النسخة الأخيرة من هذا الطراز، وإنّما من النسخة السابقة عليه أو الأقدم من السابقة أيضاً. اقترب ماتيو وتفحّص الجهاز من كلّ الزوايا. كان قد تم تشخيص الهيكل الألمنيومي للجهاز بلصاقةٍ من الفينيل أُلصِقَت بظهر الشاشة. كانت اللصاقة تظهر شخصية أشبه بإحدى شخصيات المخرج السينمائي تيم بورتون: كانت حوّاء أنيقة ومثيرة تبدو وكأنّها تمسك بين يديها الرمز الذي على شكل تفاحة الماركة الشهيرة للحواسيب. في أسفل الشعار كان يمكن قراءة اسم «إيما. ل.» دون أن نعلم إن كان الاسم يعود إلى الفنانة التي رسمت الصورة أم إلى المالكة السابقة للحاسوب.

لم لا؟ تساءل ماتيو وهو ينظر إلى اللصاقة. كان حاسوبه القديم من طراز باور بوك قد أسلم الروح في نهاية فصل الصيف. كان لديه حاسوب شخصي في البيت ولكنّه كان بحاجة إلى حاسوبٍ محمول شخصيّ جديد. والحال أنّه كان يعمل بلا انقطاع لتوفير هذا المبلغ لاحقاً. كان الجهاز معروضاً للبيع لقاء 400 دولار. وقد اعتبره مبلغاً معقولاً

اقترب من المرأة الشابّة المسؤولة عن عملية البيع وأشار لها على الحاسوب الشخصي، وسألها:

- هذا الحاسوب يعمل، أليس كذلك؟

- بالطبع يعمل. إنّه حاسوبي الشخصي القديم. تمّت تهيئة قرصه الصلب وتنزيل نسخة جديدة من نظام التشغيل فيه. إنّه عاد كما لو أنّه جديد!

تردّد ماتيو، فقال:

- أنا لا أعرف كثيراً.

ردّت بغيظ:

- وهل تعتقد بأنني أحاول أن أخدعك وأغشّك؟

ابتسم لها ماتيو. مدّت نحوه بطاقة الزيارة خاصّته.

- اسمع، هذا ما أعرضه عليك: خلال الأشهر الستّة القادمة، إذا ما كانت هناك أي مشكلة في الحاسوب، أتعهّد لك بأن أقوم بصيانته. صديقي يفهم جيّداً بالمعلوماتية.

نظر ماتيو إلى المعلومات المكتوبة في بطاقة الزيارة:

إيما لوفنشتاين.
شيف سقاية النبيذ
إمبراتور
30 روكفيلر بلازا نيويورك، إن واي 10020

- هل تعملين في مطعم إمبراتور؟

- نعم، هل سبق وأن تناولت فيه الطعام؟

ردّ بطريقة مراوغة وهو يطرد ذكرى كانت تذكّره كثيراً بزواجه مع كيت:

- في حياة مختلفة.

جاء الكلب من طراز شار-بيه يتمسّح بساقيه ونبح بمرح.

قالت إيما بحماسة:
- اسمه كلوفيس وكأنّه يحبّك كثيراً!
داعب ماتيو الحيوان الأليف. كانت أشعّة الشمس تنسلّ من بين أغصان الأشجار.
ابتسم ماتيو:
- ابنتي تحلم بأن يكون لديها كلبٌ مثل كلبكِ.
- كم عمرها؟
- أربعة أعوام ونصف.
هزّت إيما رأسها.
سألها:
- هل لديك أطفال؟
- ليس بعد.
أحسّ بأنّه كان يُغامر على أرضٍ حميمة وأنّه يتراجع مستسلماً.
- إذاً، أنتِ تقيمين في نيويورك.
قالت وهي تنظر إلى ساعة يدها:
- وسوف أعود إليها بعد بضع ساعات. لقد جئت لكي أساعد أخي، ولكن يجب ألا أتأخّر عن موعد طائرتي.
أكّد وهو يشير إلى الحاسوب:
- حسناً، سوف أشتريه.
نبش في محفظة نقوده. لم يكن بحوزته سوى 310 دولارات. تضايق ولم يجرؤ على أن يساوم على السعر، ولكنّ المرأة الشابّة سهّلت له الأمر.
- هذا جيّد، سوف أتركه لك بهذا الثمن!

أجاب وهو يُعطيها الأوراق النقدية:
- هذا لطفٌ كبير منكِ.
من بعيد، أشار إلى آبريل التي كانت قد وصلت إلى الفناء العشبي. مدّت إيما نحوه الحاسوب المحمول الذي كانت قد وضعته في علبته الأصلية.
ختم ماتيو الحديث وهو يلوّح ببطاقة الزيارة:
- إذاً، سوف لن أتردّد في الاتصال بكِ إذا ما تعطّل الحاسوب.
قالت بجرأة:
- إذا رغبتَ صدفةً في الاتصال بي، لا تعتقد بأنّك مضطرٌّ للانتظار إلى حين أن يتعطّل الحاسوب.
ابتسم لكي يخفي شعوره بالمفاجأة، ومن ثمّ انضمّ إلى آبريل.
وصلا معاً إلى السيارة. أصرّ ماتيو على أن يقود بنفسه السيارة وعادا إلى بوسطن، عالقين وسط الاختناقات المرورية في الطريق. لم يكفّ للحظة واحدة عن التفكير بتلك المرأة التي تُدعى إيما لوفنشتاين.

* * *

بوسطن
حي بيكون هيل
الساعة الثامنة مساءً

حوّط ماتيو ابنته إيميلي وأطفأ الأضواء باستثناء المصباح القديم المعلّق فوق السرير.
قبل أن يوارب باب غرفتها، قبّل ابنته للمرّة الأخيرة وهو يعدها بأنّ آبريل ستمرّ عليها وتتمنى لها ليلة سعيدة.

ثمّ نزل ماتيو السلالم التي تُفضي إلى الصالون. كان الطابق الأرضي من البيت ينغمر بضوءٍ شاحبٍ خفيف. انحنى على النافذة وراقب الحبال والشرائط الكهربائية التي كانت تومض على أسيجة الحديقة. ثمّ انتقل إلى المطبخ وأخرج من الثلاجة طرداً من البيرة الشقراء. فتح زجاجةً منها وتناول قرصاً جديداً من مضاد القلق.

نهرته آبريل وهي تنزل السلّم:

- هيه، أيّها الصبيّ الجميل، احذر هذا النوع من المزيج، قد يكون هذا خطِراً!

كانت وقد انتعلت حذاءً بكعبين عاليين تتبختر بتمايلٍ طبيعي بطقمٍ غير مألوف من الثياب ولكنّه أنيق ومثير، وكانت قد عقدت شعرها في جديلةٍ ملتفّة في مؤخّر رأسها، ووضعت طبقة تأسيس من مسحوق التجميل صدفية اللون والذي جعل أحمر شفاهها يبدو بلون الدم.

- ألا ترغب في أن ترافقني؟ سأذهب إلى حانة غون شوت، الحانة الجديدة قرب أرصفة الساحة العامّة. إنّها تقدّم طبقاً من رأس الخروف المقلي الرائع حقّاً، أمّا كوكتيل موخيتو الذي يقدّمونه فحدّث ولا حرج. في هذه اللحظة، تخرج أجمل فتيات المدينة إلى هناك.

- إذاً، أنتِ تعرضين عليّ أن أترك بنيّتي ذات الأربع سنوات والنصف لكي أذهب وأشرب كوكتيل موخيتو في حانةٍ وضيعة!

تضايقت آبريل وعدّلت سوّار قميصها الطويل المخدّش بزخارف أرجوانية وقالت بعصبية:

- أوّلاً، غون شوت ليست حانة وضيعة! ثمّ إنني جادّة فعلاً،

يا مات، سيكون من الأفضل لك أن تخرج من البيت وترى الناس وأن تحاول من جديد أن تنال إعجاب النساء وأن تمارس الحبّ.

- ولكن كيف تريدين أن أعشق من جديد؟ زوجتي.

- أنا لا أسعى إلى إنكار الصدمة التي تعرّضت لها مع كيت، يا مات، ولكن إذا أردت أن تتغلّب على هذه المحنة، عليك أن تتقدّم إلى الأمام، عليك أن تساعد نفسك، وأن تمنح نفسك على الأقل فرصة استعادة نكهة الحياة من جديد.

أجاب مؤكّداً:

- لستُ مستعداً لذلك بعد.

قالت وهي تزرّر سترتها الصوفية وتصفق الباب من ورائها:

- حسناً، لن ألحّ عليك.

بعد أن بقي وحيداً، نبش ماتيو في مجمّدة الثلّاجة وعثر على علبة من الورق المقوّى مغطاة بطبقة خفيفة من الثلج. وضع قطعة البيتزا في الفرن، وضبط مؤقّت الفرن ومن ثمّ وجد ملاذاً في أريكته. كان بحاجة إلى أن يبقى لوحده. لم يكن يبحث عن أي شخصٍ لكي يفهمه أو لكي يواسيه ويعزّيه. كان يريد فقط أن يُخمّر ألمه مع رفقائه الوحيدين من أنبوبه الوفي الخاصّ بنبيذ الميدوك وجِعَته العزيزة من نوع كورونا.

مع ذلك، ما أن أغمض عينيه، ظهرت له صورة المرأة الشابّة المسؤولة عن عملية البيع بطريقة «خردة التصفية» بوضوحٍ مثير للاندهاش. شعرها المتماوج، نظرتها المرحة، نمشها الجميل، ابتسامتها الماكرة، صوتها النبيه حينما قالت له:

إذا رغبتَ صدفةً في الاتصال بي، لا تعتقد بأنّك مضطرٌّ للانتظار إلى حين أن يتعطّل الحاسوب.

فجأةً، فرض الواقع نفسه: كانت لديه رغبة جامحة في أن يلتقي بتلك المرأة.

نهض من مكانه واستقرّ إلى الطاولة الخشبية في المطبخ حيث كان قد وضع عليها محفظته التي كانت تحتوي على بطاقة الزيارة:

إيما لوفنشتاين... ماذا لو اتّصلت بها، من هنا، في الحال، لكي أدعوها إلى المطعم؟

تردّد للحظة. لا بدّ أنّها على متن الطائرة في طريقها إلى نيويورك، ولكنّه يستطيع في نهاية المطاف أن يترك لها رسالة قصيرة.

أدرج الأعداد الأولى من رقم هاتفها في هاتفه المحمول ومن ثمّ توقّف فجأةً. كانت يداه ترتجفان.

ما الجدوى من الاستمرار؟ تساءل وهو لا يزال مُرهقاً بالشكوك نفسها. لا داعي لمشقّة سرد الحكاية لنفسه. لم يعد يثق بالحياة الزوجية، ولا بالتفاهم، ولا بالمشاعر المشتركة. أحسّ بالغضب يتصاعد في داخله.

أربعة أعوام...

كان قد عاش أربعة أعوام مع امرأةٍ غريبة، امرأة مجرمة، امرأة مفسدة كانت قد تلاعبت به مثل دميةٍ متحركة.

قبل ساعةٍ من تخطيطها لقتله، كانت لا تزال تعدّ له أطباقه المفضّلة! لم يكن ضحية لكيت، كان إنساناً غبيّاً مسكيناً، كان مسكيناً وساذجاً ترك نفسه ينخدع مثل مجنّدٍ غرّ. لم يكن يستحقّ ما حدث له فحسب، بل وكان عليه أن يتحمّل وزر ذلك في رقبته حتى مماته!

من شدّة الغضب والحنق، ضرب هاتفه المحمول بالجدار

وهشّمه، وابتلع أقراصه المهدّئة مع جرعةٍ من الكحول وعاد يتمدّد على أريكته.

* * *

نيويورك
في اليوم التالي
21 ديسمبر 2011

- هيه!

جالسةً على مقعدٍ في حديقة واشنطن سكوير بارك، أشارت إيما بيدها باتجاه رومالد. انضمّ الفتى إليها، عانقها ومدّ إليها كيساً ورقياً على هيئة صرّة.

- لقد مررت على محلات مأمون واشتريت فلافل. تذوّقي هذه، إنّها وجبة شهيّة ولذيذة!

جلس إلى جانبها وأخذا يفرغان ساندويتشاتهما. خلال سنة واحدة، كان رومالد قد تغيّر وتحوّل. كان الفرنسي الصغير السمين قد أصبح صبيّاً وسيماً، أنيقاً، وطالباً في السنة الأولى في جامعة نيويورك. بعد أن تقاسما المغامرة التي لا يمكن تصديقها، بات الآن هناك رابطٌ قوي يربط بين إيما ورومالد وأصبحا يلتقيان لعدّة مرّات خلال الأسبوع. قدّمت إيما المساعدة إلى رومالد خلال إقامته في مانهاتن وكانت تهتمّ كثيراً بدراسته.

سألت وهي تقضم الساندويتش:

- هل تابعت التفكير في موضوع تخصّصك؟ هل ما رويته لي أوّل أمس، كان عبارة عن دعابة ومزحة؟

- كلا، على الإطلاق، أنا أريد أن أصبح طبيباً نفسانياً. أو رجل شرطة.

- أنت؟

- نعم، اليوم، أعتقد أنّ الكائنات البشرية أكثر أهمية من الحواسيب. حكاياتهم الغرامية، انجذابهم واندفاعهم نحو الانتقام والعنف.

وجّهت إليه ابتسامة رضا.

قالت وفمها مليءٌ بالطعام:

- ساندويتشاتك لذيذة.

قال ممازحاً:

- كنتُ أعتقد بأنّك سوف تجلبين معكِ النبيذ. مع زجاجة من نبيذ بورغوني، كان الطعام سيكون مميتاً من اللذّة!

غمزته إيما بخبث. تابع حديثه:

- حسناً، لقد جعلتني أنتظر بما فيه الكفاية! كيف تمّت رحلتكِ إلى بوسطن؟

ردّت المرأة الشابّة غير راضية:

- لم تجرِ تماماً مثلما كنتُ أتمنى.

- هل قابلتِ ماتيو مرّة أخرى؟

- نعم، لقد جاء إلى سوق خردة التصفية، بل واشترى حاسوبي المحمول. لقد تأثّرتُ كثيراً، كان أمراً غريباً جدّاً أن ألتقي به مرّة أخرى بعد مرور كلّ هذا الوقت.

- لقد تبادلتما الحديث إذاً!

- تحدثنا لوقت قصير.

- أَلم يتعرّف عليكِ؟

- كلا، وكان هذا أفضل! قبل عامٍ من الآن، لم يلمحني سوى

لبضع دقائق وكنتُ أرتدي قبعةً تغطي أذني ورقبتي وجزءاً كبيراً من وجهي.

- هل تركتِ لديه المعلومات المتعلّقة بهويّتك؟

- نعم، ولكنه لم يتّصل بي.

أكّد لها رومالد:

- سوف يفعل ذلك.

ردّت إيما:

- لا أعتقد ذلك. ربّما الأمر أفضل هكذا، في نهاية المطاف.

- ولكن لماذا لم تروي له الحقيقة؟

- هذا أمرٌ مستحيل، أنت تعرف ذلك جيّداً. أوّلاً لأن الحقيقة لا تُصدّق، ومن ثمّ.

- ومن ثمّ ماذا؟

- هل تعتقد بأنّك قد تقع في غرام المرأة التي قتلت أمّ طفلتك؟

- ولكنّكِ أيضاً أنقذتِ حياته، يا إيما!

هزّت المرأة الشابّة كتفيها وأدارت وجهها لكي لا يرى رومالد عينيها وقد التمعت بالدموع.

لم يستمر اضطرابها وانفعالها. كان قد سبق لها وأن سألت صديقها عن عشيقاته. كان رومالد يغرق يومياً في غرام إيريكا ستيوارت، وهي طالبة في قسم الفلسفة في جامعة هارفارد، تكبره سنّاً بثلاثة أعوام، والتي كان قد التقى بها في متاجر فارمرز ماركت في ساحة يونيون سكوير قبل شهر ووقع في غرامها بطريقة جنونية. في البداية، لم تعره الفتاة أيّ اهتمام أو انتباه: مهما كان السبب، ما كانت لتوافق على الخروج مع شابٍّ يصغرها سنّاً.

نجح رومالد في العثور على عنوانها وبناءً على نصائح إيمّا، بدأ

يكتب لها رسالةً كلّ يوم. رسالة «حقيقية»، مكتوبة بقلم حبر على ورقٍ من الشيفون. وإذ لم يكن فنّ الإغواء من مهارات الصبيّ، كان من مهارات إيما، كما في مسرحية **سيرانو دو بيرجراك**، غالباً ما تمسك بالريشة وتكتب الرسائل نيابةً عنه. وفي النهاية، أعطى هذا المشروع الغرامي «على الطريقة القديمة» ثماره. لم تخضع إيريكا للعبة فحسب، بل وقد وافقت على دعوة رومالد: وجبة عشاء في مطعم إمبراتور يوم السبت التالي.

أخبرته إيما بنبرة جادّة:

- أنت تعلم بأنّه يجب الانتظار لثلاثة أشهر لكي يتمكّن المرء من الحصول على طاولةٍ في هذا المطعم.

ردّ رومالد بنبرة مشوبة بخيبة أمل:

- نعم، أعرف ذلك. ولكنني اعتقدتُ أنّ.

- بكل تأكيد سوف أساعدك في الحصول على مكانٍ في المطعم! طاولة جميلة على حافة النافذة وذات إطلالة على مبنى إمباير ستيت!

شكرها بحرارة وسارت إيما معه مشياً على الأقدام إلى أن وصلا إلى مبنى الجامعة.

* * *

بوسطن

الساعة واحدة من بعد الظهر

أنهى ماتيو رياضته في الجري لاهثاً. كان قد جرى لأكثر من ساعة، وقد قام بدورة كاملة حول حوض نهر تشارلز ريفر، مواصلاً الجري إلى أن وصل إلى مباني معهد ماساتشوستس للتقنية قبل أن يعود نحو الحديقة العامّة.

وضع ماتيو يديه على ركبتيه، مقوّس الظهر، واستعاد أنفاسه قبل أن يعبر سيراً على الأقدام مروج حديقة كومون الأقدم في بوسطن. كانت ساقاه ترتجفان وبطنه يُعتَصَر، فلم يستطع أن يخفّف من سرعة دقات قلبه في صدره. ما الذي حدث له؟

لم يكن لهذا أي صلة بالجهد الذي بذله. منذ أن استيقظ في الصباح، كان شعوراً جديداً يغمره؛ إحساسٌ مبهج وغير متوقّع باغته على نحوٍ مفاجئ. مهما فعل، وأينما حلّ، لم تكن إيما لوفنشتاين تغادر أفكاره. كان من المستحيل أن يهرب منها. كان من المستحيل أن يفلت منها. وهذا الحضور الدائم لها في ذهنه جعل منه شخصاً مختلفاً رجلٌ تحرّر من قوقعة صلبة وأصبح قادراً على أن يتوجّه أخيراً نحو الغد والمستقبل. كان الواقع يقفز أمام عينيه.

جلس على مقعدٍ، نظر إلى الزرقة المعدنية للسماء، وإلى انعكاسات أشعة الشمس على سطح البحيرة، وعرض وجهه للريح الخفيفة.

كان أطفال يلعبون من حوله.

كانت الحياة تعود من جديد.

* * *

بعد أن تركت رومالد، استقلّت إيما سيارة أجرة لكي تعود إلى مطعم إمبراتور وأمضت فترة بداية ما بعد الظهيرة مع فريقها في إجراء عملية التطابق بين أنواع النبيذ المقترحة على المدعوين ووجبات مساء عيد الميلاد وليلة رأس السنة الجديدة.

في الساعة الثالثة عصراً، اهتزّ هاتفها المحمول في جيبها. نظرت إليه خلسةً.

من: ماتيو شابيرو

إلى: إيما لوفنشتاين

الموضوع: لعب شريف

عزيزتي إيما،

أنا أرسلُ إليكِ هذه الرسالة من خلال برنامج البريد في حاسوبكِ القديم. إنّه يعمل بشكلٍ ممتاز. وفي سعيي إلى إيجاد ذريعة لكي أتّصل بكِ، فكّرت فعلياً في أن أعطّله، ولكنني عدلت عن هذه الكذبة لكي أفضّل أن ألعب لعباً شريفاً. وبالتالي، لديّ عرضٌ عليّ أن أقدّمه لكِ.

أعرف مطعماً إيطالياً صغيراً في إيست فيليج - مطعم الرقم 5 - في جنوب حديقة تومبكينس سكوير بارك. إنّه يُدار من قبل فيتوريو بارتوليتي وزوجته، وهما كلاهما من أصدقاء طفولتي. أنا أذهب لكي أتناول العشاء في مطعمهما كلّما أزور نيويورك.

لساقية نبيذٍ محترفة وخبيرة، لا أدري ما الذي قد تحتويه قائمتهم لأنواع النبيذ، ولكن إذا كنتِ تحبّين آرانسيني على الطريقة البولونية، واللازانيا بالفرن، والتالياتيلي بالقدير، والكانولي الصقلّي، فلا بدّ أن هذا المطعم سوف ينال إعجابك.

هل ستقبلين الذهاب لتناول العشاء فيه معي هذا المساء؟ في الساعة الثامنة مساءً؟

مات.

أحسّت إيما أنّ قلبها يدقّ سريعاً وقويّاً في صدرها. ردّت على الرسالة مباشرةً:

سوف أكون مبتهجة لذلك، يا ماتيو.

إلى اللقاء هذا المساء إذاً!

ملاحظة: أنا أعشق اللازانيا والآراسيني.

وكذلك حلوى التيراميسو!

* * *

- ألو، الفتى النابغة؟

ردّ رومالد هامساً:

- أنا في الدرس، يا إيما.

- يجب أن تساعدني. اتّصل بموقع آكاهيكو إيمامورا.

- المزيّن؟ مرّة أخرى؟

- نعم، أحتاج إلى تحديد موعدٍ في محلّه بعد ساعتين.

- ولكنّني اتّخذت القرار في أن ألتزم الهدوء وألا أخترق المواقع بعد الآن.

- إمّا أن تفعل هذا الأمر أو يمكنك أن تقول وداعاً لحجزك في مطعم إمبراتور مع إيريكا.

* * *

استبدّت بإيما غبطة ونشوة خفيفتين، وخرجت إلى روكفيلر بلازا وسلكت الجادة الخامسة إلى أن وصلت إلى متجر بيرغدورف غودمان.

شعرت بأنّها في جلد ممثّلة تمثّل دورها للمرّة الثانية، ولكن هذه المرّة، كانت تأمل أن تتمكّن من تغيير نهاية الفيلم. متجاهلةً

البائعات، تنقّلت بين مساند ورفوف المتجر النيويوركي الكبير. حتى وإن كانت الموضة قد تغيّرت بعض الشيء منذ العام الماضي، إلا أنّها مع ذلك عثرت على ما كانت تبحث عنه: معطف من البروكار بنسيجه الحريري المزيّن برسومات مقصّبة بالذهب والفضّة، وكذلك زوج من الأحذية من جلد ثعبان الأصلة، ذات شرائط بنفسجية وكعبين عاليين.

ما إن اشترت حاجياتها، خرجت من المتجر، وبما أنّ الجوّ كان جميلاً، ذهبت سيراً على الأقدام إلى صالون آكاهيكو إيمامورا للتزيين. بعد ساعتين من الزمن، كانت لها التسريحة نفسها التي كانت لها في السنة السابقة: كان شعرها قد رُفِعَ في جديلةٍ أنيقة ملتفّة حلزونياً في مؤخّر رأسها. تسريحةٌ لائقة ورهيفة ومتكلّفة جعلت وجهها مشرقاً وأظهرت جمال عينيها الصافيتين وأنوثتها.

غداً

استقلّت سيارة الأجرة بلا اكتراث لكي تذهب إلى إيست فيليج. في السيارة، أدركت أن يديها كانتا ترتعشان. أخرجت علبة مكياجها وأكملت زينتها بقليلٍ من المسحوق الوردي على وجنتيها وبقلم كحلٍ على حاجبيها ولمسة من أحمر الشفاه المرجاني اللون.

بينما كان سائق سيارة الأجرة يتوقّف أمام مطعم الرقم 5، طفا الشكّ والقلق على السطح. وماذا لو أنّ ماتيو لم يكن موجوداً هذه المرّة أيضاً؟

عادت إيما سنة كاملة إلى الوراء واسترجعت في ذهنها الطريق الذي سلكته.

إلى أيّ حدّ يمكن للمرء أن يُحبط خطط القدر بلا عاقبة؟ ما هو

الثمن الذي ينبغي دفعه لكي يرغب المرء في أن يتحدّى قوانين الزمن ويفلت من براثن القدرية؟

سوف لن تتأخّر في معرفة ذلك. دفعت أجرة السيارة، نزلت منها ودفعت باب المطعم الإيطالي.

كان قلبها يدقّ بقوّة، ومرّت من أمام طاولة الاستقبال من دون أن تتوقّف. كان المطعم دافئاً وحميمياً، تماماً كما كان في ذكرياتها. صعدت درجات السلّم الخشبي الذي كان يؤدّي إلى الشرفة ذات السقف المقبّب. حينما وصلت إلى الشرفة العلوية، تقدّمت نحو الطاولة الموجودة على حافة الشرفة والتي كانت تطلّ على الصالة الرئيسة.

كان ماتيو موجوداً.

كان ينتظرها.

شكراً لكلٍّ من

آنغريد،

إيستيل توزيه، رئيسة سقّائي النبيذ في مطعم موريس.

الدكتورة سيلفي آنجل والدكتور ألكسندر لابروس.

برنار فيكسو وإيديث ليبلون وكاترين دي لاروزيير.

فاليري تايفير، جان - بول كامبوس، برونو باربيت، ستيفاني لو فول وايزابيل دي شارون.

المراجع

حاشية المدخل: وليم شكسبير، **السيدان النبيلان من فيرونا**، فلاماريون، جي إف، 196؛ الفصل الأوّل: تارون ج. تيجبال، **بعيداً عن شانديغار**، لوليفر دي بوش، 2007؛ الفصل الثاني: جملة منسوبة إلى مارلين مونرو؛ الفصل الثالث: ميشيلا مارزانو، مقتبس من مقابلة مع صحيفة **لو جورنال دي ديمانش**، 6 مايو 2012؛ الفصل الرابع: فيرجينيا وولف، **الأمواج**، لو ليفر دو بوش، 2004؛ الفصل الخامس: ستانيسلاف جيرزي ليك، **أفكار جديدة مبعثرة**، ريفاج، 2000؛ الفصل السادس: وليم شكسبير، **بيريكليس، أمير صور**، بيل ليتر، 1967؛ الفصل السابع: باروخ سبينوزا، **الأعمال الكاملة**، غاليمار، إن آر إف، 1955؛ الفصل الثامن: بول موران، **مديح الراحة**، آرليا بوش، 1996؛ الفصل التاسع: فيكتور هوغو، **الأصوات الداخلية**، غاليمار، إن آر إف، 2002؛ الفصل العاشر: جملة منسوبة إلى وليام والاس، داعية الاستقلال الأسكتلندي في القرن الثالث عشر؛ الفصل الحادي عشر: أوفيد، **فنّ الحب**، تارد. إتش. بورتيك، غاليمار، فوليو كلاسيك، 1974؛ الفصل الثاني عشر: جيمس إيلروي، **حصّتي من الظلّ**، تارد. إف. ميشالسكي، ريفاج، 1997؛ الفصل الثالث

عشر: فريدريك نيتشه، **كتاب الفيلسوف**، تارد. إيه. كريمر - ماريتي، فلاماريون، جي إف، 1991؛ الفصل الرابع عشر: سفر الخروج 20: 17؛ الفصل الخامس عشر: مثلٌ صيني؛ الفصل السادس عشر: **مزامير سليمان**، 8، القرن الثاني؛ الفصل السابع عشر: ألكسندر سولجنستين، **يوم في حياة إيفان دينيزوفيتش**، تارد. إل. وجي. كاتالا، بوكيت، 2006؛ الفصل الثامن عشر: جملة منسوبة إلى إليانور روزفلت؛ الفصل التاسع عشر: موريس ماغر، **شهوة غرناطة**، آلبان ميشيل، 1926؛ الفصل العشرون: جملة منسوبة إلى مارلين مونرو؛ الفصل الحادي والعشرون: بول إيلوار، **الأعمال الكاملة**، المجلد الثاني، غاليمار، إن آر إف، 1968؛ الفصل الثاني والعشرون: وليم شكسبير، **أنطوان وكليوباترا**، تارد. جي. لامبان، بيل ليتر، 1967؛ الفصل الثالث والعشرون: كوديرلو دي لاكلو، **العلاقات الخطِرة**، بوكيت كلاسيك، 2009؛ الفصل الرابع والعشرون: ستيفن كينغ، **الخط الأخضر**، تارد. بي. روارد، لوليفر دي بوش، 2008؛ الفصل الخامس والعشرون: آرثور غولدن، **غيشا**، تارد. إيه. هاميل، لو ليفر دو بوش، 2008؛ فصل «إعادة الوقائع»: باسكال ميرسييه، **قطار الليل إلى لشبونة**، تارد. إن. كازانوفا، 10/ 18، 2008.

الفهرس

القسم الأوّل: صدفة اللقاءات

اليوم الأوّل 9

1. وسط الأشباح 11
2. الآنسة لوفنشتاين 29
3. الرسالة الهاتفية 43
4. غرباء في الليل 59

اليوم الثاني 79

5. إبقاء السرّ بينهما 81
6. مصادفة اللقاءات 103

القسم الثاني: المتوازيات

اليوم الثالث 119

7. المتوازيات 121
8. قيامة الأموات 141
9. المسافرون في الزمن 157

القسم الثالث: المظاهر

اليوم الرابع 179

10. اليد التي تُهدهد الطفل 181
11. نوعٌ من الحرب 203

اليوم الخامس 225
12. المرأة الأخرى 227
13. عبور المرآة 243
14. إيكاترينا سفاتكوفسكي 261
15. جراح الحقيقة 281

القسم الرابع: امرأة من اللامكان

16. الأمير الأسود 297
17. الصبي صاحب الشاشات 317
18. النقيب لوفنشتاين 323
19. البيروفيَّة الخالدة 337

القسم الخامس: اختيار الشرّ

اليوم السادس 353
20. الذاكرة الحيّة 355
21. مطارَدة 373
22. زمرة هلسنكي 397
23. خطّ القلب في الكفّ 411

القسم السادس: ما وراء الحدود

24. الأبطال والأشرار 429
25. في وادي الأشباح 445
بعد عام... 467
إعادة الوّقائع 469
شكراً لكلٍّ من 491
المراجع 493

غيوم ميسو

غـداً

هي ماضيه ...

... هو مستقبلها.

تعيش إيما في نيويورك، وهي فتاة في الثانية والثلاثين من عمرها، ما زالت تبحث عن رجل حياتها. يقيم ماتيو في بوسطن، فقدَ زوجته في حادث سير مروّع وهو يربّي ابنته الصغيرة لوحده. تعارفا عبر الإنترنت ورغبة منهما في اللقاء، تواعدا في مطعمٍ في مانهاتن: ففي اليوم نفسه وفي الساعة نفسها، دفع كلّ منهما من جهته باب المطعم، واقتيدا إلى الطاولة نفسها ومع ذلك سوف لن يلتقيا أبداً!

أهي لعبة أكاذيب؟ أهو استيهام أحدهما؟ أهي مراوغة من الآخر؟ سوف يدرك ماتيو وإيما سريعاً أنّهما ضحيتان لواقعٍ تجاوزهما وأن الأمر لا يتعلّق بمجرّد موعدٍ تمّ التخلّف عنه...

مغامرة مثيرة بقدر ما هي ممتعة.
حبكة روائية مُتقَنة إلى حدود الواقعي.
تشويق جهنّمي يؤسِر القلوب.

❖ ❖ ❖

«إنّه تفكيرٌ حقيقي حول الزمن وحول ما يمكننا أن نفعل به... إنّه عملٌ مبهر مكتوبٌ بذكاء حادّ، تُرفَع له القبّعة! إنّها لمتعة كبيرة أن تقرأه!».

برنامج أو فيلد دو لا نوي

«إنّها رواية نفسانية مثيرة، من المستحيل تركها، إنّها تتزلّج ببراعة وإتقان على ما هو رقمي وعلى المكان والزمان».

قناة فرنسا الإخبارية



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com





لوحة الغلاف: Hayden Verry & Paul Gooney / Arcangel Images